بدر شاكر السياب

الأعمال الشعرية الكاملة

تحقيق وتقديم

سمير إبراهيم بسيوني

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة ـ شارع محمد عبده ـ أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر

القاهرة ـ ميدان حليم خلف بنك فيصل ـ شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا

بطاقة فهرسة

اســــم الكتـــــاب	الأعمال الشعرية الكاملة (الجزء الأول والثاني)
تـــــــــأليف	بدر شاكر السياب
تقـــديم وتحقيـــق	سمير إبراهيم بسيوني
الناشــــــــــر	**مكتبة الإيمان ـ مكتبة جزيرة الورد**
رقـــــم الإيــــداع	
الترقــــيم الـــــدولي	

مكتبة الإيمان ـ المنصورة

أما جامعة الأزهر – المنصورة **مكتبة جزيرة الورد ـ القاهرة**

شارع محمد عبده ـ أمام الباب للخلفي لجامعة الأزهر

ميدان حليم خلف بنك فيصل ـ شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا

تقديم

في قرية «جيكور» التي تبعد حوالي ثلاثة كيلو مترات عن أبي الخصيب في جنوب العراق .. وهي إحدى قرى شط العرب ولد «بدر» .

عائلة السيّاب تسكن في «جيكور» وتمتد إلى «بقيع» منذ أجيال .. وقد أصاب الأسرة قديمًا مرض الطاعون ولم يبق منها إلا «سيّاب بن محمد بدران المير» وبدأ هذا الفرع من عائلة المير يسمى «السيّاب» .

وكان أحد أحفاد «سيَّاب» وهو «عبد الجبار مرزوق السيَّاب» ثريًا ، فهو يعمل بتجارة البلح حيث يملك عددًا كبيرًا من النخيل ، وكان يسكن في دار كبيرة وبجانبها دار مخصصة للعاملين في الأرض .

وكانت الدار بمثابة صالون أدبي تكثر فيه المناقشات الأدبية والسياسية وقد زينت جدرانها بصور زعماء العرب أمثال : أبي التمن وسعد زغلول وكمال أتاتورك ، وهذا يظهر مدى وطنية هذه الأسرة .

وكان لعبد الجبار «جد شاعرنا لأبيه» ثلاثة أبناء ؛ الأكبر شاكر [والد الشاعر] ، وعبد القادر ، وعبد المجيد . ولم يتحصل هؤلاء إلا على قسط يسير من التعليم فلم يتجاوزوا مرحلة التعليم الابتدائي ، وهي التعليم المتاح في هذا الجزء من البلاد .

اشترك الأبناء في مساعدة أبيهم في إدارة شئون الزراعة وانفرد «شاكر» إضافه إلى عمله في الزراعة بأعمال الدلالة في موسم التمر ، كما كان يشرف على رعاية نخيل بعض كبار الملاك .

تزوج «شاكر» من «كريمة» ابنة عمه وانتقلت من «جيكور» إلى «بقيع» . وعاشا في منزل الجد الكبير .

كان مولد شاعرنا في عام 1926 . ولم يعرف تاريخ الميلاد الدقيق ، لأن سجل المواليد الذي يُسجّل فيه تاريخ ميلاد الطفل فُقِدَ .

عاش الطفل مع أسرته في بيت جدّه ، لكنه فقد الأم عام 1932 وهو في سن السادسة ، فقد ماتت بعد ولادتها الرابعة ، وأثرَّ ذلك فيه تأثيرًا كبيرًا ، وحين كان يسأل عنها كانوا يقولون له : «بعد غد تعود ، لابد أنْ تعود» .

تكفَّلت الطفل السيدة « أمينة » جدّته لأبيه ، لتعوضه عن حنان الأم التي كان متعلقًا بها تعلقًا كبيرًا .

التحق «بدر» بالمدرسة الابتدائية في قرية «باب سليمان» فقد كانت جيكور آنذاك بلا مدرسة ، وكان الطفل يذهب إليها ماشيًا . وبعد أن أنهى أربع سنوات بها ، انتقل إلى مدرسة المحمودية [1]في «أبي الخصيب» حيث قضى سنتين أخريين .

وعرف بدر في «أبي الخصيب» الشناشيل [2]، وكان المدير يجلس في الغرفة المجاورة للشناشيل ، مما جعل «بدرًا» يستعذب دعوته إلى غرفة المدير [3] ليتمتع برؤيتها .

قرر الأب الزواج عام 1935 .. وكان ذلك الشرخ الثاني الذي أصاب نفسية الطفل الصغير .. ويبدو أن هذا الزواج كان ضد رغبة الأسرة كلها خاصة الجد . حيث أخذ «شاكر» زوجته وعاش بعيدًا عن منازل أسرة السيّاب .. وبذلك أصبح الأب : هو الجد ، والأم : هي الجدّة .

---

(1) كانت أحد قصور «محمود باشا عبد الواحد» وهو من كبار الملاك في «أبي الخصيب» . وقد تبرع بها لتكون مدرسة .
(2) الشناشيل : هي شرفة خشبية مزركشة ذات نوافذ زجاجية ملوّنة تقف خلفها الصبايا للفرجة ، ولا يراهن أحد .
(3) مقدمة الديوان (ص11) . ط. دار العودة .

في بيت كما قلنا سابقًا كان يغص بالمناقشات الأدبية والاجتماعية والسياسية ، تزينه صور الزعماء تربى الطفل .. وأخذت موهبته الشعرية في الظهور .. لقد بدأ نظم الشعر بالعامية .. ثم بالفصحى ، وكانت بداياته مع شعر الوصف ـ وصف الطبيعة ـ أو التعليق على الأحداث الجارية ، أو السخرية من أصحابه . ثم انتقل إلى الشعر الوطني ، فكتب قصيدة عن «معركة القادسية» أعجب بها مدّرسيه وجعله يلقيها في حفل مدرسي .

في هذه المرحلة من عمره ، أصدر صحيفة مدرسية أسماها «جيكور» مقرها منزل «الأقنان» [4]. وموزعوها أترابه من الأطفال [5].

انتهى «بدر» من دراسته الابتدائية بتفوق ثم انتقل إلى «البصرة» لمواصلة تعليمه الثانوي ، وكانت إقامته بالبصرة مع جدته لأمه .

ولم يشغله إقامته في المدينة عن «جيكور» ففيها «وفيقة» إحدى بنات عمومته . وهي حُبّه الكبير الذي ضاع منه .. فقد تزوجت .. وكان ذلك جرح دام لم ينسه أبدًا .. وكذلك لم ينس رعيه لخراف جدّه .. وحبه لزميلته في الرعي «هوّيل» واسمها الحقيقي «هالة» .. وذكرها في شعره .

التحق في الثانوي بالقسم العلمي ، وهو الشاعر صاحب الميول الأدبية .. وبدأ إنتاجه الشعري يغزر ، وقد نشر الكثير منه في «البواكير» ومن هذه القصائد ، قصيدة «على الشاطئ» .

تزامل معه في هذه الفترة «محمد علي إسماعيل ، وخالد الشواف ، ومحي الدين إسماعيل» ، وكان لهم نشاطات أدبية . فمنهم الشاعر والقاص والناقد ، وكانت تقام بصفة مستمرة ندوات أدبية ، وكان لهذه الندوات والمناقشات الأدبية والفنية التي تجري فيها الأثر الكبير في صقل موهبة الشاعر .

---

(4) هو المنزل الذي يعيش فيه العاملون في الزراعة عند جدّه .

(5) مقدمة الديوان (ص12) .

في ذلك الوقت 1941 قامت حركة «رشيد عالي الكيلاني» التي تهدف إلى تحقيق استقلال البلاد عن الإنجليز ، ولكن تفشل الثورة ، وأعدم الكثير من الشرفاء .

التهبت مشاعر فتانا الشاعر ابن الخمسة عشر ربيعًا .. كيف لا .. وقد تربى في بيت يمجد الوطنيين .. ويقول[6] :

رجــال أبــاة عاهــدوا الله أنّهـم	مضحون حتى يرجع الحق صاحبه
أراق عبيــد الإنجليــز دمــاءهم	فيــا ويلهــم ممــن تخــاف جوالبــه
أراق عبيــد الإنجليــز دمــاءهم	ولكــن دون الثــأر مــن هــو طالبــه
أراق ربيــب الإنجليــز دمــاءهم	ولكــن في بــرلين ليثــا يراقبــه [7]
«رشـيد» [8]يــا نعــم الــزعيم لأمــة	يعبــث بهــا عبــد الإلــه وصــاحبه

لقد كان هناك جرحان يؤلمان «بدرًا» .. الاحتلال الإنجليزي وأحوال أهل وطنه الذين يعيشون في بؤس وفقر شديدين .. هذا فضلاً عن طبقة المرابين الذين كانوا يمتصون الذين يلجأون إليهم .

كان ذلك يلهب شاعرية بدر .. ويشهد عام 1941 وهو آخر سنة في المرحلة الثانوية إنتاجًا شعريًا غزيرًا .

وما أن ينهى الشاعر مرحلته الثانوية حتى تتوالى عليه المصائب .. تتدهور أحوال «الجد» المالية .. ويضطر إلى الاستدانة ، وليس أمامه إلى المرابين فتزداد مشاكله .. وفي نهاية العام 1942 تموت جدته .. وها هو كلما تمر الأيام يفقد أحد أحبته .

وعلى الرغم من ظروف «الجد» القاسية ، إلا أنه يقرر أن يكمل الفتى تعليمه الجامعي .. فيقرر إرساله إلى بغداد .. ويلتحق السيّاب بدار المعلمين عام 1943 ذلك لأن الدراسة بها مجانية .. ونرى الطالب «بدرًا» يصحح المسار ويلتحق بقسم اللغة العربية بها .

---

(6) من قصيدة «شهداء الحرية» ديوان : البواكير .

(7) في هذا الوقت كان «هتلر» يواصل انتصاراته ، وكان الشرقيون فرحون بانتصاراته على فرنسا وإنجلترا .

(8) يقصد «رشيد عالي الكيلاني» الذي قام بالثورة .

إنّ هذه الرحلة الطويلة من «جيكور» إلى «البصرة» إلى «بغداد» أرهقت مشاعر فتانا .. فقد خلالها الأم الحبيبة ، والأب الذي هجر الأسرة ، والجدة الحنون .. وخسر الجد أمواله .. لم يبق له في بغداد .. إلا أن ينهل من العلم ما يستطيع .. وأن يندمج في هذا المجتمع .. ولا يملك سوى أشعاره .

بدر في بغداد :

كانت بغداد غير «جيكور» أو «البصرة» فهي تحتضن الكثير من الشعراء والأدباء ، والصحفيين ، وبها الكثير من الجامعات الثقافية ، وقد شارك الشاعر في كل هذه التجمعات ، وتعرّف على ناجي العبيدي «صاحب جريدة الاتحاد» ، وراح ينشر له أشعاره كما شارك في أنشطة جمعية الشباب المسلمين .

وجاء بدر إلى بغداد شابًا وطنيًا ، لم يكن منتميًا إلى حزب ، ولا كان منحازًا إلى فلسفة . وظلّ كذلك مدة من الزمن يرجح أنّها امتدت إلى سنة 1945 .

يقول «محمود العبطة» عن بدر : «كان هادئًا وديعًا ، ولم يرتفع صوته في هذه الأيام (44-45) عندما كنا نتراشق ونتلاسن وننقسم إلى معسكرين : منّا من يؤيد الحلفاء ومعسكر الديموقراطية ، ومنا من يمجد النازية وهتلر . وإذا ما احتدم النزاع - وكثيرًا ما يحتدم - يستأذن في الذهاب إلى القسم الداخلي من الدار ، تاركًا النزاع لأهله [9].

(9) بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق (ص9) .

التحاقه بالحزب الشيوعي :

يؤكد «سليمان العيسى» ـ زميله في دار المعلمين ـ أن بدرًا كان يكتب قصائد يسارية في هذه المرحلة ، ولكنه كان في بعض الأحيان يسب الشيوعيين . وكان في أحيان أخرى يعلن له ـ وهو قومي ـ أنّه يؤيد آراءه .

ويؤكد «محمد علي الزرقا» ـ وهو زميل لبدر ـ أنّه لم يكن عضوًا في الحزب الشيوعي حتى سنة 1945 . عندما غادر الزرقا بغداد ، وأن بدرًا كان عضوًا مؤازرًا يحضر الاجتماعات ، ويضيف «الزرقا» أنّ بدرًا كان يخلط بين الفكر والرفض ، وأن علاقته كانت مع جماعة القاعدة من الشيوعيين .

*** فكيف أصبح بدر شيوعيًا إذن؟**

كانت له علاقاته مع الشيوعيين في الجامعة . وكانت له زميلة تدعى «لميعة» تزوده بالمنشورات . وكان شيوعي إيراني يتصل ببدر في قريته ويحدثه عن الشيوعية والرفيق فهد . وقد أعجب بدر بصديقه الشيوعي وما لبث أن قبل التوقيع على استمارة الانتساب ، هو وعمه عبد المجيد ورفيق ثالث لهما . يذكر بدر هذه الحادثة ، ولكنه لا يذكر متى حصل ذلك ، ولا أية تفاصيل أخرى ويرجح أن ذلك حصل سنة 1945 ، ويبدو أن عمادة الكلية كانت تعتقد أنه عضو في الحزب الشيوعي عندما قررت فصله في الثاني من يناير سنة 1946 ، بسبب تحريضه على إضراب . أما قوله عن نفسه : «وصرنا نبث الدعاية لروسيا وللشيوعية جنبًا إلى جنب مع الدعاية للنازيين . سوف ينتصر المحور على الحلفاء وسوف تنتصر روسيا معه ، وستعم الشيوعية العراق فبشرى للفقراء ، بشرى للفلاحين الجائعين .. إلخ» فلا يدل على انتسابه قبل هذا التاريخ ، بل يدل دلالة قاطعة على المرحلة التي سبقت الانتساب ، والتي كانت تعبّر عن الرفض والتمرد أكثر مما كانت تعبِّر عن الانتماء : إنها المرحلة السابقة على الانتماء .

عاد بدر إلى بغداد في مايو بحثًا عن عمل . وكانت بغداد تمور بنشاط سياسي غير عـادي . ذلـك أن الحرب كانت قد انتهت ، وعمدت السلطة في العراق إلى السماح ببعض الحريات السياسية مثل تكوين الأحزاب وإنشاء الصحف . وحاول الشيوعيون أن ينتزعوا اعترافًا رسميًا بهم فلم يفلحوا . وكان أن لجأوا إلى إنشاء حزب التحرر الوطني برئاسة «حسين الشبيبي» ، وأصبح بدر عضوًا في هذا الحزب . ثم ما لبث أن انتخب رئيسًا لاتحاد الطلبة في دار المعلمين .

وصادف في هذه الأثناء أن أخذت بغداد تغلي بمظاهرات ضد السياسة البريطانية في فلسطين ، فشارك بدر في هذه المظاهرات (يونيو 1946) .

وردّت السلطة على المد الجماهيري بسياسة قمعية ، فاعتقلت الكثيرين ، وأغلقت عددًا من الصحف . وكان بدر من بين المعتقلين .

وعاش بدر تجربة السجن المرَّة لأول مرة ، في «بغداد» ثم في «بعقوبة» ، حيث قضى حتى منتصف الصيف في زنزانة رطبة ، ينام على صفائح البنزين التي تركها له السجين السابق .

وظل بدر حتى تخرج سنة 1948 ، يشارك في المظاهرات الوطنية ويلقي القصائد في المهرجانات الجماهيرية[10].

بدر مدرسًا :

تخرّج «بدر» من دار المعلمين عام 1948 ، وعُيّن مدرسًا للغة الإنجليزية في ثانوية الرمادي . وكان هذا العالم يغلي بالأحداث منها : حرب فلسطين وما حدث من هزيمة للعرب ، كما كانت ظروف العراق الداخلية صعبة ، فقد استقالت وزارة «الباجهجي» في 6 يناير 1949 ، بعد ستة أشهر فقط من توليها الوزارة ، وجاء بعده «نوري السعيد» وكانت ذكرى الثورة قريبة ـ 27 يناير 1949 ـ فقررت حكومة «نوري السعيد» التبكير بالعطلة ، فقرر بدر أنْ يعود إلى «جيكور» ، فإذا به يسمع أثناء استعداده للسفر عن فصله من عمله في التدريس . ويسافر إلى قريته [11].

(10) مقدمة الديوان . ط. دار العودة (ص20، 21) .

(11) عندما وصل أخبره والده أن الشرطة سألت عليه ، وطلب منه أن يختفي في مكان لا يصلون إليه فيه . وكان الجو شديد المطر . فتمهل ظنًا منه أن الشرطة سيعوقها هذا المطر ، وكان مخطئًا في رأيه .

وفي اليوم التالي من وصوله يتم القبض عليه ونقله إلى بغداد .

كانت حكومة «نوري السعيد» قد أعلنت حالة الطوارئ وصعَّدت حملتها ضد الشيوعيين ، واعتقلت المئات منهم ، وأعدمت أربعة من قادتهم .

خرج «بدر» من السجن . ليجد أنَّه أصبح بلا وظيفة ، فقد فصل عن العمل بتاريخ 25 يناير 1949 .. وعندما عاد إلى «جيكور» وجد عمّه «عبد المجيد» مسئول الحزب في «أبي الخصيب» مسجونًا . وتولى المسئولية مكانه في الحزب «علي عبد اللطيف ناصر» . وكان رأي «بدر» فيه سيئًا ، قال عنه في إحدى مقالاته : «هو فلاح من ذوي قرباي ، سخيف غاية السخف ، جاهل غاية الجهل ، وإن كان يدعي العلم والمعرفة» .

تمكن «بدر» أن يحصل على عمل بسيط «ذواقه» في شركة التمور العراقية ، ثم انتقل بعد ذلك للعمل في شركة النفط العراقية .

نشاطه الحزبي :

أمر الحزب تنظيمه العمالي في الشركة بتنظيم إضراب لتحسين أحوالهم المادية .. وعلى الرغم من أنّ «بدرًا» كان من موظفي الشركة وليس عاملاً ، إلا أنّه تضامن معهم وأشرك الموظفين من زملائه معه في الانضمام للإضراب ونجح في ذلك .. وطالت مدة الإضراب .. وعانى العمال من ذلك كثيرًا بسبب قلة مواردهم .. بل ونفاذها عند الكثرة .. فقام «بدر» مع زملائه من الموظفين في التفاوض مع مديري الشركة واستطاعوا أنْ يقنعوهم بتلبية مطالب المضربين .

لم يقض «بدر» عامًا وبعض عام ، حتى ترك عمله بشركة النفط ، ورحل إلى بغداد عام 1950 . فعاد إلى أصدقائه القدامى : «خالد الشوّاف»، و«محي الدين إسماعيل» .. وكان البحث عن عمل مناسب مستحيلاً ، واضطر آخر الأمر للعمل كأمين مخزن في شركة لتعبيد الطرق ، ولم يستمر به طويلاً .. بل راح ينتقل في أعمال أخرى كثيرة ، وكان آخرها وظيفة في «مديرية الأموال المستوردة» في أغسطس 1951 ، وكان راتبه خمسة عشر دينارًا . وعلى الرغم من قلة هذا الأجر إلا أنه كان يوفر له دخلاً ثابتًا يمكن الاعتماد عليه .

حركة مصدق في إيران وتأثيرها على المنطقة :

ما أن أمم مصدق في إيران شركة النفط . حتى أجمعت المعارضة في البرلمان العراقي تحت ضغط الجماهير العراقية على المطالبة بتأميم شركة نفط العراق ، بل وأي شركات أجنبية أخرى ، فقامت الحكومة العراقية إرضاء للمعارضة بالتفاوض مع الشركة لتعديل الاتفاقية معها وتوصلت إلى حصول العراق على نصف الأرباح .

لم تقنع المعارضة بهذا الاتفاق . فقامت المظاهرات والإضرابات ولجأت حكومة «نوري السعيد» إلى قمع هذه الحركة ولكنها فشلت فاستقالت في يوليو 1952 .

جاءت حكومة «مصطفى العمري» فقدمت المعارضة إلى الوصي مجموعة من المطالب منها : [حق الانتخاب المباشر ـ تحديد ملكية الأراضي ـ إلغاء معاهدة 1930] .

لم تستجب السلطة لهذه المطالب . فقررت المعارضة أن تقاطع الانتخابات المقبلة إذا لم يقر قانون الانتخابات المباشرة . وتصاعدت حدة المظاهرات ، والمواجهات . وكان من الطبيعي مشاركة شاعرنا في هذه المظاهرات .

استدعى الجيش لتسلم السلطة ، وعين «نور الدين محمود» رئيسًا للوزراء ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وبدأت حملة اعتقالات واسعة .

قرر «بدر» ترك العراق . وكان أول بلد فكّر فيه هو «إيران» . وتنكّر في زي أعرابي وذهب إلى قريته أولاً «جيكور» وقام أحد المهربين بنقله إلى المحمرة «خرّمشهر» .

لم يسعد شاعرنا بالإقامة في إيران فلم يمكث بها إلا شهرين وبضعة أيام حتى فكّر في الانتقال إلى الكويت ، فساعده رفاقه من حزب «تودة» وزودوه بجواز سفر إيراني ، دخل به إلى الكويت ، وكان ذلك في ديسمبر عام 1953 ، وزامله في هذه الرحلة صديقه «محمد حسين» .

لم يكن «بدر» أول من هرب إلى الكويت .. فعندما وصل وجد مجموعة من الشيوعيين فرّوا من العراق خوفًا من الاعتقال .

وكان العراق يداعب خياله .. فلم تكن إقامته بالكويت كما كان يتوقع [12]، وساءت حالته النفسية يقول مصورًا حنينه إلى بلده [13]:

أعلى من العباب يهدر رغوة ، ومن الضجيج

صوت تفجَّر في قراءة نفسي الثكلى : عراق

كالمدِّ يصعد ، كالسِّحابة ، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي : عراق

والموج يعول بي : عراق . عراق . ليس سوى عراق!

البحر أوسع ما يكون ، وأنت أبعد ما تكون .

تُوِّج «فيصل الثاني» ملكًا على العراق في مايو 1953 . وتقلّد «فاضل الجمالي» رئاسة الوزارة ، فعاد «بدر» من الكويت . ولم يمكث بها سوى ستة أشهر ، وتوجّه أولاً إلى قريته «جيكور» ثم إلى «بغداد» حيث النشاط الأدبي .. والأصدقاء . فالتقى بـ«محي الدين إسماعيل ، وعبد الوهاب البياتي ، وخالد الشواف ، ومحمود العبطة ، وآخرين» [14].

التحق شاعرنا بوظيفة في جريدة الدفاع وكان يصدرها «صادق البصام» ، ثم ترك العمل بها وانتقل إلى «مديرية الاستيراد» في ديسمبر 1953 وأقام في «الأعظمية» . ولم يكن قد تزوج بعد . فاستدعى عمته «آسيا» لتعيش معه ، وتدبر له شؤون البيت .

---

(12) أقام هو وصديقه محمد حسين مع مجموعة من الشيوعيين الفارين من العراق مثله تختلف مهنهم وثقافتهم وهواياتهم . وكان من بينهم ثلاثة مصابون بالسل . وكانت مهمته أن يقوم بالأعمال المنزلية . وقد عمل خلال تواجده بالكويت موظفًا في شركة كهرباء الكويت .

(13) من قصيدة «غريب على الخليج» . من ديوان «أنشودة المطر» .

(14) مقدمة ديوان «السيّاب» ناجي علوش .

تطور العلاقات مع الحزب الشيوعي :

كانت علاقات «بدر» بالحزب الشيوعي منذ انضم إليه غير قوية ، وكانت هناك مجموعة من العوامل تحكم على هذه العلاقة بالإحباط ، ومن هذه العوامل[15] :

(أ) ما يتعلق بشخصية بدر :

إن بدرًا شاعر ، وهو ابن فلاح ، ولقد كان «فرديًا» مفرط الحساسية ، «قوميًا» مثل كل المثقفين من أبناء البرجوازية الصغيرة ، «مثاليًا» في تكوينه النظري . ولم يكن يستطيع أن يكون شيوعيًا ، إلا إذا كانت الشيوعية اندفاعًا سياسيًا وحماسة عاطفية .

وكان نحو هذه المشاعر ، وهذه الاتجاهات عنده يزيد من اختلافه مع الشيوعيين .

(ب) وكان هناك أيضًا معاناته الشخصية مع بعض الشيوعيين :

من ذلك احتكاكاته ومهاتراته مع زملائه في الكويت ، كما روي فيما بعد ، واحتكاكاته مع أحد الشيوعيين الإيرانيين خلال زياراته الثانية لإيران .

(ج) وكان هناك اختلال في الخط العام :

بعد مقتل «فهد» خاصة ، وكان من ذلك ، مثلاً الموقف في إيران من «مصدق» ، والموقف في العراق من قضية فلسطين . ثم كان هنالك مواقف الشيوعيين من اتجاهات بدر الجديدة : قراءته للأدب البرجوازي ، إعجابه الشديد بشكسبير ، اتجاهه نحو إليوت ، وبداية اهتماماته «العربية» .

يقول خالص عزمي : «كنا نتردد كل ليلة على المجلة . انقطع بدر فترة ، بسبب السفر فيما أتصور ، ثم عاد ولديه تحول جذري في أفكاره جعله ينفر من أي تجمع سياسي . كان منكمشًا آنذاك ولم يذكر الأسباب» .

إنّ شاعرنا يعيش مرحلة جديدة ، إنه ينهي التزامه الشيوعي الذي استمر سنوات من حياته . وكانت سنوات شاقة وغنيّة .

وكان بدر يوقع كل عام نداء أنصار السلام ، إلاّ أنه لم يوقعه سنة 1954 .

---

(15) مقدمة ديوان «السيّاب» ناجي علوش .

زواجه :

تزوج شاعرنا في 19 يونيو 1955 في البصرة من «إقبال» وهي أخت زوج عمه «عبد القادر» . وكانت تعمل بالتدريس . هذا الزواج زاد من أعباء بدر المادية . وإن قلل من ارتياده الحانات والمقاهي وهكذا ضاعف الزواج من مشاغله . لقد كان يأمل أن تعينه زوجه على تحقيق مآربه وطموحاته ولكن هذا لم يحدث .. وليس هذا عيبًا في الزوجة . ولكن «بدرًا» اعتاد على العيش وحيدًا .. لم يتح له قبلاً من يهتم به .. أو يسأله أين تذهب ، ولماذا تأخرت؟ كان فرديًا طوال حياته .. لهذا كان الزواج قيدًا عليه .. ضاعف من معاناته .

نشاطه الإبداعي والثقافي :

حين بدأ جيل «السيّاب» يقرأ الشعر ويكتبه كان شعر الرومانسية العربية - ممثلاً في نتاج «الشابي» ومدرسة «أبولو» ممثلة في «ناجي وعلى محمود طه والهمشري» - هو النموذج الأعلى الذي كان يطمع شباب هذا الجيل أن يحاكيه ، وينضوي تحت لوائه ، غير أنّ ثمة اختلاف في أسباب تبني كل من الجيلين للرومانسية ، فإذا كنا نفترض أنها في الثلاثينات والأربعينات كانت تعبيرًا عن أحزان الفرد العربي في مرحلة الانهيار الشامل ، وخيبة الآمال التي أصابت الوطن العربي في أعقاب الحرب العالمية الأولى .. وتضاعفت هذه الخيبة في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ثم كانت نكبة فلسطين .

إنّ رومانسية السيّاب وجيله ، وإن انبثقت من امتدادات ذلك الواقع إلا أنّها تميزت إلى جانب ذلك بأنها مرحلة عابرة في حياة ذلك الجيل تجاوزها فيما بعد . ومع ذلك فليست رومانسية السيّاب نسخة مكررة لرومانسية «علي محمود طه» - كان السيّاب يتخذ من هذا الشاعر مثله الأعلى - فإن ثمة فروقًا لا ينبغي تناسيها تقوم بين الشاعرين ؛ هي :

- فروق بين جيل وجيل .

- فروق بين نظرة جيل علي محمود طه إلى الواقع ، ونظرة السيّاب إلى امتدادات هذا الواقع .

- فروق بين نفسية الرومانسي الهادئ الذي يستعذب الألم ، وبين نفسية الرومانسي- الساخط الذي لا يقنع بالإخفاق[16].

---

(16) عبد الجبار عباس - الحب والمرأة في شعر السيّاب - مجلة الآداب . السنة 14 - العدد الثاني فبراير 1966 (ص5) .

يقول في موضع :

أطــــلى عــــلى طـــــرفي الـــــدامع   خيــــالاً مـــن الكوكـــب الســـاطع
وظـــلا مـــن الأغصـــن اللاعبـــات   عــــلى ضـــفة الجـــدول الـــوادع
وطــــوفى أناشـــيد في خــــاطري   ينـــاغين مـــن حبـــي الضـــائع

ولكن ثمة قصائد أخرى تكشف عن أنّ السيّاب ـ خلافًا للرومانسيين . لم يكن يستمرئ الفشل في الحب ، فهو إذا ما أخفق في علاقته بالمرأة يقول :

أنـت الفراشـة مـا تهـوى سـوى لهـب   فليعشـق الـدم واللحـم الأخسـاء
ولتشهد الكاعـب الحسـناء مصرـعها   لــو أنّهـا في الغـد المنكـود حسـناء

وليس ثمة تناقض بين هذا الموقف ، وبين اقتناعه بأن تطل المرأة الحبيبة على طرفه الباكي ، ولكنهما موقفان يعبران عن وجهين متكاملين لحالة واحدة ، فهو تارة رومانسي ـ مخلص لتقاليد الرومانسية العربية في القناعة والتضحية ونكران الذات ، حتى إذا لم يعد يحتمل الحرمان جنح إلى الإقناع النفسي بتصوير الحبيبة لحمًا يربأ الشاعر بنفسه أن يعشقه كالاخساء [17].

لقد جاء السياب في وقت كانت الأمة العربية تعاني من الاحتلال ومن بدء ضياع فلسطين ، وهزيمة قاسية تتجرعها لهذا فلم تكن رومانسية وطن يتقدم نحو الازدهار ، بل كانت رومانسية وطن يعيش مرحلة تخلخل سياسي واجتماعي ، وتعاني أكثرية الشعب فيه أقسى أنواع الاضطهاد والحرمان ، والرومانسية هنا ليست مترفة ، ليست تهويمات برجوازية ـ صناعية ـ صاعدة ، إنّها رومانسية برجوازية صغيرة مذلة مهانة محرومة ، ترزح تحت وطأة تقاليد اجتماعية قاتلة ، وتجابه تخلف مجتمع شبه إقطاعي . ومن هنا كانت الرومانسية جزءًا من الثورة السياسية الاجتماعية ، فتحولت من تبرم إلى رفض . وتجاوزت الضبابية والغموض ـ إلى حد ـ لتطرح قضية التغيير الجذري للمجتمع [18].

---

(17) مصدر سابق (ص5) .

(18) بدر شاكر السياب ـ ناجي علوش ـ الآداب ـ السنة 14 ، العدد الثالث ـ مارس 1966 .

يعتبر «الزهاوي» من المجددين ، فدعا «إن يحافظ الشاعر في قصيدته على البحر ، سواء أكان من بحور الشعر القديمة ، أم الجديدة ، وأن ينتقل بعد كل بضعة أبيات إلى روي جديد ؛ فإن القصيدة لا تخلو من مطالب مختلفة مع مناسبة بعضها [19]. وسمي الشعر ـ الذي يهمل القافية ويكتفي بالوزن ـ بالشعر المرسل . وأيّد رأيه بقصيدة ، منها :

لموت الفتى خير له من معيشة	**يكون بها عبئًا ثقيلاً على الناس**
يعيش رخى العيش عشر من الورى	**وتسعة أعشار الأنام مناكيد**
أما في بني الأرض العريضة قادر	**يخفف ويلات الحياة قليلا**
أفي الحق أن البعض يشبع بطنه	**وأن بطون الأكثرين تجوع**
أسائلتي عن غاية الخالق اسكني	**فما لي على هذا السؤال جواب** [20]

أما الرصافي فهو يستحسن «الشعر المنثور» إلا أنّه لا يفضله على الشعر المنظوم .. يقول : «لا يجوز أن يفضل المنثور بكون مجاله أفسح وأوسع من مجال الشعر المنظوم ، بسبب تقيد هذا بالوزن والقافية وإطلاق ذاك منهما» .

---

(19) من محاضرة ألقاها الزهاوي سنة 1922 ، ونشرت في جريدة « العراق ».

(20) ديوان الزهاوي (ص31) ـ القاهرة 1924.

ويرى «شكري الفضلي» ـ العراق ـ أن التسمية لهذا الشعر هو «الشعر المرسل» [21] وكتب قطعة من شعره «المرسل» ، عنوانها «حمامة وهرّة» ، يقول فيها :

كانت تنوح حمامه	والصبح مرآه أوكار
فتريك حاجتها إلى	ألم التآلف والمعاش
حنت إلى إلف لها	ثم ابتغت أكلاً وضربا
سر الطبيعة كامن	في قلبها الحر الصغير
لكنها لم تدر ما الأ	جل المتاح وما الفناء
فهوت إليها هرة	في سرعة السهم المصيب
فتخبطتها بين أنياب	وأظفار حداد
وكأنما قتل الحمامة	لم يبشرها بموت
هذي الحياة وسيلة	للموت ليتك لم تكنها

(21) جريدة «العراق» ـ 4 يونيو 1925.

المازني و« الشعر الطلق » :

يسمى المازني تجديده في الشعر بـ«الشعر الطلق» ونشر قصيدة بعنوان «محاورة قصيرة» [22] ، منها :

لم أكلمه ، ولكن نظرتي

سألته : أين أمك؟

أين أمك؟

وهو يهذي لي على عادته

مذ تولت ـ كل يوم!

كل يوم!

فأنثنى يبسط من وجهي الغضون

كذلك هناك محاولات الدكتور «لويس عوض» في «بلوتو لاند وقصائد أخرى» ، وترجمة «علي أحمد باكثير» لمسرحية شكسبير .. وهذه المحاولات ظلت سنوات دون نشر ، حتى صدرت سنة 1947 .

وتعتبر محاولات الدكتور لويس عوض جادة وهامة لأنّها تخطت مفاهيم الشعر العربي تخطيًا نهائيًا ، إذ أنه حاول أن يبتكر أوزانًا جديدة سواء بالاستفادة من العروض العربي ، أو بالاستفادة من العروض الإنجليزي ، كما حاول أن يحرر الشعر من اللغة الجامدة . ويضم الديوان قصائد فصيحة ، وقصائد عامية ، وقصائد موزونة وأخرى غير موزونة .

(22) مجلة «الحرية» في 15 مايو 1942م .

على صفحات الآداب [يوليو 1954، ويناير 1955] .نوقشت مسألة الريادة واعترف السيّاب لباكثير بالريادة .

تروى «نازك الملائكة» أنّها نظمت قصيدتها «الكوليرا» في 27 أكتوبر 1947 ونشرت في ديسمبر 1947 ، ونشر «بدر» ديوانه «أزهار ذابلة» في منتصف ديسمبر 1947 وبه قصيدة «هل كان حبًا» علّق عليها في الحاشية بأنها من الشعر المختلف الأوزان والقوافي [23]. ويذكر «بدر» أنّ ديوانه «أزهار ذابلة» طبع في مصر وأنّه وصل إلى العراق في يناير 1947 ، وأنّ قصيدة «هل كان حبًا» المكتوبة على طريقة الشعر الحر قد كتبت قبل طبعه بما لا يقل عن شهرين [24].

ولقد نشرت قصيدة «هل كان حبًا» في مجموعة «أزهار وأساطير» عن دار مكتبة الحياة سنة 1960 عندما كان بدر يعالج في بيروت . وأرّخ القصيدة بتاريخ 29 نوفمبر 1946 . ويذكر بدر أيضًا أنّه نشر خمس قصائد من «الشعر الحُر» في الفترة الواقعة بين ظهور «أزهار ذابلة» ، و«الكوليرا» ولكن «بدرًا» لا يذكر أسماء هذه القصائد ، ولا أين نشرت . ومن المفروض أن تكون قد نشرت خلال عام 1947 وبالبحث لم نجد قصائد «حرّة» في أي مجموعة من مجموعاته تحمل تاريخ عام 1947 ، بينما يوجد عشر قصائد «حرة» يعود تاريخها إلى عام 1948 ، وهي بالترتيب : [أساطير في 24/ 3/ 1948 ـ سراب في 27/ 3/ 1948 ـ اتبعيني في 21/ 4/ 1948 ـ نهاية في 26/ 5/ 1948 ـ في القرية الظلماء : 20/ 6/ 1948 ـ سوف أمضي : 30/ 6/ 1948 ـ أغنية قديمة : 20/ 7/ 1948 ـ في ليالي الخرف : 17/ 9/ 1948 ـ في السوق القديم : 3/ 11/ 1948 ـ اللقاء الأخير : 1948] .

وعلى الرغم من هذا فإن موضوع الأسبقية هذا يدور حوله لغط الكبير . ولكنّا نعود ونردد مقولة «السيّاب» : «ومهما يكن فإن كوني ، أنا ، أو نازك الملائكة ، أو علي أحمد باكثير ، أول من كتب «الشعر الحديث» أو آخر من كتبه ، ليس بالأمر المهم ؛ وإنما الأمر المهم هو أن يكتب الشاعر فيجيدُ فيما كتبه ، ولن يشفع له ـ أنّه كان أول من كتب على هذا الوزن ، أو تلك القافية» [25].

---

(23) قضايا الشعر المعاصر (ص23، 24) ، مكتبة النهضة ـ بغداد .

(24) مجلة الآداب ـ عدد يونيو 1954 (ص69) .

(25) مقدمة الأعمال الكاملة للسياب .

***المراحل التي مر بها السياب بعد «الرومانسية»

أولاً : [الواقعية الاشتراكية][26] :

أصبحت الأسطورة في هذه المرحلة جزءًا من القصيدة ، ومثال ذلك قصيدة «المومس العمياء»[27] فهي تزخر بالأساطير .. وتقتبس من القرآن .. ومن التاريخ :

*** كعيون «ميدوزا»[28] تحجّر كل قلب بالضغينة**

وكأنها نذرٌ تبشر أهل «بابل» بالحريق

*** «قابيل» أخف دم الجريمة بالأزاهر والشُفوف**

*** أحفادُ «أوديب» الضرير ووارثوه المبصرون**

«جوكست» أرملة كأميس ، وباب «طيبة» ما يزال

يلقى «أبو الهول» الرهيب عليه ، من رعب وظلال

*** لا تنقلن خطاك فالمبغى «علائيٌّ»[29] الأديم**

*** وطلول مقبرة تضُمُّ رفات «هابيل» الجنين**

سور كهذا ، حدثوها عنه في قصص الطفولة :

«يأجوج» يغرز فيه من حنقٍ أظافره الطويلة

ويعض جندلهُ الأصمَّ ، وكفُّ «مأجوج» الثقيلة

---

(26) ناجي علوش - بدر شاكر السياب - الآداب - السنة 14 - مارس 1966 .

(27) من ديوان أنشودة المطر (1960) .

(28) ميدوزا : أشهر مسوخ «غورغونات» في الميثولوجيا اليونانية ، لها شعر من الثعابين ، منظرها مميت ، كل من وقع نظره عليها ينقلب إلى حجر ، قطع رأسها «بيرسه» ، ومن دمها ولد «بيفاس» .

(29) نسبة إلى أبي العلاء المعري (973-1057) . ولد بـ«معرة النعمان» هو شاعر فيلسوف ، ويميل إلى التشاؤم . زار بغداد ، ثم عاد واعتزل بمنزله فسمي «رهين المحبسين» ، أي : عزلته ، وكف بصره ؛ لأنه أصيب بالجدري وهو صغير ففقد بصره .

إن السيّاب في هـذه المرحلـة يكتـب القصـيدة وعينـه عـلى مجتمعـه .. منشـغل بهمـوم النـاس .. ويتحول هذا كله إلى رموز ذات أبعاد ودلالات . وهذه قصائد : المومس العمياء ـ حفـار القبـور ـ والبائع المتجوّل الذي يشتري الحديد العتيق ، تحوّل من بعض جزئيات في الحيـاة اليوميـة إلى رمـوز لقوة الحياة وحرماتها وأنانية الفرد الذي يتمنى أن يموت الآخـرون ليعـيش . وكـان شـعره في هـذه المرحلة يلتزم بقضية كبرى ويعبر عن أهداف سياسية . في قصيدة «أنشودة المطر» يقول :

أكاد أسمع العراق يذْخَرُ الرعودْ

ويُخزن البروق في السهول والجبال ،

حتى إذا ما فضّ عنها ختمها الرجال ،

لم تترك الرياح من «ثمود» في الوادي من أثر

أكاد أسمع النخيل يشرب المطر

وأسمع القرى تئن والمهاجرين

يصارعون بالمجاديف وبالقلوع

عواصف الخليج ، والرعود منشدين

مطر .. مطر .. مطر

إنّه يحس هنا بحركة التاريخ التي سيفض عنها ختمها الرجال يومًا ، فـلا يبقـى مـن «ثمـود» في الوادي من أثر .

ثانيًا : الاتجاه القومي ، والواقعية الجديدة[30] :

انفصل «السيّاب» عن الحركة الشيوعية ، كان «بدر» ريفيًا يحمل آلام الريف الذي عاش فيه ، ويرى الوطن مثل كل وطن عربي .. ضعيف . مهان .. ورأى إن وحدة العرب هي السبيل لتحقيق العزة والرفاهية للجماهير العربية المغلوبة على أمرها يقول .. «ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشوفيين . يجب أن تكون القومية شعبية ، والشعبية قومية ، يجب جعل أحفاد «محمد ﷺ» ، وعمر ، وعلي ، وأبي ذر ، والخوارج ، والشيعة الأوائل ، والمعتزلة ، يعيشون عيشة تليق بهم كبشر ، وكورثة لأمجاد الأمة العربية .. لهذا ظهرت قصائد : «بورسعيد» ـ المغرب العربي .

لقد قاده انفصاله عن الشيوعيين إلى العودة للمطلق . بات المطلق بمعناه الفلسفي المجرد ـ محط نزوع بدر ، فانتقل من العادي واليومي ، إلى الأسطوري والرمزي ، كان الموت في المراحل السابقة «حادثة» ، وكان الجوع «ظاهرة» ، وكان النضال «رجولة» ، أما في هذه المرحلة فقد تحول الموت إلى أسطورة ، ليس تصورًا شعريًا فقط ، إنّه ذو مضمون أيدلوجي أيضًا فالسياب عندما كان يناضل كان يرى الخلاص في النضال .. في الدم الحقيقي الذي يسيل .. وكان يؤلم الشاعر أنّه لا يساهم مع الثوار في كفاحهم إلا بالكلام .. كان حزينًا لأنه لا يشترك في حركة التحرير بدمائه .. بقوله في قصيدة «أنشودة المطر» :

فيدلهم من دمي حنين

إلى رصاصة يشق ثلجها الزؤام

أعماق صدري كالجحيم يشعل العظام

أود لو عدوت أعضد المكافحين

أشدّ قبضتي ثم أصفع القدر

أود لو عزمت في دمي القرار

(30) الواقعية الجديدة لخصها «ستيفن سبندر» في محاضرته : الواقعية الجديدة في الفن .

لأحمل العبء مع البشر

وأبعث الحياة .. إن موتي انتظار

.. إن موت الشعر انتصار للحياة .. انتصار للأمة .. فهل تعود «جيكور» خضراء .. وتعيد أمجادها المسلوبة؟ ، يقول في قصيدة «العودة لجيكور» :

و«جيكور» خضراء

مسّ الأصيل

ذرى النخل فيها بشمس حزينة

ودربي إليها كومض البروق

بدا واختفى ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أنار المدينة

وعرى يدي من وراء الضماد كأن الجراحات فيها حروق

و«جيكور» من دونها قام سور وبوابه ، واستوتها سكينة

فمن يخرق السور؟ من يفتح الباب؟ يدمى كل قفل يمينه

ويمناي لا مخلب للصراع فأسعى بها في دروب المدينة

ولا قبضة لابتعاث الحياة من الطين ، لكنها محض طينة

و«جيكور» من دونها قام سور وبوابه .. واحتوتها سكينة

«جيكور» هنا رمز للوطن الكبير الذي يحلم به الشاعر ..

هذه المرحلة من حياة الشاعر سماها «الواقعية الجديدة» [31]، يقول : أما إنتاجنا الواقعي أو الملتزم فهو في كثير من الأحيان خلو من الفن ، أو بعيد عن المعنى الصحيح للواقعية والالتزام ، والمنظومات الساسية والقصص التي كانت جديرة بأن تكون مقالاً إنتاجيًا في جريدة تملأ مجلاتنا ومكتباتنا وإذاعتنا» [32].

لقد أصبح الشاعر عند السيّاب هو محور العالم ونفاد بصره ، هو بديل الأيدلوجية العلمية ، ومهمته أن يحلل المجتمع «تحليلاً عميقًا» مهما كانت أدواته .. لهذا يعتبر «بدر» أنّ إنتاجَ نجيب محفوظ ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وعبد الملك نوري إنتاجٌ واقعي تصدى لألام وأمال المجتمع بشجاعة وحكمة .

ومن أهم إنتاج السيّاب في هذه المرحلة القومية .. مدينة بلا مطر - جيكور والمدينة - النهر والموت - رسالة من مقبرة - المغرب العربي - المسيح بعد الصلب - المبغى ..

ثالثًا : موت الأشياء :

هل أحس «السيّاب» بدنو أجله؟ لقد خيَّم شبح الموت على «بدر» فأخذ ينظر إلى كل شيء من خلاله .. لقد صدر له في هذه المرحلة : (المعبد الغريق - شناشيل ابنة الجلبي - إقبال) .. لقد أصبح الموت يحيط به من كل جانب ..

---

(31) ستيفن سبندر «الواقعية الجديدة في الفن» - محاضرة ، وتتلخص في أنّ الفنان الحديث أصبح انطباعيًا ، وسرياليًا ، وتكعيبيًا ، ورمزيًا في محاولته الهادفة إلى إيجاد انسجام بين ذاته وذات المجتمع ، ولكنه أبى لنفسه أن يكون من زمرة الطبيعيين الذين ينقلون الواقع نقلاً فوتوغرافيًا . ولم يلبث الفنان الحديث حتى اهتدى إلى مخرج ، وقد وجد هذا المخرج في الواقعية الحديثة ، وهي في رأيه تحليل الفنان للمجتمع الذي يعيش فيه تحليلاً عميقًا فيه أكبر عدد مستطاع من الحقائق التي يدركها بنفاد بصره ، ولا تهم بعد ذلك وجهة النظر التي ينظر منها ما دام تحليله كذلك .

(32) «وسائل تعريف العرب بنتاجهم الأدبي الحديث» - مقالة - مجلة الآداب - أكتوبر 1956 .

أهكذا السنون تذهب؟

أهكذا الحياة تنضب

أحسُّ أني أذوب .. أتعب

أموت كالشجر

إنّه لا ينتظر الموت .. بل يتمنى أن يسرع بالمجيء :

منطرحًا أَصحيح .. أنهش الأحجار

أريد أن أموت يا إله .

أو

رصاصة الرحمة يا إلهي [33].

ها هو السياب يقعده المرض لقد فقد حتى القدرة على المشي. . ونتساءل بعد قراءة إحدى قصائده ، هل يخاطب حبيبة مرت بحياته .. أم هو الوطن الحلم الذي لم يحقق له ما يريد؟ .. فها هو يضيع .. كما ضيعه قبل ذلك .

آه كيف ضيعتك يا سرحة خوخ مزهرة؟

آه لو عندي بساط الريح!

آه لو عندي الحصان الطائر !

آه لو رجلاي كالأمس تطيقان المسير !

(33) قصيدة «المعبد الغريق» .

لطويت الأرض بحثًا عنك

لكن الجسور

قطعتها بيننا الأقدار

مات الشاعر

في وانسدت كوى الأحلام

آه يا جميلة [34].

في هذه المرحلة [35].. يدخل الشاعر في رحاب التصوف .. فهو صابر على البلاء حتى يحين موعد اللقاء ، يقول في قصيدة «سفر أيوب» :

لك الحمد مهما استطال البلاء

ومهما استبد الألم

لك الحمد ، أن الرزايا عطاء

وأن المصيبات بعض الكرم

ويستزيد السيّاب الرب جراحًا ، ويستزيد الله عذابًا بنزعة صوفية مخلصة النداء ، مستعذبة مرارة الأوجاع والألم .

وإنّ الجراح هدايا الحبيب

أضم إلى الصدر باقاتها

(34) قصيدة «كيف لم أجيبك» .

(35) مدني صالح ـ أوجاع السيّاب ـ الآداب ـ مارس 1968 (ص36) .

هداياك في خافقي لا تخيب

هداياك مقبولة هاتها (36)

بتشبث السيّاب بشباك «الله» بعد أن بعدت زرقة شباك «وفيقة» .. ما أطلت من الشباك «وفيقة» ، ولا لانت ، ولا حنت ، بل ولا درت بالسيّاب «وفيقة» .. فإلى شباك «الله» إذًا :

جميل هو السهد أرعى سماك

بعيني حتى تغيب النجوم

ويلمس شباك داري سناك

فما أسهل شبابيك الله لمسًا إن عزّت اللمس زرقة شباك «وفيقة» وما أبعد الإنسان عن الإنسان ، وما أبعد «وفيقة» ، ما أبعد «عشتروت» عن «السيّاب» وعن الحقيقة .

هكذا بدأت لمعات بوادر تصوّف عام 1961 ، وامتدت يد المستحيل بشباك «وفيقة» بعدًا حتى آخر الدنيا في المستقبل الذي لا ينال ولا يدرك فيتخيل السياب نفسه أميرًا كي يمد يدًا حين قد دجن البلد أمن حوله ألف ألف «عشتروت» ، وألف ألف «وفيقة» .

وفي الباب مَدّ الأمير الجميل

ذراعيه بمستقبل الآتية

أميرتي الغالية

لقد طال منذ الشتاء انتظاري

ففيم التأني ، وفيم الصدود؟

(36) الشاعر مستسلم بحب لإدارة الله ، راضيًا بها .. والاستسلام واليأس في القصيدة يختلطان هنا بشيء من الحزن . إنّه راض بقدره مستسلم له على طريقة الصوفيين .

وهكذا لا يمد السيّاب يدًا ، ولا يفتح ذراعين وحضنا إلا لبعيدة مستحيلة .. بعد أن استعار صورة أمير ، وماتت أحلام السيّاب ، وتلاشت مطامحه ، معزيًا نفسه بأنّ «عشتروت» قد ماتت .

*** وهل ميت من سفار يعود؟**

لقد باتت أحلام «السيّاب» مستحيلاً ، فـ«عشتروت» أسطورة ما تحققت قط . و«وفيقة» مستقبل لن يدركه زمن . وبقي للسيّاب وجه الله ، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد .

وفي لندن في 27 ديسمبر 1962 يتسلّق السيّاب إلى شباك الله .

■ ■ ■

السياب .. التجربة الشعرية والتجديد

يرى د. يوسف عز الدين [37] أن مقلدي بدر شاكر السيّاب أكثر من مقلدي «نازك» [38] وذلك لأن نازك «أصيلة في ثقافتها العربية ، وفي فهمها للأدب العربي وزادت ثقافتها بالثقافة الأمريكية فجمعت بين الثقافتين . في أسلوبها جزالة ورصانة ، وفي شعرها وعي عربي ناضج ، أرادت أن تجدد فرسمت لنفسها طريقًا واضحًا ، وسارت في درب واضح المعالم »، أما «بدر» فلم يختط لنفسه هذه الخطة ، ولم يسر في طريق مرسوم ، وقد جدد معتمدًا على أذنه الموسيقية التي كانت تخونه «أحيانًا» ، فخرج كثيرًا من المفهوم العربي للشعر ، وسار دون وعي في طريقه .

قال السياب في مقدمة ديوانه «أزهار ذابلة» [39] في مقدمة قصيدة مؤرخة في 29 نوفمبر 1946 : «هذه القصيدة محاولة جديدة في الشعر المختلف الأوزان والقوافي ، وهي كأغلب الشعر الغربي وبخاصة الإنجليزي . تجمع بين بحر من البحور ومجزوءاته ، إن التفاعيل ذات النوع الواحد يختلف عددها من بيت إلى آخر ، يقول السياب :

هل يكون الحب أني

بتُّ عبدًا للتمني

أم هو الحب اطراح الأمنيات؟

والتقاء الثغر بالثغر ونسيان الحياة

واختفاء العين في العين انتشاء

كانثيال عاد يفنى في هدير

أو كظل في غدير

---

(37) في الأدب العربي الحديث (ص248) .

(38) أي : نازك الملائكة .

(39) صدر في القاهرة عام 1947.

رؤية سلمى الخضراء الجيوسي للسيّاب

في معرض حديث «سلمى الخضراء» الجيوسي عن «الشعر العربي المعاصر ـ الرؤية والموقف»[40] . تقول لقد حفل شعر الخمسينات بالأمل .. لقد اتفقوا على أن الزمن الذي أحدث كل ذلك الدمار والخراب لجيلنا والذي كان لابد له في النهاية من أن يدفننا بين أنقاضه سيكافيء جيل أطفالنا ، ونقول أن شعرهم حفل بهذا الأمل الذي تجاوز الحاضر ليقيم علاقة وثيقة بالمستقبل . أما السياب فهو في رأيها أول من كشف عن رؤيا فاجعة كليًا في عدد من قصائده في «جيكور والمدينة» [41]، يرى أن الفرد يخوض معركة مستمرة مع ما يسميه «باسبرز» Jaspers بالنظام العالمي ليس إلا إنسانًا ضعيفًا فانيًا نسج من لحم ودم ، وتعترف أن رؤيا الشاعر في هذه القصيدة رؤيا شمولية ، تنظر إلى عجز الإنسان وهشاشته كإنسان في كل زمان ومكان .

لقد كان السيّاب شاعرًا حاد الإدراك ، قوي الحدس ، واستطاع حتى في قصائده الأكثر تفاؤلاً التي تتنبأ بمستقبل سعيد للمضطهدين في الأرض كقصيدته «أنشودة المطر» مثلاً . فهو يكشف جميع قوانين الضرورة التي تتألب لكي تفل من قوى الإنسان ، ثم تدمره في النهاية . إن حزن السيّاب الصادق في هذه القصيدة : على الملاح الميت وهو يعب من مياه الخليج الأجاج ، وعلى المهاجرين اللاجئين الذين يصارعون عبثًا أمواج البحر العاصفة ، وعلى أمه وهي تشرب مياه المطر في قبرها البعيد ، وعلى كل تناقضات الحياة والموت .. كل ذلك يكشف عن رؤيا فاجعة أكثر انهاكًا بوضعية الإنسان الشمولية منها بشروط الماركسية وقواعدها التي دفعت بالشاعر أصلاً إلى كتابة القصيدة ، وهي بلا شك رؤيا منسجمة مع قصيدته المأساوية الصرف «جيكور والمدنية» حيث يرى الشاعر القروي نفسه وعددًا من أبناء قريته وقد وقعوا في شرك المدينة المتحجرة القلب ، داخل الأسوار الحديدية التي تسد الطريق إلى قريته «جيكور» التي أصبحت النموذج الأعلى للبراءة والسعادة المفقودتين ، الماضي في هذه القصيدة ذكرى سعيدة لحياة لا يمكن استعادتها ، ويصبح التركيز جميعه الآن على الحاضر بكل يأسه وعذابه . أما المستقبل فإنّه كم مبهم من المحال اختراق الحجب إليه ، وتمييز خطوطه العامة خلف أسوار المدينة العنيدة .

---

(40) مجلة الأقلام ـ السنة الحادية والعشرون ـ العدد السادس ـ يونيو 1986 . ص7 .

(41) «ديوان أنشودة المطر» صدر عام 1960 ، ويحوي إنتاجه في الخمسينيات .

وترجع «الجيوسي» ارتداد السيّاب عن الشيوعية ، بعد أن اعتنقها في أول مشواره إلى ذلك الإحساس المأساوي بالحياة الذي كان يملكه الشاعر بحده ، ومن إدراكه الحدسي لماهية الحياة في لحظاتها الأشد فداحة ، لقد قاده هذا إلى البحث عن حل لمحنة الإنسان في بلده ، غير أنّ التفسير الماركسي الذي يعبر على النتيجة والفهم العقلاني لهذه المحن تعارض بقوة مع حساسية الشاعر التراجيدية أصلاً ، ووعيه اليقظ لأشكال العذاب الإنساني ، ويمثل شعره المبكر هذا الصراع بين الإيمان الماركسي ، والحدس الشاعري بأصالة كبيرة .

■ ■ ■

كتابة على قبر السياب(*)

عبد الوهاب البياتي

أصعد أسوارك بغداد ، وأهوى ميتًا في الليل

أمدّ للبيوت عيني وأشمّ زهرة المابين

أبكي على الحسين

وسوف ابكيه إلى أن يجمع الله الشتيتين

.... وأن يسقط سور البين

ونلتقي طفلين

نبدأ حيث تبدأ الأشياء

نسقي الفراشات العطاشى الماء

نصنع من أوراق كراستنا حرائق

نهرب للحدائق

نكتب أشعار المحبين على الجدار

نرسم غزالانًا وحوريات

يرقصن عاريات

تحت ضياء قمر العراق

---

(42) الطاق : هو إيوان كسرى الواقع بالقرب من بغداد ، وقد كان الشاعران يذهبان إليه وهما صغار صائحين تحته فيرد صدى صيحاتهما .

نصيح تحت الطاق [1]

بغداد! يا بغداد! يا بغداد!

جئناك من منازل الطين ، ومن مقابر الرماد

نهدم أسوارك بعد الموت

نقتل هذا الليل

بصرخات حبنا المصلوب تحت الشمس

هل مات السياب؟

يقول :

إن دُسَّ تحـــت الـــترب جثمانـــه
وكــفّ قلــبٌ بــين طياتــه!
خلّـــف قلبًـــا بـــين أشـــعاره!
يسـمع مـن في الأرض دقاتـه !

سمير إبراهيم بسيوني

المنصورة في نوفمبر 2009م

(*) الآداب ـ السنة السابعة عشرة ـ العدد الثاني عشر ـ ديسمبر 1969 ص13.

بدر شاكر السياب



على الرابية

وحيـــدًا هنـــاك .. عـــلى الرابيّـــة
جلســـتُ أبـــثَّ الـــدجى مـــا بيـــه

أعـــــددُ أيــــامي الــــذاهبات
فــــأبكي لأيـــــامي الباقيـــــه!

وجـــــدَّدتِ الحــــزن لي دمعـــــةٌ
محــــــيرة بـــــين أهدابيــــــه

عرفـــتُ بهـــا قصـــتي في الحيـــاة
وتضـــــليل روحـــــي وآماليـــــه

لهـــا بـــين عينـــي وبـــين الثـــرى
مســـــيلٌ عـــــلى وجنـــــةٍ ذاويـــــه

فـــلي مثلهـــا ســـفرةٌ في غـــدٍ !!
ولي مثلهـــــا قصـــــــة داميـــــــه

شـــكوت إلى الليـــل جـــور الحيـــ
ـــاة فارتـــدّ يشـــكو أذاهـــا ليـــه

فقــــال : وإني أســــير وتلـــــك
النجـــــوم المضـــيئات أغلاليـــــه

فقلـــت : وروحـــي بـــذل الأســـار
رمتهـــا قـــوى الجســـد العاتيـــه

فـــما خفقـــات فـــؤادي ســـوى
رنـــين سلاســـــلها القاســـــيه

شـــكوت إلى الليـــل جـــور الغـــرام
فأرســــــل آهاتــــــه الباكيـــــــه

فقــــال : وأني أحـــــبُّ النهـــــار
ويعشــــق أطـــــرافي السّــــاجيه

كلانـــا يفـــتِّش عـــن إلفِـــهِ ...
وكـــــلٌ تفـــــرَّق في ناحيـــــــه

فقلـــتُ وفي القلـــب مـــن حبّـــه
نـــــواظرُ تحلــــم بالراعيــــــه !

قســـيمي بـــما أشـــتكيه الـــدجى
فهيهـــــات أن أشـــــتكي ثانيــــه

ومـــرّت عـــلى وجنتـــيَّ الصَّـــبا
مكفكفـــــة أدمعــــــي الجاريــــــه !

1944 /2 /2

***

سراج

أشراع يطـــوى بحـــار الظـــلام؟ أمْ سراجٌ في غرفـــــــة المســـــــتهامِ

شـــاحب الضـــوء يرقـــب الشـــاعر السـهران تبكيــه نائبــات الغــرامِ

خـــافقٌ مقـــل قلبـــه حـــين يطغـــى راعـــشٌ مثـــل دمعـــه في انســـجامِ

أعليـــه لنجمـــة الصـــبح وَعْـــدٌ بلقـــاء فبـــاتَ نضـــوَ ســـقام؟

فهـــو نبـــعٌ تحـــت الظـــلام فريـــدٌ لـــو روى قلـــب ظـــامئ مـــن أوام

وهـــو أرجوحـــة الظـــلام وظـــلٌّ حركتـــــه أنامـــــل الأنســـــام

وجنـــاحٌ يبيـــت ينتظـــر الفجـــر خفـــــوقٌ بغضـــــه المتســـــامي

مـــرَّ طيـــفٌ مـــن الحبيبـــة يهفـــو ؛ للقـــــاء المعـــــذب المستضـــامِ

فطـــواه اللظـــى وبـــات دخانًـــا يطـــرق الليـــل نفحـــةً مـــن قتـــامِ

فرويـــدًا ؛ كفـــى السرـــاج اعتســـافًا أنـــــه غـــــال رائـــــع الأحـــــلام !

بأســـى الليـــل ؛ بـــاحتراق الفراشـــات بـــــدمع مـــــن النفـــوس الظـــوامي

بســـهاد الفتـــى ، بـــما بـــين جنبيـــه بـــــما للنجـــــوم مـــــن آلام ...

رحمـــة أيهـــا السرـــاج بمـــن أحصـــ ــــــيت آهاتـــــه وراء الظـــــلامِ

لا تســـامره إنـــه شـــاعرٌ ضـــل بـــــدنيا الخيـــــال والأوهـــــامِ

أذن الصـــــبح أن يلـــــوحَ فدعْـــــه يُســـعِد الطـــرفَ لحظـــةً بمنـــام

ليلة 7/ 2/ 1944

***

رثاء جدتي

أسـلمتني أيـدي القضـا للشـجونِ   إذ قضى ـ مـن يـردّني لسـكوني

ورمـى سـهمه بقيـة آمـالي   فخـرّت صريعـة مـن عيـوني

ووعـت أذنـه تـوالي أنغـامي   وآبـتْ إلى الفنـاء لحـوني

جدَّتي ...

وهـي كـلَّ مـا خلّـف الـدهر   مـن الحـب والمنـى والظنـون

ورجـاءً بـدا فـالهمني الصـ   ـفوَ وخفّـت أنـواره لحنينـي

فقـد فقـدت الأم الحنـون فأنسـ   ـتني مصـاب الأم الـرؤوم الحنـون

***

كـم تحملـتِ في حياتـكِ سـقمًا   ودَّ قلبـي لـو أنـه يعترينـي!

تتلـوّين في مهـاد المنايـا   وتغيبـين في عـذابِ الأنـين

وتضـجين بالـدموع سـجامًا   وتطـوفين في بحـار السـنين!

ثـم آبَ السـفين! بعـد طـوافٍ   خاليًـا عـودة الكسـير المهـين

تاركًـا في البحـار عـذب أغـا   نيـه لهـا بالميـاه أي رنـين

يـا لهـا ليلـةً وقـد عـادت الـر   وح إلى ربهـا ودنيـا اليقـين!

فزعـت كـل مهجـة لأسـاها وار   تمـى الفكـر فـوق صـدر الشـجون

وانجـلى الفجـر حـاملاً بـين   كفيـه سـعيرًا عذابـه يصـليني

جـاء مـن خلفـه نـوى وبعـادٌ   لا يرجـى اللقـاء فيـه بحـين

رفعـوا نعشـها ونحـن حيـارى   والـدموع الغـزار مـلءُ العيـون

***

أيهـا القـبر كـن عليهـا رحيمًا   مـثلما ربّـت اليتـامى بلـين ...

أيهـا القلـب هـل تـلام شـمالي   والتـي تفعـل الـذنوب يمينـي ؟

لا تلمنـي فلسـتُ قـد علـم الله   أردّ القضـاء لـو يـأتيني

ولُـمِ المـوتَ والزمـانَ الـذي   يسـلبُ مـا ترتجيـه غـير ضـنين

جـدتي مــن أبــثُ بعــدك شــكوايَ طــواني الأســى وقــلَّ معينــي

أنــت يــا مــن فتحــتِ قلبَــكِ بـالأمس لحُبّـي أوصـدت قـبرك دوني

فقليــل عــليَّ أن أذرف الــدمع ويقضيـ عــليَّ طــول أنينــي ..

ليتنــي لم أكــن رأيتــكِ مــن قبــلُ ولم ألـق منـكِ عطـف حنـون

آه لــو لم تعــوّديني عــلى العطــف وآه لــو لم أكــن أو تكــوني ..

9/ 9/ 1944

***

على الشاطئ

« بين رفات أحلامي التي تكسرت أجنحتها ، وأحرقتها نار الخيبة .. وبين ضباب من الأوهام يكتنفني ، ووسط سكون رهيب لا يعكره إلا أنات قلبي الجريح ، جلست على الشاطئ أترقب عودتكِ ، ولكن .. هيهات » .

عـــــلى الشـــــاطئ أحلامــــــي طواهـــــا المــــوُج يــــا حــــبُّ
وفي حلكــــــــــة أيّــــــــامي غــــدا نجـــم الهـــوى يخبـــو
عــــزاءً قلــــبيَ الــــــدامي

وذا الفجـــــــر بــــــأنواره رمــــــى الليــــل وأطيافـــــه
شــــــدا الطـــــير بأوكـــــاره وهــــــزّ الـــــورد أعطافـــــه

وفي غمـــــــرة أوهــــــامي
وفي يقظــــــــة آلامــــــــي
بكــــــى محبوبـــــه القلـــــب
عــــزاءً قلبــــي الـــــدامي

وعــــــــن بعــــــد سرى زورق فهـــــل فيــــه التــــي أهــــوى
وذا قلبــــــي جــــــوىً يُحـــــرق عســــــى أن يجـــــد الســــلوى

ومــــــن آهــــــات أنغــــــامي
أتتنــــــي رميـــــة الرامـــــي
مضىـــــ الــــــزورق يـــــارب
عــــــزاء قلبــــــي الـــــدامي

وفي موكـــــــب أحلامـــــــي تســـــير الشـــــمس للغـــــرب
فيشـــــكو قلبـــــي الظـــــامي إليهـــــا لوعـــــة الحـــــبِّ

فيـــــا ربـــــة إلهـــــامي
ويـــــا تســـــبيح أيـــــامي
لـــك القلـــب مضى ـــ يصـــبو
فـــردي بعـــض أحلامـــي

تقضيـــــ الليــــــل فـــــالفجر ولكـــــن هـــــل أتـــــت هنـــدُ؟
خـــــلا مـــــن طيفهـــــا النهـــــرُ فـــــأين الحـــــب والعهـــــدُ؟

ســـدى قضّـــيت أعـــوامي
عـــلى شـــطآن أوهـــامي
ولا صـــــــفوٌ ولا قـــــربُ
فـــردي بعـــض أحلامـــي

(1941)

***

شهداء الحرية(44)

شهيد العُلا لن يسمع اللومَ نادبُهْ ... وليس يرى باكيهِ من قد يعاتبُهْ
طواه الردى فالكون للمجد مأتمٌ ... مشارقه مسوَّدة ومغاربه
فتى قاد أبناء الجهاد إلى العُلا ... وقد حطّمت بأس العدو كتائبه
فتى همّه أن يبلغ العزّ موطنٌ ... غدا كل باغٍ دون خوف يواثبه
فتى يعرف الأعداء فتكة سيفه ... قد فتحت فتحًا مبينًا مضاربه
فتى ما جنى ذنبًا سوى أنه انتضى ... حسامًا بوجه الظلم ما لان جانبه
إذا ذكروا في جحفل الحرب «يونسًا» ... مشى الموت للأعداء حمرًا سبائبه
لقد باع للعُرْب النفوس ثلاثةٌ ... فقرّوا ودمعي لا تقرّ غواربه
فآه على من ودّع الصحب واغتدى ... على «يونس» فليطلق الدمع حاجبه
وآه على نسر اهيض جناحه ... وكم ملأت أفق العراق عصائبه
لئن غيّبوا جثمان «محمود» في الثرى ... فما غيّبوا المجد الذي هو كاسبه
ولهفي على «فهمي» وما كان خطبه ... يهون وإن هانت لديه مشاربه
شهيد رأى الطغيان يغزو بلاده ... فهبّ وقاد العزم جندًا يحاربه
أيُشنق من يحمي الديار بسيفه ... وتغدو على كسب المعالي ركائبه؟
رجال أباة عاهدوا الله أنهم ... مضحّون حتى يرجع الحقَّ غاصبُه
أراق عبيد الإنكليز دماءهم ... فيا ويلهم ممن تُخاف جوالبه
أراق عبيد الإنكليز دماءهم ... ولكنّ دون الثأر مَنْ هو طالبه
أراق ربيب الإنكليز دماءهم ... ولكنّ في برلين ليثًا يراقبه
رشيد ويا نعم الزعيم لأمةٍ ... يعيث بها عبد الإله وصاحبه
لأنتَ الزعيم الحق نبهت نوّمًا ... تقاذفهم دهر توالت نوائبه

(1942)

(44) رثاء الشهداء : يونس السبعاوي ، فهمي سعيد ، محمود سلمان .

اذكريني

قـــبَسٌ مـــن نـــور قلبـــي مشرـــق في ناظريـــكِ

فهـــما مهـــد الهـــوى إن الهـــوى غـــاف لـــديكِ

وهمـــا نبـــع المنـــى إن المنـــى في مقلتيـــكِ

كـــل مـــا يغـــري ويصـــبي هـــاتف في نظرتيـــكِ

فـــاذكريني واذكـــري قلبًـــا بكـــى بـــين يـــديكِ

شـــعلة مـــن دم حبـــي كمنـــت في شـــفتيكِ

فـــاجعليني لفظـــة بيـــنهما تحنـــو عليـــكِ

ولتعـــانق ذكريـــات الحـــب دومًـــا أصـــغريكِ

وكـــم نهلنـــا مـــن أقداحـــه في وجنتيـــكِ

وصـــدى القبلـــة تخفيـــه جنـــان ذات أيـــك

قـــد محـــا أيامنـــا الـــدهر فهـــل تبقـــى لـــديك

آه لـــو كنـــت بقـــربي إننـــي أصـــبو إليـــك

(1942)

***

إليك شكاتي

لغـــيرك لم يخفــق فــؤادي ولا هفــا ... بجنبــيّ قلــبٌ ضــاربٌ في التفجُّــعِ

ولا ذرفــت عينــاي دمعًــا إذا جــرت ... بــوادره طــاف اشــتياقي بمــدمعي

فرحمــاكِ لا تســتنزفي دمــع نــاظري ... فدمعي إذا ما هـاجني الشوق مفزعي

يســـير بـــأحلامي لوديــان حبّهــا ... فترتــدُّ بــالطيف الحبيــب لمضــجعي

بــه أذكــر الحــب القــديم فــإن نــأى ... تبيّنــت في فقــد الحبيبــين مصرــعي

ولــولا خيــال في الــدجى منــك عــادني ... لــذاب مــع الأنفــاس قلــبٌ بأضــلعي

فيــا نفحــة للحــب مــلء جــوانحي ... ويــا نبــأة للــوحي طافــت بمســمعي

إليــك شــكاتي فامســحي مــن أضــالعي ... ســطور جــوى فــوق الفــؤاد ، بــأدمعِ

إلى أفـــق أحلامـــي ففـــي سرحاتـــه ... لنــا موعــد يحلــو فخفــي لــه معــي

هنــاك لروحينــا عــلى الحــب ملتقــى ... يزوّقـــه طهـــر الهـــوى المتضـــوّعِ

ومــا الحــب إلا يقظــة بعــد هجعــة ... فـــلا تجعليـــه صـــحوة المتفجّـــع

14/ 7/ 1942

***

يوم السفر

مـــــن لقلبـــــي عـــــلى القَـــدَر　　قُضِيَ ـــــ الأمـــــرُ بالسَّـــــفِرْ؟

آه لـــــو أنـــــه مضى ـــــ　　معهـــم يتبـــعُ الأثـــــر

أتـــــرى كـــــان ينثنـــــي ..　　عـــــن مُحبّيـــه لـــــو قَـــدَر ؟

مـــــن معيبـــــي عـــــلى الغـــرام　　إذا ضـــــجَّ أو زَخَـــــر !

زَحَـــــمَ القلـــبَ موجُـــــه　　فعنـــــا القلـــب وانقهـــــر

أســـــفًا زورقُ المُنـــــى　　وسْـــطَ أمواجـــهِ انـــدثر

أقبلـــــتْ فتنـــــة الفـــــؤاد　　وفي عينهـــــا الخَـــبَر ...

عـــــبراتٌ عـــــلى الـــــتراب　　تهـــــاوَيْنَ في ضَـــــجَر

إنهـــــا خمـــــرة الغـــــرامِ　　ســـــقينا بهـــــا الحَجَـــــر

يـــــوم أن لاح أنهـــــا　　لحـــــرامٌ عـــــلى البشر ـــــ

إنـــــه يومنـــــا الأخـــــير　　عـــــن الفرقـــــةِ انحسر ـــــ

خلّديـــــه بقبلـــــة　　تصرـــــفُ الهـــــمَّ والكـــــدر

لـــــذَة تنتقـــــي وذكـــــرى　　ســـــتبقي مـــــدى العُمُـــــرْ

لـــــن أرى جنَّـــــة الهـــــوى　　لا ولـــــن أقطـــــف الثمـــــرْ

مـــــن شـــــفاهٍ حـــــوالمٍ　　بـــــرؤى اللـــــثم كـــــالزهر

وبعيـــــدٌ عـــــن البلـــــوغ　　لقـــــاءٌ وإن قصر ـــــ

قـــــد جلـــــت ســـــاعة الـــــوداع　　شـــــتاتًا مـــــن الصـــــور

أدمـــــع فابتســـــامتان　　فيـــــأسٌ فمصـــــطبر

صيف 1942

***

ذكريات الريف

شـعاع مـن المـاضي منـير بخـاطري — وذكـرى لمـا ولّى تعطِـر حـاضري
تلـــمُّ ففيهـــا دمعـــة وابتســـامة — وتـأتي فـلا تبقـي عـلى صـبر صـابرِ
لقـد لاح لي مـن ذكريـاتي بـوادرٌ — وإنَّ هـوى نفسي- بتلـك البـوادر
وأبـرز لي وهْمـي وكـان مصـوِّرًا — ذواهـب أيـام حسـانٍ سـوافر
فتلـك رسـوم الريـف تحيـا بخـاطري — كـما عـاش في الأوتـار أنغـام سـاحر
وتلـك الحقـول الزُّهـر تنسـلُّ بينهـا — جـداول مـاء بـين وانٍ وفـائر
عليهـا جسـور مـن جـذوع نخيلهـا — تـئن وتشـكو تحـت أقـدام عـابر
كـذلك فـؤادي يعـبر الحـزن فوقـه — عـلى نهـر حبِّـي واردًا بعـد صـادر
تـذكرت سرب الراعيـات عـلى الربـا — وبـين المراعـي في الريـاض الزواهـر
ورنـات أجـراس القطيـع كأنهـا — تنهّـد أقـداحٍ عـلى ثغـر شـاعر
أقـود قطيعـي خلفهـنَّ محـاذرًا — وأنظـر عـن بعـد فيحسر- نـاظري
ومـا كنـت لـو لم أتبـع الحـبَّ راعيًـا — ولا انصر-فتْ نحـو المـروج خـواطري
«إليهـا» طويـت الليـل بالليـل صـابيًا — وطاردتهـا مسـتهونًا بالمخـاطر
وقبّلـتُ حتـى الـبهمَ لمـا رأيتهـا — تُقبِّـل تلـك الـبهم قبلـة ثـائر
فقـد اهتـدي في قبلـةٍ إثـرَ قبلـةٍ — إلى أثـرٍ مـن ثغرهـا غـير ظـاهر
تـذكرتها والفجـر لاهٍ يضـمها — فـلا هـو بـالآتي ولا بالمغـادر
تنـام عـلى النهـر الجميـل ضـفافِهِ — وبالمـاء تـدلي مائجـات الغـدائر
كموجـة بحـر قيّـدتها سلاسـلٌ — مـن النـور مثـلُ العسـجد المتنـاثر
وحاملـةً عنـد الـرواح لـدارها — حـزيمات عشـبٍ مـن نجيـل المخـاضر
أهذا هو العشب الذي كان في الضحى — مهـادًا لهـا بـين الحقـول النـواضر
أتخشـاه ألا يكـتم السرَّ ويحـه — ويـروي أنبـاء الأليـف المعـاشر
فكـم قبلـةٍ رفّافـةٍ خبـأت بـه؟ — وكـم دمعـةٍ تنسـاب مـن ظلـم هـاجر
وصـبحٍ خريفـيٍّ تكفـن ضـوؤه — بغـيمٍ يغشيّ- صـفحة الأَفـق سـائر

قــد اصــفرَّت الأوراق حتــى كأنهــا ذبـلاتُ نـور في دجـى الليـل سـاهِر

وقد «جلستْ» فـوق الضـفاف حزينةً تشـيّعُ نهـرًا سـال بـين الأزاهـر

لَحوريّـة أغـرت مـن المـوج كالئًـا ففـرَّ بهـا - جـذلان - مـن غـور زاخـر

قضـت بانتظـار الجـزر سـاعات يومهـا ليحملهـا للمزبـدات الهـوادر

ولكنهـا إن يقبـل الليـل هادئًـا - عـلى مـدِّ أحلامـي - تعُـذْ لسرائري

تـذكرتها تصـغي لهمـس يراعتـي فتسـألُ : مـا شـأن الثقـوب الفـواغِرِ

ألم تعلمـي أن الثقـوب نوافـذٌ تطالعنـا منهـا تـرانيم زامـر؟

وكانـت لأنغـام الفـؤاد منابعًـا تفـيض بسـيل مـن أغانيـه غـامر

فـداؤك روحيـي مـا ثقـوب يراعتـي؟ جـراحٌ تنـزّتْ مـن خطـوب قـواهر

ونـايي اجتبـى الأنغـام حتـى تألّفـت وبعثرهـا في الشـدو غـير مُحـاذر

فكـان كحبِّـي جمـع الشَّـمل شَـملنا وفرَّقنـا مـن بعـد تفريـق سـاحِر

عَـدَتني ليـالي الصـيفِ مـن ذا يعيـدُها سوى الوهم والـذكرى لأسوان حائِر

فيـا حبـذا لي جلسـة فـوق شـاطئ ألـوذُ بـه إن مسَّـني ظلـمُ جـائر

أراقـب منـه المـوجَ يسري بـزورقٍ بـدتْ فيـه مـن تعنـو إليهـا مشـاعري

يسـيرُ بمجـذافين في النهـر أشـبهًا ذارعَـيْ مشـوقٍ مُـدّتا في الـدياجر

كـأن رشـاش المـاء - يعلـو - أزاهـرٌ نثـرن عليهـا مـن أليـفٍ مسـامِر

تـروِّح عنهـا بالشِّـراع نسـائم ويرتادهـا ضـوءُ النجـوم الزواهـر

سـها الـنجم أفلاكًـا لـه حـين شـاقها فتابعهـا في أفقـه كـل دائـر

ومـن حولهـا مَـوْجٌ تضيء كراتـه وتعكـس مـن ألوانهـا كـلَّ بـاهر

تفجّرهـا الأمـواج كالكـأس حُطِّمـتْ وكالقلـب أعيـاه اعتسـاف المقـادر

وكـالزهر في أكمامِـهِ اغتالـه الـردى وبعثـره هـزُّ الريـاح الثـوائر

وكـالزورق السّـاري أضـلَّ سـبيله فعـاد حطامًـا فـوق شـطآن زاخـر

وكـالزمن المـاضي تلاشـى ولم يعُـدْ إلى ذاكـرٍ أنـسَ الليـالي الغـوابر

9/ 4/ 1943

***

همسك ألهاني

خيالـكِ أضـحى لابسًـا مـن فؤاديـا ... رداءً موشَّـىً بـالرؤى البـيض حاليـا
وكنـتِ كـذاكَ الطـائرِ الخـادع الـذي ... يــراه رعــاةُ الـبَهْم في المـرجِ هاويـا
فيعـدون بـين العشـب والزهـر نحـوَهُ ... وإن قــاربوه طــار جــذلانَ شــاديا
فـــما زال في إســـفافه وانطلاقـــه ... فــلا هــو بالنــائي ولا كــان دانيــا
ومــا زال يُلهــي راعيًــا عــن قطيعــه ... ومزمــارهِ حتــى يضــل المســاريا
وإنـكِ قـد أشـغلتني ـ صـانكِ الهـوى ـ ... عــن الشــعرَ لمــا أن تبعتُــكِ راضــيًا
وإن عـــلى مـــرآة شـــعري ســـحابة ... لأنفاسِــكِ الــوهى تغَشّــى المرائيــا
وإن رغـــبَ الـــروحُ انطلاقًــا أعاقــه ... صدى روحك الرخـوِ الجناحين داعيا
وهمسُــك ألهــاني فــما بــتُّ ســامعًا ... لحــونَ إلــه الشــعر أو بــتُّ واعيــا
وقيثــارتي .. مــا شــأنها وأنــاملي ... بشــعرك باتــت عابثــات لواهيــا؟
ألا يتســنى يــا ابنــة الحــبِّ ســاعةً ... لروحــي أن ترقــى النهــودَ العواريــا
فــتلمحَ مــن عليائهــا أَفــق فتنــةٍ ... يوافيـه إشـعاعٌ مـنِ الحـبِ ، زاهيـا ؟
ســأهتف بالأشــعار إمــا رأيتــه ... وأســتقبلُ الإلهــام ســهلاً مواتيــا !
متــى حوّمــت في أَفــق ثغــرك قبلــةٌ ... يصــعِّدُها ثغــري فقــد زال مــا بيــا !
وعـدتُ لـربِّ الشـعر جـذلانَ سـامعًا ... حفيــف جناحيــه ينــادي خياليــا !

1943 /7 /29

***

أغنية السلوان

تباعـدنا فـلا حـزن عـلى مـا ضـاع مـن قـرب ..
ولـيس الحـبُّ إلا الرحلـة استلت قـوى القلـبِ
وهـل يلقـي انتهـاء السَّـفَر المـلاَّح في كَـرْب
إذا مـا راح يطـوي الـيمَّ نحـو الشـاطئ الخصـب؟
نفضـنا قطـرات الوصـل بـين الـورد والعشـب ..
إذا مـا اهتـزت الزهـرةُ ألقـت بالنـدى العـذب

وأَفردنـا وفي الإفـراد بعـض الخـير للصَّـبِّ
تعـيش الزهـرة الفينـاءُ في المنبسـط الرحـب
وتقضيـ وحشـة الأيـام بالتحـديق في السـحب
تنـام عـلى وسـاد الشـوك نائيـة عـن الـتِّرب
ولا ترمقهـا عـينٌ فتنجـو مـن أذى العطـب
وإمـا زهرتـان استوتا جنبًـا إلى جنـب ..
سرت نجواهمـا تنسـلُّ بـين العطـر في السَّـهب
فتسـمعها الفراشـاتُ وراء التـلِّ والشـعب
فتضرِبُ في الفضـاء الرحـب نحـو المنبـت الرطـب
إذا مـا ركـض الطفـلُ وراء فراشـةِ السِّـرب
فـلاذتْ بصـدور الزَّهـر بعـد الحـومِ والجـوب
فشـأن الزهـرتين القطـف والإذعـانَ للخَطـب
عِنـاقُ الحـبِّ فاجـأه هـوى المنجـل الغضـب
فيـا للقبلـةِ المشـلولة الأصـداء بالرُّعـب
وكنـا لـوحَتيْ نافـذة في هيكـل الحـبِّ ..
فلـو لم نفـترق لم ينفـذِ النـورُ إلى القلـبِ

وكنــا كجنــاحيي طــائر في الأفــق الرّحـــب ..
فلـــولا النشرُـــ والتفريـــق لارتـــدَّ إلى الـــترب
ولـــو لم نبتعـــد لم تســـمُ نفســـانا عـــن الـــذنب
وكنــا شـــفتيْ هـــذا القضـــاء مفـــرّق الصَّـــحْب
فلـــو لم ننفـــرج لم تضـــحكِ الأقـــدارُ مـــن كـــربي !

7/ 8/ 1943

***

الذكرى

أطللــــتُ مــــن نافــذة الــذكرياتْ علــى ريــاض القِـــدَمِ الحالمــات
ولي زمـــــانٌ عرضـــــت لي بــــه أجمـــل حلـــم أبدعتـــه الحيـــاة
أركـــــض في أنحائهـــا لاهيًـــا مـــع الفراشـــات بمـــسِّ النبـــات
وأســـهر الليلـــة مَـــع جَـــدْوَلٍ مـــرتعشٍ للنُّسُـــم الفـــاترات
يــــا لهفــــي إنَّ وراء الربــــى صـوتًا دعـاني هـو صـوت الرُّعـاة
وكيـــف آتيـــكِ جنـــان الهـــوى يومًـــا ودوني حُجُـــبٌ مانعـــات ؟

***

دعــــا صـــباباتي لضــــفّاتِهِ غـــديرُ ذكـــرى مـــائج الأمنيـــات
حـــدّقتُ في أمواجـــهِ ســـاعةً مســـتطلعًا أغـــواره المـــبهمات
أرى ظِـــلالَ السُّـــحْبِ تقبيلـــةً مـــرَّت عـــلى جبهتـــه في أنـــاة
والسَّـــحْبُ هـــل أنكرتهـــا؟ إنهـــا كانـــت نُهَـــيْرًا شـــاعريَّ اللهـــاة
مـــلءُ فـــروع الـــدوح ألحانـــه سـكرى عـلى قَـرع كـؤوس الحصـاة
نمنـــا عـــلى أعشـــاب ضـــفّاته مختلســـين القبـــل المســـكرات

***

نَحْـوَ الغـدير العـذب مُـدَّت يـدي تلمــس فيــه الســحب العــائمات
فـــانفجرت منهـــا فقاعاتَـــهُ في إثـــر أتـــراب لهـــا ســـابقات
إني ســـمعت الحُـــورَ في همســـة مســـحورة أصـــداؤها عاتبـــات
تلـــك عقـــودُ الحـــور بعثرتَهـــا فهـــل أتتـــك المتـــع الـــذاهبات؟
وصرخـــة الأطفـــال مـــن غـــوره يـــا أيهـــا القـــاسي فجَـرْت الكـرات !

***

ودوحـــــة الــــذكرى تســـــلقتها مُجتـــــذبًا أغصـــــانها المزهـــــرات
مستقصــــيًا مـــــا بينهـــــا فجـــوةً تمـــر منهـــا النســـم الهـــائمات
أبصرتُ منهـــا ذكريـــات الصبا عـــلى نجيـــل المـــرج مســـتلقيات
والبحـــر يســـعى دونهـــا زافـــرًا فـــالموج آهـــات حطمـــن الصَّـــفاة
يـــا مـــرج هـــل تـــذكرني راعيًـــا أعبـــد فيـــك « الله » والراعيـــات !
والبحـــر مـــا كـــان ســـوى جـــدول ينـــير في الليـــل ســـبيل الرعـــاة
فـــما دهــاه اليـــوم حتـــى غـــدا ملحًـــا أجاجًـــا بعـــد عـــذب فُـــرات
أحقبـــة نضـــجر مـــن طولهـــا وإنهـــا طرفـــةُ عـــين الحيـــاة ؟

***

قالـــت لي الدوحــــةُ لا تبتـــئسْ ســـتهبط المـــرْج ففـــيمَ الشـــاكاة
هـــاك جنـــاحين فطـــر وائتـــه واســـتوح فيـــه المتـــع الطارئـــات
وقـــدّمت بـــين دمـــوع النـــدى فـــرعين مـــن أغصـــانها المورقـــات

***

غنّـــى الخريـــفُ الغـــابَ ألحانَـــهُ فـــانتثرت أوراقـــه راقصـــاتْ
وقبـــل أن أَدرك مـــا أبتغـــي ذوى جناحـــاي مـــع الـــذاويات !

ليلة 18/ 8/ 1943

***

تنهدات

« كنت أعصر. سعف النخيل حذار أن يمنع عينيَّ من رؤيتها إذا أقبلت! أما الآن فليتهدل السعف فهي لن تأتي » .

سَعَفَ النخيل على الممرِّ تهدّل وأحجب بظلك ما يراه المجتلى
من كنتُ أحذر أن تحجب طيفها عن ناظري نزلت بأبعد منزل
سيان عندي اليوم قفرٌ موحشٌ وظلال روض مستطاب المنهل
فسَل النسائم أن تكفَّ عن السرى ما للفؤاد بسيرها من مأمل
إن أقبلت بشذى الزهور ولم يكن عطر الحبيبة فيه فلتتحوَّل
أبدًا تذكرني المروج بمن نأت وربابة الراعي تهيج الشوق لي
في كل زاويةٍ نظرت رأيت من آثارها ما خلفته لمقتلي !
فإذا سهوتُ على ثغاء قطيعها يشكو أساه بلوعةٍ وتذلل
قد ودّعته فما شفاه وداعها من حرقةٍ في صدره لم ترحَل
ألقت بمسمعه ثمالة شدوها فرنا بغرب دموعها المتوسل
حفّفتُ لو ودّعتها بعض الأسى ومسحتُ بعض دموع قلب مثقل
والدوح عصفرَه الخريف وردَّهُ كالعاشق المتحرِّق المتذِّلل
نَشَرَ الأصيل عليه عمق سكونه فمضى يحن لأغنيات البلبل
فكأنما الوَرَقات مرآةٌ له تجلو اصفرار سمائه للمجتلي
أأروحُ وهو يظلّني وحبيبتي وأعود وحدي وهو غير مظلّلي
سعف النخيل : سواك خان مودَتي وبقيت تحفظها لمن لا ينسلي
أشكو إليك أذى الفؤاد وإن تكن لا ترجع الشكوى لصبَّ مبتلي [45]
تمضي الحبيبة والزمان كلاهما وأظلَّ أندبها وتصغي أنت لي ..

6/ 12/ 1943

(45) هناك خطأ لغوي . فصحة الكلمة «مُبْتَلى» بضم الميم وفتح اللام .

تحية القرية

شـــفَّني مـــن ربوعِـــكِ النضرـــاتِ فتنـــــةً تســـــتعيدها نظـــــراتي
في ريـاض النخيـل يجمع فيهـا الفجـر شــــمل الضـــياء بعـــد شـــتاتِ
فــــإذا الـــروض فتنـــة تـــتجلّى مـــن صـــناع الأنامـــل المبـــدعات
أخـــذتْ حَليَهـــا الطبيعـــةُ فيـــه وبـــــدت في غلائـــــل عطـــــرات
توّجـــــتُ بـــــالزهور مفرقهـــــا ، الجـــدول ربُ الخمائـــل الهامســـات
وانثنـــــت تســـــتحثّ ماشـــــطة الـــريح وتُبـــدي النجيـــل للماشـــطات
والمـــروج الحســـان هامـــت عليهـــا حُــــرقٌ مــــن تنهـــدات الرعـــاة
والعـــذارى بـــين الرُّبـــا يتهـــادَيْنَ نـــــدىّ النَّـــــوار والزهـــــرات
والغـــدير الوســـنان ظلّلـــه الكُـــرْمُ وأصـــــبى أمواجـــــه الموهنـــــات
منظـــرٌ تســـتخفّ ألوانـــه الطـــير فســـتزجي ألحانهـــا الســـاحرات
وهـــدوء الحقـــول تلقـــي لديـــه الــنفس مــا ترتجيــه مــن غايــات
فهـــو نـــورٌ يهـــدي ســـفائن أفكـــاري إلى مـــــا وراء بحـــــر الحيـــــاة
فـــترى المبـــدع المصـــوِّر فـــيما حولهــــا مــــن جنــــائن موثقــــات
في ابتســـام الريـــاض للمـــدِّ والجـــزر لطوفـــــان عـــــذْبي[46] الـــــنَّغمات
يحمـلان الحـديث عـن مـرقص البحـر وحـــــوَر الشـــــواطئ اللاعبـــــات
وعـــن الشـــط والنخيـــل الســـكارى في الليــــالي القمـــراء والمظلـــمات
رنحتهـــا الأنســـامُ لمـــا ســـقتها العطـر في أكـؤس النـدى المترعـات
وقــــروط الأغــــداق تهتــــز إغــــراءً لفلـــكٍ شـــوارعٍ جاريـــات
صَـــورٌ تســـجد النفـــوس لـــديها وتضـــجُّ القلـــوبُ بالصَّـــلوات
أيـــنما دار نـــاظري طـــالعتني فتنـــــة تســـــتعيدها نظـــــراتي

22/ 12/ 1943

---

(46) في الأصل : «عذبى» والأصح «أعذب» .

يا ليلُ

ليــت الليــالي تنســى قلبــي الألمــا والــنجم يُنبئهــا عنــي بــما علِــما
لعينيــك يــا ليــل سرٌّ لا تبــوح بــه أغمضــتَ عنـه عيـون النـاسِ فـانكتما
إلا عيــوني مــا أغمضــت ســاهدها فبــتنَ يــرقبنَ منــك النَّــوء والظُلــما
قــد اتّقيــت أذاهــا فاســتثرت لهــا دمعًــا لهــتْ فيـه عـما فيـك منسـجما
صحبتُ فيكَ سُرى الأحلام مُفزعها وعــذبها! فطويــتُ الغــور والأكــما
فــما التقيــت بمــن أهــوى؟ أتحسبُها يقظــي؟ لــديك فــما أهــدتها حُلــما
وهــل نعمــت مــن الــدنيا برؤيتهــا؟ أما احترقت فأفزعـت النجـوم .. أمـا!
ألم تخنــك الــدراري مــذ شــغفن بهــا؟ وكيف وارين غرب الدمع حين همـا
تــرى هــل الأرض مأواهــا وموطنهــا؟ أم الســماء نمتْهــا فهــي بنــت ســما؟
مــن الســنا والنــدى والزهــر منزلهــا عـلى ثـرى مـن نـدي الغـيم قـد رُسـما
إن الأهلّــــة شيء مــــن أرائكهــــا! والفجــــر مرآتهــــا مــــا رفَّ مبتســــما
وســاءلتك وغــربُ الــدمع ســامرُها عنــي فألفتــك قــد أوليتهــا صــمما
فــردت الطــرف نحــو الغــيم حــائرةً فارتــدَّ بارقــة يجلــو لهــا الظلــما
وهــزّت الأفــق الســهران باحثــة عنــي وبـــتُّ أهـــزُّ القلـــب مضـــطرما
فــما نجومُــك وهــي النــيِّرات ســوى آثــار أقــدامها تــروي لــك الألمــا
ومــا أغانيــك وهــي الخالــدات ســوى أشــتات قلبــي تــروي حبَّــه نغــما
أمــا ســئمت مــن الآهــات نُرســلها نــارًا، وقلبــك مــن قلبــي أمــا سئِما؟
ضُــمَّ الفــؤادين لم تُبــق النــوى بهــما مــا يســتطيع حيــاةً إن همــا انصرــما

1944/1/16

***

خيالك

« إلى لبيبة ذات المنديل الأحمرْ .. نظرت إلى ظلك في الجدول فالتقت عيناي بعينيك أو عينيه فكان حبي لك أو له » .

لظلّكِ لو يعلمُ الجدولُ   على العذبِ من مائه مَنزِلْ
يمرُّ به القلب مرَّ الغريب   ويهفو له الحبُّ والمأمل
بأفيائه تحلم الذكريات   ويشدو الخيالُ ويسترسل
وقفت حزينًا لدى الضفتين   وحولي زهور المنى تذبل
وقد رفَّ ظلك فوق المياه   وجالت بأعطافه الشمال
ففي الموج مما رأى هزّة   يحار لها الشاطئ الممحِل
وسرحتُ عيني في مقلتين   يسدِّدُ سهميها الجدول
غرام! فهل تنكرين الغرام؟   وحبٌّ ، وهل منه لي موئل
تمنيت لو كنت ريحًا تمرُّ   على الظل ولهي فلا تعذَل
ويستأسرُ الموج إغواؤها   وترديدها النائح المرسل [47]
فتمضي ويمضي به للسماء   غمامًا بأرجائها يرفلُ
فأخلو بظلّكِ بين النجوم   وقد جال فيها الدجى المسبل
ففي كلِّ تقبيلةٍ نجمةٌ   تغوَّرُ أو كوكبٌ يُذهل [48]
خيالُكِ من أهلي الأقربين   أبر ، وإن كان لا يعقلُ
أبي .. منه قد جردتني النساء   وأمي .. طواها الردى المعجل [49]
وما لي من الدهر إلا رضاكِ   فرحماك فالدهر لا يَعْدِلِ

31 /1/ 1944

---

(47) كانت « ويفتنه لحنها » وصححت بخط الشاعر .

(48) كان عجز البيت : تغور وثانية تذهل . وصححت بخط الشاعر .

(49) يشير إلى زواج والده بامرأة أخرى حيث ترك الوالد بعدها منزل الأسرة .

أغنية الراعي

دعــي أغنامنــا ترعــى حيــالَ المــوردِ العــذبِ ،
وهيــا نعــتلي الربــوة يــا فاتنــةَ القلــب ..
فنلقــي تحتنــا الوديــانَ في ليــلٍ مــن العشــب !
خيالانــا بــه طيــفٌ مــن الآمــالِ والحــبِّ !

***

خطانــا تبعــثُ الــذكرى بقلــب الــورد والزَّهــرِ
ســيبقى في غــدٍ منهــا صــدىً ينســابُ في النهــر
وفي الأنــداءِ مــا ذابــت عــلى وقــع خطــى الفجــر
وفي أغنيــة الرعيــان مــا بــين الربــى الخضرــ!

***

ســئمنا العــالمَ الفــانيَ والنــاسَ ومرعانــا
لقــد ســجنوا بــأغلالٍ مــن الأنظــار نجوانــا
سننشــدُ في أمــانٍ مــن عيــون النــاس مأوانــا
ضــعي يــدك الجميلــة في يــدي ولنــذهب الآنــا

***

ومــن أثــوابِ قطعانــك يــا ريحانــةَ العمــرِ
نحــوكُ شراعَ زورقنــا ونطــوي لجّــة العمــرِ
نغنــي المــوْج أغنيــة الرعــاةِ عــلى الربــى الخضرــ
لقيثــارٍ روى أنغامَــه عــن ربّــة الشــعر!

***

نــــؤم جزيــــرةً منســــيةً في بحرهــــا النــــائي
طــــوى المــــوجُ بشــــطيها جناحَيــــه بأعيــــاء
إليهــــا أومــــأ المجــــدافُ لمــــا ضــــلّها الرَّائــــي
وأضــــحى دمعُــــه يرســــمُ أقــــمارًا عــــلى المــــاء
***

ســــنبني كوخنــــا تحــــتَ الغصــــونِ بجانــــب النبْــــعِ
ونملــــؤه بــــما شــــئناهُ مــــن زهــــرٍ ومــــن شــــمع
وأنغــــام رواهــــا الــــوترُ السَّــــكرانُ بالــــدمع
وعطــــرٍ قُطفَــــت أزهــــاره مــــن ذلــــك الجِــــذع
***

ســــتهوي شــــفتانا فيــــه نحــــو القبلــــة الأولى
فيصــــغي في صــــداها خــــافقٌ مــــازال مبتــــولا
إلى همــــس المجــــاديف طواهــــا الليــــل تقبــــيلا
إلى نجــــوى الينــــابيع بــــرَوضٍ بــــات مطلــــولا
***

تعــــالي نهجــــرُ الآثــــامَ والنــــاسَ ودنيانــــا
لأرضٍ ســــبقتنا نحوهــــا بالســــرِّ روحانــــا
هنــــاكَ نــــرى المنــــى ، والحــــبُّ والأحــــلام ترعانــــا
ضــــعي يــــدك الجميلــــة في يــــدي ولنــــذهب الآنــــا

1944 /2 /14

❋❋❋

المساء الأخير

« آخر مساء قبل مغادرة الريف »

بـربِّ الهـوى يـا شـمسُ لا تـتعجَّلي
لعـلي أراهـا قبـل سـاع الترحّـلِ

سريـتِ فـأفق الغـرب يلقـاك باسـمًا
طروبًـا وأَفـق الشرـق بـادي التـذلل

كـأنَّ السَّـنا إذ فـارق الأرض واعـتلى
رؤوس الـروابي والنخيـل المسـبَّل

أحاسـيس أخفاهـا الفـؤاد وصـانها
زمانًـا ففاضـت مـن عيـون ومِقْـوَلِ

وصفصـافةٍ مخضـوبةِ الـرأس بالسَّـنا
تـراع بزفـزاف مـن الـريح مُعـولَ

تبـينُ كعـذراء مـن الريـف أقبلـت
بجرَّتهـا مـن دافـق المـاء سلسـلَ

نعـى لي وللنـاس النهـارَ (مـؤذِّن)
وقـد كـان ينعـي لي فـؤادي ومـأملي

تمنيتُـه لا يسـمع الصَّـوت ، أخرسـا
تمنيت لـو يهـوي إلى الأرض مـن عـل!

ألا وُقـرت آذان مـن يسـمعونه
بأشـلاء قلـب في ضـلوعي مقتَّـلَ

ألا نثـرتْ مـن تحـت أقدامـه أسـىً
حجـارةُ ذاك المسـجد المتبتَّـل !

أطـرتُ عصـافير الربـى حـين غـردتْ
كـأنَّ بتغريـد العصـافير مقـتلي!

رأيـتُ بهـا شـهبًا بـدَهر مجـنّح
فأبغضـتُ أشـباه العـدوّ المنكـلِ

كـأني بـه لمـا يُمـدُّ جناحـه
يُمـدُّ لأكبـاد الـورى حـدَّ فيصَـلِ

ألا ليـت عمـرَ اليـوم يـزداد سـاعةً
ليـزداد عُمـرُ الوصـلِ نظـرة معجَـلِ

16/ 2/ 1944

***

شاعر

كفَّن بالأوراق آهاتِهِ ... وارتدَّ يرثيها بآياتهَ

واستأسرتْ أبياته روحَهُ ... فطاف يبكي حول أبياتِه

غنّى ليصطاد حبيباته ... فاصطاد أسماء حبيباته

إن تبك عينيه صباباتُه ... أبكي عيونًا بصباباته!

ساعاته في شعره خلِّدتْ ... ما بالُه يندبُ ساعاته!

وهو إذا ما أنَّ من لوعةٍ ... رجَّع كلَّ الكونِ أناتهِ !

إن دُسَّ تحتَ التربِ جثمانُه ... وكفَّ قلبٌ بين طياته!

خلّف قلبًا بين أشعاره ! ... يسمعُ من في الأرض دقاته!

21/ 4/ 1944

***

أغرودة

« إلى ذات المنديل الأحمر »

كفـــى طَرفــكِ اليــومَ أن غـــرّرا ... بقلــب جفــا الحــبَّ واســتكبرا
ضــــــللتُ وقـــــدّر لي أن أراكِ ... وأهـــوى فصـــبرًا لمـــا قـــدِّرا
أضـــاء حيـــاتي ســـنا مقلتيـــكِ ... فأبصرـــتُ مـــا لم أكـــن مبصرـــا
وشـــاهدتُ قفـــرًا بعيـــد الحـــدود ... تعـــانق فيـــه الســـماء الثـــرى
وقـــد خلـــت في ظلمتـــي أنَّ لي ... رفيقًـــا .. وهـــا أنننـــي لا أرى
فـــرُدّي عـــلى القلـــب أوهامَـــه ... وخلّيـــه فـــيما ادعـــى وافـــترى
«لبيبـــة» رحمـــاك إن الوصـــال ... أحـــبُّ إلى القلـــب لـــو خـــيِّرا
أهـــاب الغـــرام بقلبـــي الكئيـــب ... فخـــفَّ إلى عاليـــات الـــذرى
جناحـــاه ســـهمان في جانبيـــه ... يشّـــعان بالنـــار إمـــا سرى
بعينيـــكِ غـــدرٌ بكـــل الرجـــال ... ولكـــنَّ عينـــيَّ لـــن تغـــدرا
إذا لم تضـــمَّ الكيـــانَ النحيـــل ... ذراعـــاي .. حينًـــا ولم تصـــهرا
فقـــد ضـــمَّك القلـــبُ منـــذ اللقـــاء ... فطـــوَّق حســـنك واســـتأسرا
سأســـعى لأضـــفي عليـــكِ الخلـــود ... بشـــعرٍ مـــن الـــروح قـــد فجِّـــرا
فتمســـين أغـــرودة العاشـــقات ... وترنيمـــة الركـــب عنـــد السُّـــرى

19/ 3/ 1944

***

المنديل الأصفر

أتـــدري وقـــد أومـــأتْ للصـــباحْ ... أزاهـــيرُ قطـــنٍ بتلـــك البطـــاحْ

سـكارى مـن الطـلِّ صـفرُ الثيـاب ... هفـــا كـــلَّ طـــير لهـــا بالجنـــاح!

بـــأن الليـــالي ســـتختارهنَّ ... ليُصـــبحنَ منـــديل خـــودٍ رداح!

يتيــه - وحــقَّ لــه - بالشــحوب ... عـــلى حمـــرة في شـــفاه المـــلاح !

تبـــدّى وفي عطـــره عطرهـــا ... ومـــن سرهـــا فيـــه مـــا لا يُبـــاح

أمــن حبِّهــا جــاء هــذا الشــحوبُ ... وطـولُ اصـطحاب الأسـى والنـواح

أيشـــقى الـــذي ضـــمَّه صـــدرُها ... وروّاه مـــن ثغرهـــا كـــأسُ راح؟

كـــأني بـــه هالـــةُ البَـــدْر في ... ليـــالي الوصـــال العـــذاب الوضـــاح

كـــأني بـــه قبلـــةٌ جسَّـــمتْ ... عـــلى ثغرهـــا أو ثغـــور الأقـــاح

ففيـــه شـــذى القبـــل النـــاعمات ... وريُّ الأزاهـــير عنـــد الصـــباح

خريــــــفٌ ولكنــــــه كــــــالربيع ... يضـــوع بعطـــر الصِّـــبا والمِـــراح

فـــما مُـــذهب مـــن شـــعور الحســـان ... تراخـــي عـــلى كتـــفٍ واســـتراح

بمشـــــبهِ منـــــديلها فتنـــــةً ... وســـحرًا إذا جاذبْتـــه الريـــاح

أمنـــديلها مـــن تحـــبُّ الفتـــاةُ ؟ ... ألا! إن شـــأنَ الهـــوى أن يُبـــاح

لعـــليّ – ويـــا ليتنـــي – مـــن تحِـــبُّ ... فأشـــفي بـــذاك الضـــنى والجـــراح

أمنـــديلها لـــو مســـحتَ الـــدموعَ ... لمـــا بـــتَّ في لوعـــةٍ والتيـــاح !

24/ 3/ 1944

***

الوردة المنثورة

« وحي وردة نثرتها حسناء »

أعـولي يـا قيـاثرَ الشـعراء في سـكون الـدجى وصـمت المسـاء
وردةٌ أغمـضَ المسـاء عليهـا طرفـه وهـي في ثيـاب الـرواء
واستفاق الصباح يبحث في الوديان عنها وفي خدور النساء
فرآهـا بكـفّ عـذراء أزهـى مـن جنـاح الفراشـة البيضـاء
وهـي آنًـا تنيلُهـا ثغرهـا الغـضَّ وآنًـا تضـمها بازدهـاء
غـير أنَّ التـي تحطـمُ قلبًـا تنثـر الزهـر مثلـه في الفضـاء
لريـاحُ الخريـف أرفـقُ بـالورد وبالقلـب مـن يـدِ الحسـناءِ
نثرتهـا أمـام عينـيَّ لا تسـمعُ منـي تـذللي ونـدائي !
رحمةً منكِ فهي رمزٌ لحبي أنا أشقى فلا تزيدي شقائي
أنـتِ لـو تعلمـين كـم سـهرَ الـروض عليهـا وهبتِهـا للبقـاء
ربَّ طـيرٍ أظلّهـا بجناحيـه وغنـى لهـا أرقَّ الغِنـاء
رب نهـر مصـفق أرسـل الشـوق لهـا ذائبًـا مـع الأنـداء
رب راعٍ هفـا لرؤيتهـا شـوقًا وغنّـى عـلى تراجيـع نـاء
غـير أن الرُّعـاة والطـير والأنهـار تفـدي لعينـك الحـوراء
أنـت خلّـدْتها ولـولاك مـا غنَّـى بهـا منشـدٌ مـن الشـعراء
أنـتِ خلّـدْتها ولـولاك سـارت ـ مثلما سـار غيرهـا ـ للفنـاء
فـانثري الزَّهـر كـل يـوم ليحيـى في فـؤادي ويرتـوي بـدمائي
انثريـه لتلهمـي قلبـيَ الغـضَّ فيشـدو لحـون أهـل السـماء

2/ 4/ 1944

***

السجين (50)

سجين...

ولكــــنَّ ســــجني الكتــــابْ! وأغـــــلالي الآسرات الســـــطورْ

فــما بــين جنبيــهِ ضــاع الشــباب وفــوق الصــحائفِ مــات السرــور !

لقــد طــال بالقلــب عهــد العــذاب وهـــا أنـــه بعـــد صـــبر يثـــور

ســـأطويهِ لا رجعـــةٌ لا إيـــاب وأمضيــ طليقًــا كتلــك الطيــور

***

ســـطورُ كتـــابي أوتـــار عـــودٍ وأمضيــ يُوقّــع لحـــن الرثـــاء !

وأسراب غُــرب مــن الطــير ســود نواعـــبُ تنـــذرني بالشـــقاء [51]

أفي ظلمــة الكتــب أفنــي وجــودي وأحيــا بليــلٍ وحــولي الضــياء !

فيـــا نفـــسُ لا تـــذعني للقيـــود وثـــوري ولا تصـــبري للقضـــاء !

***

عيـــوني بآفاقِـــهِ ســـاهرات وحـــولي يبيـــتُ ردى رقّـــدا

بأرجائـــه ألتقــــي بـــالمات كـــأني عـــلى موعـــدٍ والـــرَّدى

ومـــا بـــينَ ألفاظـــه القاتمـــات أشـــعَّةُ عينـــيَّ ضـــاعت ســـدى

ومـــا بـــين أوراقـــه الصـــامتات ! تـــلاشي غنـــائي ومـــات الصّـــدى

25/ 4/ 1944

***

---

(50) وهي آخر ما في المجموعة الأولى «البواكير».

(51) (أسراب غرب) : « غربان » جمع غراب .

عودة الديوان

« إلى ديواني العائد من تجواله بين العذارى .. إلى ذلك الزورق المنتقل بين موج النهود أرفع زفرتي .. » .

ديوان شعري يعود من سفره! | ما ضرَّني لو يظلَّ في وطرِهِ
وكان في حنَّة فأخرجه | منها تجنّي الزمان في قدره
بين العذارى يبيت منتقلاً | يا ليتني سائرٌ على أثره!
ويسهر الليل في مخادعها | إني له حاسدٌ على سهره
ينام فوق النهود مُدَّكرا | فترجحن النهود من ذكره
ويوشك القطن في صحائفهِ | أن يُطلعَ المستحبَّ من زهره!
ديوان شعري يعود من سفره! | ما ضرّني لو يظلَّ في وَطَره !

***

زورقُ حبٍّ شراعه الغَزَلُ! | ما بين موج النهود ينتقلُ
قد ضلَّ ملاحه السبيل فما | أرسى على صدرها هي الأمل
لولا هواها لما تحرَّك | بالشعر يراعي فجاء يشتعل
عاد إلى صدري الكئيب وقد | ألقى المراسي فليس يرتحل !
عاد وقد مُزّق الشراع كما | مزَّق لذات عمري الملل
كالقلب إذا عاد من صواحِبه | تهدّه النائبَات والعِلَل
زورقَ حب شراعُه الغَزَلُ | ما بين موج النهود ينتقلُ !

***

أنلــــتَ مـــــن عطفهـــنَّ يــــا ورقُ ... مـــــا لم ينلْــــــهُ المسَـــــهَّد الأرقُ

فكنـــــتَ منـــــديل كـــــل باكيـــــةٍ ... مـــــنهنَّ ينتـــاب روحهـــا القلـــق

ســـدّدن أنظـــارهن نحـــوك يـــا ... ديـــوان شـــعري ولســـت تحـــترق

أمـــا تـــراني أكـــاد إن نظـــرتْ ... لي ذات حســـنٍ تُـــذيبني الحُـــرَق

لكـــنَّ شـــعري الـــذي ســـكبت بـــه ... قلبـــي عـــلى جانبيـــكَ يـــأتلق

ولا تلظّـــــى بنـــــاره أفهـــــل .. ... تهـــيج فيـــك الصـــبابة الحُـــدق

قـــد نلـــت مـــن عطفهـــن يـــا ورق : ... مـــا لم ينلْـــه المســـهَّد الأرِق

***

إن عـــادَ نفسيـ شـــجىً فزعزعهـــا ... أصـــبحتَ مرتادهـــا ومفزعَهـــا

تـــذيبُ أنفاسَـــها بأدمعِهـــا ... شـــعرًا وتلقـــي عليـــك أدمعَهـــا

فحـدّث الـنفس .. مـا رأيـت ومـا ... أسـمعتَ ممـن طرقـت مخـدعها !!

عـــن العـــذارى وكـــل عاشـــقةٍ ... ناحـــتْ فأنـــت قصـــائدي معهـــا

خبـــأنَ في جانبيـــك لي قُـــبلا ... هـــلا أريـــتَ الفـــؤاد موضـــعها

حسْـــبُ الحِيَّـــات مـــن عـــرائس ... شـــعري أن ظِـــلَّ الحســـان قَنَّعهـــا

إن عـــاد نفسيـ شـــجى فزعزعهـــا ... أصـــبحتَ مُرتادهـــا ومفزعهـــا

12/ 4/ 1944

مقطع بلا عنوان(ثج*)

وأي خـــــير في الهــــوى كلّـــــه   إن كنـــتما بالحـــبّ لا تعلـــمان؟
يــا زهــرتي قــد مــتُّ يــا زهــرتي   آه عـــلى مـــن يعشـــق الأقحـــوان
لــولا التــي أعطيــتِ ســحر اســمها   مــا بــتُّ أســتوحيكِ ســحرَ البيــان

18/ 4/ 1944

***

(*) وجدت بعض أبيات من القصيدة في كتاب إحسان عباس : بدر شاكر السياب ، دراسة في حياته وشعره (ص55، 56) ، وهي:

جاء الدجى يا زهرة القحوان   فانسلْ نحو المـــوعد العاشقان
مـــاذا ينال القـــلب يا ويحه   إذ يعطف الروض ولا تعطفان
وأي جدوى في أغـاني الهوى   إذ تســمع الدنيا ولا تسـمعان

رثاء القطيع

« إلى الراعية »

لقــد حــدثوني بمــوت القطيــع ... فشــدَّت عــلى القلــب كــفُّ الألمْ

رأيتُــكِ تبكــين بــين الثــرى ... وتستصرــخين رعــاة الغَــنم

وحولــكِ سربٌ مــن الراعيــات ... يخفّفــن عنــكِ الضَّــنى والسـأم [53]

أمــا أرّقــت عــينَ هــذا الــتراب ... دمــوعٌ لهــا فوقَــه منســجَمْ

مــن الأعــين الحــور ينبوعهــا ... فهــل تصــبحُ اليــوم تحت القــدم

لقــد زوّقــت تحــتَ أيــدي الأصيل! ... ســفوحُ الــروابي بظــلِّ القِمــم

وقــد حــوَّم النــومُ حــول الغــدير ... فــما بــالُ أزهــاره لم تــنم؟

وأمواجــه أخلــدت للســكون ... فــماتَ عــلى ضــفَّتيه الــنغم

وكانــت تغنّــي بحجــر النســيم ... إذا لفَّهــا موهنًــا واســتجم

أحزنًــا عــلى مــا أصــابَ القطيــع؟ ... رفيــقَ هواهــا ، عراهــا السَّــقمْ

ومالــكِ لا تملأيــن المــروج ابتسـامًا ... فــإن الربيــع ابتســم

وفــوق الثــرى ذاب قــوسُ السـحاب ... فبــادتْ عــلى جانبيــه الظّلَــم !

ريــاضٌ كــما يشــتهي العاشــقون ... ومــا صــوَّر الفــنُّ منــذ القِــدَم

ونَــوْرٌ ســها في شــفاه الزهــورِ ... ونهــر عليــه الــذهول ارتســم

أحزنًــا عــلى مــا أصــابَ القطيــعَ ... أليــفَ الــروابي ؛ اعــتراكِ الألم

ســأبكي وقــد كنــتِ تستضــحكين ... إذا الــدمع مــن نــاظريَّ انســجم

1944

***

(53) (وحولك) : في الأصل : وحوليكِ سرب! والفصيح هو : حولك وحواليك .

حورية النهر

نفـــــوس معذبـــــة هائمــــه ..　　تخـــبّط في الظلمــــة القاتمـــــه

أجـــدَّ لهـــا الليـــل أحزانهـــا　　وتــــذكار أيامهــــا الباســــمه

فســـارت تفـــتش عـــن حبهـــا　　وتنشـــــد لــــذّاتها الدائمـــــه

وأسرى بهـــا تحـــت جـــنح الظـــلام　　زوارق في اللجــــــة الغائمــــــه

***

إذا مـــا تلـــوَّتْ عـــلى الشـــاطئينِ　　مـــن النهـــر أمواجُـــهُ اللاطِمـــه

وأرســـــى عــــلى مائِــــهِ زورقٌ　　تؤرجحــــه النســــمة الحالمـــه

أطلّـــت عـــلى النهـــر حوريّـــةٌ　　فأغوَتْـــه بــــالنظرة الســــاهمه!

فـــأغوارُهُ وهــــي أوطانهـــا　　بـــواكٍ عـــلى فقـــدها نادمـــه !

وأمواجُـــــه وهــــي أترابُهـــا　　جثـــتْ تحـــت أقـــدامها لاثمـــه

أحوريّـــة النهـــر غُضي العيـــون　　وكــــوني بملاّحــــه راحمــــه !

تســـيرين في زورق مـــن ظـــلالٍ　　فتدفعــــه النســــمةُ الناعمـــه

ومجـــدافُك اخترتِـــهِ مـــن ضيـــ　　ـــاء النجـــوم عـــلى اللجـــة القاتمـــه

***

وأطربـــتِ النَّهـــر والضـــفتين　　أغـــانٍ وقيثـــارة ناغمـــه

لقـــد حـــقَّ أن تســـحرَ الكائنـــات　　وتســــتل آهاتهــــا الجاثمــــه

فأوتارهـــا شـــعرُك العســـجديُّ　　وأنـــتِ الموقَّعـــة الباســـمه

رأى النهـــرُ مصرـــع ملاّحِـــهِ　　بعينيــــك أيتهــــا الظالمــــه

***

رآك فهيــــــأ مجدافَــــــهُ　　وأســـلَمَ زورقَـــه للظَّـــلام

يثـــيرُ إذا ســـارَ عـــزم الميـــا　　ه فتطلـــقُ عـــن جانبيـــه السِّـــهام

طغـى المـوج وارتـدَّ يطـوي الظـلال　　فلـــم يُبـــق للعـــين إلا القتـــامْ !

فيـــا زورقًـــا مـــن ظـــلال تلاشـــى　　بحوريّـــة لـــيس ترعـــى الـــذمام!

أخلفـــت ملاحَنـــا وحـــده　　وللمـــوج في الشـــاطئين احتـــدام؟

وحوريـــة النهـــر مـــا خلّفـــت ... ســـوى أغنيـــات تثـــير الغـــرام
يجـــــاري اختلاجاتهـــــا زورقٌ ... ومـــوجٌ وقلـــبٌ حـــواه الهُيـــام
ونهـــرٌ تمـــازج أمواهـــهُ ... ويحملهـــا رغـــوه إذ تنـــام
ونجـــمٌ يعشيـــ الـــدجى ضـــوءه ... كنبـــعٍ عـــلى ثغـــره العشـــب نـــام
ويقتـــاف آثارهـــا زورق ... وملاَّحـــه الشـــارد المســـتهام
يطالعـــه طيـــف حوريّـــةٍ ... مـــن المـــوج يختـــال في الابتســـام
فمِـــن كـــلِّ صـــوب سرى خالَهـــا ... هنـــاك وإن ســـار ألفـــى الظـــلام
أوَهْمًـــا يـــرى؟ لا فـــذا صـــوتها ... ينتهـــي فتعيـــد الميـــاه الكـــلام
ولاحـــت لـــه أعـــين مشـــفقاتٌ ... محدّقـــة مـــن وراء الغـــمام
تنـــادي بـــه : ظللتـــك الخطـــوب ... وقادتـــك نحـــو الـــردى والحـــمام
ولكـــن أذنيـــه لم تســـمعا ... حـــديث الســـماوات حيـث الســـلام!

***

جـــرى وهـــو لـــيس لـــه غايـــةٌ ... ســـوى أن يجـــدِّف حتـــى الصـــباح
ويقفـــو عـــلى المـــاء ضـــوء النجـــوم ... ويصرـــع أشـــجانه بـــالنواح
لقـــد حطـــم الليـــل مجدافـــه ... وهـــيض الشرـــاع بعصـــف الريـــاح
وقـــد أطفـــأ المـــوج مصـــباحه ... فصـــاح ولم يُجـــدِ ذاك الصـــياح
تبرّمـــتَ يـــا ليـــل بالبائســـين ... فـــزُلْ واتـــرك الصـــبح يأســـو الجـــراح
ونـــادى وقـــد مـــدّ كلتـــا يديـــه ... لقـــد حـــان يـــا أرض عنـــك الـــرواح
فيـــا شـــاطئًا كـــان مـــأوى الغريـــب ... إذا مـــلَّ طـــول السُرـــى فاســـتراح
وداعًـــا .. وداع الشـــقيّ الحـــزين ... يســـير إلى المـــوت بعـــد الكفـــاح
ويـــا زمّـــج المـــاء خـــدن الســـفين ... ســـمير الشرـــاع الطـــروب الصـــداح
كلانـــا يحـــنُّ إلى تربـــه ... فطِـــرْ لي فـــإني مهـــيض الجنـــاح
ويـــا أنجـــم الليـــل يـــا عـــوّدي ... إذا القلـــب في الليـــل بالـــداء طـــاح!

إذا مــا خبــا نــور كنَّ الــوضيء   أســىً وتــألّق نجــم الصــباح!

فحدَّثنــه عــن فتــى في الــدجى   طــواه العُبــاب وحــبُّ المِــلاح

رأى – ويــح عينيــه – حوريّــة   فجــنَّ بهــا ســاعة ثــمّ راح

فقــد يُخْــبرُ الــنجم عنــه الرعــاة   فيبكــون حزنًــا وتبكــي البطــاح

ومــات الشــقيُّ الحــزين فعــادت   تكفَّنــه بالشرــاع الريــاح !

***

من أغاني الربيع ...

حُلُـــــمٌ بآفـــــاق السُّرــــــور رســـــمْته أجنحـــــةُ الطَّيـــــورِ

وبشـــــائرٌ فـــــوق الرُّبـــــى بـــــينَ الخمائـــــلِ ، في الصُـــــدور

ونســـــائمٌ رقصـــــتْ عـــــلى زهـــــر الجنـــــائن والغـــــدير

وفراشـــــةٌ قـــــد روّحـــــتْ عـــــن زهـــــرة الحقـــــل النضـــــير

تعلـــــو وتهـــــبطُ في الريـــــاض كأنهـــــا نَغَـــــم الحبـــــور

الفجـــــر يبنـــــي للنـــــدى وَكَنًّـــــا جمـــــيلاً في الزهـــــور

فلنـــــبنِ مـــــن قبلاتِنـــــا للحُـــــبِّ عشًـــــا في الثغـــــور

***

شعاع الذكرى

يبعــث الهـــمَّ لي شــحوبُ المســاءِ ويثــيرُ الــدفينَ مــن بُرَحــائي ..
أخلـدت روحـي السـؤوم إلى الوحـدةِ والقلـــبُ للأســـى والعنـــاء
فطلبــتُ القفــار أنســى بهــا النــاسَ وأخلـــو بـــأدمعي وشـــقائي
مجلسيـــ في هـــدوئها قـــربَ نهـــرٍ عنـــد أقـــدامِ دوحـــةٍ لفّـــاءِ
فريـــاح الخريـــفِ تنســـلُّ منهـــا ورقـــاتُ الخمائـــل الفرعـــاء ..
ونعيـــبُ الغربـــان يصـــعد في القفـــر كئيبًـــا مشـــوَّش الأصـــداء
وســجوفُ الغــمام في رحبــات الأفــق مخضّــــــلةً بـــــدمْع ذكـــــاء
وأنــين الميــاه يــدفعُ بالــذكرى لقلبــي ويســــــتثير دمـــــائي ..
ســمعته الضّــفَافُ فــارتجف العشــبُ أو تجــافَ أهــداب عنــد البكــاء
وتنهـــدتُ زافـــرًا فأجابـــتْ زفــــراتي تنهـــداتُ الرعـــاء
فالربابـــات رنَّحتهـــا الأغـــاني ولهـــاثُ المزمـــار مـــلءُ الفضـــاء
وكـــأن القطيـــعَ في خضـــرة المـــرج غـــمامٌ في الليلـــة القمـــراء ..
وقلــوبُ الزهــور طافــت بهــا الــذكرى فعـــادت تفـــيض بالأنـــداء
مــن لقلبــي الكئيــب أيتهــا الصــحراء إلا الرمـــال في الصـــحراء؟
آه لـــو تكتمـــين سري لحـــدثتكِ عـــن جنـــةٍ تركـــتُ ورائـــي ..
عـــن هـــوايَ القـــديم في الريـــف والأحــلام والأنــس والمنــى والرجــاء
فالصّــبا ضــاحكٌ وراعيتــي الحســناءُ في المـــرج بانتظـــار اللقـــاء ..
كـــم لجأنـــا إلى الشـــواطئ نـــتروح في لـــذة عطـــور الســـماء
ينشرــ الظــلَّ فوقنــا ســعفُ النخــل ويُلقـــي الهـــدوء صـــمت المســـاء
أقبـــل المـــوجُ – إذ رآنـــا – إلى الســاحل يرنــو لوجههــا الوضــاء
كـــم خلونـــا إلى الحقـــول ضـــحى ننصـــت فيهـــا ! إلى همـــاس الضـــياء
والنهـــيراتُ مائلـــاتٌ تـــرى الســـهل وجيبًـــا يشـــقُّ صـــدر الفضـــاء

***

لم يعــد لي مَــن الهــوى غــير ذكــرى   هـــي في مســـمعي نشـــيدُ الرثـــاء!

ذكريـــات الهــوى ، لأنـــتِ شــعاعٌ   راقــصٌ فــوق موجــةٍ مــن دمــائي

***

ضلال الحب

والعَصْرِ مخضوبَ البنانِ وأزهارِ الحقل الحسان
والصَّبحَ يملأ بالندىَ عطرًا سلال الأَقحوان
والبدر وهو مظلّةٌ لليل تمتلكُ افتناني
إن الفؤاد لفي ضلال من هواه وفي هوان
ما داخَلَ الحبُّ الفؤا دَ فعاد بيتًا للأماني ..
أو بات في روضٍ وأصبح باسمًا نضرَ المجاني
هبط النعيم وساكنيه فرده خلو المعاني
سل عنه أزهار الحقول على جداولها حواني
سل زهرة التفاح ضاحكة الأسرَّة والمعاني ..
يا زهرة التفاح .. هلا تُخبرين عن الجنان !
يوم استفزَّ بها الهوى قلبين باتا يخفقان
اروي لنا نبأ (الطريد) فأنتِ راويةُ الزمان
أغوته (حوّاءُ) فمدَّ يديه نحو الأفعوان
ثمرٌ يحرِّمه الإله عليهما .. ويحلّلان
ذاقا فكانا ظالمين فكيف يجزي الظالمان؟
وبدا المواري منهما فإذا هنالك سوءتان
وعليهما طفقا من الو رق المهدَّل يخصفان ..
يا بؤس من فضحَ الإله ولم يزده سوى الهوان
لم يعرف الدوحُ الخريفَ ونزع أوراق حسان
حتى نضى ورقاته العاشقان الآثمان

***


بدر شاكر السياب
(2)
أزهار ذابلة
وقصائد مجهولة التاريخ

اسم لباب[54]

السمواتُ ، بالسواد المذاب : ضائعاتُ المدى، فيا لاكتئابي
لم تطرْ خلفَ كل نجمٍ شرود نظراتي ، وإثر كلِّ شهاب ..
وتطفْ في السماء ، إلا لكي ترسمَ بين الكواكب اسمَ «لباب»
وسلتْ بين كل نجم ونجمٍ بشعاع من الهوى والشباب ..
فَهْيَ في روضة من اسم التي تهوى ، وفي مدرج وضيء الشعاب
كيف أنساكِ يا لباب وأسلوك وضوء النجم ليس بخاب
كلما ارتادهنَّ طرفي ، تذكرتكِ فاستتبع ادكاري عذابي
وتجرعتُ من سناهن كأسًا تنكأ الجرحَ في الفؤاد المصابِ
أين نهر النسيان يا أنجم التذكار يا من يهجن من أوصابي
يبدل القلب ماؤه العذب وردا وشرابًا ، بمورد وشرابِ

***

ملأتْ سمعي باسمكِ العذب يا عذراء شعري ، تنهداتُ الرباب ..
فاسمك العذبُ كل ما تسمع الروح من الطير هائمًا في الروابي
في سُرى كلِّ نسمةٍ أو شعاعٍ في لُغى كل جدول منساب
في حفيف النخيل من كلِّ روضٍ في اختلاج الشراع فوق العباب
واسألي السامرين كم بتُّ والليلُ وضوء السماء ، غض الأهابِ
لا يعي مسمعايَ غيرَ حروفٍ جمعاها فكانت اسم لبابَ
أنا أهواك لستُ أرجو على الحب ثوابًا ، فإن حبي ثوابي

***

(54) كتب الشاعر هذه القصيدة في أبو الخصيب بتاريخ 6 يونيو ـ حزيران 1944.

المحبوبة المدنسة[55]

أتحـــبُّ خائنـــةً وأنـــتَ الشـــاعرُ ؟   وتـــود هاويـــةً وأنـــتَ الطَـــائرُ ؟
أحببتهـــا وجهلـــت كـــلَّ مغيَّـــبٍ   مـــن فعلهـــا ، وكـــذا الغـــرام العـــاثرُ
ممـــا يغـــص القلـــب في خفقاتـــه ،   ويـــرد طـــرفي وَهْـــوَ بـــاكٍ حـــائرُ ..
أن التـــي خفـــق الفـــؤاد بحبهـــا   عـــامين ، دنســـها خليـــعٌ فـــاجرُ
أأحبهـــا أســـفا وتحـــتَ ثيابهـــا ،   مـــن أمســـها الـــدنسِ الوضـــيع مقـــابرُ
ونـــواظر كانـــتْ نـــواظرَ للخنـــا   والعـــارِ ، صـــيغَ لهـــا القصـــيدُ الطـــاهرُ
كانـــت تغـــضّ مـــن اللـــذاذةِ بـــل كفـــى   كـــم يســـتطير بـــك الخيـــالُ العـــاهرُ ؟
يـــا مـــن حرمـــتَ عـــلى الهـــوى تقبيلهـــا   حـــين ارتضـــيتَ بـــها يصـــيبُ النـــاظرُ
فـــيم الهـــوى العـــذريُّ ؟ ويحـــك إنهـــا   كانـــت وجالـــب عارِهـــا تتـــآمرُ ..
ورفعـــتُ الحمـــأ الـــدنيء عبـــادةً   علويـــةً وأنـــا الـــذليلُ الصـــاغرُ
صـــاغ الخيـــالُ مـــن الـــترابِ كواكبًـــا   فأفادهـــا ألقًـــا ، ســـناه البـــاهرُ
لاولا اتبـــاعي للخيـــالِ وجـــدتني   وأنـــا ـ عـــلى مـــا شئـــتُ منهـــا ـ قـــادرُ ..
أواه « بَيْرُن »[56] أنتَ من عَرَفَ الهوى   روحـــي فـــداؤك والهـــوى يـــا شـــاعرُ
الحـــب تقضـــيه المـــآربُ والمنـــى   مـــا أمكنتـــك مـــن الحبيـــب مقـــادرُ
لا أن تحَـــرَّقَ لوعـــةً وصـــبابة   وتـــذيبَ قلبـــك وهـــو غـــضٌّ زاهـــرٌ ..
شـــغفًا بغـــادرةٍ ســـواكَ ينـــالُ مـــن   ثمراتُهـــا مـــا بِـــتَّ عنـــه تـــزاور ..
كـــم تخـــدع الشـــعراء روحانيـــةٌ   ألـــوهمُ حـــاكَ حجابهـــا والخـــاطرُ
مـــا في رحـــاب الأرض مـــن حوريـــةٍ   أو في مـــداها الطلـــق روحٌ طـــاهرُ

(55) كتب الشاعر هذه القصيدة في «أبو الخصيب» بتاريخ 20/ 7/ 1944 . وكتب الشاعر هامشًا يقول : «المعينة هنا ، لم يرد ذكرها في غير هذا الموضع ، من هذا الديوان» .

(56) «لورد بايرون» شاعر إنجليزي ، ما اتصل بحسناء إلا قضى وطره منها . ونبذها بعيدًا عن أجواء هواه . «الشاعر» .

يا هواي البكر [57]

يــا هــواي البكــر ، دنيــا ذكريــاتي ... كلّهـــا ، عابـــت وراء البســـماتِ

يــا هــواي البكــر ، قــد أنســيتَني ... مــا تــولى مــن غــرام الناســياتِ

يــا ربيــعَ العمــرِ ، يــا إشراقــةً ... في شــباب ، يــا حيــاةً في حيــاتي

يــا دمًــا غــذّى دمــي ، يــا فرحــةً ... مزقــتْ ثــوبَ الــبلى عــن فرحــاتي

أنــتَ جمَّعْــتَ المنــى في ســاعةٍ ... أفتــديها بالســنين الماضــياتِ

كنــتُ قبــل اليــوم ظــلاً ضــائعًا ... خــافيَ التطــوافِ ، محجــوبَ السماتِ

باســطًا مــن هــوةِ المــاضي يــدي ... صــارخًا ، والبعــدُ يــوهى صرخــاتي

كنــت .. مــاذا كنــت ؟ قــبرًا جائعًــا ... زادهُ شــعري ودامــي أغنيــاتي

كنــت .. مــاذا كنــت ؟ نــارًا عيشــها ... ميتــة ، يغتــالُ نــوري جــذاوتي !

يــا غرامــي ، يــا ســني فــضّ الــدجى ... يــا خريــرًا طــافَ في صــمتِ الفــلاةِ

أنــت جمعــتَ المنــى في ســاعةٍ ... أفتــديها بالســنين الماضــياتِ

هــذه عــذراءُ شــعري ، هــذه ... أخــتُ روحــي هــذه كــلَّ حيــاتي

كيف أضحتْ وهي قربي ؟ من طوى ... شــقةً أعيــىَ مــداها خطــواتي

الــراوبي ، والصــحارى ، والضــحى ... والنخيــلُ الشــمُّ ، والغيــدُ اللــواتي

والعيــونُ الخــورُ .. غابــتْ كلهــا ... عــن عيــونٍ بالأمــاني مترعــاتِ

لا تــرى عينــاي ، ممــا حفنــي ... غــيرَ أضــواءِ ابتســام والتفــاتِ

أيّ صــوتٍ نــثَّ ســحرًا في دمــي ... شــاعريَّ اللحــن ، غــضَّ النــيراتِ !

« هــات لي شــعرًا » فــؤادي كلّــه ... صــار أنغامًــا عــذابًا ســاحرات

كــلَّ جــرح في فــؤادي شــاعرٌ ، ... صــادحُ القيثــارِ ، مســحور اللهــاة

الأغاريــدُ التــي رتلتُهَــا ... والخيــالاتُ التــي في أغنيــاتي

---

(57) كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ 11/ 12/ 1945 .

والســهولُ الفــيحُ ، والــريحُ الــذي　　　هــزَّ روحــي ، والحســانُ الملهــمات
تفتــدي غمازَتــيْنِ [58] انــداحَتَا　　　فــوق خــدين اســتثارا حسرــاتي
زينــتْ غمازتــاكِ الملتقــى　　　لابتســامات الهــوى بعــد الشــتاتِ
شــعَّ . فــوق الثغــرِ منهــا كوكــبٌ　　　مــرجحنُّ اللمــح ، محمــرُّ الشــياتِ
وانتحــى عينيــك مــن تيارهــا　　　مســتفيضَ السـيلِ ، جــمّ الــدفقاتِ
حــين ضــاق الثغــرُ عــن إشراقــةٍ　　　صــبَّها فــوق العيــونِ الســاحراتِ
أتــرعَ العينــين حتــى فاضــتا　　　بابتســام الحــبِّ فــوق الوجنــاتِ
يــا يــدًا مــرَّت كــما رفَّ النــدى　　　فــوق أزهــارِ المصــيفِ الظامئــاتِ
قَلَّبــتْ ديــوانَ شــعري ، صــفحةً　　　بعــد أخــرى ، وهْــوَ دنيــا ذكريــاتي
أيُّ جــرحٍ ســاكنٍ حركتــه　　　أيُّ قيثــارٍ ، نــؤوم الــنغماتِ ؟!
ســا شــفاها رفَّ شــعري بينهــا　　　راقصًــا في موكــبٍ مــن همســاتِ
أنــتِ جمعــت المنــى في ســاعةٍ　　　أفتــديها بالســنين الماضــياتِ
ذاك يــومٌ غــابَ عمــري بعــده　　　في ديــاجير البعــاد العابســاتِ
عــدتُ .. مــاذا عــدتُ ؟ قــبرًا جائعًــا　　　زَادُهُ شــعري ودامــي أغنيــاتي
عــدتُ .. مــاذا عــدتُ ؟ نــارًا عيشــها　　　ميتــة ، يغتــالُ نــوري جــذواتي
كلــما غــابَ الهــوى عــن خــاطري　　　عــاد محفــوفَ السُرــى بالــذكرياتِ
.. راقصــات الخطــو ، في مصــباحها　　　شــعلةٌ يوقِــدْنها مــن خــاطراتي
شــعلةٌ طافــت بثغــري فــاختفى　　　ضــوؤها تحــتَ الــدموعِ الســاكباتِ

***

(58) الغمازة : نقرة في الخد من دلائل الجمال ، (رصعة) ـ الهامش للشاعر .

لو أراها (59)

لــو أراهــا ، فارقــتْ قلبــي إليهــا أغنيــاتي
وارتميــتْ مــا بــينَ نهـديها نشــاوَى راقصــات
لــو أراهــا .. آه لــو أدركــتْ ُيومًــا أمنيــاتي ..
ماتــت الشــكوى عــلى ثغــر تمــادَى في الشــكاةِ !

***

لــو أراهــا .. كيــف إقبــالي عليهــا لــو أراهــا ؟
هــل تــراني أســتطيع الســير .. إن حثــت خطاهــا؟
أم ســيطغَى ذلــك الوجــدُ الــذي غشَــى حيــاتي
كــي يحيــل الخطــو - يــوم الملتقــى - آهــا فآهــا؟

***

أيُّ غـــابٍ ســـاهمِ الأفيـــاء بســـام النخيـــل
نــائمٍ في الضــفَّة الســكرَى عــلى حلــمٍ جميــل
يجمــع القلبــين يــوم الملتقــى بعــد الشــتات
في ضــحىً زانتــه ربَّــاتُ الهــوى أو في أصــيل؟

***

أيُّ دربٍ عطــرْت أنفاسَــه ريــح الشــتاء ؟
عــجَّ بــالنجوى .. بآهــات العــذارى .. بالغنــاءِ
بابتســامات الأحبــاء ، بشــوق العاشــقات
ألتقيهــا فيــه مــن التجــافي والتنــائي

***

(59) كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ 28/ 12/ 1945 .

أيُّ مغنــى شــاعَ في أنســامِه عطــرُ العــذارى ؟
أيّ روضٍ شاحبِ الساحاتِ ساجٍ كالصحارى؟
أيّ ليــلٍ واجــمِ الأفــلاكِ ، مســودِّ الشــياتِ
تُســعِدُ اللقيــا بــه قلبًــا جموحًــا مســتطارا

***

لــو أراهــا .. ليتهــا يومًــا تمنَّــتْ لــو تــراني ..
ليتها تشتاقُ بعضَ الشوقِ .. يا ويح الأماني !
أيُّ جــدوى في أمانيــكَ العــذابِ الباســماتِ؟
كلــما أشرقــنَ غــاضَ النــورُ عنــي واجتــواني

***

نبئينــي يــا ســماءَ الغيــب أنبــاءً عِــذابا
أسد لي - من بعدها - من دون عينيّ الحجابا
أيّ يــوم تجــتلي مــن ليلِــكِ الــداجي حيــاتي ؟
علّنــي أدري : امــا أفنيــت بــالغمِّ الشــبابا ؟

***

حسبُ روحي « صورة » إن هزني شوقٌ أراها
نَضَّرــتها زهــرةٌ قــد نضّرــتها وجنتاهــا..
وابتســاماتُ وألحــاظٌ تُســاقي ذكريــاتي
حمــرةً يُفْــدَى بآمــالِ التلاقــي ســاقياها !!

***

السائلة السوداء (60)

ليــــتَ الخـــلـيّ ومنــــه شـــكواكِ أصـــماه خطبـُّـكِ حــين أصـــماكِ
ســــوداءُ ويحـــك أيُّ فاجعـــــةٍ ســــوداءَ تكمـــنُ تحـــت مـــرآكِ !
يــا مـــن تَهضَّـــمها ، عـــلى كــبر ، فقـــــر يكـــــرُّ بقلـــب ســــفَّاكِ
فلــــواتُ (أفريقيــــة) انتفضـــتْ لمـــا تَـــردَّدَ صـــوتُكِ البـــاكي
جُنَّـــتْ مغاورُهـــا لَِمــا ســمعتْ وهفـــتْ جمائلهــــا للقيـــاكِ
وبكـــلِّ منعطـــفٍ بكـــى أثـــرٌ قـــد أرضـــعْته العـــيشَ رجـــلاكِ
فعـــلى الغـــديرِ غشـــاوةٌ عبثـــتْ بـــالموجِ فهـــو مفجَّـــعٌ شـــاكِ
وعـــلى الأزاهـــر هجعـــةٌ ودمٌ ســـاجٍ تَطَلَّـــعُ منـــه عينـــاكِ
والغـــاب هـــزَّ جنـــاحَ طـــائره جـــرحٌ تمـــرّ عليـــه كفَّـــاكِ
وجـــرتْ دموعـــك في دجـــى هـــرمٍ واهـــي الســماء ، بنـــاه خـــدَّاكِ

***

يـــا مـــن تمـــدُّ يـــدًا لمـــنْ عَـــبَرا وتظـــلَّ تتبـــعُ شخصَـــه النظـــرا
يـــا مـــن تعـــد خطـــىً تمـــر بهـــا شـــتّى تزعـــزع صـــبر مـــن صـــبرا
مــــا بـــينَ لاهيـــةٍ ، مرنحـــةٍ مـــن فرحـــةٍ ، جلبـــتْ لهـــا الكـــدرا
وبطيئـــــة كســـــلى ، يُنقِّلهـــــا واهـــي الفـــؤاد يعاتـــبُ القـــدرا
مــــا بـــينَ عاجلـــةٍ إذا اقتربـــتْ منهـــا تســـلَّلَ ربُّهـــا حـــذرا
وشـــجيةٍ وقفـــتْ بجانبهـــا لتنـــالَ مـــن وقفاتهـــا ثمـــرا
يـــا قصـــةٌ دميـــتْ ومـــرَّ بهـــا قلـــبُ الغنـــيِّ ضـــحّى فـــما شـــعرا
حركـــتِ خـــافقَ شـــاعرٍ حنـــق فمضـــت يبـــث الشـــعر مســـتعرا
وأقامهـــا حربًـــا مضرـــجةً تُصـــمي القســـاه وتفلـــقُ الحجـــرا
وتهـــزُّ بـــابَ القصرِـــ صـــارخةٌ هوجـــاءَ تقـــذف حولهـــا الشرـــرا

***

(60) كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد عام 1945 دون أن يحدد اليوم والشهر اللذين كتبت فيهما .

بـــالأمس كنـــتِ ضـــحيةَ الـــرقّ وايـــومَ أنـــتِ ضـــحيةُ العتـــقِ
الـــــرقَّ زالَ فأنـــــتِ مُطْلقَـــــةٌ في عـــــالمِ متهلِّـــــلِ الأفْـــــقِ
الســـيدُ القـــاسي غـــدا حُلُـــمًا والقيـــدُ لانَ لقبضـــةِ الحـــقِّ
وشـــقيتِ أنـــتِ ، فـــأي فاجعـــة صَـدَعتْ فـؤادَكِ يـا ابنـةَ الشرـق ؟
يـــا مـــن عريـــتِ وأنـــتِ خالعـــةٌ عـــن منكبيـــكِ مطـــارفَ الـــرقِّ
يـــا مـــن ظمئـــتِ وأنـــتِ عائفـــةٌ كـــأسَ العبيـــدِ وذُلَّ مـــا تســـقي
يـــا مـــن ســـبغتِ وأنـــت تاركـــةٌ زادَ الأســـير بغـــير مـــا شـــوق
الـــرقَّ فجَّـــر راحتيـــك دمًـــا يغـــلي ، وصـــاحَ تنـــاولي رزقـــي
والعتـــقُ مهلكـــــةٌ ، معالمهـــــا ســـودٌ ، تعـــجُّ بكـــلِّ مـــا يُشـــقي
غِـــلاَّنِ مضـــطرمانِ مـــا اختلفـــا يغـــــريهما بـــــك ألأمُ الخَلْـــــقِ

***

يـــا مـــن رأيـــتُ بحالهـــا حـــالي ورثيتُهـــــا فرثيـــــتُ آمـــــالي
إنَّـــــا لمثلـــــكِ في مواطننـــــا نشـــقَى ويـــنعمُ كـــلُّ محتـــالِ
نحـــن العبيـــد تبيعُنـــا أمـــمٌ غشـــمى ، بـــمالٍ خـــابَ مـــن مـــالِ
شرقٌ يبيـــع لمغـــرب جشـــع خـــالي الجـــوانح ، فـــارغ البـــالِ
ومتوَّجـــــانِ تهادَيـــــا دررا غواصُـــــهُنَّ دفـــينُ أســـــمالِ
وَلَّى شـــبابُكِ مـــا انتفعـــتِ بـــه وذوى ربيـــعُ شـــبابنا الحـــالي
مـــا بـــينَ مغتصـــبٍ يجرِّعُنَـــا كـــأسَ الهـــوان وقلبُـــه خـــالي
وأخـــي ثـــراءٍ لا تحركـــه حسرـــــاتُ زراعِ وعـــــمالِ
لولاهمـــا لأمنـــتِ مســـغبةً تخشـــى وبـــتِّ بخـــير مـــا حـــالِ
لولاهمـــا لخـــلا ثَـــرَى وطنـــي مـــن كـــادحينَ ســـدىً ، وســـوَّالِ

***

بعد اللقاء (61)

يـا حُـبُّ .. مـا بـالي سـئمت الحيـاة ؟ ومـــا لأنفـــاسي أراهـــا تضـــيق؟
مــا للعيــون الحــور .. مــا للشــفاه ظلـــماءُ مـــا فيـــه ســـنىً أو بريـــق ؟

***

مـا للغـرام العـفِّ ، مـا للفجـور .. لا يرضـــيان الشـــاعر المســـتهام ؟
أيـن الهـوى ؟ مـات الهـوى والشـعور والقلـب ؟ أيـن القلـب ؟ ذاك الحطـام

***

يـا شـعر .. مـا بـالي سـئمت الغنـاء والكـــون حـــولي منصـــت يســـمعُ
غنيــت حتــى ضــاق صــدر الهــواء فـــما لصـــوتٍ عنـــده مطمـــعُ

***

غنيــت حتــى مــسَّ قلــبَ الحبيــب شـــدوي ، وحتـــى ثـــار فيـــه الهـــوى
أغفــى فلــما هجــتُ فيــه الوجيــب أمســـى لغـــيري واحتملـــتُ النـــوى

***

يـا عمـر .. والعشرـون تقفـو خطـاي كالليـــل ســـوداءَ الخطـــى والثيـــاب
هـل هُـنَّ لي وحـدي ؟ أمـا مـن سـواي ماشٍ ، كـأن الـريح خلـف السـحاب؟

***

يـــا عمـــر .. مـــالي مطمـــع بالســـنين حســـبي ثـــلاث بعـــد ذاك العـــذاب
في الريـــف أقضـــيهن حتـــى يحـــين يـــومي ، فيـــؤويني إليـــه الـــتراب
مـأواي كـوخ مـن جـذوع النخيـل في غابـــةٍ لفَّـــاءَ بـــين الـــتلال
أعـدو إليـه الصـحب بعـد الأصـيل والليـــلِ ، مـــا إن يعترينـــا مـــلال

***

يـــأتي عـــليَّ الصـــيفُ بعـــد الربيـــع والزهـــرُ بعـــد العاصـــف الزمهريـــر
والنكبـــةُ الهوجـــاءُ لا تســـتطيع إطفـــاء مصـــباحَ الشـــباب النضـــير

**

---

(61) كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ 5/ 1/ 1946 .

يـا شـعر .. أنـت العمـر .. أنـت الحيـاه   والحـب ، لـيس الحـب شـيئًا سـواك
فـإنْ سـمعت القلـب يومًـا دعـاه   فـاعطف عـلى قلـب كئيـب دعـاك

***

يـا قلـب . بـالأمس اشـتهيتَ اللقـاء   واليـوم كـان الملتقـى ، كيـف كـان ؟
واحسرتـاه ، فـيم الأسـى والبكـاء   يـا مـن بلغـتَ الأمنيـاتِ الحسـان ؟

***

هاتـان عيناهـا ، يكـاد الحنـين   يـذكي سراجيـه بتلـك العيـون
الـدهر ينسـى فـيهما كـل حـين   أعوامـه الجـذلى وبعـض القـرون

***

إن شـاءتا أن تمنحـاك الربيـع   فينـانَ ينـدى ، في ليـالي الشـتاء
عـاد الهزيـع . الجـون بعـد الهزيـع   روضًـا تحليـه الزهـور الوضـاء

***

النظـرة العجـلى شـهور طـوال..   يحظـى بهـا عمـر المحـب السـعيد
والنظـرة المكسـال عنـد الوصـال   عـام ، يكـر العـام وهـو الجديـد
مـا بـال قلبـي أثقلتـه الجـراح ؟   والأرض مـن تحتـي أراهـا تميـد ؟
بَـلْ مـا لطـرفي ؟ أسـبلته الريـاح ؟   أم غـاص في غـور الفـؤاد البعيـد

***

هـذي يـدي تنسـل نحـو النسـيم   مـن غـير علمـي ، لا ملكـتُ اليـدا
وذاك ثغـري عـاد طيفـا يهـيم ..   بـين ابتسـاماتٍ طواهـا الـردى

***

هـذا هـواي البكـر : عَـبْرَ الطريـق   يـدنو .. فيـزداد اللظـى والغـرام
مـا بـال صـدري باشـتياقي يضـيق   ومـا لروحـي تلتظـى بـالأوام ؟

***

يـــا ليـــت أقـــدامي تشـــق الثـــرى عـــن قـــبري الـــداجي فـــلا أنظـــرُ
واحسرـــتاه .. مـــا بالهـــا لا تـــرى ؟ يـــا خيبـــةَ اللقيـــا .. أمـــا تبصرُـــ ؟

***

أيـــن التحايـــا ؟ أيـــن أيـــن الســـلام؟ يـــا ضـــيعةَ الآهـــات .. أيـــن اللقـــاء؟
أواه .. مـــــالي لا أطيـــــق الكـــــلام مـــــالي .. وأنفـــاسي تهـــز الهـــواء؟

***

يـــا نظـــرة الأنثـــى عـــلام الـــبرود ؟ فـــــيم ازدراء العاشـــــق الخـــــائرِ ؟
يـــا ثغرهـــا الألاقَ .. فـــيم الصـــدود يـــــا مـــــن رَوضى أغنيَّـــةَ الشـــاعِر ؟

***

يـــا للشـــفاه الصـــامتاتِ ، العِـــذَاب يغفـــــو علـــــيهن الكـــــلامُ المريـــــر
كالكـــأس دفاقًـــا بمُـــرِّ الشرـــاب مازتـــه قبـــل الشرـــب عـــينُ الخبـــير

***

بينـــي وبـــين الحـــب قفـــرُ بعيـــد مـــــن نعمـــــةِ المـــــال وجـــــاه الأبِ
يـــا آهتـــي كُفِّـــي .. ومـــتْ يـــا نشـــيد شـــــتَّان بـــين الطـــينِ والكوكـــبِ

***

في يوم عابس [62]

الريح تجأرُ بالشكاة على الجداول والنخيل
والسُحْبُ واهية النقاب ، تحفُّ بالصحو القتيل
تُلقى على الغاب الكئيب ، عبوسةَ الضجر الملول
والشمس كالأمل البعيد يذوب في الشجن الهزيل
أو كالغرام يغيب خلفَ حوادثِ الدهر الثقيل
أو كالحياة تغورُ بين دموعِ ذي سقم ، عليل
كالبدر يكسفه النهار ، كنجمةٍ عند الأفول

***

ضاقت بيَ الدنيا ، وضقتُ بها .. كأني في رحيل..
في وهدةٍ قفراءَ بُحَّ بجوها صوتُ الدليل
لا شيءَ لي ، مما تناثر تحت عيني ، في سبيلي
لا عاصفاتُ الريح ، لا جردُ الأباطح والسهول
لا ظلمةُ الليلِ البعيدِ الغورِ ، لا سحرُ الأصيل
لا نغْمَة الحادي تطير بها شجيات الهديل
حتى السراب زواه عن عينيَّ ريان الغليل
فظللت ، لا أملٌ يسامرني على الدرب الطويل
فيضيء ساعاتي .. ولا ذكرى من الأمس الجميل

***

(62) كتبت في «أبو الخصيب» في 31/ 1/ 1946 . وجاءت ضمن إحدى رسائل «بدر» إلى صديقه «خالد الشواف» . انظر : «من رسائل السيّاب» جمع وتقديم ماجد صالح ص34.

ربـاه والعشرـون مـن عمـري تسـير إلى الـذبول
سـودًا ، مكفنـة الأهلـة بالتنهـد والعويـل
كانـت تمـر جريحـة الأيـام ، رعنـاء الخيـول
ظلـماء مطفـأة السرـاج ، كأنهـا بعـض الطلـول ..
كانـت تمـرُّ عـلى الجـراح السـود في القلـب العليـل
فـالجرح يهـوى فـوق جـرحٍ والقتيـلُ عـلى قتيـل
والنـار تصـلى حَـرّ نـارٍ غـير مطفـأة الغليـل
مـاذا جنيـتُ مـن الزمـان سـوى الكآبـة والنحـول؟
أو أرقب الليلَ الطويلَ يذوب في الصبح الطويل..!
وأتـابع الشـمسَ المرنحـة الشـعاعِ . إلى الأفـول ..!
وأشـيِّعُ البـدرَ السـؤوم يغيـب مـا بـين النخيـل ..!
لا مأمـلٌ لي بـالكثير ولا رجـاء بالقليـل !؟؟
وأعـد أيـامي لأسْـلِمَها إلى الهـم الثقيـل ..؟
وأعـيش محـرومَ الفـؤاد مـن الهـوى عـيشَ الـذليل ؟
وأسَرِّحُ الطـرف الكئيـب مـن الـتلال إلى السـهول ..
لأصَـعِّدَ الآهـاتِ داميـةً وأمعـنُ في عـويلي ؟!
ضـاقت بي الـدنيا وضـقت بهـا ، كـأني في رحيـل ..
في وهـدةٍ قفـراءَ بـح بجوهـا صـوت الـدليل

***

زهرة ذاوية (63)

تحبــــين عنــــد انتهــــاء الربيـــع وتــــذوينَ يــــوم احتضــــار الشــــتاء
كحــب أتــى بعــد حــين الشــباب زواه الــــردى عـــن بلـــوغ الرجـــاء
كعــذراءَ .. مــا زال يشــكو هــواه إليهــــا فتــــىً جرعتــــه الجفــــاء..
فلــــما ســــلاها وكــــان الفــــراق رمــى قلبَهــا الحــبُّ .. يــا للشــقاء
أتــــذوينَ ؟ مــــا ظــــلَّ دون الربيــــع ومغـــــداه إلا نجــــوم المســــــاء..
تمنيــتُ يــا أخــتُ لــو تمســكين إلى مطلــعِ الفجــرِ ، هــذا الــذماء..

***

تفـــــردتِ كالشــــــاعر المســــتهام إذا راح طَلْـــقَ الخطـــى في العـــراء
يجــوب الصــحارى صــداه الــرخيمُ فيهفــو عــلى الرمــل صــدرُ الســماء
تلفـــت والغـــابُ قفـــر الجهـــاتِ، كئيبًـــا يغنـــي لحـــونَ الرثـــاء..
توافيــــك غربانُــــه بالنعيــــب وتأتيــــك أغصــــانهُ بالبكـــــاء..
إذا جــــالَ في جانبيــــه الأصــــيل بَـــروُدَ الخطـــى ، عاصـــفيَّ الجـــواء
وأبصرــــت أوراقَــــه الــــذاويات أباديــــديَ يُــــثْقلنَ ركــــبَ الهــــواء
تــذكرت بالشــوق عهِــدَ الخريــف كــــما يــــذكرُ المبعــــدونَ اللقــــاء
لأشــــبهتِ آمــــاليَ الظامئــــاتِ إلى رشــــفةٍ مــــن رحيــــق البقــــاء
تفـــتحنَ بعـــد ابتعـــاد الحبيـــب وصوّضــحْنَ واحسرــتا ، حــين جــاء

***

(63) كتبت بتاريخ 7/ 2/ 1946 «من رسائل السيّاب» ص37 .

نشيد اللقاء [64]

كـــان لي عنــد النــوى ثــارٌ ، وقــد أدركــت ثــاري
وانجــلى ليــلُ الشــتاءِ الجــونِ ، عــن نــورٍ ونــار ..
أســـكرتني ســـاعةُ اللقيـــا عـــلى غـــير انتظـــار
يــا لوعـــةٍ صـــاغة المُـــرّانِ : شـــوقي واصـــطباري
واحتـــواه الصـــمت ، مخفّـــي السرـــى دون الحـــوار
فَهْـــوَ مـــا لم يطـــوه اللفـــظ فيلقـــى في إســـار ..
وهـــو فـــوق النـــاس ، والتـــاريخ ، والحـــين المعـــار

***

ذلـــك الشـــهرُ الـــذي أفنيتُـــه ســـاعًا فســـاعا
في ديـــار الحـــبّش لا يـــرضى لبنـــا الـــدهر اجتماعـــا
هِلْتُـــه ولَّى ســـدى مـــن عمـــري الـــداجي . وضـــاعا
كيـــف حـــالي ، في غـــدٍ ، إن قـــال أصـــحابي وداعًـــا ! ؟
كيـــف حـــالي يـــوم لي لا قلـــب ، إذا نـــادى مطاعـــا ؟
حـــين ألقـــي طـــرفَي الســـهرانَ ، مـــا بـــين القفـــار ..
في ســـكون الليـــل ، لا يـــدري ، بـــما ألقـــاه ، دار

***

(64) كتب الشاعر هذه القصيدة في بغداد بتاريخ 7/ 4/ 1946 . وقد أشار بدر إلى هذه القصيدة في إحدى رسائله إلى خالد الشواف ، وهي رسالة موجهة من أبو الخصيب بتاريخ 20/ 4/ 1946 (راجع رسائل السياب ـ ص39) ، حيث يقول بدر لخالد : « إن حادثًا قاسيا خانقًا بغَّض إليَّ كتابة الرسائل حتى إلى أعز الناس لديَّ ، وأقربهم إليّ .. لا شك في أنك تذكر اللقاء .. لقائي .. والهوى البكر ، وتذكر ما قالته لي .. » وافنى بكل ما تكتب من الشعر .. عن طريق الآنسة فلانة » .. أكملت « نشيد اللقاء » حتى بلغ عداد أبياته التسعة عشر بعد المائة ، وانصرفت إلى نقله في كراس صغير ، أنيق ، زرقته ، وجملته جهود يومين طويلين ، وأرسلته إلى الآنسة فلانة .. راجيًا إياها إرساله إلى المعبودة وأن تسرع فتنبئني عما تركه نشيدي ، في نفسها ، من أثر . ومرت الأيام الثقيلة ، والأسابيع الطويلة دون رجع جواب .. لا من الأنسة ولا من الحسناء ، التي اخبرتها بعنواني في أخر صفحة من صفحات الكراس المنكود » . والمعبودة التي يقصدها بدر هنا في لمعان كما سبق أن أشرت ، وسيجد القارئ أن الشاعر لم يحذف شيئًا من أبيات قصيدته ، فالنص الذي ننشره هنا نقلا عن الطبعة الأولى تبلغ أبياته 119 بيتًا كما ذكر بدر في رسالته .

الـدجى والصـفحةُ الرقطـاء ، والصـمتُ الرهيـب
والرمــالُ الســودُ ، والنهــر المغشــى ، والكثيــب
أغنيــاتٌ تعبــثُ الشـكوى ، صــداهُنَّ الوجيــب !
لَهْفَ روحي ، يـوم يخفيني ، عـن النـاس الجنوب !
أيــن .. أيــن القريــةُ الســجواءُ والشــطّ الرحيــب
مـن هـوى للـروحِ ، في « بغـداد » مشـبوب الأوار؟
أنــت داري أنــتِ يــا بغــداد ، لــيس الريــف داري

***

آه لــولا ملتقــىً مـــن غـــير ميعـــاد أتانـــا ...
ضـــمَّ روحـــين ، عـــلى ظهـــر الهـــوى فاضَـــا حنانـــا
كيف ؟ لا .. قد كنتُ جمَّ الشـوق وحـدي لا كلانـا
ليـــت تلـــك الســـاعة العـــذراءتجتاحُ الزمانـــا...
لا ظــلامُ الليــل يثنيهــا ، ولا ضــوءُ النهــار ...
ليـــت أني أوقـــفُ الـــدنيا عليهـــا في المـــدار !

***

هــا هنــا دارُ الهــوى ، يــا عــينُ في هــذي الرحــاب
هــا هنــا ســال الــدم الجــاري مــن القلــب المــذاب
في الأزاهـير أرجاءَهـا القصـوى ، وهـزِّي كـلّ بـاب
وامزجــي دمعــي وأنفــاسي عــلى عطــر الجــواب
بالنـــدَى ، بالنســـمة الســـكرى ، بأنغـــام الهـــزاز
بـــالربيع الطلـــق بـــالأفق الموشَّـــى باصـــفرار !!

***

أيهـا الظمـآنُ يـا طـرفي ، أأبصرـتَ الغـديرا ؟
ذَوَّبَ الأنســامَ ، في أمواجــه النشــوى ، هــديرا
والظــلالَ الفـيحَ ، في أغـواره ، يسـطعنَ نـورا
والزهــورَ الغــينَ ، بالأنــداء يحــرقنَ العبــيرا
لـو سـقى ـ والعاصـفاتُ الهـوجُ يوقـدنَ الهجـيرا
في رمــال الوهــدةِ القفــراء ، ســاحات القفــار
بــث في أرجائهــا ، أيــار فــواحَ العــرار ..

***

مـا أرى ؟ وافرحتـاه !! هـذا هـواي البكـر لاحـا..
أيهـا القلــبُ الــذي لم يعشــق الغيــدَ الملاحــا
أو ينــثَّ الشــعر عبَّــقَ الشــذى ، إلا مزاحــا
يــا فراشًــا كــان يرتــاد الخزامــى والأقاحــا..
هــذه النــار التــي تهــوىَ ، فــلا تطــوِ الجناحــا
دون أن يرتــدَّ في ذاك اللظـــى بعـــضُ الغبـــار
واهيًـا ، تلهـو بـه ريـحُ الصَـبَا بـين الصـحاري ..

***

يــا بنانًــا طــاهرًا يمتــدُّ نحــوي بالســلام ..
نــابضَ الهــزاتِ بالشــوق المخفَّــى .. والغــرام
ليتنــي أبقيــك في كفَّــي ســاعة كــلّ عــام !
عنـد ذاك الجـدول السـاجي .. بعيـدًا في الظـلام
ليتني .. حسبي مُنًى يـا قلـبُ ، مـا تطفـي أوامـي
أمنيــاتٌ جامحــاتٌ الشــأو ، رعنــاءُ الســفار !
هــذه البيــداءُ لا يســخو حصــاها بــالثمار !

***

يــا شــفاهًا عطــرتْ بالبســمة الريَّــى ســؤالا ...
والأناشــيدَ اللــواتي فِضْــنَ شــوقًا وابتهــالا
والمقــاديرَ التــي لم تــرضَ لي إلا ارتحــالا ..
وابتعــادا عنــكِ والــدنيا ، إلى شر الــديار
آه لــو تــدرينَ مــا حــالي عــلى بُعْــدِ المــزار..

***

رُبَّ غــابٍ كبلــتْ أنســامَه شُــمُّ الــتلال ..
في ربــوع الريــفِ ، مكتــوم الضــحى بــين الظــلال
شــاحب الأيــامِ والســاعاتِ ، مهــدوم الــدوالي
إن طــواني في غــدٍ ، يــا ســوءَ مــا يــوحي خيــالي !
رنَّ في أنحائــه صــوتٌ ينــادي كيــف حــالي
عن يميني هــبَّ ، مــن خلفي تناهي ، عــن يساري
مــن فــروع الدوحــة اللفّــاء ، مــن كــلِّ انحــدار

***

حــظّ شــعري ، عنــدك الإيثــار والحــبُّ الجديــد
والنــوى ، والصــدُّ والنســيانُ حظِّــي والجحــود
ويــحَ قلبــي كلــما وافــاكِ لحــنٌ أو نشــيد ..
نــالَ منــكِ الســهَدَ والآهــاتِ ، شــاديه البعيــد
إنَّ شرَّ الظلــمِ أن تَنْــدَى مــن اللــثَم الــورود..
والغصــون الواهبــاتِ الــورد تَصْــلَى حَــرَّ نــار !!
لهــفَ روحــي ..كيــف تَلْقَــيْنَ انتحــابي بــافترار

***

أتركينـــي أَغــرق الــدنيا بنبــع الـــذكريات
ناســيًا عينـــيَّ في تلــك العيـــون الناعســـات
آه لـــو هـــدهتُها ، قبْـــلَ الكـــرى ، بـــالقبلات
آه لـــو ذوبـــتُ في آبادهـــا الســـكرى حيـــاتي
بـــين أحقـــابٍ نـــديات عـــذاب الأمســـيات
غانيـــاتٍ فـــوق شـــطآن تقيـــات البحـــار ..
شـــاعَ في أرجـــائهن الصـــمتُ شـــفافَ الســـتار ..

***

اللقـــاءُ البكـــر لا أنســـاه مـــا عـــاد الخريـــف !!
الضـحى ، والسـفرةُ المطـرابُ ، والصـحو الشـفيف
والتفاتـــاتٌ يحييهـــا ، مـــن القلـــب ، الرفيـــف ..
أيـــن أنغـــام عـــلى العشـــاق بالـــذكرى تطـــوف ؟
صـــوتُكِ المغنـــاجُ روّضـــاهنَّ بالوجـــد المثـــار ؟
أيـــن نهـــر في خفـــاء الغـــاب منسيُّ_ المجـــاري؟

***

ذلـــك النهـــر الـــذي أدنيـــتِ منـــي وَهْـــوَ نـــاء..
لاحَ لي ينثـــالُ ، عـــذبًا ، مـــن ينـــابيعِ الغنـــاء!
لـــجَّ في الأبعـــاد ، منســـابًا إلى غـــير انتهـــاء..
والضـــفاف الغـــين تطـــويهن آهـــاتُ الرعـــاء ..
كيـف حـالي ؟ سـاءَ ـ لـو لم تسـأليني أنـتِ ـ حـالا
ســـائلي عينيـــكِ ، والتـــذكارَ عنِّـــي ، والخيـــالا
عـــابراتٍ ، في ســـكون الـــريح ، آمـــادَ الفضـــاءِ
حبـــذا نهـــر ، بـــه غنيـــت ، يهتـــاج ادكـــاري !
يـــا « ســـواني » آه لـــو أنـــا جُمِعْنَـــا في جـــوار

***

إن ســجا لــيلي ، واغفــى في ذراع الــريح غــاب
وارتمــى ، في هالــةِ البــدر الموشــاةِ ، شــهاب
خابيًــا يفنــى .. كــما يفنــى عــلى المــاء الحبــاب
مثــل مصــباحٍ وراء الشــط غشَّــاه الضــباب
شــعَّ وهــو الفضــة البيضــاء في المجــرى تــذاب
واختفــى يُلقــي عليــه البــدرُ أثــوابَ النضــار
هــاج لي شــوقًا إلى واديــك دفــاقَ المجــاري
تلــك . تلــك الضــفةُ الخضرــاءُ .. هــا إني أراهــا !
نضرــتْها ليلــةٌ قمــراءُ ، رفــافٌ ســناها ..
والنجــوم البــيض ، في الأمــواج ذوّبــنَ الشــفاها
مالئــاتٍ غــورك المســحورَ آهــا ، ثــم .. آهــا ..
خاتمــاتٍ منــه منســيًا وراء المــوج تاهــا !!..
في ربــاك الفــيح مــيلادي وفي السـهلِ احتضــاري

***

يــا حيــاتي كلَّهــا ، يــا شــقوةَ الــروحِ المهــان ..
إن طــواني عنــك ، دون النــاسِ ، أحــداثُ الزمــان
فــاجعليني - كلَّــما رجَّعــتِ لحنًــا في « ســواني » -
نَغمــةً ، خفاقــةً ، تفنــى عــلى صــدر البيــان !
أســمعيني صــوتَكِ المطــرابَ ، تنثَــالُ الأمــاني
منــه في قلبــي ، إذا غنيــتُ في يــوم انتصــاري :
كــان لي عنــد النــوى ثــار وقــد أدركــت ثــاري !

***

حب يموت [65]

اليومَ .. بين مَصَارع الزَهَر　　　والصبحُ يطفيُ جانبَ القمرِ
حبي يموت .. وأنتِ لاهية　　　لم يدْرِ سمعُك ضجةَ الخبر
الكوخة القفراء عن كثب　　　تلقى كآبتها على النهر ..
والدوحةُ اللفَّاءُ، رنَّحَهَا　　　أن الربيع يهمُّ بالسفر
والجدولُ المحزون قد سرقتْ　　　منه التألقَ ظلَّة الشجر
فكأن هذا الكونَ صنعُ يدي　　　ذوبتُ في جنباته عمري !!
اليوم أَوهنُ كلَّ خاطرةٍ　　　تجلو هواكِ، وكلَّ مدكر
واليوم أكفرُ باللقاء وما　　　صبَّ اللقاءُ عليَّ من فِكَر ..
واليوم أَطلِقُ من منابعه　　　ماضيَّ .. بين مخالب القدر
حتى يضلَّ بكل قاحلةٍ　　　تاه الزمان بها بلا أثر
نسيَ السراب زمانَ مولده　　　فيها وماتَ تنقلُ البصرِ
بين الصلالِ يضيع أوله　　　ويجفَّ آخره على الحجر

***

(65) كتبت في «أبو الخصيب» في 15/ 4/ 1946 . وقد جاءت في إحدى رسائل بدر لخالد بتاريخ 20/ 4/ 1946 ، (راجع رسائل السياب ـ ص39) .

واليوم بين توهجِ السحب ... وخبوِّهنَّ ، وضيعةِ اللهب ..

وتموجِ الأنغامِ في أفقٍ ... ذاب الغناءُ به ولم يذّب ،

والطير نازغةً إلى سكنٍ ... عبر الفضاء تصيحُ من طرب

يَقْضي هوايَ .. وأنت ضاحكةً ... للنجم، والظلماتِ ، والشهب

هو لو ـ علمت ـ سحابةٌ نفضت ... عنها بقيةَ ضوئها الشحِب

هو صيحةٌ في الليل أطلقها ... طيرٌ .. فَخَرَّ .. ومات في العشب

وهو الوادع ، مسافرٌ تعِبٌ ... ألقاه ثم مضى .. ولم يؤب

هو زهرةٌ ضحكت فعاجلها ... لفحُ الهجير ، وجامعُ الحطب

وهو الشهيدُ على يديكِ هوَى ... ويقذفُ بالدمِ السرب

مزقتِ بالطعناتِ جانَبه ... وعصبتِ بإصرتيْه بالذهب

الذكرياتُ غدًا سأحرقها ... في جامحٍ ، حنقٍ ، من الغضب

وأرجِّعُ النغمات يلهمها ... ريفٌ يفيض بفتنةٍ عجب !

***

واليومَ .. بين أزاهر الدُفُلِ ... والريح ترعشهنَّ بالقُبلِ..

والليل يختمُ بالسكونِ ، على ... غاب النخيل وموحش السبل

حبي يموت .. وأنت نائمةٌ ... يلهو بخصركِ ساعدُ الأمل

ما كان غير هو وكلَّ هوى ... بين اثنتين معلقُ الأجل :

قلبان ، إن خفقَا معًا هبَطا ... روضًا يعلَّ ثراه بالقبل

وإذا استطار الوجدُ بعضهما ... خر الشقيُّ على شَفَا طلل ،

وافاك ينطق بالجوى غَزِلٌ ... لا تقتليه بصامت الغَزَل !

أأظل أذكر منك ناسيةً ... وأعود أَقل بالأسى رُسُلي ؟

وأراك باخلة عليَّ بما ... جادَ البخيلُ به على عجل ؟

أينَ الرسائل بتُّ أرقبها ... وأصبِّرُ الآهاتِ بالعلل ؟

إن طاف بين جوانحي أملٌ ... أني أراكِ .. برئتُ من أملي

أعرضتِ عامدةً فما احتملتْ ... فيه الأنوثةَ عزةُ الرجل

***

واليــــومَ حيـــث تمــــرَّغ الحُلُـــمُ   في نـــــــاظريْنِ طواهمـــــــا ألَمُ ..
مـــات الغـــرامُ فهـــل حلمـــتِ بـــه   أو ســـــالَ منـــه عـــــلى رؤاك دم ؟
العاصـــــفاتُ نســــجنَ لي صـــــورًا   يمشيــ بهـــنَّ مـــن الـــردى نغـــم
ألـــــــوانهن تشــــــفُّ عـــــن أرجٍ   بـــؤسُ القبـــور عليـــه ينســـجم
والعطــــر تنبـــعُ مـــن نســـائمه   ســـودُ الشـــياتِ ، وتولـــدُ الحمـــم
يبــــدينَ طيفـــكِ حـــائرًا شَـــحبًا   تنـــزو ، وتطفـــر ، دونـــه الظُلَـــم ..
نـــادى .. فـــما صـــعدتْ عـــلى فمـــه   إلا مقــــاطع خــــانهن فــــم ..
فرفعـــتُ مصـــباحي ، يفـــيض دمًـــا   أبصرـــتُ فيـــه دمـــي ، ويضـــطرم
يـــا للـــذبالِ .. أكـــاد أعرفـــه ..   ويكـــادُ يعرفـــه معـــي القلـــم ..
هـــذي رســـائلُ حبَّـــيَ احترقـــتْ   وأعـــزُّ شـــعري غالـــه العـــدم ..
ذاب الظـــلام فـــما رأيـــتُ ســـوى   أنثـــى تنـــاثَرُ حولهـــا الـــرمم
تطـــوِي ذراعَ فتـــىً يقـــولُ لهـــا :   لا تذكريـــه .. وأَطفِـــيَ الحُلُـــم ! ..

***

ما مات حبي (66)

... لا النأيُ أطفأَ سَالِفَ الحُرَقِ ... في جانبيَّ ، ولا يدُ الأرق
« أهواكِ » ما خدمتْ على شفتي ... أو ماتَ رحبي ، فاعذري نزقي
« أهواكِ » ملءُ جوانحي ودمي ... صوتٌ يظلُّ .. وينتهي رمقي
أنتِ الفضاءُ ، فما سعتْ قدمٌ ... بي حيثُ كنتُ فغابَ عن طرقي !
قالوا : تَنَقَّلَ كالنسيم ، فما ... يصفو هواه ، وطافَ كالألق
هل للنسيم - على تنقّلِه ... حُرَّ الوثاقِ - تَجاوزُ الأفق ؟
أنتِ الوجودُ فحيثما انطلقتْ ... بي مقلتانِ ملكتِ منطلقي !
سيان عندي .. متُّ من ظمأ ... - مادمتُ عبدَ هواكِ ، أو غرقي
سيان عندي .. كنتُ في سَحَر ... - ما زلتِ أنت سنايَ - أو غسقي
روحي فداؤكِ بت راضيةً ... أني فديتُكِ .. أو على حنق !!
لا يغضبنَّكِ من أسير هوىً ... هزُّ القيودِ ، وثورةُ القلق
فهو الحريص على الغَرامِ إذا ... ظنَّ الغرامَ قضى .. فمن فَرَق

***

(66) كتبت في «أبو الخصيب» بتاريخ 16/ 4/ 1946.

اللقاء الشاحب [67]

يا قلب .. بالأمس اشتهيت اللقاء

والیوم كان الملتقى كيف كان ؟

واحسرتا .. فيم الأسى والبكاء

يا من بلغت الأمنيات الحسان؟

الجنـــاحُ الطليـــقُ دونَ انتهـــاءٍ، فـــارَقَ الـــوكرَ هازئًـــا بالـــدماءِ
والجنـــاح الطليـــق والجـــرح ، مـــا زالا يرفـــان في رحـــابِ الفضـــاء
والجنـــاح الطليـــق ، والجـــرح ، والأنـــواء .. فـــوق اســـتطاعة الأنـــواء
فاصـــدحي يـــا قيـــاثري - رغـــم أن الحـــبَّ ولَّى - بأغنيـــات اللقـــاء !
شـــيعي ، الـــنعش ، بـــالزهور ، إلى اللحـــد ..وعـــودى بضـــحكة اســـتهزاء
لســـتُ مَـــنْ ضـــيَّعَ الوفـــاء ولكنـــي وهبـــتُ « الحيـــاة » كـــلَّ الوفـــاء
أَضَـيْعُ الـدمعِ مـا جـرى فـوق رمـسٍ صـامتٍ غـير حافـلٍ بالبكـاء
غـاب عـن مقلتَّـى ريفـي وأضـحى جوسـقي لا يُظِـلُّ غـيرَ الهـواء
أيهـا الجـدولُ الـذي كـان يلقـاني عـلى ضـفتيه نجـمُ المسـاء ..
أيهـا الـدوحُ يحـرقُ الصـيفُ مـا يَلْقَـى عـلى الأرض مـن خيـالِ الشـتاء
كنـتُ في جنـةٍ مـن الريـف ، لـولا جـذوةٌ مـن هـوىً بغـير انطفـاء
الـــدجى والنخيـــل ، والســـامر المطـــراب، والنـــاي وانســـكاب الغنـــاء
وراتعـاشُ النجـوم في قـاع كـأسي وارتعـاشي بفـائرٍ مـن دمـائي
وانبجـاسُ الـدموع في عينـي العـبرى .. وإخفـاؤهن خلـف الأنـاء
فاعـــذرِ الطـــرفَ كلـــما جفـــت الأقـــداحُ فامتـــدَّ وجهـــةَ (الـــزوراء)..
واعـــذرِ العاشـــقَ المعَنَّـــى إذا بـــاحَ ، بـــما يعتريـــه ، للصـــهباء !!

***

(67) الزوراء : بغداد ـ «الشاعر».

ربـــما طـــاف بي ، وقـــد نامـــت الأفيـــاءُ فـــوق الوســـادةِ الخضرــــاء
هـــاتفٌ أنطـــقَ الســـكونَ وأحيـــى وتـــــرًا في مقـــــابرِ الأصـــــداء!
مـــن وراء النخيـــل ، يعلـــو .. وقـــد ذاب بلفـــحِ الهجـــيرة الحمـــراء
صـــوتُها ذاكَ .. جنحتـــه ارتعاشـــات تحـــدَّيْنَ عاصـــفاتِ التنـــائي
فهْـوَ خفـقُ الشرـاع نـادَى غريبًـا حـــائرًا في الجزيـــرة القفـــراء
والخريـــر الطـــروب في حلْـــمِ ظمـــآنَ تهـــاوى عـــلى الثـــرى مـــن عيـــاء
والحـــداء البعيـــد تُلقِـــي بـــه البيـــداءُ في سَـــمْعٍ تائـــهٍ في عـــماء
والغنـــاء الشرـــود وافَى بـــه المـــوتى صـــدى عـــابرٌ مـــن الأحيـــاء
والحفيـــف الوليـــد أصـــغَى إليـــه جـــدولٌ جمدتْـــه ريـــحُ الشـــتاء
والجنـــاح الـــذي يـــرفُّ .. فيعطـــو أزغـــبَ الـــريش بعـــد طـــولِ الرجـــاء
قـــرب الشـــوق مـــن لغاهـــا ، وأدنـــى مـــن خطهـــا تـــوهمي وافترائـــي
مـــا دخـــانُ الشـــقيقِ (68) مـــن (فـــارسَ) البيضـــاءِ مـــلءَ المجـــامرِ البيضـــاء
فـــاح فانجـــابَ عـــن عيـــونِ الســـكارى عـــالمٌ حاقـــدُ عـــلى الأشـــقياء
واســـتفاض الوجـــود بـــالعطرِ والأطيـــاف يســـجن في شـــفيف الجـــواء
وانطـــوى ســـاعد عـــلى خصرِـــعذراءَ سَرَتْ في غلالـــةٍ مـــن هبـــاء
وانتشـــى لاثـــمٌ .. وأهـــوَى عـــلى نهـــدٍ مـــن النـــور مولَـــعٌ بالنســـاء
مـــا دخـــان الشـــقيق مـــن (فـــارس) البيضـــاء مـــلْ المجـــامر البيضـــاء
يمـــنحُ الناشـــقينَ مـــا تمـــنحُ المشـــتاقَ أوهـــامُ حبـــه مـــن عـــزاء!
أصـــبح الريـــفُ دارَهـــا فهـــي روحٌ خـــافق فـــوق ســـاعدِي كالضـــياء:
همســـها وارتماؤهـــا في ذراعـــيَّ، وهمسيــــ.. وصرختـــي .. وارتمـــائي !
منَّـــة يـــا خيـــال .. هيهـــاتَ أنســـاها، ولـــولاك .. أيـــن كـــان التجـــائي ؟
منـــة يـــا خيـــال أن يصـــبحَ النـــائي ببغـــادَ وهـــو في (الفيحـــاء) (69)
منـــة يـــا خيـــال أن يلـــثم الـــنجم انـــدفاقاتِ نـــوره ثغـــرُ مـــاء!

***

(68) الشقيق : الأفيون ـ «الشاعر» .

(69) الفيحاء : البصرة ـ «الشاعر».

عدتُ .. بل عـادتِ الجـراحُ الـداومي فاحــذري لمَسَــهنَّ قبــل الشــفاء

لا أريــدُ الضــادَ مـن هـذه الأيـدي فــإنَّ الضــادَ مــن كبريـــائي

لا أريــد الضـاد مـنهن .. حسـبي نجـــوة مـــن تحـــرش واعتـــداء

كنــت إنْ أفــرغَ ارتكـاضُ الليـالي أكــؤسَ الصــبر أترعَتْهَــا دمــائي

فاعـــذريني إذا تشـــوقتُ - مـــا تحلـــو ليَ الكـــأسُ مـــن يـــدٍ شـــلاَّءِ

كيـــف أشـــتاقُ حـــين لا دارهـــا داري ، وأجفـــو وناظراهـــا إزائـــي؟؟

كيـــف يهتـــاجني خريـــرٌ وأجفـــو جـدولاً ؟ لـيس ذاك شـأنُ الظـماء

يـــا لقـــاءً هـــوتْ لـــه الكـــأسُ مـــن كفّـــي فـــأدمى حطامهـــا مـــن إبـــائي

أنـــتَ أخرســـتَ َصـــيحةَ الشـــوقِ في ثغـــري وخيبـــتَ مـــأملي باللقـــاء

حَــرَّاكَ الوجــدُ مـــن يـــدي فهـــي تمتـــدُّ .. فـــلا تلتقـــي بغـــيرِ الهـــواء

والتحايـــا [70] عـــلى فمـــي ذاهـــلاتٌ يابســـاتُ الـــرنين فـــوق « المســـاء »

أيـــن أيـــن يمنـــاك وهـــي تهتـــز في يمنـــايَ لحنًـــا مـــن الهـــوى والوفـــاء؟؟

***

(70) من التحية المعهودة : مساء الخير ـ «الشاعر».

وانبســـاطُ الأكُّـــفِّ بالأصـــفر الرنَّـــان غـــيرُ انبســـاطِها بالرجـــاء

والتقــاءُ العيــونِ في قــاعِ كــأسٍ أيــنَ منــه التقاؤهــا في الســماء؟!

شــاحبٌ ذلــك اللقــيُّ فكفِّــي عــن حــديثٍ مرنَّــقٍ بالريــاء

اسكتي..حسبُك..اسكتي ، إن عيني تلمـحُ المـوتَ خلـف ذاك الطـلاء!

اهزئــي.. واعبثــي بقلبــي.. فــما أنــتِ ســوى غــادةٍ ككــلِّ النســاء

أنــتِ ..مــا أنــتِ؟ عــابرٌ في طريقــي لاحَ لي ثــمَ غــابَ فــيما ورائــي

كنـــتُ أدعـــوكِ فتنـــة الشِـــعرِ، واليـــومَ ســـأدعوكِ فتنـــة الأغنيـــاء

هـــانَ قلـــبٌ غشـــاؤه أصـــفرُ التـــبرِ ودقَّاتـــه رنـــينُ الغشـــاء!

***

إصـــدحي يـــا قياثري..أنصـــت الكـــونُ انتظـــارًا لنغمـــةٍ عـــذراء

إصــدحي !! قبضــةُ الخلــودِ ســتهوي، بعــدَ حــين ، عــلى قيــودِ الفنــاء!

نبئـــي ذلـــك الحطـــامَ الـــذي أولتْـــه روحًـــا ضـــلالةُ الشـــعراء

أننـــي قـــد نثـــرتُ زهـــري عـــلى أرضي .. وأطلقـــت بلـــبلي في ســـمائي

***

عيناي [٧١]

« إلى ذات العينين اللتين لا يعرف لونهما »

نـــــام في مُقْلتَيْـــــك بحـــــران ينثـــالان بالـــــدفء ، والنــــــدى والضــــياء
بالضـــباب الشـــفيف يَفْنَـــى شـــعاعُ البـــدرِ فيـــه.. وناســـماتُ الهـــواء
يلـــثم المـــوج راعشًـــا خـــافقَ الأنفـــاس .. حتـــى يـــذوب دون ارتـــواء
أرشـــفي نـــاظريَّ دفء العـــذارى وانبثـــاق الهـــوى ، ولـــون الســـماء
قطـــرة أو أقـــل . ثـــم اتركينـــي نـــاعس الحـس .. خـادر الأعضـاء
ذاهـــلاً .. مثـــل كوكـــب رنحتـــه نســمة .. في الغـدير .. عنـد المسـاء

***

إنَّ في مُقلتيـــك دنيـــا مـــن الأحـــلام بالحـــب، والنـــوى ، واللقـــاء :
الأمـــاسيُّ والحبيبـــان ، والســـاعاتُ يهـــربن قبـــل ريِّ الظـــماء
قبـــل أن تحـــرق الشـــفاه التقـــاءً وابتعـــادًا مرنحًـــا بالتقـــاء
قبـــل أن تمـــنح الســـموات والآبـــادُ بعـــض العنـــاق .. بعـــض الغنـــاء
خفقـــة ترتمـــي عـــلى خفقـــة ســـكرى .. وقلبًـــا لإلفـــه في ارتمـــاء!

***

ذلـــك اللـــون .. ذلـــك السرـــ في العينين..مـــاذا وراء ذاك الخفـــاء؟
الـــدجى، والمـــروج في الضحوةالســـجواء، والبحـــر ، ذوبـــت في هبـــاء
في ســـماوْين تشرـــبان الســـمواتِ بكأســـين صـــيغتا مـــن نقـــاء
هـــذه الـــذكريات يلمحـــن في عينيـــكِ مـــا بـــين ومضـــةٍ وانطفـــاء..
هـــنَّ يرقصـــن ذلـــك اللـــون أو هـــذا عـــلى ناظريـــك دون انتهـــاء
فَهْـوَ لـونُ الحيـاة هيهـات يُـدرى وَهْـوَ لـونُ السرـاب في الصـحراء !

---

(71) كتبت بتاريخ 23/ 10/ 1946.

لحن جميل [72]

أرعشِ الأوتارَ باللحن الجديد ... إنه اليوم المرجَّى .. يومُ عيدي
هذه الدنيا .ز هوىً مسترف ... قوة الشادي، وأنفاس النشيد
هذه الدنيا شبابٌ دافقُ ... في شبابي ، وانبثاق في وجودي
إنه الطَرْفُ المغشَّى بالدجى ... فضّض عنه النورُ أختامَ الجمودِ
أرسل اللمح ارتعاشًا ظامئًا ... يشربُ الآفاقَ ، مجنونَ الصعودِ
حامَ فاستوفى نهايات المَدَى ... ناثرًا حوليه أشلاءَ الحدودِ
هذه العذراءُ نبعٌ فائرٌ ... بالتفاتاتِ الأماني والوعودِ
مَرَّغَ الماضي على أقدامِهَا ... كلَّ ما في ذكرياتي من خدودِ
نظرةٌ ملكتها فيها .. كَمَا ... يملكُ النهرُ ابتسامات الورودِ
يا جناحًا في سمائي ضاربًا ... خافقًا آناً في ركودِ
يا ندى ساقي سرابي فارتوى ... منه جدبي وانتشى ، واخضرَّ عودي
بِتُّ أخشى غدرةً عودتها ... من صباباتي ، وأيامي ، وغيدي
يا فتاةَ اليومِ كوني مِنْ غدي ... رشفةَ الظامي ونبعَ المستزيدِ
رواحيني زهرةً مخبوءة ... في خرفي من نضيراتِ العهودِ
أنتِ حلمٌ من رقادي هاربٌ ... لاحَ لي في يقظتي بعدَ الشرودِ
الفراشُ المرتمى فوق الثرى ... مل مثواه المغشَّي بالجليد
يا بقايا من جناحيه اخفقي ... واحملي نحو اللظى جسمَ الشهيد

***

(72) كتبت في بغداد بتاريخ عام 1946 .

ليـــت لي يـــا هـــذه الـــدنيا فـــمّا لم يكبِّلْـــه ارتعـــاشي بـــالقيود
آه لــــولا رهبـــةٌ تحبـــو عـــلى سُـــلَّمٍ مـــن أضـــلع الشـــادي ، عتيـــد
كلـــما شـــام التـــي غنّـــى بهـــا أرجـــعَ الشـــكوى إلى الغـــور البعيـــد
طـــافَ بـــالنجو عـــلى إصـــغائها لـــو أعانتـــه انتفاضـــات القصـــيد
يـــا لمـــوجٍ صـــاخب مســـتأسرٍ في غـــديريٍ ظـــالمِ الشـــاطي عنيـــد ..

***

حاطم الأغلال (73)

« عمَّت الولايات المتحدة الأميركية ، موجة عارمة من اضطهاد الزنوج فأعدموا لغير ما سبب وطردوا دون جريرة منهم ـ وتألف وفد من الزنوج يترأسه المغنى الزنجي الشهير « روبسن » ـ قابل ترومان واحتج عليه » .

« فإلى الفنان الغاضب ، الثائر على الظالمين ، إلى روبسن ، أرفع هذه القصيدة ! » ..

امــلأ الكــونَ اربــدادًا واضــطراما ... (يــا سوادًا)ســامه الخســفُ الحِمامــا
يــا زنــودًا خلّفــت شــمسُ الضــحى ... فوقهــا ، مــن نورهــا الحــامي ، ظلامًــا
أطلعــي مــن ليلــكِ الفجــرَ الــذي ... يـــترع الــــدنيا صـــفاءً وســـلامًا
الـــدم الحـــرُّ الـــذي فيـــكَ ، انتضيــ ... مـــن مـــذلات الأرقـــاء الحســـاما
خـــاطبي الجـــلاَّدَ ، يـــوم الملتقـــى ... واجعـــلي بـــارودك الفـــظ كلامًـــا ..
ذلــك الطــاغي أمــا هــاجَ الصــدى ... منه صوتٌ ، والوغى تذكى ضرامًا ؟
وادَّعــى - يــا بعــدَ مــا كــان ادعــى ... أنـــه المنْجِـــى مـــن الـــذلِّ الأنامـــا؟!
نصرـــه الموعـــودُ عـــرسٌ ضـــاحكٌ ... للتــآخي! ليــت ذاكَ العــرس دامــا !
حـــاطم الأغـــلالِ - يـــا للمنتهـــى - ... صـــاغ غِـــلاًّ ثانيًـــا ذاك الحطامـــا !
قصـــة (العِـــرْقِ) انطـــوى سِـــفْرٌ لهـــا ... تحـــت أقـــدام الثكـــالى واليتـــامى
أيهـــذا النـــابشُ القـــبر الـــذي ... ضـــمَّ « هامـــاتٍ » مـــلأنَ الكـــون هامـــا
لســـتَ بـــالمحيي يـــدًا ســـفاحةً ... أوســـعتها قبضـــةُ (الحـــقِّ) انتقامـــاً
قصـــة (اللـــون) التـــي اســـتحدثْتَهَا ... قـــد تحيـــلُ الأبـــيضَ الصـــافي قتامًـــا

***

(73) كتب الشاعر هذه القصيدة عام 1946 .

غـابُ « أفريقيـة » السـمراء غامـا — مـن خطـوبٍ شرّدت عنـه المنامـا
ود لـو أنَّ الثـرى - في سـاحِة - — جـامحُ البـارودِ يغتـال اللئامـا..
والحصـا ، في كـل مجـرى نـاغم ، — مـن رصـاص يفجـرُ اللحـنَ احترامًـا
والغصـون استرقصـتْها هبَّـةٌ — للصَـبا ، يفجـرُ اللحـنَ احترامًـا
همهـم الـدوحُ المنـدَّى ، والسـنا — ينـزعُ الطـلَّ اختلاسًـا واهتضـاما !
« ايـه يـا شـمس اتركـي حمـرَ الخطـى — في مراقيهـا الفسـيحات نيامًـا ...
واسمعي شكوى مـن الشرق ، امتطى — لفحُهـا مـن ذورةِ الغـيظِ السـناما !
فـيم هيـأت « الطـلاء المجتـوى ! » — تابعًـا بـين الرحـاب الجـون (حامـا) ؟
أهْـوَ خـتمٌ خلْفَـه الـرقَّ اختفـى ؟ — أم وقـاءٌ يقهـر المـوت الزؤامـا ؟ »

***

أيهـا الشـادي[74] وقـد بـات الهـوى — يُـرعشُ الأنخـابَ في أيـدي النـدامي
يـا سـليلَ الغابـة الـثكلى بكـى — قلبهـا السـمح السـليل المستضـاما
غَـنِّ بـاللحن المـدمَّى ، واللظـى — يحـرقُ الأجسـادَ - لا ريـح الخزامـي
واشـتك الجـورَ الـذي يُرْمَـى بـه — مـن سـقيم عـادَ لا يلقَـى طعامًـا ؟!
فـارو ، لا عـنْ مخـدعٍ ظـلَّ الشـذى — حـائرًا يرعـى « ملاكًـا » فيـه نامـا ..
واحـكِ لا عـن غانيـات نُـزَّقٍ — يتطـارحن اعتناقًـا والتثامـا ..
لا .. فـما أبقـى صـليل القيـد في — مسـمعِ المأسـورِ للسـلوى مقامـا
فـاترك اللحـنَ « الموشَّـى » للغنـى — والطغـاة الصـيد يهتـاجُ العرامـا
إنـك الحـرُّ الـذي لا يرتجـى — مِـنْ يَـدَيْ جـلاَّدِه القـاسي ، وسـاما
إنـك الجـرحُ الـذي لا يحتمـي — بالمُـدَى يمتـاح مـنهن التئامـا ..
أيهـا الشـادي وقـد راح الـردى — مُسْـلِمًا للأهـواجِ الفـظِّ الزمامـا.
هـذه الألحـانُ خـيرُ الفـنِّ مـا — حـرّكَ المأسـورَ واهتـاج الـمُضَاماَ

***

(74) الشادي : المغني روبسن - «الشاعر».

نحـــن في حـــالين ســـاوَى مـــنهما　　ظـــالمق ســـامَ الملايـــين الحمامـــا

نحـــن في حـــالين ســـاوى مـــنهما　　أنّـــض لليـــل انتهـــاءً وانصرـــاما

الزنـــــودُ استنهضـــــتها هـــــزةٌ　　بعـد حـينٍ تـترك الطـاغي حطامًـا !

***

عاشق الوهم [75]

طيــفٌ أزاحتْــه عــن جفنيــكَ عــذراءُ　　والصبحُ فـوق السـهولِ الغـين أنـداء
والـنجم ينسـابُ في مـاء الغـدير صـدىّ　　مسرــاه ومــضٌ وموســيقاه لألاءُ...
طيـفٌ مضى. مـثلما ذابَ السـحابُ عـلى　　صـحْراءَ ...فانثـالَ مـن أهـدابِكَ المـاء
خانتـك حــواء فاســتبكِ الفــؤادَ لظــىً　　إن كنـــتَ أوَّلَ مـــن خانتـــه حـــواء!
يــا عاشــقَ الــوهم في جــثمانِ غــادرةٍ　　هل تُنبتُ النـرجسَ المعطـارَ صـحراء؟
أصـبحتَ تجـري وراء العاطفـات دمًـا　　ظمـــآنَ مـــا بَـــلَّ مـــن ناريـــه إرواء
يسرــي إلى الواحــة الريّــا ويســبقه　　حَــرُّ الغليــلِ إليهــا .. فهــي جــدباء !
واليـوم هَـدَأتَ مـن تلـك الـدماء، فـما　　أبصرــتَ ؟ أيــن النــدامى والأحبــاء
كالجــدول الثــائر الــدفاق منطلقًــا　　مــن شــاطئيه وقــد ســاقته أنــواء !!
أهــوَى عــلى الجــدول النــائي يعانقــه　　فالضـــفتان ارتعاشـــاتٌ وإيـــماء ..
تســـتقبل القبـــة الزرقـــاء بيـــنهما　　موشـــيةً بـــالظلالِ الفـــيحِ جلـــواء
والجــدولانِ انثيــالٌ لــيسَ توقعــه　　، في لجــةِ الشــاطئِ المغمــور لفــاء ..
حتــى إذا اشــتوقفته الشــمسُ طالعــةً　　مـن مخدع الشرـق واسترضـته أضـواء
واســتذكر المــاءُ في الشــطين زنبقــةً　　غرقَــى لهــا في هــدير المــوجِ إصــغاء
واهتاجــت الجــدولَ الطــاغي متميــةٌ　　مـن سـامرِ النخـل عـبر الشـط فرعـاء
ذاب اشـتياقا إلى مجـراه ، واحترقـتْ　　أمواجــه مــن هواهــا فهــي حمــراء
والجــــدولان انثيــــالان اســــتحثهما　　روحــان : راضٍ بــما يلقــى ومســتاء
عـــادا ودون التلاقـــي مـــن ضـــفافهما　　شـــتى موانـــع أدنـــاهُنَّ شّـــماء

***

(75) كتبت في بغداد بتاريخ 5/ 1/ 1946 .

حاشاك حاشاك يا نفسي- فما خُلِقتْ للحبِّ والشاعر الموهوب رعناء

أنتِ الفراشةُ ما تهوَى سوى لهبٍ فليعشق الدمَ واللحمَ الأخساء

وليبعثوا بالنهودِ المائجاتِ على صدر من القلب خالٍ ، مثلما شاؤوا

وليرشفِ الطلَّ من تلك الشفاه فمٌ لم يُذْكِ فيه اللعهيبَ الخالدَ الناء

ولتشهد الكاعبُ الحسناءُ مصرعَها لو أنها في الغد المنكود حسناء!

***

أمنيات [76]

أمنيـــاتٌ دغـــدغتْ حسّـــى بـــإغماء طـــروب
وانتشـــاء فـــاتر الآمـــاد ، نعســـان الطيـــوب ..
الأريـــج الـــدافئ المغنـــاج ، منغـــوم الهبـــوب
أســـكرته الليلـــة القمـــراء في ســـهل رطيـــب

***

والنـداء الهـامس المسـحور ، لـو أصـغيت حينـا ،
طـــافَ بـــالأرواح أشـــواقًا ووافاهـــا حنينًـــا ..
فـــاض مـــلءَ المخـــدعِ المعطـــارِ شـــدوًا أو رنينًـــا
شـــفَّ حتـــى قالـــت العـــذراء : نـــاداني حبيبـــي

***

أنـــت يـــا مـــن تحســـبُ الحـــبَّ اعتناقًـــا وابتســـاما
لا ضرامًـــا يجعـــلُ الأرواحَ تشـــتاق الضرـــاما
لا خلـــودًا خالقًـــا مـــن هـــزة القلبـــين عامـــا
مـــائجَ الأزهـــار دفاقًـــا كشـــدو العنـــدليب

***

أنـــت يـــا حلـــم الربيـــع الطـــل مـــا بـــين الأقـــاحي
يـــا عروسًـــا في الأســـاطير منـــداةَ الوشـــاح
نافضًا (طفلُ الهـوى) [77] مـن فوقهـا ظـلّ الجنـاح
وَهْـيَ وسـنى تسرـقُ الأنفـاسَ مـن ريـح الجنـوب

***

---

(76) كتب الشاعر هذه القصيدة بتاريخ 3/ 2/ 1947 .

(77) طفل الهوى : كيوبيد إله الحب ـ «الشاعر».

أقـبلي .. فالضـفةُ القمـراءُ تنـديَ بـالفتور
والضـياء الحـالم اسـترخي عـلى دفء العبـير
مُرعشًـا ظـلَّ الأزاهـير النشـاوى ، في الغـدير
أقـبلي .. مـا كانـت القمـراءُ كـي لا تسـتجيبي
***
أسـبلي ، كالجـدول المكسـال ، هاتيـك الشـعورا
واتركيهـا ترشـف الأنسـامَ والأضـواءَ نـورا
وليعـبَّ الكوكـبُ العربيـدُ مـنهن العطـورا
ذائبًـا فـيهن .. يـدعو . يـا نجـوم الليـل ذوبي !
***
ثـم فيضي ـ أغنيـاتٍ لا أعـي مـنهن معنـى ..
ربـما حـدَّثْنَ عـن آذار أو خـبرنَ عنـا ..
ربـما حـركن في الـدنيا منـىً أو هجـنَ حزنـا !!
غـير أني سـامعٌ فـيهن أنغـامَ القلـوب
***
ربـما أطلقـنَ في قلبـي جنـاحَ الـذكريات
ربـما أوْحَـيْنَ لي بالخـاطرات الموجعـات
عـن هـواك البكـر .. عـن مـاض خفـي الحادثـات
ربـما أنطقـنَ في ثغـري سـؤال المسـتريب؟
***
أرعشي ـ ، بالضـمِّ والتقبيـل ، في ثغـري سـؤالا
كـاد أن ينسـابَ مـلء الليـل آهـات طـوالا
أحرقـي ألفاظـه الحمـراءَ بالنـار اشـتعالا
ربـما كـان انتحـارًا لهوانـا أن تجيبـي
***

واهتفــي ، ولتهتــف الــدنيا إلى حــين الصــباح
أهتفــي حتــى يهــبَّ الطــيرُ مطلــولَ الجنــاح
باحثًــا عــن عاشــقيْنِ استلقيا بــين الأقــاح، :
« عـانقيني يـا إلهـاتِ الهـوى .. هـذا حبيبـي !! .
***

« إلى صديقتها المريضة في الربيع » (22)

أختـاه..كيف خبـا ضـياؤك والوجـود يفـيض نـورا؟
عــاد الربيــع نــدًى يــذوب عــلى الســنابل أو غــديرا
عـــاد الربيـــع فراشـــةً بيضـــاءَ تســـترق العبـــيرا ..
حامـت هنـا .. وهفـت هنـاك - تدغـدغ الزهـر النضـيرا
وتـــرفُ فـــوق الجـــدول الفضيِّـــ ..أنـــداءً ونـــورا،

***

عـــودي إليَّ ، كـــما عهـــدتكِ ، جـــدولا مـــرح الميـــاه
متعـــانق الأمـــواج ، ترعشـــه أناشـــيد الرعـــاه..
يجلـــو شـــقائقَ .. عربـــدت جـــذواتهنَ عـــلى الشـــفاه
يلـــثمن وهمًـــا في الهـــواء .. يبـــث فيـــد مهـــا صـــداه
ضرّجـــن أنفـــاس النســـيم فـــأظهرتهن الميـــاه ..

***

عـــودي إليَّ تحـــدث الســـاعات عـــن أمـــس الطـــروب
هــل تـذكرين ضـحىً شـفيفَ النـور مكسـالَ الطيـوب؟
رحنا هناك .. هناك .. هناك .. بين سنابل السهل الرطيب
وأنـا .. وأنـت .. و«مـن تشـاء» مرنحـون عـلى السـهوب
أنســـيتِ أنـــتِ ولا أزال أعـــيش بـــالأمس الطـــروب؟

***

(78) كتبت في 18/ 4/ 1974.

والجـــدولُ النعســـانُ يلمـــع في غلائـــلَ مـــن ضـــباب
نُسِـجَتْ مـن النـار النديـة .. والأزاهـر .. والسـحاب
كالهالـــة القمـــراء يصـــبغها لظـــى نجـــمٍ مـــذاب
والغـابَ عـن بعـد يمـوج .. كشـاعر قَلِـقَ الرغـاب
أو طـائرٍ نفـضَ الجنـاح وراح يضـرب في ضـباب
***
هـل تـذكرينَ؟! يكـاد ينفجـر الصـدى : (هـل تـذكرين)
جياشـةَ الإيقـاع .. تصـهر مـا تُصَـادفُ ، بـالرنين
وقّـادةً مثـل الشـهاب تشـق آمـاد السـنين
نقشـتْ عـلى أعجـالهن [79] بـأحرف اللهـب الحـزين
وتظـلَّ مركبـة الزمـان تسـوقها[80] (هـل تـذكرين)
***
تلك الطبيعة في انتظاركِ .. وهي تهمس «يوم عيدي..
رقصتْ معطرةَ الخطى ساعاتهُ .. رَقْصَ الورود ..»
والسـاعةُ العـذراءُ تسـأل أختهـا لِمَ لَمْ تعـودي !
والـريح تبحـث في ميـاه النهـر .. عـن ظـل الخـدود
عـن ثغـركِ الطلـقِ الضـحوك يقـول : هـذا يـوم عيـدي!
***
أختـاه .. بعـدَ غـدٍ إلى دفء الربيـع سـترجعان
وأظـلَّ وحـدي في شـتاءٍ لـيس يخضـع للزمـان
هيهـاتَ .. لسـت بمـن يعـود إلى الجـداول والجنـان
أنـا جـدول خـتم الجليـد عـلى خطـاه بـأفعوان!!
غـلّ .. يكـاد صـليله المسـموم يهتـف : ترجعـان
***

(79) أعجالهن : عجلاتهن ـ الهامش للشاعر .

(80) إشارة إلى الأسطورة الإغريقية «فايتون وعربة الشمس».

أنفـــاسي المتجمـــدات عـــلى ضـــفافي كالصـــخور
يصرـــعن أزهـــارَ الغـــرام بمنجـــل الـــبرد النشـــير
هيهـــاتَ يصـــهر ظلهـــن كيـــان مـــائي ، بـــالعبير !
لكـــنَّ أنفـــاسي ، إذا مـــازجن أنفـــاس الهجـــير
ذابـــت فزلـــزل ســـيلُها الفـــوَّارُ أقـــدامَ الصـــخور!

***

خواطر حائرة [81]

الجـــدولُ السلســـالُ والظـــلَّ المـــرنّحُ بالميـــاه
والشـــاعر الهـــيمانُ يشرـــق بالوداعـــة نـــاظراه
يستشرـــف الأفـــقَ البعيـــد فيســـتحيل عـــلى مـــداه
روحًـــا محلقـــةً ولحنًـــا يهمـــس الـــوادي صـــداه
مـــاذا وراءك يـــا حيـــاة ؟

***

تلـك الغصـونُ الشـاحبات وقـد خـتمن عـلى الحفيـف
ينظـــرنَ ناحيـــة الشـــتاء ويلتفـــتن إلى الخريـــف
فـيرين في الأفـق البعيـد غضـارةُ الصـحو الشـفيف
والموقـــدُ المجنـــون يـــرمقهن بـــاللحظ المخيـــف ..!
أإلى احـــــتراق أم رفيـــــف
تلـك الغصـون ؟ سـل الحيـاة

***

ذاك الجنـــاح .. أمـــا تـــراه يكـــاد يغـــرق في الفضـــاء ؟
يطفــو ويرســب ، مثــل نجــم بــين ومــض وانطفــاء
أو كالرجـــاء ، لـــو أنَّ في الأكـــوان أجمعهـــا رجـــاء
ذاك الجنـــاح ، أللثـــرى هـــو في غـــد أم للســـماء ؟
مـــا بـــين نشرـــ وانطـــواء ..
أكـــذاك شـــأنك يـــا حيـــاه؟

***

(81) تعود كتابة هذه القصيدة إلى عام 1947.

يا للتلال .. أكاد أهتف دون وعي بالسؤال :
ماذا وراءكِ؟ أهو نور ما وراءكِ أم ظلال؟
سهلٌ يطوف به النداء فلا يرجِّعُ ، أم تلال؟
القبح خلف الشاهقات الشم غاب ، أم الجمال
إن الحقيقة كالخيال !
والموت من صور الحياه ..
***
تلك الزهور الذاويات أكنَّ يعرفن الغرام .. ؟
ما حبهن؟ نوىً وصدٌ ، أم عناق والتثام؟
والغدر – يا غدرَ الزهورِ !! أهنَّ شبهن الأنام ؟
الحب مصباحُ الحياةِ ، فما لقلبي في ظلام؟
مالي حُرمت من الهيام ؟
أوَلستُ زهرًا يا حياه ؟
***
يا دوحةً بين الرمال تكاد ترتشف الغدير ،
إن نَشَّرَ الليلُ البهيمُ ذوائبَ النجم الأخير
بين الغصونِ الحالماتِ المصغياتِ إلى الهدير ،
حتى خفقنَ على المياه كخفقةِ النَفسِ البهير –
ما حال عاشقك الصغير؟
هل كان يثبتُ في هواه ؟
***

بـالأمس كنـتُ أفـيض بالشِـعر النـديِّ عـلى تـراب !!

فنفخـتُ مـن روح الربيـع بـه ومـن سـحر الشـباب

ظلَّلتُـــه زمنًـــا بأجنحـــة الفـــراش وبالســـحاب

واليــوم أضــحَى مــا غرســتُ لِقــىً لمنقــار الغــراب

وا حسرـتا لي؟ كيـف خـاب

في النبــت ظنــي في حيــاه؟

***

هــو جــدولٌ ضــحلُ الميــاه يلــوح ظــلَّ الــنجمِ فيــه

فتبـــين أبعـــادُ الســـماواتِ الفســـاح لناظريـــه

حتـــى إذا بســـط الأوامُ عليـــه أيـــدي وارديـــه

فــر القــرار مــن الأكــف وعــاد يســقي شــاربيه

طينًـــا .. لـــيس يقـــول آه

غـــير المفجـــع في صـــداه

لســـت المفجــع يــا حيــاه !

***

يا ليلي (82)

(إلى السمراء ذات الغلالة الزرقاء)

واعـــذاباه مـــن خطـــاكِ الثقـــالِ وانتظـــاري لوقعِهـــا ، يـــا ليـــالي!

قَـــرِّبي موعـــدَ الهـــوى ، والتحايـــا مـــن أليفْـــينِ أَلحَفَـــا بالســـؤال ؛

ينفضـــان الســـماء نجـــما فـــنَجما بـــين بحـــثٍ عـــن الضـــحى وابتهـــال

الخريـفُ الكئيـبُ مـا زالَ خلـف التـل عريـــــانَ لائـــــذًا بـــــالظلال

فـــانزعي عـــن يمينـــه صـــبغةَ المـــوتى .. ورشِّـي بهـــا اخضـرـــارَ الـــدوالي

إن يـــومَ اصـــفرارها موعـــدُ اللقيـــا عـــلى غـــير موعـــدٍ بالوصـــال

واملأي ، بـالنجومِ مصـهورةَ الأضـواء مـــا اســـوَدَّ مـــن فـــراغ الهـــلال !!

قـــربي موعـــد الهـــوى يـــا ليـــالي

***

أيـــن حقـــلٌ عـــلى الليـــالي حصـــانُ مـــاج فيـــه الشـــعاعُ والألـــوانُ

رواحتـــه الفصـــول في الموكـــب الرفَّـــاف ، يحـدوه كوكـب أضـحيان

لوَّنَـــتْ كـــلَّ خطـــوةٍ مـــن خطاهـــا زهـــرةٌ ، حـــين هـــاجهن الرهـــان

حـــار فيـــه الربيـــع لا يعـــرف التـــأريخَ فالـــــدهر كلـــــه (نيســـــان)؟؟

أيــن حقــل هنــاك ، مِّنــي لــه الإنشــادُ والبـــث .. وهـــو منـــه الحنـــان

واتكـــائي عـــلى الأزاهـــير نشـــوانَ ومـــن حـــولي الوجـــوه الحســـان

كـــم تســـلمتُ موعـــدًا في حنايـــاه فغنيـــــت واســـــتعادَ الزمـــــان :

قـــربي موعـــد الهـــوى ، يـــا ليـــالي !

***

(82) كتبت في20/ 9/ 1947.

أيهــا الريــفُ ، مــا ذممــتُ المقامــا … في مغانيــكَ ، لــو وجــدتُ الغرامــا
لــيس حقــلي هنــاك أنــدى عبــيرا … منــكَ – لــو لم يعطــر الأقــداما
وَهْــيَ تســعى إلى لقــاء ، ولــو لم … يجمــعِ العاشــقيْنِ عامــا فعامــا
إنــما جنــةُ الهــوى حيــث حــواءُ ، … وإن كانــت الجحــيمَ اضــطراما
أنــتَ نبهــتَ غافيــا مــن خيــالي … ناســجًا حــول جرحــيَ الأحلامــا
خلــوة في الظــلال ، يــا ريــفُ هــزَّتْ … مــن أمــانيَّ فانتزعــتُ اللثامــا
ســافراتٍ تقــول مــنهن عــذراءُ لأخــرى أمــا ســئمتِ الظلامــا ؟؟
قــربي موعــد الهــوى ، يــا ليــالي !

***

خلــوة في الظــلالِ .. والأشــقياءُ … بــين بــاكٍ وغائــبٍ ، يــا ســماءُ ؟!
خلــوة .. تــذهب الليــالي وتــأتي … مــا لهــا بــالمتيمين امــتلاءُ ..
يــالحّر الغليــلِ ، إن فاضــت الأقــداحُ … نــورًا ، وغابــتِ الصــهباء!
واكتئــابي وحسرــتي كلــما رانــت … عــلى الريــفِ ليلــةٌ قمــراء!!
فالضــياءُ الظــلامُ ، إن كــان لا يطــوي … عــلى الــدفء ســاعديَّ الضــياء :
إن شــوكًا يدوســه الحــبُّ أغــلى … مــن أزاهــيرَ رفَّهُــنَّ الجفــاء ..
خلــوة في الظــلال في غابــك النــائي … .. كــأنَّ الســكونَ ، فيهــا ، نــداء
قــربي موعــد الهــوى ، يــا ليــالي !

***

قــد ســئمتُ الربــى .. مللــتُ الضــفافا … أحســبُ المــوجَ أو أعــدُّ الخرافــا
مــثلما عــدَّ أنجــمُ الليــل عــرَّافٌ … فأنبــتْ ، بموتــه ؛ العرافــا
أيهــا الشــاطئانِ ، أَوْهَــى جليــدُ المــوت … كفِّــي ، فأرخــت المجــذافا
وكــأني أرى بعينــيَّ غــورًا … قاتمًــا أحتسيــ دجــاه ارتجافــا
أهــبطُ المــوجَ سُــلَّمًا بــاردَ الألــوان … حتــى أعــانقَ الأصــدافا
يــا لمثــوايَ أعظــمًا قضقضــتهن … الأعاصــيرُ والعبــابُ اجترافــا
حيــث لا نــادبٌ ســوى اللــجِّ زخَّــارًا … عــلى أضــلعي يعيــد الهتافــا
قــربي موعــد الهــوى يــا ليــالي

***

عاشـــق ينســـجُ الــرؤى مــن عنــاقِ   يتمنـــاه بعـــد طـــولِ الفـــراقِ !!

حــالم جَــنَّحَ الأســاطير بالأشــواق   واصـــــطادهُنَّ بــــالإطراق

هكــذا كــان حالــه ، قبــل لقياهــا   عـــلى غـــير موعـــدٍ بـــالتلاقي

كـــان عبـــد المنـــى .. فلـــما رآهـــا   صـــاح : يـــا أمنيـــات حـــلِّي وثـــاقي

تلـك حـوائّي التـي حَـدَّثَ الفـردوسُ   عنهـــا ، ففـــاض بالأشـــواق

يـا معينًـا يقطـر ، الحـب مـن قلبـي   وذوب الشـــباب في أعراقـــي

يــا حيــاة تــدفقت مــلء صــحرائي   تبـــلّ احتراقهـــا واحتراقـــي

قـــربي موعـــد الهـــوى يـــا ليـــالي

***

في المســـاء الكئيـــب ، دَوَّى نـــداءُ   ضـــاقتِ الأرضُ فاحتوتـــه الســـماءُ

بـين تلـك الـتلالِ ، حيـث السـواقي   تعـــتريهن وحشـــةٌ وانطفـــاء

والضـــباب الضـــفيف ينجَـــلّ   كالأطيـــافِ في خـــاطر طـــواه الفنـــاه

علقـــتْ فيـــه نجمـــةٌ ، فهـــو ظـــلّ   ألهبتـــه الفراشـــة البيضـــاء

وهــو رؤيــا ، توهجــتْ بــالهوى فيهــا   وبالوجـــدِ ، قبلـــةٌ عـــذراء

بـين تلـك الـتلالِ ناديـتُ : يـا سـمراء   حتَّـــى وَهَـــى وبُـــحَّ النـــداء

لم يجبنـــي ســـوى صـــدى حـــائرِ   الإيقـــاعِ بـــاكٍ ، يصـــيح : يـــا ســـمراء!

واختفـــى موعـــد الهـــوى في الليـــالي

***

أيـن ألقـاكِ؟! ضـجَّ أمسـى يناديـكِ ... وألهيـــتِ حـــاضري بالســـؤالِ

كلـما أشرقـتْ ، عـلى قلبـي المقـرورِ ... عينـــاكِ مـــن ســـماء الخيـــال

قلبـــي الراكـــد الـــذي انـــداح فيـــه ... صـوتُكِ الناحـلُ الصـدى كـالظلال

ذلـــك الجـــدولُ الـــذي جمدتْـــه ... في الشـــتاء الحـــزين ، ريـــحُ الشـــمال

كلـما أشرقـتْ ، عـلى قلبـي المقـرور ... عينـــاك – في ظـــلام الليـــالي

ذاب غـلَّ الجليـدِ مـن صـوتك الفضيِّ ـ ... ســـكرانَ بالصـــبى والجـــمال

أنـــتم الخـــائنون كـــلّ الرجـــال

***

سـائلي أنجـم الـدجى عـن هوانـا ... أيُّنـا أخلــفَ العهــود وخانــا

منـــذ أن مـــزقَ الظـــلام اتقـــادٌ ... صـاغ مـن هـزةِ السـكون الزمانـا

واسـألي «شـاعر الليـالي» [83] غنـاءً ... هـــز (فينـــيسَ) رقـــةً وحنانـــا

يرقـب (الـبرجَ) عـدّت الساعةُ الـثكلى ... عليـــه الخطـــوبَ والأحزانـــا

أيـــن ثغـــر يعـــدّ بالقُبَـــلِ الحَـــرّى ... عليـــه الوجيـــبَ والخفقانـــا؟

أيـن مـن أقسـمتْ لـه ، وهْـي سـكرى ... في ذراعيـــه نشـــوةً واحتضـــانا

السر ـاج الكئيـب ولا ريـحُ والتقـويمُ ... ينســـجنَ حولـــه الأكفانـــا

وهـــي ســـكرى تعـــبُّ كـــأس الوصـــال

***

(83) الشاعر الفرنسي «ألفريد دوموسيه» ، صاحب ديوان الليالي وفينيس ـ البندقية ـ المكان الذي فر إليه الشاعر وحبيبته الكاتبة الشهيرة «جورج صاند» والبيتان التاليان لهذا البيت مقتبسان من موسيه ، قال : (دعي ساعة البرج ، في قصر ـ الدوج ، تعد عليه لياليه المسئمات وارتكينا نعد القبلات على ثغرك العاصي!) ـ الهامش للشاعر .

واعــــذاباه كــــم أطلّــــتْ عيــــونُ   مــن ظـلامِ الثـرى ، تـرى مـن نكـونُ
نحــن مَــنْ لم تصــدّنا حرمــةُ المــوتى   فجئنـــا نقــولُ : كانــتْ تخــون !!
هـــذه البيـــد مزقــت برقـــع الآلِ [84]   فهبَّـــتْ مـــن الرقـــاد القـــرون
وانثنــتْ تقتفــي عــلى رملهــا النــاس   خطـــىً غـــلّ وقعهـــن الســـكون
نقلتهــا عــلى الثــرى أرجــلٌ حــيرى   طـــــواهنَّ داؤُهُـــــن الـــــزمين
أنظـــريهنَ واقفـــاتٍ .. حيـــارى   مطرقـــاتٍ تـــذيبهن الشـــجون ..
واســمعيهن : هــا هنــا ماجــتِ الــدنيا   وخـــرَّ المعـــذَّبُ (المجنـــون) [85]

أيـــن «لـــيلاه؟؟» خـــبري يـــا ليـــالي؟

***

عَــافَ كـــلَّ الحيـــاة إلا هواهــــا   ليتــــه خـــانَ ودَّهـــا أو جفاهـــا
أيـــن مـــا تـــدَّعي؟؟ أجَنَّـــتْ كـــما جـــنَّ اشـــتياقًا وذاب آهـــا فآهـــا؟
الهـــوى بيـــتُ عاشـــقيْنِ اطمأنـــا   لا سـؤالٌ : أأنـتَ قبلـتَ فاهـا؟! [86]
يشرــف الحــبُّ جامعًــا بــين زوجــين   بصـــــفو الحيـــــاةِ أو في شـــــقاها
ينســجان الزمــانَ مــن قبلــةٍ سـكرى   .. يُكَـــنُّ الغـــدُ المرجَّـــى صـــداها
كلــما صــوَّرا ، مــن العطــف ، أختًــا   صَـــوَّرا بـــين ســـاعديها أخاهـــا ،
يغرســان الــورود في قلــب «قابيــل»   فيحيـــي «هابيـــل» طيـــبُ شـــذاها

ضـــامدًا بالإخـــاء جـــرح القتـــال

***

(84) الآل : السراب .

(85) مجنون ليلى «قيس بن الملوح» .

(86) إشارة إلى قول (المجنون) مخاطبًا ليلى :

بربك هل ضممت إليك ليلى   قبيل الصبح أو قبلت فاها؟

واعــــذباه مــــن خطـــاكِ الثقـــالِ وانتظـــاري لوقوعهـــا ، يـــا ليـــالي

قـــربي موعـــد الهـــوى ، والتحايـــا ، بـــين أليفْـــين ألحَفَـــا بالســـؤال ..

الخريـفُ الكئيـبُ مـا زالَ خلـف التـلِّ عريـــــانَ لائـــــذا بـــــالظلال ..

فـــانزعي مـــن يمينـــه صـــبغةَ المـــوتى ورشَّي بهـــا اخضرـــارَ الـــدوالي

قـــربي موعـــد الهـــوى ، يـــا ليـــالي !

***

خطاب إلى يزيد

إرمِ السـماءَ بنظـرةِ اسـتهزاءِ ... واجعـلْ شرابَـكَ مـن دم الأشـلاءِ
واسحق بظلك كـلَّ عـرضٍ ناصـعٍ ... وأبـحْ لنعلـك أعظْـمَ الضـعفاء
وامـلأ سراجـك إن تقضَّى ـ زيتـه ، ... ممـا تـدر نواضـبُ الأثـداء
واخلـع عليـه كـما تشـاء ذبالـةً ... هـدب الرضـيع وحلمـة العـذراء
واسـدر بغيِّـكَ يـا يزيـد فقـد ثـوى ... عنـك (الحسـين) ممـزَّقَ الأحشـاء
والليـل أظلَـمَ والقطيـع كـما تـرى : ... يرنـو إليـك بـأعينٍ بلهـاء
أحنـى لسـوطِكَ شـاحباتِ ظهـوره ... - شـأن الـذليل – ودبَّ في اسـترخاء
وإذا اشـتكى فَمَـنِ المغيـثُ؟ وإنْ غفـا ... أيـن المهيـب بـه إلى العليـاء؟!
مثَّلـتُ غـدرَكَ .. فاقشـعر لهولـه ... قلبـي وثـارَ ، وزلزلـتْ أعضـائي
واسـتقطرتْ عينـي الـدموعَ ورنقـتْ ... فيهـا بقايـا دمعـةٍ خرسـاء
يطفـو ويرسـبُ في خيـالي دونهـا ... ظـلٌ أدقَّ مـن الجنـاح النـائي
حـيرانُ في قعـر الجحـيمِ معلـقٌ ... مـا بـين ألسـنة اللظـى الحمـراء!
أبصرـتُ ظلَّـك يـا (يزيـد) يرجُّـه ... مـوجُ اللهيـب وعاصـفُ الأنـواء
رأس تكلَّـلَ بالخنـا ، واعتـاض عـن ... ذاك النضـار [87] بحيَّـةٍ رقطـاء
ويـدانِ موثقتـانِ بالسـوط الـذي ... قـد كـان يعبـثُ أمـسِ بالأحيـاء!
قـم واسـمعِ اسْـمَكَ وهـو يغـدو سُـبَّةً ... وانظـر لمجـدك وهـو محـضُ هبـاء
وانظـر إلى الأجيـال يأخـذُ مقبـلٌ ... عـن ذاهـب ذكـرى أبي الشـهداء
كالمشـعل الوهَّـاج – إلا أنهـا ... نـور الإلـه يجـلَّ عـن إطفـاء
غصَّـتْ بيَ الـذكرى ، فألقـتْ ظلَّهـا ... في نـاظريَّ ، كواكـبُ الصـحراء
مبهـورةَ الأضـواء يغشَـى ومضَـها ... أشـباحُ ركـب لـجَّ في الإسراء

(87) النضار : الذهب . «الشاعر».

أضفَى عليه الليلُ سترًا حِيكَ من … غرف الجنان ومن ظلالِ حِراء

أسرى ونام .. وليس إلا همسة … باسمِ (الحسين) وجهشة استبكاء

تلك (ابنة الزهراء) وَلَهَى راعها … حلم ألمَّ بها مع الظلماء

تَنبي أخاها وهي تخفي وجهها … ذعرًا ، وتلوي الجيد من إعياء

عن ذلك السهل الملَبَّدِ يرتمي … في الأفق مثل الغيمة السوداء

يكتظ بالأشباح ظمأى حشرجتْ … ثم اشرأبتْ في انتظار الماء

مفغورة الأفواه – إلا جثة … من غير رأس لطختْ بدماء

زحفتْ إلى ماءٍ تراءى ، ثم لم … تبلغه – وانكفأت على الحصباء

غير (الحسين) تصده عما انتوى … رؤيا .. فكُفِّي يا ابنةَ الزهراء

من للضعاف إذا استغاثوا والتظت … عينا (يزيدَ) سوى فتى الهيجاء؟

بأبي عطاشى لاغبين ، ورضّعًا … صفرَ الشفاهِ خمائصَ الأحشاء

أيد تمد إلى السماء ، وأعين … ترنو إلى الماء القريب النائي

طام ، أحلَّ لكلِّ صادٍ وِرْدَه : … من سائب [88] يعوي ومن رقطاء

عزَّ الحسين وجلَّ عن أن يشتري … رِيَّ الغليل بخطةٍ نكراء

آلى يموتُ ولا يوالي مارقًا … جمَّ الخطايا ، طائشَ الأهواء

فليصرعوه كما أرادوا .. إنما … ما ذنبُ أطفالٍ وذنبُ نساء

عاجتْ بيَ الذكرى عليها ساعةً … مرَّ الزمانُ بها على استحياء

خفقتْ لتكشفَ عن رضيع ناحلٍ … ذبلتْ مراشفه ، ذبولَ خباء

ظمآن بين يديْ أبيه كأنه … فرخُ القطاةِ يدفُّ في نكباء

لاح الفرات له فأجهشَ باسطًا … يمناه نحو اللجَّةِ الزرقاء

واستشفع الأب حابسيه على الصدى … بالطفل يومئ باليد البيضاء

رجَّى الرواة فكان سهمًا خزَّ في … نحو الرضيعِ وضحكةِ استهزاء

فاهتز واختلجَ اختلاجة طائر … ظمآن رفَّ ومات قرب الماء

---

(88) السائب : الكلب ، الرقطاء : الحية .

ذكرى ألمَّتْ ، فاقشعر لهولها   قلبي وثارَ ، وزلزلت أعضائي

وساتقطرتْ عيني الدموع ورنقت   فيها بقايا دمعةٍ خرساء

يطفو ويرسب في خيالي دونها   ظلٌّ أدقُّ من الجناح النائي

حيران في قعر الجحيم معلَّقٌ   ما بين ألسنةِ اللظى الحمراء

***

إلى حسناء القصر

حســــناء . يهنئــــكِ الشـــبابُ الغـــضُّ والمــالُ العمـــيم
يهنئـــكِ يـــا بنـــتَ القصـــور الشـــمِّ أنـــك في نعـــيم
إن مَـــسَّ ظـــلَّ القصرـــ بالأقـــدام بانيــــه اللئـــيم
الحـــاطمُ الصـــخرَ العَصيَّـــ بحـــدِّ معولـــه الأثـــيم
العامــــل العربيـــد يســـفر عــــن محيَّـــاه الســـقيم
ورأيـــتِ آثـــار الغـــويِّ ببســـمةِ الثغـــر النظـــيم
أو طـــاف بـــالكوخ البعيـــد تَنهُّـــدُ الطفـــل اليتـــيم
فظَّـــا يـــدنِّسُ وقعُـــه المســـؤوم هـــزاتِ النســـيم
طهـــرتِ ســـمعَكِ بالغنـــاء العـــذب والصـــوت الـــرخيم
حســـناء يهنئـــك الشـــباب الغـــض والمـــال العمـــيم

***

يهنئـــك يـــا حســـناء هاتيـــك الـــلآلي والثيـــاب
لم يضربـــبِ الغـــوَّاصُ مهتـــاجَ الخـــواطر في العبـــاب
أو يقطــــع الأنفـــاسَ والأمـــواجُ تـــرقص في ضـــباب
إلا ليحظـــى جيـــدُكِ الوســـنانُ بـــالنطفِ الرطـــاب
يقطعـــنَ أنفـــاسَ المحبـــين الظلـــماء إلى السرـــاب
لم يشرـــب الفـــلاحُ وَسْـــطَ الحقـــل عريـــانَ الإهـــاب
والشـــمس تحـــرقُ ، في رحـــاب الأفـــق ، أشـــتاتَ الســـحاب
إلا ليلبســـكِ الـــدمقسَ يضـــوع بـــالعطر المـــذاب
وســـنان ، يحـــرقُ أكبـــد العشـــاق في نـــار العـــذاب
فـــإذا عريـــتِ فعـــن دلالٍ عابـــث هَتْـــكَ الحجـــاب
يهنيـــك يـــا حســـناء هاتيـــك اللآلـــئ والثيـــاب

***

لم تَسْرِ بنتُ الكوخ في أسمالها ، تحت الظلام
مذعورةَ الألحاظ ، عاثرة الخطى ، بين الرجام
عذراءَ . تطرحُ جسمَها المنهوكَ في دار الأثام
إلا لِتُمْسِي أنت طاهرةً ، مصفات الغرام
أو تسهر الليل الطويل ، على ذراع المستهام
فظلَّ يجرِّعُها العذابَ وقد تخطَّفه الغرام
إلا ليسقيك الكرى ، مما يعصِّرُ ، ألف جام
ما دمتِ هانئةَ الجفون ، إلى الضحى ، دون الأنام
فلتسر بنت الكوخ في أسمالها تحت الظلام ..

***

إن حَوَّمَ الموتُ المروّعُ فوق هاماتِ الجنود
وجرى الدم المسفوكُ يخضب ، بالأسى ، بيض البنود
وهوى الرجالُ على الأسنةِ والنساءُ على اللحود
ولمحتِ أعناقَ الشعوب مصفداتٍ في القيود ..
فامضي إلى النار العتية بالأزاهرِ والورود!
ما شأنُهُنَّ إذا تألَّقت الأساور والعقود؟
تسعَى من الشرق المخلف ، وهو منتهكُ الحدود
قد بات مخضوبَ القبور ، وبتِّ خاضبةَ الخدود
فلتحلمي بالعطرِ ، والذهب المصفَّى والبرود
إن حوَّم الموت المروع فوق هامات الجنود

***

يهنيـــك أنـــك قـــد ملكـــتِ عـــلى رضـــاك العـــالمين
خَلَّفـــتِ أربـــابَ الفنـــون ، حيـــال خِـــدْرك ســـاجدين
والكـــادحون لغـــير حســـنكِ لم يعـــودوا كـــادحين
فالنـــاي ، مثـــل المنجـــل الجبـــار ، مأســـورٌ ، ســـجين
والنغْمـــةُ المطـــرابُ ، كـــاللون المقيـــد في الجبـــين
أو فـــوق هاتيـــك الشـــفاهِ اللعـــسِ والطـــرف الضـــنين
في صـــورةٍ ظلَّـــت تلونهـــا دمـــاءُ البائســـين ..
والشـــاعر النشـــوان ، يَقْـــبِسُ مـــن جمالـــك كـــلَّ حـــين
فنًّـــا يحلـــق فـــوق أوهـــامِ العـــراة الجـــائعين
يهنيـــك أنـــك قـــد ملكـــت ، عـــلى رضـــاك ، العـــالمين
***
حســـناء إنْ دام الشـــبابُ فـــإنَّ مالَـــكِ لا يـــدوم
والقصرُـــ يـــنفضُ بعـــدَ حـــينٍ ، عنـــه ، أذرعـــةَ النجـــوم
فيعـــود أنقاضًـــا مصـــدعةً يجللِّهـــا الوجـــوم ..
يمشيـــ عليـــه الثـــائر الغضـــبان بسَّـــامَ الكلـــوم
الحـــاطم المســـتعبدين ، وكـــل جبـــار ظلـــوم ..
العامـــل الموتـــور ، يأخـــذ بـــالترات مـــن الخصـــوم
يحنـــو عـــلى الطفـــل اليتـــيم ، كأنـــه الأم الـــرؤوم
فـــإذا اكتئـــابُ الكـــوخِ بِشْرٌـــ لا ترنقـــه الهمـــوم
وإذا التنهـــد أغنيـــات ، في جوانبـــه تحـــوم ..
حســـناء إن دام الشـــباب فـــإن مالَـــكِ لا يـــدوم
***

إن اللآلــئ ســوف تنزعهــا الأكــفُّ الــداميات
فيقــر قلــبٌ ، في المقــابرِ أو عيــونٍ مطفــآت
قلــب تَنَقَّــلَ ، في البحــار ، عــلى زئــير العاصــفات
وعيــون غــواص هــتكنَ دجــى الليــالي المظلــمات
وبحــثن في الأغــوار ، والأمــواج كالحــة الثيــاب
عــن كــلِّ مــا حَــوَتِ القلائــدُ ، مــن لآلــئ لامعــات
حســناء والــدنيا بأجمعهــا تفيــق مــن الســبات
قــد آن أن تنسَــلَّ أثــواب الــدمقس العــاطرات
مــن جســمك الكــاسي ، إلى تلــك الجســوم العاريــات
فــإذا أبيــتِ فســوف تنزعهــا الأكــفُّ الــداميات

***

حســناء والشــعبُ المقيَّــدُ ، لــيسَ يبخــل بالــدماء
تجــري ســيولاً ، تجــرفُ الأصــفادَ الحــداء
وحنــاجر الأبطــال تقــتحم العواصــف بالنــداء
يــا أيهــا المســتعمرونَ إلى الجــلاء .. إلى الجــلاء
لــن تشــهدي والليــلُ مختنــقُ الكواكــب في عــماء
عــذراءَ تطــرح جســمها المنهــوك في نــار البغــاء
فــالجوعُ والعــريُ اللــذان تجاذباهــا في المســاء ،
ذابــا عــلى نــور الصــباح ، وذاب أصــحابُ الثــراء
في موكــب الشــعب المفيــق يســير خفَّــاقَ اللــواء
لا يبخــل الشــعب المقيــد ، بالضــحايا والــدماء

***

إن قَطَّبَ الموت المروِّعُ ، في وجوه الثائرين
وجرى دم المظلوم يسبَحُ في دماء الظالمين
فالأَفْق مختصم العواطف ، مكفهر لا يبين
شد الهتاف على هتافٍ ، والأنين على أنين
وطغى دُخَانٌ في اليسار على دخان في اليمين
فلتعلمي أن الأساور سوفَ تنزع بعد حين
أن السجين نَزَا فَحَطَّم عنه أغلال السجين
والشرق محميُّ الحدود بكلِّ محميِّ العرين ..
ولتعلمي أن الأسير يخط لَحْدَ الآسرين ..
إن قطب الموت المروع ، في وجوه الثائرين

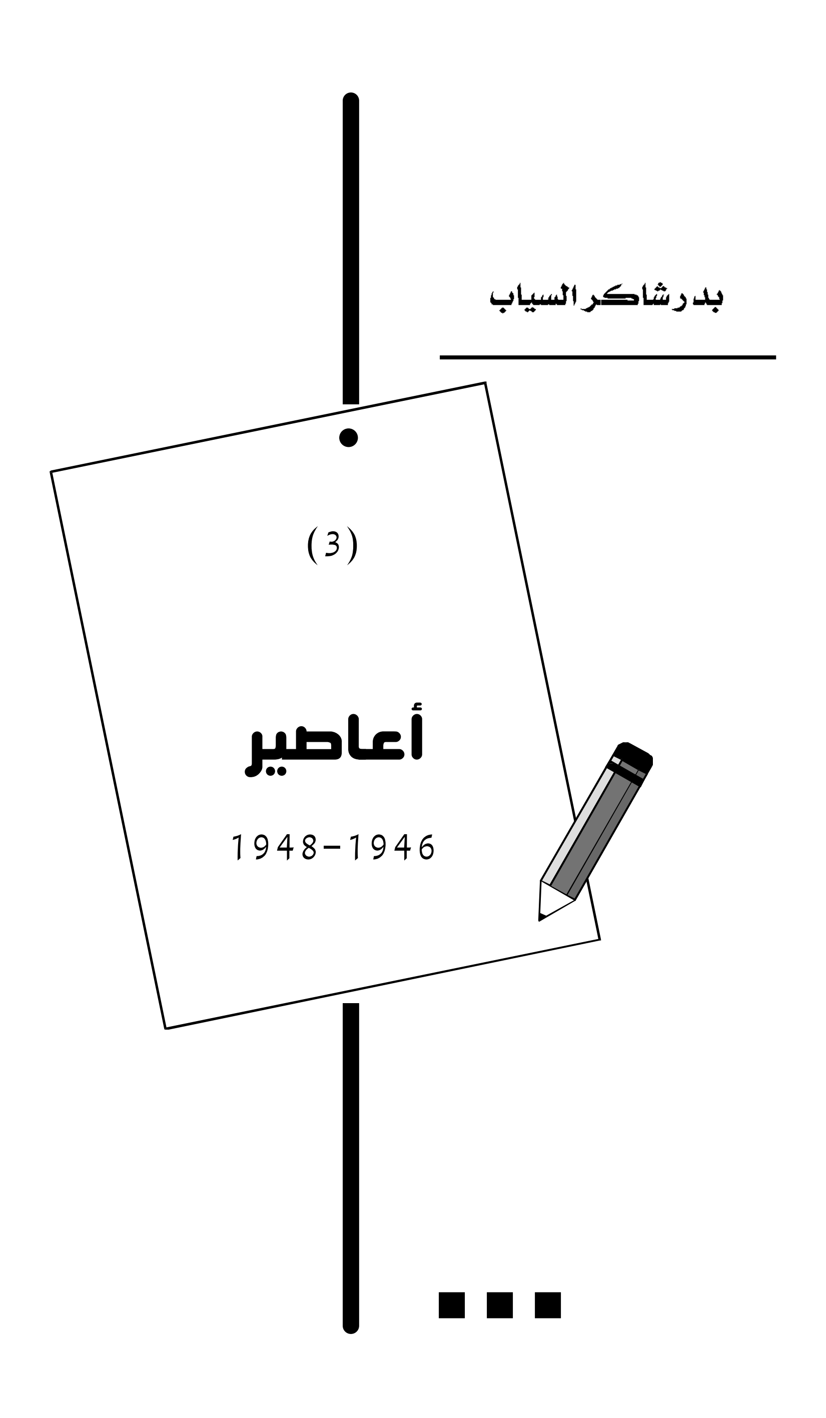
***

والفن أثمر واستحالَ إلى سواعدَ لا تلين
غضبى ، تموجُ لتستقر على رقاب الظالمين ،
هو دمعة الثكلى ، وقفقفة العراة الجائعين
وتَمُّرغُ المكلومِ في دمه ، وأحلام السجين
وهو ابتساماتُ الضحايا ، وانتفاض الثائرين
فلتنبتِ الأرضُ الخرابُ (89) على سنا النجم الحزين
صبَّارَها .. إنا سنملأ عالَمَ الغدِ ياسمين
ولتَلْظَ أحداقُ الطغاة فسوفَ تطْفَأ بعد حين
إن رنحْتَها ، حيثما اتقدتْ ، سواعدُ لا تلين
غضبى ، تموج لتستقر على رقاب الظالمين

***

(89) الأرض الخراب : عنوان قصيدة للشاعر الإنجليزي ت.س. أيليوت ـ الهامش للشاعر .

أعاصير 1946-1948



عربد الثأر فاهتفي يا ضحايا

بســـمة النـــور في ثغـــور الجـــراحِ — أنـتِ قبـل الصـباح نجـمُ الصـباحِ
كلـما لُحْـتِ في خيـال الطواغيـت ، — وألهبـــتِ مرقـــدَ السّـــفاحِ
ذاب قيـدٌ عـلى اللظـى ، وتراخـت — قبضـاتٌ عـلى حطـامِ السـلاحِ
واختفـتْ ، كـالظلام تنحـلُّ في النـار — وجـــوهٌ تحـــفُّ بالأقـــداحِ

***

كلـما لحـتِ هلـل الشـعبُ أسـوان ، — يبـــثُّ ابتهاجـــهُ في النـــواح
وتحـدّى الطغـاة بالسـاعدِ المفتـول — مـــن عامـــل، ومـــن فـــلاّح
كـان في غفـوة ، فلـما مـلأت النـ — ـــوم في مقلتيـــه بالأشـــباح
هـبَّ غضـبان ، يهمـز الثـأر بالثـأر، — ويمشي ـــ عـــلى لهيـــب الكفـــاح
يـا عيـون الجـراح ، لـولاك مـا امتـ — ـــدتْ عيـــونٌ إلى الســـتار المـــزاحِ
تبصرُ ـ الظُلـمَ ، عاريًـا ، والطواغيـت — كـــأوراق دوحـــة في الريـــاحِ

***

جـرَّد البغـيُ خنجـرًا في دجـى الليـل ، — وأهـــوى عـــلى الحمـــى المســـتباح
فاهتـدتْ أمـة عـلى لمعـةِ النصـل — وقـد عـبَّ مـن دمـاء الأضـاحي
واستضـاءت بسـمةٍ مـن شـهيدٍ — ومشـتْ فـوق معـبرٍ مـن جـراح

***

عربـدَ الثـأر فانهضي ـ يـا ضـحايا — واطرحـي عنـكِ بـاردات الصـفاحِ
كلـما ألهـبَ الـدجى حـزن بغـداد — فغصـــتْ بـــدمعها النضـــاحِ
وانظـري ، هـل تـرين إلا ثكـالى — وأيـامي يضرـبن راحًـا بـراح
وانظـري!! مـا يـزال جـلاّدك السكران — فـوق الثـرى طليـقَ الجنـاح
واسـألي قـبرَ «جعفـر» البـارد المحـزون — مـــا ذنـــبُ هـــذه الأرواح

***

جعفـرَ الحـق، يـا نشـيد البطـولات — تُغنيـــه تحـــت ظـــلّ الصـــفاح
مُـدَّ مـن قـبرك المـدمي بيمنـاك — فـما زلـتْ حامـل المصـباح
أنـتَ مزَّقـت ظلمـة الليـل بـالنور ، — فـلا تهـنّ مقلـةُ السـفاح

***

حطمت قيدًا من قيود

حــرَّرت بالــدم كــلَّ جيــلٍ نــاءٍ ... آتٍ ســـــيذكر منـــــةَ الآبــــاءِ
ورقيــت مــن جثــث الضـحايا سلمًا ... يُفضي ــــ إلى الحريــــة الشـــماءِ
وجعلــتَ أحجــارَ القبــور صــحائفًا ... وملأتهــــــنَّ برائـــــعِ الأنبــــاء
فتلقَّـــت التـــأريخ يلقـــي نظـــرةً ... عجــلى ، ويــومىء باليــدِ الحمــراء
أنَّ الضـــحايا قَصرــتْ أعمارُهـــا ... في المــوت ، عمــرَ «السـادة» الأحيـاء

***

وعصـابةٍ جمـع الشرـابُ لصوصـها ... في مخــــدعِ الآثـــام ذات مســـاء
آلــت تبيعــك للغريــب ، وأقســمتْ ... بالليـــل ، والخــمار ، والصــهباء
ألاّ يـــذوب الصـــبحُ في أقـــداحها ... إلا وأنـــت مكبـــلُ الأعضـــاء
وتســلمتْ عــن كــل جــرحٍ مثلــهُ ... ذهبًــا ، فــأثرنْ مــن دمِ الأشــلاء
قـال «الحليـفُ» كـما يشـاء ، ووقَّعـتْ ... باســم الجيــاع «صــحائفَ» الأرزاء
في كـــلّ ســطرٍ آهـــةٌ مـــن أيّـــمٍ ... ولهــى ، وكفًّـــا ســائل بَكّـــاء
عشرــون عامًــا روَّعــت أشــباحها ... مهــدَ الرضــيع ، ومرقــدَ العــذراء
ســوداء ، يحتضــنُ الســنابلَ طيفهــا ... ويهـــدّدُ التنــــورَ بالإطفــــاء
ويظــلَّ يرســمُ في الفضــاء بأصــبعٍ ... حمقــاء ، ظــلَّ «الخبــزة» الســوداء
ويظــلّ ينظــر مــن نوافــذ مجلــسٍ ... عــالي الــدعائم ، واطــئ الأهــواء
قــذف «الأجــيرُ» برائديــه وصــحبهِ ... في جانبيـــه ، فغـــصَّ «بـــالعُمَلاء»
النــائمين عــلى الحريــر وحــولهم ... شــعبٌ مراقــدُهُ عــلى الغــبراء
التـــاركين لكـــلِّ كـــوخٍ آهـــةً ... ولكـــلِّ قصرٍ ــ ضــحكةَ اســتهزاء
الســـارقين مـــن الرضـــيع وأمِّـــهِ ... «لبنًـــا» لكلـــبٍ نـــابحٍ وجـــراء
الســالبين مــن العــذارى بســمةً ... ذابـــتْ فكانـــتْ «لمعـــةً» لحـــذاء
والصـــانعين «قيـــاثرًا» أوتارهـــا ... أعـــراقُ هـــذي الأمـــةِ «الخرســاء»

***

ومشـــتْ لتفــرضَ بالحديــد قيودَهــا · والنـــار ، «شرذمـــةُ» مـــن الأَجـــراء

حتى انتفضتَ ، فلا الرصاص مزمجرًا · يثنــي خطــاك ، ولا «الوعيــد» النــائي

ووقفـــت تهـــزأ بالمنايـــا ، عاضـــدًا · عـــزمَ الشـــباب بصـــبيةٍ ونســـاء

ووقفــت تــدفعُ بالحجــارة والحصــا · كيـــدَ الطغـــاة ، وباليـــدِ العـــزلاء

حطّمــتَ قيــدًا مــن «قيــود» فاتّخــذْ · للباقيــــات تأهُّـــــبَ الأكفـــــاءِ

إن « الحليـف » هـو الحليـف وإن صـفا · لا تخــــدعنَّك صـــبغة الحربـــاء

***

حيـث التفــتَّ رأيـت شـعبًا جائعًــا · عريـــان ، يمـــلأ جوفـــه بالمـــاء

يسـقي الـزروع دمًـا لتثـري «طغمــةٌ» · تبنـــي ســـعادتها عـــلى الإشـــقاء

وإذا تضـــجرَ «أطعمتـــه» رصاصـــها · و«كســـتهُ» بالأكفــان والبَوغـــاء

عـــادت مناجلـــه سرايـــا يجـــتلى · فـــيهن وجـــه الثـــورة الحمـــراء

***

قــلْ للحليفــةِ لـيس يجـدي «برقــعٌ» · فـــاليوم تهتكـــهُ يـــدُ الأنـــواء

بـــالأمس عبــأت الجنــوَد وأعلنــتْ · حربًـــا عـــلى الفاشـــيةِ النكـــراء

فتحطمــتْ بيــدِ الشـعوب سلاســلٌ · ومُـــدَّى ، وأجنحـــة مـــن الظلـــماء

واليـــوم تلـــتقط الشـــظايا في الثـــرى · وتلـــمُّ ريشًـــا في يـــد النَّكبـــاء

أتكــون «منقــذةُ الشـعوب!» كهتلــرٍ · ويفـــوقُ «رومـــا» محـــورُ الحلفـــاء؟

يــا حــاقرَ «الغوغــاء» يعصرُــ مجــدَهُ · بالســوطِ، مــن أجســادها الصــفراء

إنَّ الجــراح، وقــد فتحــت ثغورهــا، · يحفـــرنَ قـــبرك في الغـــدِ المترائـــي

حرَّكــتَ في المســتقبل الــداجي يــدًا · بيضـــاء تمســـح أدمـــعَ البؤســـاء

وعـــوالمَ اغتصـــبَ الخيـــالُ رتاجهـــا · في لمحـــةٍ هـــي «واقـــعُ» الأبنـــاء

الظلــمُ يــزرع في الســجون بــذورها · والشــعب يحصــدُها عــلى الأشــلاء!

ويكـــاد يخـــترق الزمـــانَ بنـــوره · يـــومٌ أطـــلَّ بـــأعين الشـــهداء

صــبغتْ حواشــيه الــدماءُ ، ولوَّنــتْ · فيـــه الظهـــيرةُ أوجـــهَ «الغوغـــاء»

وأكـــاد ألمـــحُ في بقايـــا نقعـــهِ · جَـــيشَ الطغـــاة مبعثـــر الأجـــزاء

***

عــــاد الحليـــفُ بباليـــاتِ عهـــوده　　　فرقًـــا يُحجِّبهـــا عـــن «الإلغـــاء»

يـــتلمسُ «التعـــديل» مـــن أعوانِـــهِ　　　ويحـــوك ألـــفَ دسيســـةٍ عميـــاء

ويبـــثَّ في الظلـــماءِ مـــن أذنابـــهِ　　　زُمـــرًا تنـــافق جهـــرةً ، وتُرائـــي

واســـتيقظ الإرهـــابُ يفـــركُ مقلـــةً　　　رغـــم النعـــاس ، دقيقـــةً الإحصـــاء

عـــدَتْ عـــلى الأحـــرار آثـــار الخطـــى　　　والآهـــة الحـــرّى عـــلى الســـجناء

***

قـــلْ للحليفـــةِ إنَّ شـــعبًا واعيًـــا　　　هيهـــات أن يـــرضى بغـــير جـــلاء

❋❋❋

في يوم فلسطين

يا راقصين على دمِ الصحراءِ ... قد آن يوم الثورة الحمراءِ
تلك الشرارةُ بعدَ حين تنجلي ... عن زاخرٍ بالنار والأضواءِ
اليوم يحطم كلَّ شعبٍ ثائرٍ ... سودَ القيودِ بضحكةٍ استهزاء
ويدٍ يفرُّ البغي من هزّاتها ... حمراءَ ضرَّجَها دمُ الشهداء
فضتْ فمَ المستعمرين بلطمةٍ ... لا غيرَ قاتلةٍ ولا شلاء [90]
واليوم يصرخُ كلَّ حرٍّ غاضبٍ ... في وجه كل مهوّسِ الآراء
تلك المواطنُ أين عنها أهلُها ... فتروح تعرضها على الغرباء؟
والقدس ما للقدس يمشي فوقها ... صهيونُ بين الدمع والأشلاء
ما هتلرُ السفاح أقسى مديةً ... يوم الوغى من هتلر الحلفاء
يا أختَ يعرب لن تزالي حرةً ... بين الدم المسفوك والأعداء
ثاراتُ أهلكِ في دمانا تلتظي ... هيهاتَ ليس لهنَّ من إطفاء
حتى يضمَّ ثرى الجزيرة أهلها ... أو يلبسون [91] مطارف العلياء
ما العاطفون على الضعيف لغايةٍ ... مفضوحةٍ لم تبق طيّ خفاء
الأسخياء له بغير بلادهم ... الباخلون بها على الضعفاء
بالقادرين على اغتصابك عنوةً ... فاليوم هبَّ الشعب من إغفاء
يا شعبُ ليس القدس تشكو وحدها ... هولَ الجراح من اليدِ الرعناء
مازال جرحك وهو دامٍ دافقٌ ... رغم انتهاء الطعنة النجلاء
والحرُّ أبعدُ غايةً من أن يرى ... في الدمع تخفيفًا من البرحاء
فالحكم للدم والسلاح المنتظى ... والحربُ لا للدمعة الخرساء
والنصرُ للشعب الذي لا ينثني ... عن عزمه ، والصولة النكراءِ
أجلُ الطغاة بكلِّ حد صارم ... ما أنْ يزيلَ العارَ كالأجلاء

---

(90) هكذا ورد البيت في المخطوطة وفيه إقواء .

(91) هكذا ورد في المخطوطة .

حتــى أراك وأنــتَ راضٍ هــانيءٌ حــر بــرغم الأعــين الزرقــاء

وأرى الجزيــرةَ وهــي روضٌ مونــقٌ محميــــةَ البنـــاء بالأبنـــاء

والقــدس يســكن كــلَّ حــرٍ ربعهــا بالعــاملين وضــيئة الأنحــاء

يــا شــعبُ نــاد بكــلّ ســاهٍ غافــلٍ عــما تــذوق القــدس مــن بأســاء

مــا أشرعَ الأعــداءُ فيهــا حربــةً إلا لشــلِّ يــدٍ وســفكِ دمــاء

مــا نفــعُ جنَّتــك التــي نضّرتهــا والنــارُ حــولَ الجنــةِ الخضــراء؟

يــا شــعبي المظلــومُ هــذا موقــفٌ بــأن الــوفيُّ بــه مــن الحربــاء

مــا بــال رهطــكَ وهــو بــاقٍ وحــده لم يخــشَ بــأس القــوة العميــاء؟

عــاش التحــرر كــلَّ رهــطٍ غائــب - إلاّهُ - يــومَ الجــدِّ والأعيــاء

وغــدا فــداء الكــادحين وجمعهــم أصــحابُ تلــك الشــارةِ الســوداء

يــا شــعبُ هــذا أنــتَ جــأشٌ رابــطٌ إن حــان يــومُ الثــورة الحمــراء

***

أعاصير

أصبحَ الكون وهو نورٌ ونارُ ... أيها الظالمونَ أين الفرارُ؟

الأعاصيرُ تملأُ الشرق والغر ... ب وقد جاش حولهنَّ الشرارُ

كلَّما حاقتِ المنايا بإعصا ... رٍ نزا فوق نعشه إعصار

فالتهابٌ خبا ، فكان التهابٌ ... وانفجارٌ مضى ، فجاء انفجار

فاعصفي يا شعوب فالكون لا يُر ... ضيهِ إلا أن يعصفَ الأحرار

واحطمي القيدَ فوق هامِ الطواغيتِ ... وثوري فالفائز الثوّار

همسةٌ ، فانتباهةٌ ، فهتافٌ ... فانتفاضٌ فثورةٌ وانتصار

هذه قصةُ الشعوب رواها ... للورى تاجُ قيصرَ المنهار

حرَك الشرقُ عقرب الساعة الوسنى ... فهبَّت تقول : لاحَ النهار

فامضِ يا ليلُ ما عيونُ الجماهير ... بعمياء أوعليها ستار

أيها الواقفون في زحمة الدنيا ... وقدْ عصبَ الرؤوسَ الدوارُ

إنْ وقفتم فما أرى موقف التاريخ ... يعتاقُ من خطاهُ انتظار

فاجعلوا في «اليمين» عرشًا من الظلم ... فما يعرف العرشَ اليسار

يا وجوه الجياعَ ، يا قصةً أضـ ... ـحى لها من مواطني أسفار

حاكَ أحداثها الرهيبات جلادٌ ... زها سيفه الذميم اقتدار

أنتَ للجوع لاح فيك اصفرارٌ ... وهو للتبر في يديه اصفرارُ

خيُب المستبدُ لا يكتبُ التا ... ريخَ نابٌ له ولا أظفارُ

إنما نحنُ وارثو هذه الدنيا ... لنا المجد كله والفخار

إن في صفوة الخريف انتفاضًا ... كان من معجزاته أيار

قلْ لمن فضَّ روحه الرعبُ واستلَّ ... السنا من عيونه الاندحار

نقل الطرفَ بين شرقٍ وغربٍ ... يحمد الطرفَ قلبكَ المستطار

تلـق كـأس الطغـاة في كـفِّ سـاقيها حطامًـــا تجـــفُّ فيـــه العقـــار

في غـــدٍ تُســـحق القيـــودُ ويهـــوي فـــوق أشـــلاء تاجـــهِ اســـتعمارُ

لألأ الصـــبح يـــا بـــلادي أيبقـــى في حمـــاك (الســـفير) و(المستشـــار؟)

ابعثـــي صرخـــة الجـــلاء ابعثيهـــا مـــثلما ترســـل الهـــدير البحـــار

شـعبك الحـرُّ مـا انثنـى عـن نضـالٍ لا فهيهـــات أنْ يـــدوم الأســـار

وهـــو لـــو كـــان كوكبًـــا يـــذرعُ الآ فـــاقَ ، مـــا حـــدَّ مـــن خطـــاهُ المـــدار

عـــالم الظـــالمين قـــد هـــدم المظلـــومُ ركنيـــــهِ ، فـــــاحتواهُ انهيـــــار

فهـو إنْ ظـلَّ واقفًـا كـان للمـوت ، وإن ســـــارَ فالمســـــير انتحـــــارُ

موضـــعُ القيـــدِ بعـــد حـــينٍ سيمسيـ فـــوق أنحائـــه الجريحـــات غـــارُ

***

رثاء فلاح

أيها الحاصدُ المعنّي يجوبُ السهل مستوحدًا حزين الغناء
شاحب الناظرين، مضنىً، حريق الظل في لافح الثرى والسماء
يورد المنجل المعني جراحاتٍ بكفيه دافقات الدماء
كُفَّ لا تخطونَّ إلا احتراسًا بين تلك السنابل الصفراء
اصغ هل أنت سامعٌ من أنينٍ خافت الجرس دائب في بكاء؟
طاف بين المقابر السود تبقيه بغيض اللظى صدورُ النساء
ذاك والله موكبٌ للجراحات وإن أخطأته عينُ الرثاء
إنهُ النعشُ ، إنه الكادحُ المنكودُ يمضي- إلى الردى والفناء
إنهُ مُطعم الورى وهو من راح قتيلَ الطوى ، صريع العناء
إنه الخير والغنى . إنه الكاسي وإن عاش عاريًا من رداء
سلْ إذا شئت عنه جدبَ الصحاري كيف حلاهُ بالزهورِ الوضاء
إنه المخصبُ الثرى إنه أنت فسلْ عنه معْشرَ الأغنياء
مات لا شاعرٌ من القوم يبكيه ولا نادبٌ من الأوفياء
غير طفلين مرّغا في ثرى القبر جبينين صوّحا من شقاء
وابنةٍ تعصف الهموم بخديها تريق الدموع دونَ انتهاء
مزق الثوب نفسه عند نهديها فوارتها بكفِّ الحياء
أمس قد مات صاحبُ القصر- فانحلَّ على نعشه نسيج اللواء
واغتدى كلَّ «تاجرٍ بالقوافي يثقلُ الصوتَ والصدى بالرثاء
واعتلى النعش هامةَ المدفعِ الضخم وئيدَ الخطى رهيب الحداء
سار والحشد خلفه واجم الأنفاس مثل القطيع خلف الرعاء
ذاك الله موكبٌ للظلامات فهل أخطأتهُ عينُ السماء
مات.. لم يجن منه في الناس خيرًا غير من كانَ وارثًا للثراء

ويـكَ هـلْ شـقَّ جـدولاً ينبـت الزهـرُ   عـــلى جانبيـــه جـــمّ الـــرواء؟

هـلْ سـقى السـنبلَ النضـيرَ فـراح الــ   ـــناس مـــن حَبـــهِ بـــأوفى غـــذاء؟

ويـــكَ مـــا يخسرُـــ الوجـــودُ إذا مـــا   مـــاتَ مـــن في الوجـــودِ مـــن أغنيـــاء؟

أيـــما جـــائع ســـيبقى بـــلا زادٍ   وعريـــان لا يـــرى مـــن كســـاء؟

إنـــما يخسرُـــ الوجـــود إذا مـــا   غالـــت الكـــادحين كـــفٌ الفنـــاء

فـــالجنى والأزاهـــر العـــينُ أحـــلامٌ   زواهـــنَّ عنـــكَ عسرُـــ اللقـــاء

والطـــوى صـــائد يحـــوش العرايـــا   والحضـــارات هَبـــةُ مـــن هـــواء

***

دجلة الغضبى

ذوِّب الليل يا شعاعَ النهار ... تلمح العين ما وراء الستارِ

ذوِّب الليلَ يبصر الشعب صرعاه ... فما زال واقفًا بانتظار

يبصر القوم بين هاوٍ إلى اللحدِ ... وغرقان دائبٍ في انتظار

إنما غضبة المياه الحبيسات ... تدفقن بعدَ طول الأسار

زمزمَ الموج في السهول النديات ... مغيظًا وصاحَ في كلِّ دار

سائل الكوح والربى والصحاري ... كيف أرعشن في يدِ التيار؟

أيها النائمون في الضفة السكـ ... ـرى على الجوع والضنى والصغار

كيفَ بالله .. كيف تغفو عيونٌ ... في حمى كلِّ ظالمٍ غدار..؟

علموا دجلة الظلامات والغدرَ، ... فعادتْ ولا تفي عهدَ جارِ

أيها الضاربون في ظلمة الليل ... إلى غير منتهى أو قرار

يسرقونَ الخطى على ضوءِ نجمٍ ... يسرقُ الخطو في قصيِّ المدارِ

كيف خلفتم الديار الحبيبات ... ألا لفتةٌ لتلك الديار؟

ضربَ الماء ما بنى كلَّ بان ... وطوى كلَّ مأملٍ بالثمار

فاشتكى صاحبُ القطيع من الموجِ ... لذئبٍ رآه أو جزار

واشتكى الحاصدُ المعني إلى « الشيخ» ... فما كان منهُ غيرُ ازورار

وهو بالأمسِ واهبُ (القائد الغر ... بي) [92] زلفى إليه سيفَ النضار

صيغَ من أضلعِ الجياع العرايا ... تحت أنظار كلُ جوعان عاري

وهو بالأمس، من حبا «لندن» الشو ... هاء ما شاء منه حب الفخار

وهو من يبخلُ الغداة على الشعبِ ... ويلقى انتحابهُ بافترارِ

(92) مونتجمري : قائد بريطاني ، تولى قيادة الجيش البريطاني بشمال أفريقية في الحرب العالمية الثانية . وانتصر على «روميل» في موقعة العلمين . أهدى له أحد الشيوخ سيفًا من الذهب محلى باليواقيت أثناء مروره بالعراق .

ليــــتَ لي قــــوّة الميــــاه فـــــاقتصّ — مـــن (الشــيخ) للــــدموع الغـــزار

ليتنـــي أهـــدمُ القصـــورَ وأبنـــيهنَّ — بيتًـــــا لشـــــاردٍ في القفـــــار

ليتنـــي أبـــدل القلـــوب التـــي تغفـــو — عـــلى الـــذلّ ، بالحصىـ والحجـــار

أيهـــا الشـــعبُ واحتمالـــك عـــارٌ — عـــلى الحـــرِّ دونـــهُ كـــلَّ عـــارِ

طالما قـد صـبرتَ يـا شـعبي المظلـوم — فـانهض .. كفـاك طـول اصـطبار

أيهـــا المرســـلُ الأنـــين إلى الآذان — يلبســـــن قـــــرطَ الاســـــتعمار

حـــق مـــا ترســـل الأنـــين إلـــيهنَّ — اجتـــــزازًا بصـــــارم بتّـــــار

فهـي صـماءُ حـين تـدعو ، وصـغواءُ — إذا اهتـــــزَّ شـــــارب المستشـــــار

ضـــلةً للنيـــام ، والثعلـــب الرعديـــدُ — يســـــطو بمخلـــــبٍ مســـــتعار

ربّ نـاجٍ مـن الـردى خلّـف الأبنـاءَ — صرعـــــى في المـــــائج الهـــــدارِ

مثقـل الظهـر بالسـنين الطـويلات — وأشـــــلاء بيتـــــه المنهـــــار

لاحَ لي فانطلقـتُ أَزجـي إليـه الشـعر — حَـــــرّان قاذفًـــــا بالشرـــــار

أيهـا المبـتلي ، وأدعـو بـك الشـعبَ — وقـــد هـــمَّ غيظـــه بانفجـــار

ذلـك النهـر فـاض بعـد احتبـاسٍ — عاصـفًا بالسـدود عصـفَ اقتـدار

نبّئنـــي أيّ ســـاعةٍ أَبصرُـــ الشـــعبَ — وقــد فــاضَ بعــد طــول الأســار؟

ســاحقًا في اندفاعــه مــا أقــام الظلــمُ — في دربـــــه مـــــن الأســـــوار

قـلْ لمـن ثبَّـت العـروش عـلى المـاء — فقـــال امتلكـــتُ كـــل البحـــار

سـوفَ تأتيـك سـاعةٌ تـوقظ الأمـواج — فيهـــــا انتفاضـــــةُ الإعصـــــار

أيهـا الشـعبُ يعصـب الـداء عينيـه — فـــلا تبصرـــان ضـــوء النهـــار

الـــدواء الـــذي ترجـــي ســـيأتيك — اســـمهُ مـــن حنـــاجر الثـــوار

تعصــفُ الصــيحة المــدماةُ بالتـــاج — عـــلى كـــل مفـــرق مســـتطار

يـــومَ لا الظـــالم الغشـــوم بمنجيـــه — مـــن الثـــائرين وشـــكُ الفـــرار

لا ولا القيـد مسـتطيعٌ حيـال النـار — صـــــبرًا ودونـــــهُ ألـــــفُ نـــــار

الـــردى والهـــوانُ خـــطّ الأذلاءِ — وكــــل الحيــــاة للأحــــرار

***

مأساة الميناء

سـل الميناءَ لـو سـمعَ الخطابـا ... فـروّى غلـة الصـادي جوابـا

وأبطـال (النقابـة) كيـف بـاتوا ... يـذوقون المذلـة والعـذابا

أذنـبٌ أن يقـالَ لنـا حقـوق ... أبي أصـحابهنَّ لهـا اغتصـابا؟

وعـدلٌ أن تجـرِّع كـلَّ حـرٍ ... يـدُ المسـتعمرين قـذىً وصـابا

حـلالٌ لابـن (لنـدن) في حمانـا ... دمُ ابـن الرافـدين .. فـلا عتبـا

وجـورٌ أنْ نمـدَّ يـدًا إليـه ... وحـقٌ أن يمـدّ لنـا حرابـا

جمـوع الكـادحين وجمعتنـا ... مصـائب لسـتُ أدركهـا حسـابا

وحقـدٌ إنْ ذممـتُ سـواهُ حقـدًا ... فـلا ألقـاه إلا مسـتطابا

عـلى المسـتعمرين بصـبٌّ نـارًا ... وأبنـاء الثـراء لظـىً مُـذابا

ورثنـاه الأبـوةَ وهـو بـاقٍ ... سـنورثه البنـين منـىً عـذابا

ودنيـا لا يغيـب العـدل عنهـا ... إذا هـو عـن سـواها كـان غابـا

بربـكِ حـدّثيني أيُّ جـانٍ ... تصـيدَ منـكَ أبنـاءَ نجابـا؟ [93]

وأمسـى منـك دونَ حمـىً أمـين ... تحـدٌّ جنـوده ظفـرًا ونابـا

أطـلَّ عـلى النقابـة منـه طـرفٌ ... مغـيظٌ كـاد يلتهـب التهابـا

وأزجـى مثقلـين بنافثـاتٍ ... ليهـب النـار ، يحملـن الحرابـا

يـذيقون المهانـة كـلَّ حـرٍّ ... دعـاهُ هـوى النقابـةِ فاسـتجابا

ومـا غـير المطـارق مـن سـلاح ... وقـد كرمـتْ إلى الحـق انتسـابا

لـكِ الفخـرُ المخلـدُ مـن جيـوشٍ ... عـلى الجمـع القليـلِ تجـوزُ بابـا

وصـانك مـن عـدوك (مستشـارٌ) ... وحسـبك أنْ غـدوتِ لـه ذنـابي

---

(93) هكذا ورد في المخطوطة .

رضاه بأن تريعي كلَّ دارٍ ... تضم الكادحين .. وقد أصابا

فما كالكادحين لهُ عدو ... إذا استرضاه مرتزقٌ وحابى

أبالأغلال يخنق صوت شعب ... تهزّأ بالحمام؟؟ لقد تغابى

دعِ الآفاقَ تزخر بالضحايا ... وسمع الريحِ يمتلئ انتخابا

وغذَّ بنا السجون ومن دمانا ... فروُ البيدَ أو فاسقِ السرابا

فيا غيرُ الجلاء لك انتهاءٌ ... فإن الشعبَ قد هتك الحجابا

وألوى بالطغاة فما توانى ... وبالمستعمرينَ فما أنابا

جموعَ الكادحين .. وجلَّ عارًا ... رضانا بالهوان وخسَّ عابا

دعاك إلى النضال شقاءُ شعبٍ ... تحمل من مذلتهِ الصعابا

خذي بالثأرِ خصمك لا تليني ... وجدّي غيرَ قاصرةٍ طلابا

وسار لك الغدُ الزاهي فسيري ... وزيدي من محيَّاه اقترابا

وأصمي – في جوانح كلِّ طاغ – ... فؤادًا كان للشرِّ استجابا

يكاد الظامئونَ من الضحايا ... يصيحونَ : اجعلي دمهُ شرابا

تطلَّ عليك أحداقُ العذارى ... من الأكفان حانقةً غضابا

دم الأعراض عاد بها اصفرارًا ... وعادَ على يدِ الجاني خضابا

وأجسام الطغاة حجبن عنا ... ضياءً لا نريدُ له احتجابا

ستنصبُ الأشعة من خروقٍ ... رصاص الشعبِ زاذ بها انصبابا

لك الغدُ والحياةُ وللأعادي ... معاولُ تحفرين بها الترابا

فصيحي (بالحليف) إليك عنا ... فلا حلفًا نريدُ ولا انتدابا

***

صحيفة الأحرار

يــا حابســين صــحيفة الأحــرار هــل يمنــع القيــدُ اســتعارَ النــارِ
إن تحجبوهــا فهــي حقــدٌ كــامنٌ بــين الضــلوع وصرخــة اســتنكارِ
بنــتَ الكفــاح وكــلَّ ســطرٍ خالــدٍ عـــرقٌ يفـــور بـــه ، دمُ الثـــوار
ضــمَّ الشــتاتَ بهــا (فكــاوا) [94] يجتلي مــن عــين (يعــرب) ضــحكة استبشــار
و(القــدس) تُشــهدُ كــلَّ جــرحٍ أنهــا بُـــرءٌ يشـــيرُ مخـــاوف الأشرار
لم تكــبُ في ســاح الجهــاد ولا ارتضــت ذلاً ولا غفلـــت عـــن اســـتعمار
إن تحجبوهـــا فالليـــالي شـــأنها ألا يـــدوم بهـــا ســـنا الأقـــمار
مــا إن نخــور فلــيس فينــا جاهــلٌ إن الحيـــاة عطيـــةُ الأخطـــار
إنـــا لنغمـــد في اللظـــى أقـــدامنا هيهــات نشــكو ســطوة الأحجــار

***

واحـــرَّ قلبـــي يـــا بـــلادي أننـــي جُــرِّدتُ فيــك ســوى مــن الأشــعارِ
مـــاذا ظننـــت بصـــادق في حبـــه لـــو كـــان يملـــك قـــوة الأقـــدار؟
هــلْ كــانَ يــنفضُ مــن نضــالٍ كفــهُ! أو كـــانَ يتركهـــا عـــلى القيثـــار ؟
ولـــو اســـتطعتُ لكنـــت حزبًـــا ثانيًـــا مثـــل التحـــرر صـــادقَ الآثـــار
أو عــدتُ أجعــلُ مــن دمــائي ثــورة تجلـــو غشـــاوة هـــذه الأبصـــار
الشـــعبُ يعلـــمُ عـــن يقـــين أنهـــا بـــوقُ النضـــالِ ومنـــبر الأحـــرار
حـــان الكفـــاح فأنزلتهـــا طعنـــةً حمـــراء في صـــدر الحليـــف الصـــاري
الجـــوُ فيـــك لكـــلِّ نسرٍ ضـــيقٌ رحـــبٌ لكـــلِّ ملـــوَّنِ المنقـــار
قصُّـــوا جنـــاحَ النسرـ فيـــه وأطلقـــوا لليـــوم أجنحـــةَ الخنـــا والعـــار

(94) كاوا : كلمة كردية تعني : الأخ .

ومـــن المهـــازل أنَّ أوفى صـــفحةٍ للشـــعب تطويهـــا يـــدا غـــدارِ
مــا راشَ جــودُ الكــادحين جناحهــا حتـــى يـــراهُ مقـــصُّ الاســـتعمار
أن يحجبوهـــا فهـــي في أرواحنـــا وضـــحاهُ تنشرـــها يـــدُ التـــذكار
أو طــاب يــوم (الخائنــات) بيومهــا فالخائنـــات قصـــيرة الأعـــمار
إنَّ المصــاب وإن خــلا مــن فرحــةٍ لم يخـــلُ مـــن عظـــةٍ ومـــن إنـــذار
فالطـــاعنُ الصـــدرَ الأبيَّ بســـيفهِ ســـقَّ الســـتار بطعنـــة اســـتهتارِ
فـــإذا العيـــونُ تـــرى وفي أهـــدابها لمــحُ الــدماء خبيثــة (الثرثــار) [95]
يجثــو عــلى فــرش الحريــر ودونــهُ جسـم الطعـين عـلى الـتراب العـاري
فـالطرفُ يمسـكُ بـالكؤوس ورجلـهُ بـــالطرس . والكفـــان بالـــدينار
لـــو باركتـــه يـــدا (ســـفير) ســـاعةً بـــاعَ النضـــالَ بحفلـــة (اســـتيزار)

***

يــا مــن يشــيد لكــلِّ حــرٍ محبسًــا خوفًـــا عـــلى كرســـيِّه المنهـــار
إنَّ الظـــلام إذا تنـــاهى غيـــه زاد العيـــونَ صـــدى إلى الأنـــوارِ
والحــابس الأبطــال عــن أن يــزأروا ظـــن الـــزئير قضىـــ قتيـــلَ إســـار
حتـــى تكشـــف عـــن سرابٍ ظنـــه وانفضَّ جوف الصمتِ عن إعصار
فـــإذا الخنـــاجرُ والزمـــازمُ تنـــبري غضـــبى تجـــوزُ عليـــهِ عقـــرَ الـــدارِ
هيهـــاتَ تغلـــبُ كـــلَّ كـــفٍّ شـــأنها لمـــسُ الحريـــرِ ، تـــدفقَ التيـــار
هيهـــاتَ يصرـــع كـــلَّ فكـــرٍ ملـــؤه همـــس الطغـــاة صـــوارخَ الإنكـــار
مـــا دامَ بعـــض دمِ الضـــحية دافقًـــا فيهـــا فـــلا ركنـــتْ إلى الأظفـــار
يــا شــعب أنــتَ غــدٌ فــإن لم يؤمنــوا بالكـــادحين ، فلســـت للكفـــار
إنَّ الطغـــاة نجـــوم ليـــلٍ ترتـــدي ثـــوب المغيـــب ، وأنـــت شـــمس نهـــار
أنـــتَ انـــدفعت إلى العـــلاء وغلغلـــوا في هـــوةٍ لا تنتهـــي بقـــرار

(95) « الثرثار » : سد يصل مياه دجلة بالفرات .

لا يســتوي الجـيلان هــذا مقبــلٌ ... نحـــو الحيـــاة وذاك في إدبـــار

ظنــوك ســخرية الزمـــان ونهــزةً ... للطـــامعين ولعبـــة الأغـــرار

حتــى أبنــت عــن اللظــى في ملمــسٍ ... وكشــفت في شربٍ عــن الأكــدار

أنــتَ العبــاب ســجا وأغفــى حاجبًــا ... خلــفَ الســجو منيــةَ البحــارِ

أنــت الزمــان صــفا ليهــوي سـيفه ... بعــدَ الصــفاء عــلى يــدي جبّــارِ

إنَّ الشــعوبَ شــكوْنَ داءً واحــدًا ... رغــم التنــائي واخــتلاف الــدار

أغلالهـــنَّ مجمعـــاتٌ في يـــدٍ ... رعنــاء تنشرــها عــلى الأقطــار

فـإذا حطمـتَ فلسـتَ وحـدك حـاطمًا ... تلــك القيــود ، غنيــت بالأنصــار

لا وُفـــق الأشرار في أن يخرقـــوا ... قلــبَ النضــال بكــاذب الأخبــار

هــل يــأمنِ المطعــون مــن جــلاّده ... إلا لقـــاء الصـــارم البتّـــار

والأرض لـيسَ تـرى لهـا مـن غاسـلٍ ... رجـسَ الطغـاة سـوى دمِ الثـوارِ

***

غادة الريف

غـــادة الريــف يـــا شـــعاع الأمـــاني　　في دجــى الكــوخ .. في ظــلام الزمــان

مـا لعطفيـك تحـت أسـمالك الشـوهاء　　غابـــا كجــــذوة في دخــــان

الصـــبا والربيـــع طافـــا بخـــديك　　فـــذاب الشـــحوب في أرجـــوان

والصـــبابات باســـمات الأســـارير　　يبـــث اشـــتياقها النـــاظران

وعـــلى الثغـــر تســـتفيض ابتســـاماتٌ　　يحـــدثن عـــن خفـــيِّ المعـــاني

عن سنا الصبح . عن رهيب الجنات　　عـــن النـــار عـــن نعـــيم الجنـــان

عـــن خـــلِّي وكـــادحين وعـــن قصرٍ　　وكـــوخين أصـــبحا في مكـــان

يـــا لحســـناء كـــاد مـــن يجتليهـــا　　يصرـفَ الطـرفَ عـن فتـون الحسـان

احـــذري عاشـــقًا كثـــيرَ التجنـــي　　خـــف للصـــيد في دروب الغـــواني

قـــد كســـاه الثـــراء ثوبًـــا مـــن الكـــبرِ　　موشـــــى بزائـــــف الطغيـــــان

دودة تسرـــق الرحيـــق مـــن الزهـــر　　وتلقيـــــه في الـــــتراب المهـــــان

***

أقفـــر الكـــوخ مـــن بقايـــا طعـــام　　ليتـــه ظـــلَّ كاتمًـــا مـــا يعـــاني

أقفـــر الكـــوخ فـــاعبثي يـــا مقـــادير　　وجـــودي يـــا عاديـــات الزمـــان

أقفـــر الكـــوخ والسرـــاب المصـــفى　　يمـــلأ القصرـــ بالشـــذى والأغـــاني

فـــاذهبي يـــا ابنـــة الجيـــاع إلى القصرـ　　وعـــــودي بعـــــاطرات الأمـــــاني

اطرقـــي بابـــه بكـــفٍّ ســـتدميها　　عـــــلى بابـــــه يـــــدُ الحـــــدثان

ويـــك هزّيـــه زلـــزلي صـــمته ، ســـوميه　　مـــا شـــئت مـــن ضروب الهـــوان

إنهـــا هـــزة الجيـــاع المناكيـــد　　تريـــــع الطغـــــاة في كـــــل آن

هـــزّةُ بـــات صـــوتها يـــذرع الغيـــب　　ويـــــومي لبـــــائع الأكفـــــان

***

اكـدحي واجعـلي الـترابَ يواقيـت ... عـلى شـعرك الشـقي المهـان
واغسـلي بالـدموع مـا دنّـس المـولى ... مـن الخـزِّ والثيـاب الحسـان
اطعمـي الجـائعين يـا خـادم القصرـ ... بـما ظـلَّ في بطـون الأواني
واصـبري إن طغـى مـن القـوم طـاغٍ ... وابسـمي إن جنـى عـلى الكـوخ جـان

***

رجـع القصرُـ آهـة السـيد العاشـق ... فهـي انتفاضـة الأفعـوان
آثـمٌ بحسـب الغـرام احتراقًـا ... في لظـى مـن جهـنم الأبـدانِ
غادة الريف .. أبصر الوجـد في عينيكِ ... تنسـاب في سـناه الأمـاني
هـذه الغرفـة الموشـاة مأوانـا ... هنـا مجلسيـ وهـذا مكـاني
هاهنـا مهـدة ، وثـم السرـير الغـضّ ... يـا للقـاء يـا للتـداني
أيهـا الشـعر .. يـا هـوى . يـا عـذارى ... يـا أزاهـير ، يـا نـدى يـا أغـاني
غـاب عـنكن كوكـب ختـم الليلـة ... عـن هـذه الربـى والمغـاني
ارسـل النـور دافقًـا ثـم نحّـاهُ ... عـن الأفـق زلـةُ الامتهـانِ

***

زلـة بعـد زلـةٍ جرعتهـا ... غـادة الريـف عاديـات الزمـان
فـإذا الليـل والغنـى والجهـالات ... يجلِّلنهـا بثـوبِ الـزواني
أصـبح الكـوخ وهْـوَ مـأوى لـزوجين ... عـلى أيكـة الهـوى يـنعمان
غـادة الريـف لسـت زوجًـا لمـولاك ... وإن قـال ذلـك القاضـيان
إنهـا خدعـة التقـاة المصـلين ... شـيوخ الـورى ، هـداة الأوان
هيـيءّ المهـد للوليـد الـذي وافى ... ألسـت الأب الكثـير الحنـان ؟
هييءّ المهد « لا مجيب سوى الصمت ... بعيـد الصـدى ، خفـي المكـان »
« أيهـا الليـل مـن ضـلوعي وآهـاتي... ... ومـن أنجـم السـماء الحسـان
مـن دم العفـة المـراق مـن الكـوخ ... ... مـن الـذكريات .. ممـن جفـاني
هـيءّ المهـد للوليـد الـذي وافى ... ... فأنـت الـذي أعـدَّ التـداني »

***

أيبسَ الداءُ والطوى ثديي المرضع   فالطفلُ ساغبٌ كلَّ آن

صارخٌ ترجيفُ النجومُ لشكواهُ   ويبكي النخيل مما يُعاني

غادة الريف أوصد العصر بابيهِ   على كلِّ ناعم البال هاني

فيمَ شكواك ؟ وهو ما أن يعيها   أينَ شكواك من رنين المثاني

جاهلٌ من يريد أن تضمد الجرحَ   يدٌ تنتضي خضيبَ السنان

أيها الظلمُ يا ربيب المقاصيرِ   بناها لغيره كل بان

أيها الظلمُ يا شباةً صنعناها   فعادتْ مع العدى في الطعان

حاملُ الفأسِ قادرٌ أن يشقَّ القبرَ   للظالمين بعد الهوان

***

« جفَّ يا زوجي الرحيمَ من الآهات   ثدياي .. آه مما عراني »

غادةَ الريفِ أيُّ ذنبٍ تخطى   موضعَ السرِّ في عثارِ اللسان

فلَّ من زوجك المغيظ حناياه   بنارٍ من الغرور المهان

كيفَ ناديت سيد القصر « يا زوجي »   فدنستِ ناصعات المعاني ؟

***

آه قد أنكر الوليد أبٌ جانٍ   نؤوم الضمير فظَّ الجنانِ

في غدٍ يسكنُ الثرى مجدُهُ العاتي   وتدميه قارصات اللسانَ

في غدٍ يسمعُ الورى قصةَ الكوخ   تدوّى بمسمع الأكوان

فارتضى الطفلُ لا حنانَ ولكنْ   يفعلُ الخوفُ مثلَ فعلِ الحنان

***

أيها الطفلُ في رحاب الأبِ الجاحد تغدوهُ مرضعاتُ الهوان
إنْ تبسمتَ قطّبَ الوَلِدُ الغضبانُ أوصحتَ فرّت العمتان
واتقى ظلَّ مهدِكَ الطهر عماكَ وجازا مداه لا ينظران
أيها الكوخُ أيّ همٍّ تغشّاكَ وماذا طواكَ من أحزان ؟
أينَ بانيك ؟ مالهُ صامت الأنفاسِ والجرسِ ناضب الخفقان ؟
فارقَ الأرض موجعًا يطعن العارَ ثرى قَبرِهِ بأمضى سنان

***

هزت الكوخ عاصفات المنايا فارتمى باكيًا على كلِّ فان
وطوى الموت زهرةَ أذبلتها أعين الظالمين قبل الأوان
غادة الريف عافت النور عيناها فنوِّحن دونها يا غواني
الصبا شاحبٌ وصوت الأساريرِ نؤومُ السنا حبيس اللسان
غابَ في ظلمة الثرى فهو ناءٍ عن هوى طامعٍ وعن كفِّ زان
غاب والجوع راقدٌ في حناياه قتيلُ الشجى صريعُ الأماني
لا تعكرن صمته بالأحاديث عن البؤس والورى والزمان
فهو من قبضة الزمان المدماة بعيدُ المدى طليق العنان
وهو من يحقر الورى ، وهو من لا يعرف البؤس بعد ذاك المكان
فيمَ تعجبن منه إن رفَّ دونَ الجفنِ بعد انطباقه دمعتان
نامَ والطفل معبدٌ عنه فاشتاق فلم تعصِه دموع الحنان

***

آه قــد أرجــع الوليــد إلى الكــوخ وطرفـــاه بالـــدجى مغلقـــان

عــاد واحسرــتاه أعمــى أبيــدَ الليــل مـــا مُتعـــت لـــه مقلتـــان

وانثنـــى ســاجيًا إلى ظلمـــة القـــبر فأمســـى مـــن الـــورى في أمـــان

نـــوّحى دون قـــبره يـــا أمـــاني واسـكبي الـدمعَ يـا عيـون الغـواني

واغمري مضجع الشهيدين يا شمس وغطـــى ثـــراه بـــالأرجوان

واخفضي ـ الهمـسَ يـا ريـاحُ وكفـي عــن مسـاعيك يـا خطـى الرعيـان

وامـض يـا شـعر لا تقـل عـنهما شـيئًا ولا تـــدعُ راقـــداتِ المعـــاني

إلى حسناء الكوخ

تبكــينَ .. والريــفُ الجميــلُ يُكــادُ يرقصــه الغــروبُ ؟
والليــلُ يــدنو .. والغيــومُ بجمرهــا الخــابي تــذوبُ
أرخــى يديــه عــلى أبيــك .. فكــفَّ منجلــه الــدؤوب
يــا غــادةَ الكــوخِ الكئيــب ، يلفــه الحقــل الكئيــب
لـــولا يقينـــي أنَّ يومًـــا تضـــحكين لـــه قريـــب
لـــولا أمـــانٍ هاتفـــاتٌ ســـوفَ تنتصرـــ الشـــعوب
قاســـمتُ عينيـــكِ الـــدموع فكـــانَ لي منهـــا نصـــيب
رجَّعـــتِ آهـــات الجـــداول وهـــيَ تشرَـــقُ بـــالخريرِ
بـــين الظـــلال النـــائمات ، مـــن الســـنابلِ في سريـــرِ
واحسرـتاه .. أَيُّ اكتئـابِ جـاشَ في الصـدرِ الصـغير ؟
هـــذي ســـجونُ الكـــادحينَ حطمـــن أغـــلاق الـــدهور
حتـــى بُعـــثن عـــلى يـــديكِ تنهـــداتٍ مـــن ســـعير
هـــذي شـــكاةُ الجـــائعين يبثهـــا الـــدمعُ الصـــبيب
لا يســـتبدُّ بـــكِ الأنـــينُ ... ســـيؤخذُ الحـــق الســـليب

***

فـــاضَ الأنـــينَ عـــلى خطـــاي فبـــتُّ أعثـــرُ بـــالأنين
حيـــوانُ .. حتـــى لا أقـــرُّ مـــن الظنـــون ، عـــلى ظنـــون
حتـى يئسـتُ مـن الشـكوكِ .. وكـدتُ أيـأسُ مـن يقينـي
لا تطلـــق الهـــمَّ الـــدفين ســـوى يـــد الهـــم الـــدفين
فـــإذا بكيـــت فعـــن مصـــابٍ ســـوف ينطـــقُ بعـــد حـــينِ
لـو كنـتُ مـن أهـل « الـبروج » لقلـت أبكـاك الحبيـبُ
فاستبشرـــ المســـتعمرون ورددوا عـــاشَ الأديـــبُ

***

أيُّ الـــثلاث القـــائلات المطفئـــات ســـنا الحيـــاة ؟
الملقيـــــات الأرض في أسر الجـــــراح الــــداميات ؟
الجـــاعلات الكـــادحين لظـــىً يثـــور عـــلى الطغـــاة
هــــاجَ التنهــــد في فـــؤادك واســـتفزَّ مـــن الشـــكاة
جهـــل أعـــاد الحـــاضرين إلى الخيـــام الباليـــات .. ؟ [96]
أم كشَّرَـــ الـــداء اللئـــيم فســـدَّ عينيـــه الطبيـــبُ؟
أم ذاك جـــلادُ القلـــوب ، عـــدوِّكِ الفقـــرُ الرهيـــبُ؟
***

أيـــنَ الأناشـــيدُ العـــذابُ الظامئـــاتُ إلى الحقـــول؟
يهمســـــن باســــم القريــــة العـــذراء في أذن الــــدليلِ
والمنشـــــدون الهـــــاربون إلى ضـــــفاف المســـــتحيل
القـــانعون مـــن الحيـــاة بكوخـــةٍ بـــينَ النخيـــل
الثـــائرونَ عـــلى ضـــجيج المـــدن والعلـــم (الـــدخيل)
القريـــة الســـوجاء نـــاديٌ في يـــد الراعـــي طـــروبُ ..
***

أو جنـــة صـــبَّ الغنـــاءَ عـــلى رُباهـــا عنـــدليب
إن نـــاحِ فـــلاحٌ .. فمفجـــوع مـــن العشـــاق ناحـــا
أو ســـارَ عريـــان الأهـــاب فقـــد تعـــرى فاســـتراحا
لا يأســـفنَّ عـــلى كســـاء ضـــاق ، مـــن لـــبسَ البطاحـــا
أو مـــدَّ للمحـــراث ســـاعده .. فقـــد نشرـــ الجناحـــا
نـــاموا عـــلى خضرـ الـــروابي واســـمعوا منـــه الصـــداحا
هـــذا هـــزار في الخميلـــة ، عشـــه القـــبر « الرحيـــب ؟»
بوركـــت يـــا هـــذا الهـــزار ، وبـــورك العـــش العجيـــبُ!
***

(96) الحاضرون : الحضر .

يـــا زاعمـــين الآلـــة (الصـــماء) مـــدعاة الشـــقاءِ
خلـف الـدخان الثـائر ، المنفـوث في عـرض الفضـاء
والمرجـــل الفـــوار ، يزفـــر بــــاللظى دون انتهــــاء
يـــومٌ هـــو التـــاريخ ، مخضـــوب الحـــواشي بالـــدماء
تلـــك الأكــــفّ الهاويـــات عـــلى الطغـــاةِ الأدنيـــاءِ
تلـــك العيـــونُ الـــدامعاتُ يـــؤجُ مـــنهنَ اللهيـــبُ
تلـــك اللـــواتي ترهبـــون وفـــرَّ مـــنهنّ المريـــبُ
***

تلـك الـدموعُ بـأيِّ كـفٍّ سـوفَ أمسـح مـن نـداها؟
يمنـاي قـد ركـضَ الـيراعُ بهـا وشـدّ عـلى خُطاهـا
وامتـــدت اليســرـى يطـوف عـلى جبينـي إصـبعاها
آليـت ينتحـر السرـاج عـلى صـحائف لـن يراهـا!!
الثـــورة الحمـــراء تحـــترق الســـطور عـــلى لظاهـــا
والشـــعر محمـــوم القـــوافي يســـتبد بـــه الوثـــوبُ
فالقبضـة الهوجـاء تـرقص وهـي تصـدعُ مـن تصـيبُ
***

شـعري لهُـاث الكـادحينَ ، ولـيسَ أنفـاس الغـواني
توحيـــه آلاف الأكـــفّ القابضـــات عـــلى الزمـــان
وافرحتـــــاه إذا تلاقـــــى في اللهيـــــب الثـــــائران
داس القيــود «ابــن المصــانع» فاقتفــاه «ابــن الجنــان»
واهتـــزت الكفـــان فاتقـــدَ الـــترابُ مـــن الـــدخان
العـــزم يعصـــف بالصـــدور ، فتنفـــث النـــار الـــدروب
حسناء، تلك ... أتبصرين؟ ألـيسَ تلـك هـي الشـعوبُ؟
***

الآن طــاب لــك الغنــاء ، فــلا تكــلّي يــا حنــاجرُ
اليــوم يــنفضُ كــلَّ حــرٍّ عــن يديــه ، دم المجــازر
واليــوم تــنفض القــرون الغــابرات مــن المقــابر
ســارت بموكبهــا الضــحايا ... وهــي تعثــر بالحنــاجر
مــدّت مــن الأكفــان أيــديها تحيــي كــلَّ ثــائر
والرمــل منــه نــزا هــلالٌ بالــدم القــاني خضــيبُ
وافــتضّ أختــام الثلــوج وراح يلثمــه صــليبُ
***

أيــن الكــؤوسُ الــدائراتُ عــلى ســكارى بــينَ غيــدِ؟
نــبهنَ مــن آذار أكمامًــا معفــرة المهــودِ ..؟
ينفضــن عــنهن الغبــار .. فكــانَ مــن خــط العبيــدِ
أيــنَ الــورودُ العــاطرات ، النــاظرات مــن الخــدود
حمــراء .. تهــزأ بالســنابل وهــي تــرقص مــن بعيــدِ
القصرـــ آلى يــا ســنابل أن تفــيض بكــن كــوبُ
واليخــت تنــور الجيــاع ويحــزن الكــوخ الكئيــبُ
***

أيــن الجبــاه الســاحباتُ الناكســاتُ مــن العــذابِ؟
اللائــمات مــواطيء الأقــدام بالــدم والشــبابِ
الهاربــات مــن الأســنةِ بــالجراح إلى الحــراب
اليــوم ترفعهــا أكــف الثــائرين عــن الــتراب
واليــومَ يمــلأ ظلهــا المكلــوم أكــواب الشرــاب
واليــومَ تســلم الجــراحَ يــدٌ تحركُهــا القلــوب
فيهــا مــن اليــوم الجديــد ومــن دم الأحــرار طيــب
***

أيـن الطغـاة الحـاجبون عـن الوثـوب خطـى الصـغار؟
السـاحقونَ سـواعدَ الأطفـال فـوقَ دمٍ ونـار
ويـح الصـغار الكـادحين مـن الطواغيـت الكبـار !!
اليـوم ينـتقم الأبُ الموتـورُ مـن ذاك النضـار
يجـري عليـه دمُ ابنـهِ المسـفوح أيُّ دم ونـار
الدميـةُ الحمـراءُ تقـذف مـن يديـه بـه النـدوب
تستصرخُ الأبَ أن يطـوّحَ بالطغـاة فيسـتجيب
***

لـو تسـألين الـذكريات اللامحـات مـن الرمـاد
والليـلُ يهـوي بـالنجوم الشـاحبات عـلى السـواد
عـما جنيـت مـن الطفولـة .. لامتنعـت عـن الرقـاد
لـو حـدثتك الـذكريات لصـمت واجفـة الفـؤاد
لا .. لـيس هـذا مـا أريـد .. فتلـك أيـام الحصـاد
بـل أيـن أيـامي؟؟ أجيبـي .. وهـي تسـكت لا تجيـب
مـاذا عسـاها أن تقـول؟ أيـورق الـروض الجـديب ؟
***

تلـك الخمائـل هـل أويـت إلى حفـافيهن سـاعا؟!
تبنـين بيتًـا يسـتعير مـن الخيـال لـه ارتفاعـا!
فـازدان ، مـا أخـذ الشـقاء بجانبيـه ولا تـداعا
نـاداك مـن بـين النخيـل أب تعـود أن يطاعـا
واهـا إذا انتـزع النـداء ملاعـب الـدار انتزاعـا
مـن نـاظرين ، سـنا الطفولـة في دمـوعهما يغيـب
للكـد لا للطيبـات ، يـد يصـوحها اللغـوب
***

إن الشـباب هـو الربيـع ، فـأين أنـت مـن الربيـع ؟
ضـاع الهـوى مـن أصـغريك ، فقلـت للأحـلام ضـيعي
تلـك الكـروم النـاشرات ظلالهـن عـلى الجـذوع
الراقصـات مـن الخريـر الراعشـات مـع الضـلوع
يشـهدن أنـك مـا حملـت مـن الحقـول سـوى الـدموع
والمنجـل المحطـوم ، والآمـال تقتـل أو تخيـبُ
والحـب يعـوزه التلاقـي ، والتحايـا ، والحبيـبُ
***

يـا شـعلةً في الموقـد المهجـور يحرقهـا سـناها
يـا نغمـة عـادت تـذوب سـدىً وتفنـى في صـداها
يـا بـؤس عاشـقة يفـيض هـوىً عليهـا سـاعداها
عـذراء تحلـم بالعنـاق فـما يعانقهـا سـواها
كـالزهرة الظمـأى يفتحهـا لغـير نـدى شـذاها
مـن كـل عـبءٍ في الحيـاة عليـك واشٍ أو رقيـبُ
هيهـات أن تـدع المناجـل مـن حياتـك مـا يطيـبُ
***

لاقـى شـقاء الكـادحين لـديك حرمـان العـذارى
مـا طـائرٌ فـوق الرمـال مشـى الهجـيرُ بهـنَّ نـارا
ظمـآن ، كبلـتِ الجـراحُ أمـام عينيـه المطـارا
فانكـبّ يشربُ مـن دمـاه صـدىً وأينًـا وانتحـارا
يومًـا بـأنكى في عـذاب منـكِ لـيلاً أو نهـارا
أصـبحت أشـقى مـن يـروحُ ، وبـتِّ أشـقى مـن يـؤوبُ
عـيش يهـان بـه المشـيب إذ يقـال : هـو المشـيبُ
***

واحسرتاه إذا تأوهت المعاول في الصباحِ

بين القبور الصامتات الموصدات على الجراح

اللحد شدَّ على أبيك فشدّ منك على جناح

وانفضَّ عنك الحاضرون وأسلموك إلى النواح

أين الفرار إذا أطلَّ على حماك المستباح

ليلٌ كأن النجم في آفاقه القصوى نيوبُ

مزَّقن أستار العفاف وأظهرت غدّكِ الثقوب

***

يا من تبيع شبابها المضني بما ينَد الشبابا

إن جرّدتك من الثياب يدٌ لتلبسك الثيابا

أو علَّ من فمك الشرابَ فمٌ ليسقيك الشرابا

أو طاف حولك آكلون ليطعموك .. فلا عتابا

جور الشرائع كم أذلَّ فتى وكم أفنى كعابا

يا شقوة الحسن الأجير كأنه الشاة الحلوبُ

والشاةُ تنعم بالأمومة وهو ترضعه الكروب

***

حتى إذا انكسف الشباب وخان خديك الطلاءُ

والتفّ بالنهدين ثوبٌ كان يعليه امتلاءُ

آواك ركنٌ في الرصيف يهينه منك اجتداء

ويلاه إن خاب السؤال وفاض بالصمت الهواء

واحتار فيك المعوزون وصدَّ عنك الأغنياء

اليوم تسخر من عصاك الغانيات ، بل الخطوبُ

يسخرن منك فتصرخين : إلامَ أبقى يا شعوبُ

***

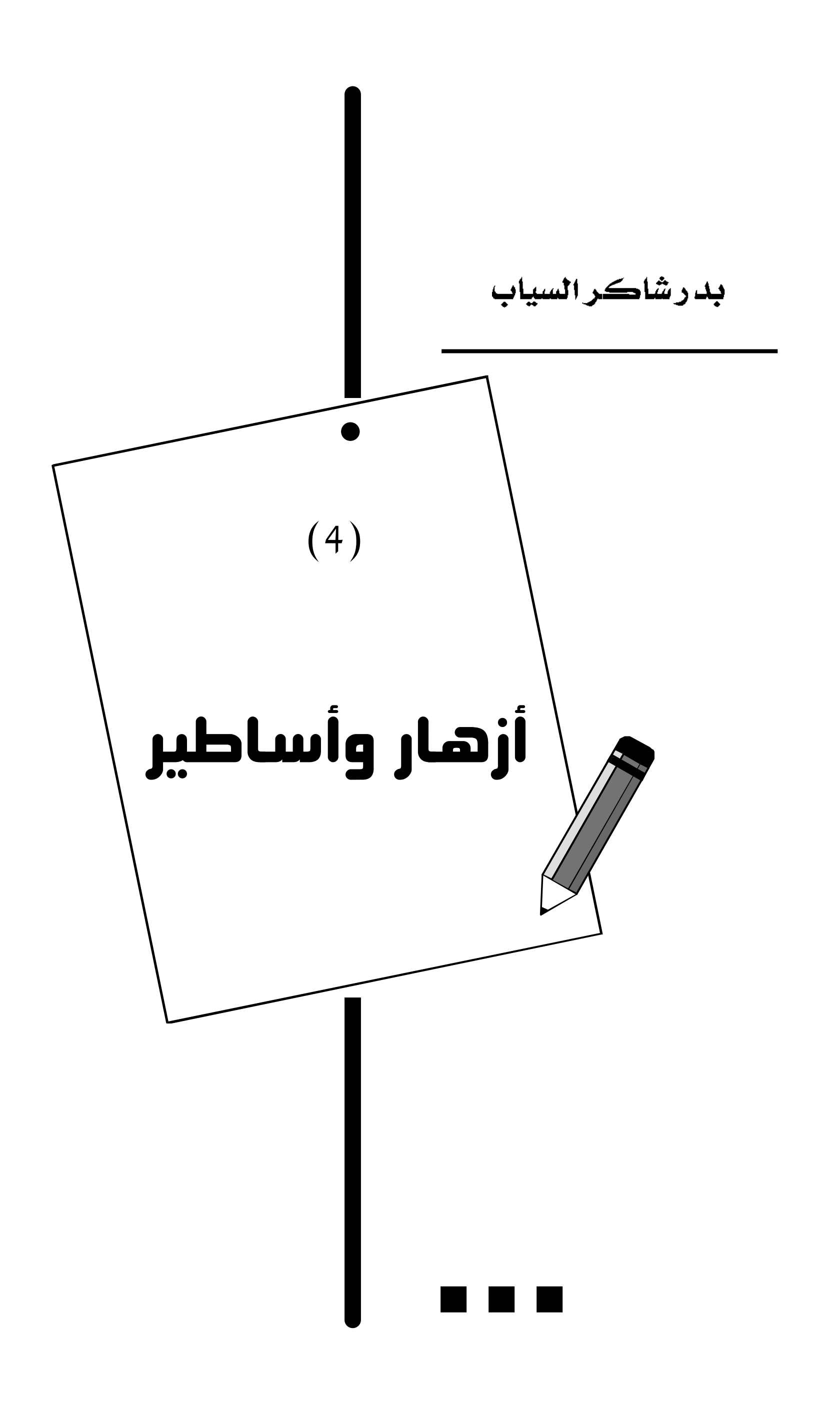
هــل تبصرــين الكوكــب المنثــال في الظلــماء نــورا
بـــين اعتنـــاق الغيمتـــين يبـــدد العمـــر القصـــيرا
هــل تبصرــين فأنــتِ ذاك الــنجم تلقــين المصـــيرا
حســناء تلــك هــي المدينــة فــاتبعيني كــي نســيرا
بــين النســاء الجائعــات فنرقــب الحســن الأجــيرا
بــين الرجــال العــاطلين إلى الهــلاك لهــم دبيــبُ
مـــا بـــين شـــحّاذ يـــئنُّ وبـــين ملتـــاعٍ يلـــوب
***

نـــادي أبـــاكِ المســـتكين إلام تبقـــى مســـتكينا
نـــادي أبـــاكِ الجـــائع العريـــان : هـــبّ الجائعونـــا
العـــالم المخمـــور ثـــار عـــلى الســـقاة الخادعينـــا
والصــحو قــد فضــح الكــؤوس .. وخيــبَ المســتعمرينا
الضـــاربين شـــوارد الأمثـــال فـــاه بهـــا (لبيـــبُ)
(بالصـــبر) يخفـــي مخلبيـــه .. أينصـــح الأغنـــام ذيـــبُ
***

حســـناء مـــا جمـــح الخيـــال ولا جمحـــتُ مـــن الخيـــالِ
لابـــدَّ أن تثـــبَ الشـــعوبُ الظامئـــات إلى النـــزالَ
إن قلـــتُ نعصـــف بالطغـــاة الظـــالمين فبالنضـــالَ
حاشـــا أديـــب الكـــادحين فـــما تحـــدث بالمحـــال
مـــا كـــان خـــداع النســـاء ولا المغـــرر بالرجـــال
لا والنضـــال .. وتعلمـــين ، إذا تلهبـــت الحـــروبُ
وطغــى الــدخان ، وحــمَّ يــوم الظــالمين مــن الكــذوبُ
***

حسـناء صـبح غـد نفـيض لظـى فويـلٌ للظـلامِ
حتـى جـراح الكـادحين .. غـدًا تثـور عـلى السـهام
يـوم سيسـفر عـن حيـاة مـن غنـاء وابتسـام
تـوفي عليـك يـدا حبيبـك بـالرغيف وبـالغرام
هـو في صـفوف الثـائرين فتـىً يطـلّ مـن القتـام
جـذلان .. يهمـس وهـو يمسـح مقلتيـك : لم النحيـبُ؟
تبكـين والريـف الجميـل يكـاد يرقصـه الغـروبُ

***


بدر شاكر السياب
(4)
أزهار وأساطير

أهواء

أطـــلّي عـــلى طــرفَي الـــدامع   خيــالاً مـــن الكوكـــب السَــاطعِ
ظـــلا مـــن الأغصـــن الحالمـــات   عـــلى ضـــفّة الجـــدول الـــوادعِ
وطـــوفي أناشـــيد في خـــاطري   ينـــاغين مـــن حُبّـــيَ الضـــائعَ
يفجِّـــرُنَ مـــن قلبـــي المســـتفيض   ويقطـــرْنَ في قلبـــي الســـامع

***

لعينيـــكِ ، للكـــوكبين اللـــذين   يصـــبان في نـــاظريّ الضـــياءْ
لنبعـــين ، كالـــدهر ، لا ينضـــبان   ولا يســـقيان الحيـــاري الظـــماء
لعينيـــك ينثـــال بالأغنيـــات   فـــؤاد أطـــال انثيـــال الـــدماء
يـــودُّ ، إذا مـــا دعـــاك اللســـانُ   عـــلى البُعـــدِ ، لـــو ذاب فيـــه النـــداء

***

يطـــول انتظـــاري ، لعـــلي أراك   لعـــلي ألاقيـــك بـــين البشـــر
ســـألقاك لابـــد لي أن أراك   وإن كـــان بالنـــاظر المحتضَرْ
فـــديْتُ التـــي صـــوّرْتُها منـــاي   وظـــلَّ الكـــرى في هجـــير السَّـــهرْ

***

أطـــليِّ عـــلى مـــن حبـــاكِ الحيـــاة   فأصـــبحت حســـناء مـــلء النظـــرْ !
أطـــليِّ فتـــاةَ الهـــوى والخيـــال   عـــلى نـــاظر بـــالرؤى عـــالقِ
بعشرـــين مـــن ريُّقـــات الســـنين   عَـــبَرنَ المـــدرات في خـــافقي
بعشرـــين كُـــلاًّ وهبـــتُ الربيـــعَ   ومـــا فيـــه مـــن عُمـــري العاشـــقِ
فـــما ظـــلَّ إلا ربيـــعٌ صـــغير   أَخبِّيـــه للموعـــد الرائـــقِ

***

سـأروي عـلى مسـمَعيكِ الغـداةَ　　أحاديـث سَـميتهُنّ الهـوى
أصـيحي فهـذي فتـاة الحقـول　　وهـذا غـرام هنـاك انطـوى
وأنبـاء قلـب غريـق السرـاب　　شـقيِّ التـداني ، كئيـب النـوى
أتـدرين عمـن ربّـه الراعيـات ؟　　عـن الريـف ؟ عـما يكـونُ الجـوى؟

***

هـو الريـف هـل تبصرـين النخيـل ؟　　وهـذي أغانيـه ، هـل تسـمعين ؟
وذاك الفتـى شـاعرُ في صـباه　　وتلـك التـي علَّمتـه الحنـين
هـي الفـنٌّ مـن نبـع المسـتطاب　　هـي الحـبُّ مـن مسـتقاه الحـزين

***

رآهـا تغنـي وراء القطيـع　　كـ (بَنلـوبَ) تسـتمهل العاشـقين
فـما كـان غـيرُ التقـاء الفـؤداينِ　　في خَفقـةٍ مـنهما عاتيـه
ومـا كـان غـيرُ افـترار الشـفاه　　بـما يُشـبه البسـمةَ الحانيـه
وكـان الهـوى ، ثـم كـان اللقـاء　　لقـاء الجيـدبين في ناحيـه
فـما قـال : أهـواكِ ، حتـى ترامـى　　عيـاءً عـلى ضـفة السـاقيه

***

وأوْفى عـلى العاشـقَين الشـتاء　　ويـومٌ دجـا في ضُـحاه السـحاب
خـلا الغـابُ مـا فيـه إلا النَّخيـل　　وإلا العصـافير ، فهـو ارتقـاب
وبـين الحبيبـين في جانبّيـه　　مـن السَّعف في كـل ممشى ، حجاب
فـما كـان إلا ومـيضٌ أضـاءَ　　ذُرى النخـل ، وانحـلّ غـيمٌ وذاب

***

ويـا سـدرةَ الغـاب كيـف اسـتجارا　　بأفنانـك الناطفـات الميـاه
رآهـا وقـد بـلّ مـن ثَوْبَهـا　　حيًـا زخّ ، فاسـتقبلتَها يـداه
عـلى الجـذع يسـتدفئان الصـدور　　عـلى مَوعـدٍ كـلَّ آه بـآه
سلي الجـذع كيـف التصـاق الصـدور　　بهزّاتهـا ، وابتعـادُ الشـفاه ؟

***

أشـاهدتَ يـا غـابُ رَقـص الضـياء | عـــلى قَطـــرةَ بـــينَ أهـــدابها ؟
تُـرى أهـي تبكـي بـدمع السماء | أســـاها وأحـــزان أترابهـــا
ولكنهـا كـلَّ نَـوْر الحقـول | ودفءِ الشـذى بـين أعشـابها
وأفـراحُ كـلِّ العصـافير فيهـا | وكـلَّ الفرشـات في غابهـا

***

وذاك الخصـام الـذي لـو يُفـدّى | لفـدّيتُ سـاعاته بالوئـام
أَفدِّيـه مـن أجـل يـوم تـرفّ | يـدٌ فيـه أو لفتـةٌ ، بالسـلام
ومـن أجـل عينـين لا تسـتطيْعان | إن تنظـرا دون ظـلّ ابتسـام
تـذوب لـه قسـوة في الأسـارير ، | كالصـحو ينحـلَّ عنـه الغـمام

***

خصـامًا وَلـمّا نعـلّ الكـؤوس ؟ | أحطَّمتِهـا قبـل أن نسـكرا ؟
خصـامًا ، ومـا زال بعـض الربيـعِ | نـديًّا عـلى الصـيف مخضَـوْضرا ؟
خصـامًا ؟ فهـل تمنعـين العيـونَ | إذا لألأَ النُّـور ، أن تنظـرا ؟
وهـل تُـوقفين انعكـاس الخيـالِ | مـن النهـر ، أن يملـك المعـبرا ؟

***

أغـانيٌّ شـبّابتي تَسـتبيكِ | وتُـدنيكِ منـي ، ففـيمَ الجفـاء؟
كـأنّ قـوى سـاحر تسـتبدُّ | بأقـدامك البـيض ، عنـد المسـاء
ويُفضي- بك الـدَّرْب حيثُ استدار ، | إلى مَوْعـدي بـين ظـلٍّ ومـاء
عـلى الشـطّض ، بـين ارتجـاف القلـوع | وهمـس النخيـل ، وصـمت السماء

***

وحجّبــت خــدّيك عــن نــاظريّ بكفّيــكِ حينًــا ، وبالمِرْوَحــات
سأشــدو ، وأشــدو ، فــما تصــنعين إذا احمــر خــدّاك للأغنيــات ؟
وأرخيــتِ كفيــكِ مبهــورتَين وأصـغيتِ ، واخضـلَ حتـى المـوات
إلى أن يمــوت الشــعاعُ الأخــيرُ عـلى الشرـق ، والحـب ، والأمنيـات
وهيهـات ، إن الهـوى لـن يمـوت ولكــنّ بعــض الهــوى يأفــلُ
كــما تأفــل الأنجــم الســاهرات ، كــما يغــرب النــاظِرُ المســبَلُ ،
كــما تســتجمُّ البحــارُ الفســاح مليًّــا ، كــما يرقــد الجــدول
كَنــوْمِ اللظــى ، كــانطواء الجنــاحِ كــما يصــمتُ النــاي والشــمأل !

***

أعــامٌ مضىــ والهــوى مــا يــزالُ كــما كــان ، لا يعتريــه الفتــوْر؟
أهــذا هــو الصّــيف يــوفي علينــا فنلقــاه ثانيــةً ، كــالزهور ؟
ولكــنَّهنَ زهــور الخلــود فــلا أظمــأتْ ريّهــنّ الحــرور
ولا نــال مــن لــونهن الشــتاءُ ولا اســتنزَفتِ عطــرَهُنِّ الــدهور

***

أغــانيّ ، والغــاب قفــرُ الوكــون حبــيسُ النســائم تحــت الــدوالي
تــرى مــاءه لاتقــاد الهجــير حريقًــا بــما فوقــه مــن ظــلال
وفـوق التعاشـيب ، حيـث الغصـون ينئــوُون بأفيــائهن الثقــال ،
لهــا مضــجعٌ هدْهدْتــه العطــور أأبصرـت كيـف اضـطجاع الجـمالَ ؟

***

أأمســيتُ أستحضرــ الــذكريات ومــا كــان بــالأمس كــلّ الحيــاه ؟
أضــاعت حيــاتي ؟ أغــاب الغــرامُ ؟ أماتــتْ ، عــلى الأغنيــاتْ ، الشــفاه ؟
أنمسيــ ، ومــا زال غــابُ النخيــل خضــيلاً ومــا زال فيــه الرعــاه ،
حــديثًا عــلى مَوقــد الســامرين : أحبّــا ، وخابــا ، فــوا حسرــتاه ؟

***

أَناديـــك ، لـــو تســـمعين النـــداء وأدعـوك ـ أدعـوك ؟! يـا للجنـون!
إذا رنّ في مســـــــمعَيك الغـــــداة مـن المهـدَ صـوتُ الرضـيع الحنـون
ونـــادى بـــك الـــزوجُ أن ترضـــيعه ونـــادى صـــدى أخفتتـــه الســـنون
فـــما نَفعُهـــا صرخـــةمن لهيـــبٍ أدوِّى بهـــا ؟ مـــن عســـاني أكـــون ؟!

***

أعفَّـــرتُ مـــن كبريـــاء النـــداء ؟ وأرجَعـــتُ آمـــادي القهقهـــري ؟
نســـيتُ التـــي صـــوّرتها مُنـــاي وناديـــتُ أنثـــى ككـــل الـــورى ؟!
وأعرضـــتُ عـــن مســـمعٍ في الســـماء إلى مســـمع في تُـــراب القـــرى !
أتُصـــغي فتـــاةُ الهـــوى والخيـــال وأدعـــو فتـــاة الهـــوى والثـــرى !؟

***

وودَّعـــتُ ســـجواءَ بـــين الحقـــول ودنيـــا عـــن الشرّـــ في معـــزلِ
وخلفـــتُ في كـــلَ ركـــن خضـــيلٍ مـــن الريـــف ، ذكـــرى هـــوىً أوّلِ
قصاصـــات أوراقـــي الهامســـاتِ بشِـــعري ، عـــلى ضـــفّة الجـــدولَ
وجِـذْعًا كتبـتُ اسـمها الْحُلـوَ فيـهَ ونايًـــا يغنـــي مـــع الشـــمألِ

***

فمـــنْ هـــذه المســـترقَّ القلـــوبَ صـــبيَّ ملؤهـــا روحُـــه الطـــافره
أمـــا كنـــتُ ودّعـــتُ تلـــك العيـــونَ الظلـــيلات والخصـــلة النـــافرة ؟
كـــأني ترشَّـــفتُ قبـــل الغـــداة ســـنى هـــذه النظـــرة الآسرة !
أمـــا كـــان في الريـــف شيءٌ كهـــذا ؟ أمـــا تُشـــبه الربَـــة الغـــابرة ؟!

***

مشـــى العُمـــرُ مـــا بيننـــا فاصـــلاً فمـــن لي بـــأن أســـبق المَوْعـــدا ؟
ولكنـــه الحـــبُّ منـــه الزمـــانُ ثـــوان ، وممـــا احتـــواه المـــدى
أراهـــا فـــأنفض عنهـــا الســـنين كـــما تـــنْفِضُ الـــريحُ بَـــردَ النـــدى
فتغـــدو وعمـــري أخـــو عمرهـــا ويســـتوقفُ المولـــدُ المَوْلـــدا

***

وهـل تسـمع الشـعرَ إن قُلتـه ولإي مِسـمعيها ضـجيجُ السـنين
أطلـت عـلى السـبعِ مـن قبـل عشر- يـن عامًـا ، ومـا كنـت إلا جنـين ؟
وأمسـى -ولم تـدرِ أنـت الغـرام - هواهـا حـديث الـورى أجمعـين
لقـد نبّأوهـا بهـذا الهـوى فقالـت : ومـا أكثـر العاشـقين ؟!

***

أمـن قَلبـهِ انثـان هـذا النشـيدُ إليهـا ، إلى الذئبـة الضـارية ؟
ولـو لم يكـن فيـه طعـمُ الـدماءِ مـا استشـعرت رنـة القافيـة
ومـا زالـت تسـببه غمّازتـانَ تبوحـان بالبسـمةِ الخافيـه
ومـا زالتـا تُـذكران الخيـال بـما كـان في الأعصَرـ الخاليـه :

***

وبالحُـبَ والغـاداة المسـتبد صـباها بـه ، يلعبـان الـوَرقْ
وكيـف اسـتكان الألَـه الصـغير فـألقى سـهام الهـوى والحَنَـقْ
رهـانٌ ، رمـى فيـه غمّازتيـه ، وَوَرْدَ الخـدود ، ونـور الحـدق ؛
لـكِ الله ، كيـف اقتحمـت القـرونَ ولم يخـب في وجنتيـكِ الألـق ؟

***

كـأن ابتسـامتها والربيـع شـقيقان ، لـولا ذبـولْ الزَّهـرْ
أآذار ينثـر تلـك الـورود عـلى ثغرهـا ؟ أم شُـعاع القمـر ؟
ففـي ثغرهـا افـترَّ كـلَّ الزمـان ومـا عُمـرُ آذار إلا شَـهَر
وبـالروح فـدَيت تلـك الشـفاه وإن أذكرَتْنـي بكـأس القـدر !

***

اطـلي عـلى طـرفَي الـدامع خيـالاً مـن الكوكـب السـاطع
وظـلاًّ مـن الأغصـن الحالمـات عـلى ضـفة الجـدول الـوادع
وطـوفى أناشـيد في خـاطري ينـاغين مـن حبـيَ الضـائع
يفجَـرن مـن قلبـي المسـتفيض ويقطـرن في قلبـي السـامع

1947/2/1

في السوق القديم

(١)

الليل ، والسوق القديم

خفتت به الأصوات إلا غمغمات العابرين
وخطى الغريب وما تبثُّ الريح من نغم حزين

في ذلك الليل البهيم

الليل ، والسوق القديم ،وغمغمات العابرين ،

والنور تعصره المصابيح الحزانى في شحوب ،

ـ مثل الضباب على الطريق ـ

من كل حانوت عتيق ،

بين الوجوه الشاحبات ، كأنه نغم يذوب

في ذلك السوق القديم

(2)

كم طاف قبلي من غريب ،

في ذلك السوق الكئيب

فرأى ، وأغمض مقلتيه ، وغاب في الليل البهيم

وارتجّ في حلق الدخان خيال نافذة تضاء ،

وارتجّ في حلق الدخان خيال نافذة تضاء ،

والريح تعبث بالدخان ...

الريح تعبث ، في فتور واكتئاب ، بالدخان ،

وصدى غناء ..

ناء يذكّر بالليالي المقمرات وبالنخيل ؛

وأنا الغريب .. أظلُّ أسمعه وأحلم بالرحيل

في ذلك السوق القديم

(3)

وتناثر الضوء الضئيل على البضائع كالغبار؛
يرمي الظلال على الظلال ؛ كأنها اللحن الرتيب،
ويُريق المغيب الباردات ، علي الجدار
بين الرفوف الرازحات كأنها سحب المغيب
الكوب يحلم بالشراب وبالشفاه
ويد تلوَتها الظهيرة والسراج أو النجوم
و لربما بردتْ عليه وحشرجت فيه الحياة
في ليلة ظلماء باردة الكواكب والرياح؛
في مخدع سهر السراجْ به ، وأطفأه الصباح

(4)

ورأيت ، من خلل الدُّخان ، مشاهد الغد كالظلال
تلك المناديل الحيارى وهي تومئ بالوداع
أو تشرب الدمع الثقيل ، وما تزال
تطفو وترسب في خيالي - هوَّم العطر المضاع
فيها ، وخضّبها الدم الجاري !
لون الدجى وتوقُّدُ النارِ
يجلو الأريكة ثم تخفيها الظلال الراعشاتْ -
وجه أضاء شحوبه اللهبُ

يخبو ، ويسطع ثم يحتجب
ودم يغمغم وهو يقطر ثم يقطر : مات .. ماتْ !

(5)

الليل ، والسوق القديم ، وغمغمات العابرين ،

وخطى الغريب

وأنت أيتها الشموع ستوقدين

في المخدع المجهول ، في الليل الذي لن تعرفيه ،

تلقين ضوءك في ارتخاء مثل امساء الخريف

ـ حقل تموج به السنَّابل تحت أضواء الغروب

تتجمع الغربان فيه ـ
تلقين ضوءك في ارتخاء مثل أوراق الخريف
في ليلة قمراء سكرى بالأغاني ، في الجنوب:
نقر [الداربك] من بعيد

يتهامس السعف الثقيل ، به ، ويصمت من جديد !

(6)

قد كان قلبي مثلكن ، وكان يحلم باللهيب
حتى أتاح له الزمان يدًا ووجهًا في الظلام
نار الهوى ويد الحبيب ـ
ما زال يحترق الحياة ، وكان عام بعد عام
يمضي ، ووجه بعد وجه مثلما غاب الشراع
بعد الشراع ـ وكان يحلم في سكون ، في سكون :
بالصدر ، والفم ، والعيون ؛
والحب ظلله الخلود .. فلا لقاء ولا وداع
لكنه الحلم الطويل
بين التمطي والتثاؤب تحت أفياء النخيل .

(7)

بالأمس كان وكان ـ ثم خبا ، وأنساه الملال
واليأس ؛حتى كيف يحلم بالضياء ـ فلا حنين
يغشى دجاه ، ولا اكتئاب ، ولا بكاء ، ولا أنين
الصيف يحتضن الشتاء ، ويذهبان .. وما يزال
كالمنزل المهجور تعوي في جوانبه الرياح ،
كالسلم المنهار ، لا ترقاه في الليل الكئيب
قدم ، ولا قدم ستهبطه إذا التمع الصباح
ما زال قلبي في المغيب
ما زال قلبي في المغيب فلا أصيل ولا مساء ،
حتى أتيت هي والضياء !

(8)

ما كان لي منها سوى أنا التقينا منذ عام
عند المساء ، وطوقتني تحت أضواء الطريق
ثم ارتخت عني يداها وهي تهمس ـ والظلام
يحبو ، وتنطفئ المصابيح الحزاني والطريق ـ :
« أتسير وحدك في الظلام ؟
أتسير ؛ والأشباح تعترض السبيل ، بلا رفيق ؟ »
فأجبتها والذئب يعوي من بعيد ، من بعيد
أنا سوف أمضي باحثًا عنها ، سألقاها هناك
عند السراب وسوف أبني مخدعين لنا هناك» .
قالت ـ ورَّجع ما تبوح به الصدى « أنا من تريد ؟ »

(9)

« أنا من تريد ، فأين تمضي ؟ فيم تضرب في القفار
مثل الشريد ؟ أنا الحبيبة كنت منك على انتظار .
أنا من تريد .. وقبلتني ثم قالت والدموع

في مقلتيها : غير أنك لن ترى حلم الشباب
بيتًا على التل البعيد يكاد يخفيه الضباب
لولا الأغاني ، وهي تعلو نصف وسني ، والشموع
تلقى الضياء من النوافذ في ارتخاء ؛ في ارتخاء !
أنا من تريد وسوف تبقى لا ثواء ولا رحيل :
حب إذا أعطى الكثير فسوف يبخل بالقليل ،
لا يأس فيه ولا رجاء.

(10)

أنا أيها النائي القريب ،
لك أنت وحدك ؛ غير أني لن أكون
لك أنت - أسمعها ؛ وأسمعهم ورائي يلعنون
هذا الغرام . أكاد أسمع أيها الحلم الحبيب
لعنات أُمي وهي تبكي . أيها الرجل الغريب
إني لغيرك . بيد أنك سوف تبقى ، لن تسير !
قدماك سُمِّرتا فما تتحركان ؛ ومقلتاك
لا تبصران سوى طريقي ، أيها العبد الأسير !؟
« أنا سوف أمضي فاتركيني : سوف ألقاها هناك
عند السراب »

فطوقتني وهي تهمس : « لن تسير ! »

(11)

« أنا من تريد ؛ فأين تمضي بين أحداق الذئاب
تتلمّس الدرب البعيد ؟ »
فصرختُ : سوف أسير ، مادام الحنين إلى السراب
في قلبي الظامي ! دعيني أسلك الدرب البعيد
حتى أراها في انتظاري : ليس أحداق الذئاب
أقسى عليَّ من الشموع
في ليلة العرس التي ترقبين ، ولا الظلام
والريح والأشباح ، أقسى منك أنتِ أو الأنام !
أنا سوف أمضي! فارتخت عني يداها ، والظلام
يطغى ...

ولكني وقفت وملء عينيّ الدموع ! 3/ 11/ 1948

اللقاء الأخير

والتف حولك ساعداي ، ومال جيدك في اشتهاء،
كالزهرة الوسنى ـ فما أحسستُ إلا والشفاه
فوق الشفاه . وللمساء

عطر ، يضوع فتسكرين به ، وأسكر من شذاه
في الجيد والفم والذراع ،

فأغيب في أفق بعيد ، مثلما ذاب الشراع
في أرجوان الشاطئ النائي وأوغل في مداه !
شفتاك في شفتيّ عالقتان ـ والنجم الضئيلْ
يُلقى سناه على بقايا راعشات من عناق ـ
ثم ارتخت عني يداك ، وأطبق الصمت الثقيل .
يا نشوةٌ عبرى ؛ وإغفاء على ظل الفراق
حلوًا ؛ كإغماء الفراشة من ذهول وانتشاء ...
دومًا إلى غير انتهاء !

***

يا همسةً فوق الشفاه
ذابت فكانت شبهَ آه
يا سكرةً مثل ارتجافات الغروب الهائمات
رانت كما سكن الجناح وقد تناءى في الفضاء
غرقى إلى غير انتهاء
مثل النجوم الآفلات.

***

ـ « لا .. لن تراني . لن أعود
« هيهات . لكنّ الوعود
« تبقى تُلحُّ .. فخفّ أنت ، وسوف آتي في الخيال
«يومًا ، إذا ما جئتَ أنت . وربما سال الضياء
« فوق الوجوه الضاحكات ـ وقد نسيتَ ؛ وما يزال
« بين الأرائك موضعٌ خال يحدق في غباء !
« هذا الفراغ ! أما تحس به يحدق في وجوم ؟
« هذا الفراغ .. أنا الفراغ ، فخفّ أنت لكي يدوم ! »

***

هذا هو اليوم الأخير ؟!
واحسرتاه ! أتصدقين ؟ ألن تخفَّ إلى لقاء ؟!
هذا هو اليوم الأخير . فليته دون انتهاء !
ليت الكواكب لا تسير ؛
والساعة العجلى تنام على الزمان فلا تُفيق !
خلفتني وحدي ـ أسير إلى السراب بلا رفيق .

***

يا للعذاب ! أما بوسعِك أن تقولي : « يعجزون
عنا . فماذا يصنعون ؟
لو أنني ـ حان اللقاء
فاقتادني نجم المساء ،
في غمرة لا أستفيق
ألا وأنت خصري تحت أضواء الطريق ؟! »

ليل ، ونافذة تضاء .. تقول إنك تسهرين
إني أحسُّك تهمسن
في ذلك الصمت المميت :«تقول إنك تخفَّ إلى لقا ء؟»

ليل ، ونافذة تضاء
تغشى رؤاي ، وأنتِ فيها ... ثم ينحل الشعاع
في ظلمة الليل العميق
ويلوح ظلك من بعيد وهو يومئ بالوداع ،
وأظل وحدي في الطريق !

1948

***

أساطير

وقف اختلافهما في المذهب حائلا بينهما وبين السعادة ...

فآلي هو أن يلعن الأوثان ! [قصة حب اليونان الوثنية] .

أساطيرُ من حشرجات الزمان
نسيجُ اليد البالية ،

رواها ظلام من الهاوية
وغنّى بها ميّتان .
أساطير كالبيد ، ماجَ السراب
عليها ، وشقّتْ بقايا شِهاب ،
وأبصرتُ فيها بريق النُّضّار
يلاقيَ سدى من ظلال الرغيف ،
وأبصرتُني ؛ والستار الكثيف
يواريك عني فضاع انتظار
وخابت منًّى ؛ وانتهى عاشقان .

***

أساطير ، مثل المُدى القاسيات
تلاوينها من دم البائسين ،
فكم أومضت في عيون الطغاة
بما حُمِّلتْ من غبار السنين
يقولون : وحيُ السماء ،
فلو يَسمعُ الأنبياء
لما قهقهتْ ظلمة الهاوية
بأسطورة بالية
تجرُّ القرون
بمركبة من لظى ، في جنون
لظى كالجنون !

***

وهذا الغرامُ اللجوج
أيرتدُّ من لمسةٍ باردة ..
على إصبع من خيال الثلوج ،
وأسطورة بائدة ؟
وعرَّافةٍ أطلقت في الرمال
بقايا سؤال
وعينين تستطلعان الغُيوب
وتستشرفان الدروب ،
فكان ابتهالٌ .. وكانت صلاة
تُعفر وجهَ الآله
وتحثو عليه انطباق الشفاه

***

تعالى فما زال نجم المساء
يذيب السنا في النهار الغريق
ويغشى سكونَ الطريق
بلونين من ومضة وانطفاء .
وهمسُ الهواء الثقيل
بدفء الشذى واكتئاب الغروب ،
يذكرني بالرحيل :
شراع خلال التحايا يذوب
وكفٌّ تلوِّح . يا للعذاب !

***

تعالى فما زال لون السحاب
حزينًا .. يذكرني بالرحيل
رحيل ؟!
تعالى ، تعالى .. نذيب الزمان
وساعاته ؛ في عناق طويل ،
ونصبغ بالأرجوان
شراعًا وراء المدى ،
وننسي الغدا
على صدرك الدافئ العاطر
كتهويمة الشاعر
تعالى ؛ فملء الفضاء
صدى هامس باللقاء
يوسوس دون انتهاء

***

على مقلتيك انتظار بعيد
وشيء يريد :
ظلال
يغمغم في جانبيها سؤال،
وشوق حزين

يريد اعتصار السراب
وتمزيق أسطورة الأولين
فيا للعذاب !!
جناحان خلف الحجاب .
شراع ..
وغمغمة بالوادع !!!

24/ 3/ 1948

***

اتبعيني

اتبعيني
فالضحى رانت به الذكرى على شطّ بعيدِ
حالم الأغوار بالنجم الوحيدِ
وشَرَاع يتوراى ، و « اتبعيني »
همسة في الزرقة الوسنى .. وظلُّ
من جناح يضمحلُّ
في بقايا ناعسات من سكونِ
في بقايا من سكونِ
في سكون !

***

هذه الأغوارُ يغشاها خيالُ ؛
هذه الأغوارُ لا يسبرها إلا ملالُ
تعكس الأمواج ، في شبه انطفاءِ
لوْنَهُ المهجور في الشطِّ الكئيب ،
في صباح ومساء ،
وأساطيرُ سكارى .. في دروبِ ،
في دروب أطفأ الماضي مداها .
وطواهًا
فاتبعيني .اتبعيني .

***

اتبعيني .. ها هي الشطآن يعلوها ذهولُ
ناصل الألوان ، كالحلم القديمِ
عادت الذكرَى به ـ ساج كأشباحٍ نجومِ
نسيَ الصبحُ سناها والأفولُ
في سهاد ناعس .. ، بين جُفونِ !
في وجوم الشاطئ الخالي ، كعينَيك ، انتظارُ
وظلال تصبغ الريح .. وليل ونهارُ
صفحةٌ زرقاء تجلو ، في برود
وابتسام غامض ، ظل الزمان
للفراغ المتعب البالي على الشط الوحيد.
اتبعيني .. في غد] يأتي سوانا عاشقان ،
في غد ، حتى وإن لم تتبعيني ،
يعكس الموج ؛ على الشط الحزينِ
والفراغ المتعب المخنوق ؛ أشباح السنين

***

أمس جاء الموعدُ الخاوي .. وراحا ،
يطرق الباب على الماضي .. على اليأس .. علّيا !
كنت وحدي .. أرقب الساعة تقتات الصباحا

وهي ترنو مثل عين القاتل القاسي إليّا .
أمس .. في الأمس الذي لا تذكرينه
ضوّأ الشطآن مصباح كئيب .. في سفينة
واختفى في ظلمة الليل قليلاً فقليلاً ،
وتناءت ، في ارتخاء وتوان
غمغمات مجهدات ، وأغاني
وتلاشت ، تتبع الضوء الضئيلا
أقبلي الآن .. ففي الأمس الذي لا تذكرينه
ضوّأ الشطآن مصباح كئيب في سفينه
واختفى في ظلمة الليل قليلاً فقليلا .

21/ 4/ 1948

***

رنة تتمزق

الداءُ يثلج راحتي ، ويطفئ الغد .. في خيالي
ويشلّ أنفاسي ، ويطلقها كأنفاس الذبال
تهتزُّ في رئتين يرقص فيهما شبح الزوال
مشدودتين إلى ظلام القبر بالدّم والسعال..

***

واحسرتاه !؟ كذا أموت ؟ كما يجف ندى الصباح ؟
ما كاد يلمع بين أفواف الزنابق والأقاحي ،
فتضوع أنفاسُ الربيع تهُزُّ أفياء الدوالي ،
حتى تلاشى في الهواء .. كأنه خفق الجناح

***

كم ليلة ناديت باسمك أيها الموت الرهيبُ
وودت لا طلع الشروق على إن مال الغروب
بالأمس كنت أرى دجاك أحب من خفقات آلِ
راقصن آمال الظماء .. فبلَّها الدم واللهيب !

***

بالأمس كنت أصيح : خذني في الظلام إلى ذراعك
وأعبر بي الأحقاب يطويهن ظل من شراعك
خذني إلى كهف تهوم حوله ريح الشمال ..
نام الزمان على الزمان ، به ، وذابا في شعاعك .

***

كان الهوى وهمًا يعذبني الحنين إلى لقائه
ساءلت عنه الأمنيات ؛ وبت أحلم بارتمائه
زهرًا ونورًا في فراغ من شكاة وابتهال ..
في ظلمة بين الأضالع تشرئب إلى ضيائه

***

واليوم حببت الحياة إلى ، وابتسم الزمان
في ثغرها ، وطفا على أهدابها الغد والحنان ـ
سمراء .. تلتفت النخيل المساهمات إلى الرمال
في لونها .. وتفر ورقاء .. ويأرج أقحوان..

***

شع الهوى في ناظريها .. فاحتواني واحتواها
وارتاح صدري ، وهو يخفق باللحون ، على شذاها
فغفوت أسترق الرؤى والشاعرية من رؤاها
وأغيب في الدفء المعطر ... كالغمامة في نداها

***

عينان سوداوان أصفى من أماسي اللقاء ،
وأحب من نجم الصباح إلى المراعي والرعاء،
تتلألأن عن الرجاء كليلة تخفي دجاها
فجرًا يلون بالندى ؛ درب الربيع ، وبالضياء

***

سمراء يا نجمًا تألق في مسائي .. أبغضيني
واقسي عليّ .. ولا ترقى للشكاة وعذبيني
خلى احتقارًا في العيون ، وقطبي تلك الشفاها
فالداء في صدري تحفز لافتراسك في عيوني !

***

يا موت .. يا رب المخاوف ، والدياميس الضريرة
اليوم تأتي ؟! من دعاك ؟ ومن أرادك أن تزوره ؟
أنا ما دعوتك أيها القاسي فتحرمني هواها
دعني أعيش على ابتسامتها وإن كانت قصيرة

***

لا ! سوف أحيى،سوف أشقى ؛ سوف تمهلني طويلا
لن تطفئ المصباح .ز لكن سوف تحرقه فتيلا
في ليلة .. في ليلتين .. سيلتقي آها فآها
حتى يفيض سنى النهار فيغرق النور الضئيلا !!

***

يا للنهاية حين تسدل هذه الرئة الأكيل
بين السعال ، على الدماء ، فيختم الفصل الطويل
والحفرة السوداء تفغر ، بانطفاء النور ، فاها ـ
إني أخاف .. أخاف من شبح تخبِّئه الفصول !!

***

وغدًا إذا ارتجف الشتاء على ابتسامات الربيع
وانحل كالظل الهزيل وذاب كاللحن السريع،
وتفتحت بين السنابل - وهي تحلم بالقطيع
والناء - زنبقة مددت يدي إليها في خشوع

***

وهويت أنشقها فتصعد كلما صعد العبير ،
من صدري المهدوم حشرجة فتحترق العطور
تحت الشفاة الراعشات ويطفأ الحقل النضير
شيئًا فشيئًا .. في عيوني ثم ينفلت الأسير !!

1948

سوف أمضي

سوف أمضي . أسمعُ الرِّيح تُناديني بعيدًا
في ظلام الغابةِ اللفاء .. والدَّرْبُ الطويل
يتمطى ضَجَرًا ، والذئبُ يعوي ، والأفول
يسرقُ النجم كما تسرق روحي مُقلتاك
فاتركيني أقطع الليل وحيدًا
سوف امضي ، فهي ما زالت هُناكَ
في انتظاري .

***

سوف امضي . لا هديرُ السيل صخَّبًا رهيبًا
يُغرق الوادي ، ولا الأشباحْ تُلقيها القبورُ
في طريقي تسأل الليلَ إلى أين أسير ـ
كلُّ هذا ليس يثنيني ، فعودي واتركيني،
ودعيني أقطع الليل غريبا .
إنَّها ترنو إلى الأفق الحزينِ
في انتظاري .

***

سوف أمضي . حوِّلي عينيك لا ترني إليَّا !!
إن سحرًا فيهما يأبى على رجلي مسيرا،
إن سرًا فيهما يستوقف القلب الكسيرا ،
وارفعي عني ذراعيك .. فما جدوى العناق
إن يكن لا يبعث الأشواق فيَّا ؟
اتركيني . ها هو الفجر تبدّى ، ورفاقي
في انتظاري

30/ 2/ 1948

هوى واحد

عــلى مقلتيــك ارتشــف النجــوم ... وعانقـــت آمـــالي الآيبـــه ...
وســابقت حتــى جنــاح الخيــال ... بروحـــي ، إلى روحــك الواثبــه
أطلـــت فكانـــت ســـنًا ذائبـًــا ... بعينيـــك ، في بســـمة ذائبـــه

***

أأنـــت التـــي رددتهـــا منـــاي ... أناشــيد تحــت ضــياء القمـــر
تغنـــي بهـــا في ليـــالي الربيـــع ... فـــتحلم أزهـــاره بـــالمطر
ويمضيـــ صـــداها يهــزّ الضــياء ... ويغفـــو عـــلى الـــزورق المنتظـــر

***

خـذي الكـأس بـلي صـداك العميـق ... بـــما ارتـــج في قاعهـــا مـــن شراب
خـذي الكـأس لا ؛ جف ذاك الرحيـق ... ولم يبـــق إلا جنـــون السرـــاب
وإلا صـــدى هـــامس في القـــرار : ... ألا ليتنـــي مـــا ســـقيت الـــتراب

***

خـذي الكـأس ، إني زرعـت الكـروم ... عـــلى قـــبر ذاك الهـــوى الخـــاسر
فأعراقهـــا تســـتعيد الشرـــاب ... وتشـــتفه مـــن يـــد العـــاصر
خـــذي الكـــأس إني نسـيت الزمـــان ... فــــما في حياتيســـوى حـــاضر

***

وكـــان انتظـــارًا لهـــذا الهـــوى ... جلـــوسي عـــلى الشـــاطئ المقفـــر
وإرســـال طـــرفي يجـــوب العبـــاب ... ويرتـــد عـــلى أفقـــه الأســـمر
إلى أن أهـــل الشرـــاع الضـــحوك ... وقالـــت لـــك الأمنيـــات : انظـــري

***

أأنكـــرت حتـــى هـــواك اللجـــوج ... وقلبـــي ، وأشـــواقكِ العارمـــة؟
وضــــللت في وهــــدة الكبريـــاء ... صـــداها .. فيـــا لـــك مـــن ظالمـــه
تجنبـــت حتـــى حســـبتِ النعـــاس ... ذبـــولاً عـــلى الزهـــرة النائمـــة

***

أتنســـين تحـــت الـــتماع النجـــوم خُطانـــا وأنفاسَـــنا الواجفـــة
وكيـف احتضـنا صـدى في القلـوب تغنـــي بـــه القبلـــة الراجفـــة
صـــدى لـــج قبـــل احـــتراق الشـــفاه ومـــا زال في غيهـــب العاطفـــة

***

ورانـــت عـــلى الأعـــين الوامقـــات ظـــلال مـــن القبلـــة النائيـــة
تُنـــادي بهـــا رغبـــة في الشـــفاه ويمنعهـــا الشـــك .. والواشـــية
فـــترتج عـــن ضـــغطة في اليـــدين جمعنـــا بهـــا الـــدهر في ثانيـــة

***

« شـــقيقة روحـــي ألا تـــذكرين » نـــداء ســـيبقى يجـــوب الســـنين
وهمـــس مـــن الأنجـــم الحالمـــات يهـــز التماعاتهـــا بـــالرنين
تســـلل مـــن فجـــوة في الســـتار إليـــك وقـــال : ألا تـــذكرين

***

تعـــالى ، فـــما زال في مقلتـــي ســـنًا مـــاج فيـــه اتقـــاد الفـــؤاد
كـــما لاح في الجـــدول المطمـــئن خيـــال اللظـــى والنجـــوم البعـــاد
فـــلا تزعمـــي أن هـــذا جليـــد ولا تزعمـــي أن هـــذا رمـــاد ؟

16 /2/ 1948

***

لن نفترق

هبــت تغمغــم :« ســوف نفــترق » روح عـــلى شـــفتيك تخـــترق
صـــوت كـــأن ضرام صـــاعقة ينـــداح فيـــه ... وقلبـــي الأفـــق
ضـــاق الفضـــاء ، وغـــام في بصر ـــي ضـــوء النجـــوم ، وحطـــم الألـــق
فعـــلي جفـــوني الشـــاحبات ، وفي دمعـــي ، شـــظايا منـــه أو مِـــزْق
فـــيم الفـــراق ؟ ألـــيس يجمعنـــا حـــب نظـــل عليـــه نعتنـــق؟
حـــب ترقـــرق في الوعـــود ســـنا منـــه ورف عـــلى الخطـــى عبـــق

***

أختـــاه ، صـــمتك ملـــؤه الريـــب فـــيم الفـــراق ؟ أمـــا لـــه ســـبب ؟
الحـــزن في عينيـــك مرتجـــف ؛ واليـــأس في شـــفتيك يضـــطرب
ويـــداك باردتـــان .. مثـــل غـــدي وعـــلى جبينـــك خـــاطر شـــحب
مـــــا زال سرك لا تجنحـــــه آه مؤجـجـــــــة .. ولا يثـــــــب
حتـــى ضـــجرت بـــه ، وأســـأمه طـــول الثـــواء ، وآده التعـــب:
« إني أخـــاف عليَـــك » واختلجـــت شـــفة إلى القـــبلات تلتهـــب

***

ثـــم انثنيـــت مهيضـــة الجلـــد تتنهـــدين وتعصر ـــين يـــدي
وتـــرددين وأنـــت ذاهلـــة ، « إني أخلـــف عليـــك حـــزن غـــد »
فتكـــاد تنتشـــر النجـــوم أســـى في جـــوّهن .. كـــذائب الـــبرد
لا تتركـــي ، لا تتركـــي لغـــدي تعكـــير يـــومي ، مـــا يكـــون غـــدي
وإذا ابتســـمت اليـــوم مـــن فـــرح فلتعبســـــن ملامـــــح الأبـــــد !
مـــا كـــان عمـــري قبـــل موعـــدنا إلا الســـنين تـــدب في جســـد

***

أختـــاه لــــذّ عـــلى الهــــوى ألمـــي ... فاســــــتمتعي بهـــــواك وابتســــــمي

هــــاتي اللهيـــــب فلســــت أرهبـــه، ... مــــا كـــــان حبـــك أول الحمـــــم

مــــا زلـــــت محترقًـــا تلقفنـــــي ... نــــــار مــــــن الأوهـــــام كـــــالظلم

ســــوداء لا نـــــور يضيـــــء بهـــا ... كرقــــــاد حمّـــــى دونـــــها حلـــــم

هـــي ومضــــة ألقـــى الوجـــود بهـــا ... جـــــذلان يــــــرقص عــــاري القـــــدم

هـــــاتي لهيبـــــك إن فيـــــه ســـــنًا ... يهــــدي خطـــاي .. ولــــو إلى العـــدم

21/ 2/ 1948

***

سراب

بقايا من القافلة
تُنير لها نجمة آفلة
طريقَ الفناء ،
وتؤنسها بالغناءْ
شفاه ظماء .
تهاويل مرسومة في السراب
تمزِّق عنها النقاب
على نظرة ذاهلة
وشوق يُذيب الحدود

***

ظلال على صفحة باردة
تحركها قبضة ماردة
وتدفعها غنوة باكية،
إلى الهاوية .
ظلال على سلم من لهيب
رمى في الفراغ الرهيب
مراتبه البالية
وأرخى على الهاوية
قناع الوجود .
سنمضي .. ويبقى السراب
وظلّ الشفاة الظماءْ

يهوّم خلف النقاب ،
وتمشي الظلال البطاء
على وقع أقدامكِ العارية
إلى ظُلمة الهاوية ،
وننسى على قِمةِ السلمِ
هوانا .. فلا تحملي
بأنّا نعودْ !

27/ 3/ 1948

***

وداع

أريقـــي عـــلى ســـاعديّ الـــدموع وشـــدي عـــلى صـــدري المتعـــب
فهيهـــات ألا أجـــوب الظـــلام بعيـــدًا . إلى ذلـــك الغيهـــب
فـــلا تهمسيـــ : غـــاب نجـــم المســـاء ففـــي الليـــل أكثـــر مـــن كوكـــب

***

وهـــل كـــان حلـــم بغـــير انتهـــاء وهـــل كـــان لحـــن بـــلا آخـــر ؟
لكـــي تحســـبي أن هـــذا الغـــرام أبيـــد الـــرؤى .. خالـــد الحـــاضر
وأنـــا ســـنبقى نعـــد الســـنين مواعيـــد في ظلـــه الـــدائر ؟

***

عـــلى مقلتيـــك ارتمـــاء عميـــق وذكـــرى مســـاء تقـــول ارجـــع !
نـــداء بعيـــد الصـــدى كـــالنجوم يراهـــا حبيبـــان في مخـــدع!
يكـــاد اشـــتياقي يهـــزّ الحجـــاب وتـــومي ذراعـــي : هيـــا معـــي !!

***

سأمضيـــ .. فـــلا تحلمـــي بالأيـــاب عـــلى وقـــع أقـــدامي النائيـــة
ولا تتبعينـــــي ، إذا مـــا التفـــت ورائـــي إلى الشـــمعة الخابيـــة
يرنحهـــا في يـــديك النحيـــب فتهتـــز مـــن خلفـــك الرابيـــة

***

ستنســـين هـــذا الجبـــين الحـــزين كـــما انحلـــت الغيمـــة الشـــاردة
وغابـــت ، كحلـــم ؛ وراء الـــتلال بعيـــدًا ... ســـوى قطـــرة جامـــدة
ســـتنثرها الـــريح عـــما قليـــل وتشربـــها التربـــة البـــاردة

***

ورب اكتئـــاب يســـيل الغـــروب عـــلى صـــمته الشـــاحب الســـاهم
وأغنيـــة في ســـكون الطريـــق تلاشـــت عـــلى هـــدأة العـــالم
أثـــارا صـــدى تهمـــس الـــذكريات إذا مـــا انتهـــى ، همســـة الحـــالم

***

غـــدًا .. حـــين يـــبلى وراء الزجـــاج — كتـــاب عليـــه اســـمي الـــذابل
وتـــــنفض كفـــاك عنـــه الغبـــار — ويخلـــو بـــك المخـــدع القاحـــل
ســـيلقاك وجهـــي خـــلال الســـطور — كـــما يســـطع الكوكـــب الآفـــل

***

إذا مـــا قـــرأن « اللقـــاء الخـــير » — تمنيـــــت في غفلـــــة هاربـــــة ،
لـــو اســـترجعت قبضـــتاك الســـنين — لـــو اســـترجعت ليلـــة ذاهبـــه !
.. ولكـــن شـــيئًا حـــواه الجـــدار — تحـــــدى أمانيـــــك الكاذبـــــة .

***

تلفـــت ، عـــن غـــير قصـــد ، هنـــاك — فأبصرـــت .. بالانتحـــار الخيـــال !
حروفًـــا مـــن النـــار .. مـــاذا تقـــول ؟ — ــ لقـــد مـــر ركـــب الســـنين الثقـــال
وقـــد بـــاح تقـــويمهن الحـــزين — بـــأن اللقـــاء المرّجـــى .. محـــال !!

5/ 4/ 1948

***

لا تزيديه لوعة

لا تزيديـــه لوعـــة فهـــو يلقـــاك لينســـى لـــديك بعـــض اكتئابـــه
قربـى مقلتيـك مـن وجهـه الـذاوي تـــري في الشـــحوب سر انتحابـــه
وانظـري في غضـونه صرخـة اليـأس وأشـــباح غـــابر لا مـــن شـــبابه
لهفـــة تسرـــق الخطـــى بـــين جفنيـــه وحلـــم يمـــوت في أهدابـــه

***

واسـمعيه إذا اشـتكى سـاعة البـين ، وخـــاف الرحيـــل - يـــوم اللقـــاء
واحجبي ناظريـه ، في صـدرك المعطار وعـــن ذلـــك الرصـــيف المضـــاء
عـــن شراع يـــراه في الـــوهم ينســـاب ومـــــوج يحســـــه في المســـــاء
الـــوداع الحـــزين !! شـــدى ذراعيـــك عليـــه .. عـــلى الأســـى والشـــقاء

***

حـــدثي .. حدثيـــه عـــن ذلـــك الكـــوخ .. وراء النخيـــل .. بـــين الـــروابي
حلـــم أيامـــه الطـــوال الكئيبـــات فـــلا تحرميـــه حلـــم الشـــباب
أوهميـــه بأنـــه ســـوف يلقـــاك عـــلى النهـــر .. تحـــت ســـتر الضـــباب
وأضـيئي الشـموع في ذلـك الكـوخ .. وإن كـــان كلـــه مـــن سراب

***

كلــما ضـــج شـــاكيًا ، في ذراعيـــك ، انتهـــاء الهـــوى صرخـــت انتهـــارا
فـــارتمي .. أيـــن يرتمـــي صـــدره الجـــ ـــاش حزنًـــا وحـــيرة وانتظـــارا؟
اغضـــبي . وادفعيـــه عـــن صـــدرك القـاسي . وأرخـي عـلى هـواه السـتارا
أوصـــدي البـــاب خلفـــه .. واتركيـــه مـثلما كـان .. للـدجى والصـحارى !

8/ 4/ 1948

***

عبير

عطــرت أحلامــي بهــذا الشــذى   مــن شــعرك المسترســل الأســود
الجــو مــن حــولي ، ربيــع حبــا   مــن خــدره النــائي إلى الموعــد
هـــذا عبـــير الحـــب فجرتـــه   يبحــث عــن مجــرى لــه في غــد
نبـــع أثـــيري الخطـــى ، حـــالم   بالظلـــة الخضرـــاء والمســـند
والعاشـــق الســكران يحصيـــ عـــلى   ثغــرك مــا في الليــل مــن فرقــد
أوقـــدت مصـــباح الهـــوى بعـــدما   خبـــا ؛ ولـــولا أنـــت لم يوقـــد
هبـــت عليـــه الـــريح مجنونـــة   محلولــة الشــعر ؛ خضــيب اليــد
الزيــت مــن هــذا الشــذى واللظــى   مـــن قبلـــة في الغيـــب لم تولـــد
تطفـــو عـــلى العطـــر خيـــالاً فـــلا   ترســـب إلا في الفـــؤاد الصـــدى

***

أهـــم أن أهتـــف : أنـــت التـــي   مثلتهـــا في أمسيـــ الأبعـــد
وأنـــت مـــن تحلـــم روحـــي بهـــا   عـــلى ضـــفاف الـــزمن المزبـــد
تســـائل المـــوج وتـــومي إلى   كـــل شراع علهـــا تهتـــدي
أهـــم أن أهتـــف لـــولا خطـــى   عـــابرة في الخـــاطر المجهـــد
أطيـــاف حســـناواتي اســـتيقظت   هاتفـــة : يـــا ذكريـــات اشـــهدي
مـــا نـــال منـــا غـــير أســـمائنا   تســـخر مـــن آمالـــه الشرـــد
مكتوبـــة بالنـــار ، في شـــعره   كالصـــورة الخرســـاء في معبـــد

1947/12/10

***

عينان زرقاوان

عينــان زرقــاوان .. يــنعس فــيهما لــونُ الغــدير
أرنــو .. فينســاب الخيــالُ وينصــتُ القلــب الكســير
وأغيــبُ في نغــم يــذوب .. وفي غمائــم مــن عبــير
بيضــاء مِكســال التلــوّي تســتفيق عــلى خريــر
نــاءٍ .. يمــوت وقــد تثــاءب كوكــب الليــل الأخــير
يمضيــ عــلى مهــلٍ ، وأســمع همســتين .. وأســتدير
فــأذوب في عينــين يــنعس فــيهما لــون الغــدير

***

حســناء .. يــا ظــلّ الربيــع ، مللــن أشــباح الشــتاء
ســودًا تُطــلّ مــن النوافــذ كلــما عــبس المســاء
حســناء .. مــا جــدوى شــبابي إن تقضيــ بالشــقاء
عينــاك .. يــا للكــوكبين الحــالمين بــلا انتهــاء .
لولاهمــا مــا كنــتُ أعلــم أن أضــواء الرجــاء
زرقــاء ســاجية .. وأن النــور مــن صــنع النســاء
هــي نظــرة مــن مقلتيــك ؛ وبمســة تعــد اللقــاء
ويضيــء يــومي عــن غــدي ؛ وتفــر أشــباح الشــتاء

***

عينـاك .. أم غـاب ينـام عـلى وسـائد مـن ظـلال ؟
سـاجٍ تلـثم بالسـكون فـلا حفيـف ولا أنثيـال
إلا صـدى واه يسـيل عـلى قيـاثر في الخيـال
إني أحـس الـذكريات يلفهـا ظـل ابتهـال
في مقلتيـك مـدى تـذوب عليـه أحـلام طـوال
وغفـا الزمـان .. فـلا صبـاح ، ولا مسـاء ، ولا زوال !
إني أضـيع مـع الضـباب .. سـوى بقايـا مـن سـؤال
عينـاك .. أم غـاب ينـام عـلى وسـائد مـن ظـلال

1948/1/6

في ليالى الخريف

في ليالي الخريف الحزين ،

حين يطغى علي الحنين

كالضباب الثقيل

في زوايا الطريق

في زوايا الطريق الطويل ؛

حين أخلو وهذا السكون العميق

توقد الذكريات

بابتساماتك الشاحبات ،

كل أضواء ذاك الطريق البعيد

حيث كان اللقاء

في سكون المساء

هل يعود الهوى من جديد ؟

عاهديني إذا عاد .. يا للعذاب !

عاهديني .. ومرت بقايا رياح

بالوريقات ؛ في حيرة واكتئاب

ثم تهوى حيال السراج الحزين

انتهينا .. أما تذكرين؟

انتهينا .. وجاء الصباح

يسكب النور فوق ارتخاء الشفاه

وانحلال العناق الطويل ،

أين آلام يوم الرحيل ؟

أين لا « لست أنساك » واحسرتاه؟

في ليالي الخريف

حين أصغي ، ولا شيء غير الحفيف

ناحلاً كانتحاب السجين

خاف أن يوقظ النائمين

فانتحى في الظلام

يرقب الأنجم النائيات

حجبتها بقايا غمام

فاستبدت به الذكريات

الغناء البعيد البعيد

في ليالي الحصاد

أوجه النسوة الجائعات ..

ثم يعلو رنين الحديد

يسلب البائس الرقاد !

في ليالي الخريف

حين أصغي وقد مات حتى الحفيف

والهواء

تعزف الأمسيات البعاد

في اكتئاب يشير البكاء

شهرزاد [97]

في خيالي فيطغى عليّ الحنين ؛

أين كنا؟ أما تذكرين؟

أين كنا ؟! أما تذكرين المساء ؟!

(97) قطعة موسيقية ، للموسيقار الروسي ريمسكي كورساكوف أُخذ مقطع منها للمسلسل الإذاعي الشعري «ألف ليلة وليلة» .

في ليالي الخريف الطوال ؛

آه لو تعلمين

كيف يطغى عليّ الأسى والملال ؟!

في ضلوعي ظلام القبور السجين ،

في ضلوعي يصبح الردى

بالتراب الذي كان أمي : « غدا »

سوف يأتي . فلا تقلقي بالنحيب

عالم الموت حيث السكون الرهيب !

سوف أمضي كما جئت واحسرتاه !

سوف مضي .. وما زال تحت السماء

مستبدون يستنزفون الدماء ،

سوف أمضي وتبقى عيون الطغاة

تستمد البريق

من جذى كل بيت حريق

والتماع الحراب

في الصحاري ، ومن أعين الجائعين ،

سوف أمضي .. وتبقى فيا للعذاب !

سوف تحيين بعدي ، وتستمتعين

بالهوى من جديد ،

سوف أنسى وتنسين إلاّ صدى

من نشيد

في شفاه الضحايا - وإلا الردى

17/ 9/ 1948

أغنية قديمة

في المقهى المزدحم النائي ، في ذات مساء ،

وعيوني تنظر في تعب ،

في الأوجه ، والأيدي ، والأرجل ، والخشب :

والساعة تهزأ بالصخب

وتدق - سمعت ظلال غناء

أشباح غناء ..

تتنهد في الحاني ، وتدور كإعصار

بال مصدور ،

يتنفس في كهف هار

في الظلمة منذ عصور !

***

أغنية حب .. أصداء

تنأى .. وتذوب .. وترتجف

كشراع ناء يجلو صورته الماء

في نصف الليل .. لدى شاطئ إحدى الجزر ،

وأنا أصغي .. وفؤادي يعصره الأسف :

لم يسقط ظل يد القدر

بين القلبين ؟! لم أنتزع الزمن القاسي

من بين يدي وأنفاسي ،

يمناك ؟! وكيف تركتك تبتعدين .. كما

تتلاشى الغنوة في سمعي .. نغما .. نغما ؟!

***

آه ما أقدم هذا التسجيل[98] الباكي

والصوت القديم ؛

الصوت قديم

ما زال يولول في الحاكي

الصوت هنا باق ؛ أما « ذات » الصوت :

القلب الذائب إنشادًا

والوجه الساهم كالأحلام ، فقد عادا

شبحًا في مملكة الموت ـ

لا شيء ـ هنالك في العدم

وأنا أصغي .. وغدًا سأنام عن النغم !

أصغيت .. فمثل إصغائي

لي وجه مغنية كالزهرة حسناء

يتماوج في نبرات الغنوة ، كالظل

---

(98) الأسطوانة .

في نهر تقلقه الأنسام

في آخر ساعات الليل ،

يصحو .. وينام

أأثور ؟! أأصرخ بالأيام ! وهل يجدي ؟!

إنا سنموت

وسننسى ، في قاع اللحد ؟

حبًا يحيا معنا .. ويموت !

***

ذرات غبار

تهتز وترقص ، في سأم ،

في الجو الجائش بالنغم ،

ذرات غبار !

الحسناء المعشوقة مثل العشاق

ذرات غبار !

كم جاء على الموتى - والصوت هنا باق -

ليل .. نهار !!

هل ضاقت ، مثلي ، بالزمن

تقويمًا خط على كفن ،

ذرات غبار ؟!؟

20/ 7/ 1948

***

ستار

عينـاك ، والنـور الضـئيل مـن الشـموع الخابيـات
والكـأس ، والليـل المطـل ، مـن النوافـذ ، بـالنجوم ؛
يبحـثن في عينـيّ عـن قلـب .. وعـن حُـبٍّ قـديم ؛
عـن حـاضرٍ خـاوٍ ، ومـاضٍ في ضـباب الـذكريات
ينـأى ، ويصـغر ، ثـم يفنـى إنـه الصَّـمتُ العميـق
والبـاب توصـده وراءك في الظـلام يـدا صـديق !

***

كالشـاطئ المهجـور قلبـي ، لا ومـيض ولا شراع ،
في ليلـة ظلـماء بـل فضـاعها المطـرُ الثقيـل
لا صرخـةُ الملقيـا تُطيـف بـه ولا صـمتُ الرحيـل
يمنـاك والنـورُ الضـئيل .. أكـان ذاك هـو الـوداع ؟!
بـاب ، وظـل يـدين تقترفـان - هـوى السـتار ،
ووقفتُ أنظر ، في الظلام ، وسرت أنت إلى النهار !

***

في ناظريـكِ الحـالمين رأيـتُ أشـباحَ الـدموع
أنـأى مـن الـنجم البعيـد ، تمـر في ضـوء الشـموع
واليأسُ مدّ على شفاهك ، وهـي تهمس في اكتئاب
ظـلاً - كـما تلقـي جيـال نائيـات مـن جليـد
أطيـافهن عـلى غـدير تحـت أسـتار الضـباب
لا تسـألي : مـاذا تريـد؟ فلسـتُ أملـك مـا أريـد !

***

بــاب وظــلٍّ يــدين تفترقــان ليتــك تعلمــين
أن الشــموع ســينطفين ، وأن أمطــار الشــتاء
بيني وبينك سوف تهوى كالستار .. فتصرخين ،
الـريحُ تُعـولُ عنـد بـابي ، لسـت أسـمعُ مـن نـداء
إلا بقايــا مــن حــديث رددتــه الــذكريات
وســنان هــوّم كالسـحابة في خيـالي .. ثـم مـات !

***

أنا سوف أمضي ، سوف أنأى ، سوف يصبح كالجماد
قلـب قضـيت الليـل باحثـة ، عـلى الضـوء الضـئيل ،
عـن ظلـه في مقلتـيَّ .. فـما رأيـتِ سـوى رمـاد !!
أنـا سـوف أمضي- ربـما أنسـى ، إذا سـال الأصـيل
بالصـمت ، أنـك في انتظـاري تـرقبين .. وتـرقبين ؛
أو ربـما طافـت بي الـذكرى .. فلـم تـذك الحنـين

***

الــزورق النــائي ، وأنــات المجــاديف .. الطــوال
تـدنو عـلى مهـل .. وتـدنو - في انخفـاض وارتفـاع ،
حتــى إذا امتــدت يــداك إليّ في شــبه ابتهــال
وهمست : « ها هو ذا يعود ! » - رجعت فارغة الذّراع
وأفقت في الظلماء حيرى ، ولا ترين سوى النجوم
ترنـو إليـك مـن النوافـذ في وجـومٍ .. في وجـوم !

-7-

قــد لا أؤوب إليــك إلا في الخيــال ، وقــد أؤوب
لا أمــس في قلبــي ، ولا في مقلتــي هــوى قــديم
كفــان ترتجفــان حــول الموقــد الخــابي .. وكــوب
تــتراقص الأشــباح فيــه .. وتنظــرين إلى النجــوم
حذر البكاء .. و« كيف أنتِ؟ » تهز قلبك في ارتخاء
عاد الشتاء .. فتهمسين : « وسوف يرجع في الشتاء »

1948 /10 /8

***

سجين

ذراعا أبي تُلقيان الظلالَ   على روحي المستهام الغريب
ذراعا أبي والسراجَ الحزين   يطاردنني في ارتعاش رتيب
وحفت أبي والسراجَ الحزين   حيارى . فيا للجدار الرهيب !
ذراعا أبي تُلقيان الظلالَ   على روحي المستهام الغريب

***

وطال انتظاري .. كأن الزمان   تلاشى فلم يبقَ إلا الانتظار!
وعيناي ملُ الشمال البعيد   فيا ليتني أستطيع الفرار
وأنتِ التقاء الثرى بالسماء   على الآل ؛ في نائيات القفار
وطال انتظاري كأن الزمان   تلاشى فلم يبقَ إلا الانتظار !

***

أألقاك؟ تأتي عليّ النجوم   وتمضي .. وما غيرُ هذا السؤال
تغنيه في مسمعي الرياح   وتُلقيه في ناظري الظلال
وترنو على جرسه الأمنيات   إلى ذكريات الهوى في ابنتها
أألقاك؟ تأتي عليّ النجوم   وتمضي ، وما غيرُ هذا السؤال

***

أصيخي ! أما تسمعين الرنين   تدوِّي به الساعة القاسية ؟؟
أصيخي .. فهذا صليل القيود   وقهقهة الموت في الهاوية !
زمان .. زمان يهز النداءُ   فؤادي .. فأدعوك ؛ يا نائية
أصيخي ! أما تسمعين الرنين   تدوي به الساعة القاسية ؟!

أما تبصرين الدخان الثقيل   يجرُّ الخطى من فم الموقد ؟!
تلوي .. فأبصرت فيه الظهور   وقد قوستها عصا السيد
وأبصرت فيه الحجاب الكثيف   على جبهة العالم المجهد
أما تبصرين الدخان الثقيل   يجرُّ الخطى من فم الموقد ؟!

***

ولابد من ساعة .. من مكان   لروحين ما زالتا في ارتقاب !
سألقاك .. أين الزمان الثقيل   إذا ما التقينا ؛ وأين العذاب ؟!
سينهار على مقلتيك الجدار   وتفنى ذراعا أبي كالضباب

ولابــد مــن ســاعة مــن مكــان لــروحين مــا زالتــا في ارتقــاب !

***

وكيــف التلاقــي ، وبــين المنــى وإدراكهــن ؛ الــدخان الثقيــل ؟
تمــوج الأســاطير في جانبيــه ويحيــو عــلى صــدره المســتحيل
ونحــن الغريقــان في لجــه سننســى الهــوى فيــه .. عــما قليــل ؟
وكيــف التلاقــي ، وبــين المنــى وإدراكهــن ، الــدخان الثقيــل ؟

***

لينهــد هــذا الجــدار الرهيــب وتنــدك حتــى ذراعــا أبي !!
أحاطــت بي الأعــين الجائعــات مرايــا مــن النــار في غيهــب
إذا اســتطعت مهربًــا مقلتــاي تصــدى خيــالان في مهــربي
فأبصرــت ظلــين لي في الجــدار أو اســتوقفتني ذراعــا أبي

***

ســأبقى وراء الجــدار البغــيض وعينــاي لا تبرحــان الطريــق
أعــد الليــالي خــلال الكــرى وأرعــى نجــوم الظــلام العميــق
فــلا تيــأسي أن تمــر الســنون ويطفــين في وجنتيــك البريــق
ســأبقى وراء الجــدار القــديم وعينــان لا تبرحــان الطريــق

27/ 7/ 1947

***

ذكرى لقاء

قـد انتصـف الليـل ، فـاطو الكتـاب عـــن الـــريح والشـــمعة الخابيـــة
فعينــــاك لا تقـــرآن الســـطور ولكنهـــا الطلـــة الواهيـــة
فأنـــت تـــرى مقلتيهـــا هنـــاك وذكـــرى مـــن الليلـــة الماضـــية
فتطـــوي عـــلى ركبتيـــك الكتـــاب وترنـــــو إلى الأنجـــم النائيـــة

هنـــا أنـــت بـــين الضـــياء الضـــئيل وبـــين الـــدجى في القضـــاء الرحيـــب
وكـــم مـــن مصـــابيح تفنـــى هنـــاك تثـــير الثـــرى والفـــراغ الرهيـــب

مصـــابيح كانـــت تـــذوب
وتنحـــــل في شـــــعرها :
خطانـــا ، ولـــون الغـــروب
ومـــا ضـــاع مـــن عطرهـــا

وتُلقـــي عـــلى ذكريـــات الشـــتاء ســـتارًا مـــن الأدمـــع الراجفـــة
فتخيـــو مصـــابيحهن البعـــاد بطيئًـــا .. كـــما تـــبرد العاطفـــة
كـــما افترقـــت ، يـــوم حـــان الرحيـــل يـــد صـــافحها يـــد واجفـــة
كرجـــع الخطـــى في الطريـــق البعيـــد كـــما انخلـــت الرغبـــة الخائفـــة

وتصـــغي ولا شيء إلا الســـكون وإلا خطـــى الحـــارس المتعـــب
وإلا ارتعـــاش الضـــياء الضـــئيل وخفـــق الظـــلال عـــلى المكتـــب

وأســـــفارك الباليـــــة

كأشـــباح مـــوتى تســـير

حيــــارى إلى الهاويــــة

- وحلـــم ادكـــار قصـــير -

وتنســـاب مثـــل الشـــراع الكئيـــب وراء الـــدجى ، روحـــك الشـــاردة

تـــرى وجههـــا كـــالتماع النجـــوم وتطويـــه عنـــك اليـــد المـــاردة

إلى أن يـــذوب الضـــباب الثقيـــل وتنهـــــار ألوانـــــه الجامــــدة

فهـــا أنـــت ذا تســـتعيد اللقـــاء كـــما عـــادت الجثـــة البـــاردة

وتمتـــد يمنـــاك نحـــو الكتـــاب كمـــن ينشُـــد الســـلوة الضـــائعة

فتبكـــي مـــع العبقـــري المـــريض وقـــد خاطـــب النجمـــة الســـاطعة [99]

تمنيـــــت يــــــا كوكــــب

ثباتًـــــا كهـــــذا أنـــــام

عـــلى صـــدرها في الظـــلام

وافنـــــي كـــــما تغــــرب

ويَغشـــى رؤاك الضـــياء القـــديم بطيئًـــا .. كـــما ســـارت القافلـــة

تـــرى البـــاب مثـــل انعكـــاس المغيـــب عـــلى صـــفحة الجـــدول الناحلـــة

ويغشـــى رؤاك الضـــياء القـــديم ينـــير لـــك الغرفـــة الآفلـــة

ويغشـــى رؤاك الضـــياء القـــديم فيـــا لانتفاضـــتك الهائلـــه !

---

(99) يقصد بالعبقري المريض : الشاعر الإنكليزي «جون كيتس» (1795-1821)من أكبر شعراء إنجلترا الرومانسيين ، تأثر بأساطير القرون الوسطى ، يجمع أسلوبه بين الجمال الفني والحسي . من رأيه أن رسالة الفنان تخليد لخطاب الجمال في شعره. مات بمرض السل في الخامسة والعشرين من عمره .

تـــرى البـــاب ألقـــى عليــه الأصــيل ظـــــلالاً مـــــن الكرمــــة العاريــــة
فــــما كـــان غــــير اعتنـــاق طويــــل عصرــــــنا بـــــه القــــوة الباقيــــة

وألقيــــتُ عــــبء الســــنين
ورأسي ، عـــــلى صــــــدرها
فشـــــدت عليــــه اليمـــــين
وأدنتــــه مـــــن ثغرهـــــا ..

وأيقنـــــت أن الحيــــاة ؛ الحيــــاة - بغـــير الهـــوى - قصـــة فـــاترة
وأني بغــــــير التـــــي ألهبـــــت خيـــــالي بأنفاســــها العــــاطرة
شريـــد يشـــق ازدحـــام الرجـــال وتخنقــــه الأعــــين الســـــاخرة

***

ملاك

لـيلان غامـا ، بـالنجوم الآفـلات عـلى سُـهادي
يومـان لا وعـد ولا لقيـا وتخفـق يـا فـؤادي ؟!
وغـدًا سـيمتلئ انتظـاري بـالظلام ولا أراهـا
وتجـول عينـي في الطريـق وتسـتقر عـلى كتـابي
وأكيـل بالأقـداح سـاعاتي وأسـخر باكتئـابي
وأنـام أحلـم بالشـتاء وأسـتفيق عـلى هواهـا

***

سـأم .. ومصـباح وحيـد ران في أقصى الطريـق
مـرت وجـوه العـابرين بـه .. فلوّنهـا قلـيلاً
مرّت .. وغابت في الظلام ، ولـيس يـبرح في حريـق
سـأم .. ونافـذة يطيـل فضـاؤها الـدرب الطـويلا
سـأم ومـرآة تثـاءب في قراراتهـا الوجـوم
الغرفـة الجوفـاء والأقـداح والبـاب القـديم

***

بالأمس كان هوى وكان .. وكـان - ويـح الـذكريات
« وافرحتـاه .. أتصـدقين ؟» وقادنـا نجـم المسـاء
في ذلـك الـدرب البعيـد وألـف نجـوى واشـتكاء
تخبـو وتنـأى ؛ والعنـاق يعـد أضـواء الطريـق

بالأمس كان هوى وكان - وخيم الصمت العميق

دب الملال إلى فؤادك مثل أوراق الخريف
« أهواك؟ » ماذا تهمسين؟ أتلك حشرجة الحفيف
في دوحة صفراء يقلق ظلها روح الشتاء ؟!
لا تنظري !! في مقلتيك سحابتان من الجليد
تتألقان ولا لهيب .. وتزحفان ولا فضاء
فلّ العناق على الجفون وحطم الدرب البعيد !

3/ 5/ 1948

***

نهاية

« سأهواك حتى تجف الأدمع في عيني وتنهار أضلعي الواهية .. » « هي » .

أضيئي لغيري فكل الدروب

سواء على المقلة الشاردة ،

سأمضي إلى مجهل لا أؤوب

فإن عادت الجثة البارده ،

فألقي على الأعين الخاويات

طيب السماء .

لعل الرؤى الخابيات ،

إذا مس أطرافهن الضياء ؛

يخبرن عن ذلك المجهل :

عن الريح .. والغاب .. والجدول

أضيئي لها يا نجوم !

***

« سأهواك حتى .. » نداء بعيد

تلاشت ؛ على قهقهات الزمان

بقاياه .. في ظلمة .. في مكان ،

وظل الصدى في خيالي يعيد :

« سأهواك حتى سأهوى » نواح

كما اعولت في الظلام الرياح ،

« سأهواك حتى .. ســ .. » يا للصدى

أصيخي إلى الساعة النائية :

« سأهواك حتى .. » بقايا رنين

تحدين دقاتها العاتية ،

تحدين حتى الغدا ،

« سأهواك » ما أكذب العاشقين !

« سأهوا ... » – نعم .. تصدقين .

***

ظلام .. وتحت الظلام المخيف

ذراعان تستقبلان الفضاء

أبعد اصفرار الخريف

تريدين ألا يجيء الشتاء ؟

لقاء وأين الهوى يا لقاء ؟!

عويل من القرية النائية ،

وشيخ ينادي فتاة الغريق ،

بهذا الطريق .. وذلك الطريق ،

ويمشي إلى الضفة الخالية

يسائل عنه المياه ،

ويصرخ بالنهر .. يدعو فتاه ،

ومصباحه الشاحب

يغني « سدى » زيته الناضب

« محال يراه ! »

ويحنو على الصفحة القاتمة

يحدق في لهفة عارمة ،

فما صادفت مقلتاه

سوى وجهه المكفهر الحزين

ترجرجه رعشة في المياه

تغمغم « لا لن تراه »

***

أحقًا نسيتِ اللقاء الأخير؟

أحقًا نسيتِ اللقاء ..؟

أكان الهوى حلم صيف قصير

خبا في جليد الشتاء ؟

خبا في جليد

وظل الصدى في خيالي يعيد :

« خبا في جليد .. خبا في جليد ـ »

ويارب حلم يهيل الزمان

عليه الرؤى والسنين الثقال

فتمضي ويبقى شحوب الهلال

يلون بالأرجوان

شحوب النجوم وصمت القمر ،

ويومض في كل حلم جديد .

شحوب الهلال وظل الشجر

وطيف الشراع البعيد ؟

26/ 5/ 1948

***

في القرية الظلماء

الكوكب الوسنان يطفئ ناره خلف التلال ،

والجدول الهدار يسبره الظلام

إلا وميضًا لا يزال

يطفو ويرسب .. مثل عين لا تنام ،

ألقى به النجم البعيد

يا قلب .. ما لك ، لست تهدأ ساعة ؟ ماذا تريد ؟

النجم غاب وسوف يشرق من جديد ، بعد حين ،

والجدول الهدار .. هينم ثم نام ،

أما الغرام ـ دع التشوق يا فؤادي والحنين !

***

أأظل أذكرها .. وتنساني ؟

وأبيت في شبه احتضار ؛ وهي تنعم بالرقاد ؟

شعت عيون حبيبها الثاني

في ناظريها المسبلين على الرؤى ـ أما فؤادي

فيظل يهمس ، في ضلوعي ،

باسم التي خانت هواي .. ويظل يهمس في خشوع

إني سأغفو .. بعد حين سوف أحلم في البحار :

هاتيك أضواء المرافئ وهي تلمع من بعيد

تلك المرافئ في انتظار

تتحرق الأضواء فيها .. مثل أصداء تبيد

***

القرية الظلماء خاوية المعابر والدروب ،

تتجاوب الأصداء فيها مثل أيام الخريف

جوفاء .. في بطء تذوب ،

واستيقظ الموتى .. هناك على التلال ، على التلال

الريح تعول في الحقول . وينصتون إلى الحفيف .

يتطلعون إلى الهلال

في آخر الليل الثقيل .. ويرجعون إلى القبور

يتساءلون متى النشور !!

والآن تقرع في المدينة ساعة البرج الوحيد

لكنني في القرية الظلماء .. في الغاب البعيد

***

دعها تحب سواي : تقضي في ذراعيه النهار

وتراه في الأحلام يعبس أو يحدث عن هواء ،

فغدًا سيهوى ساعداه

مثل الجليد ، على خطوط باهتات ، في إطار ؛

وعلى الرفوف الشاحبات رسائل

عادت تلف ، على نسيج العنكبوت ؛ بها الوعود

والريح تهمس ، لن يعود ،

ويلون المرآة ظلٌّ من سراج ، ذابل

وحيأله امرأة تحدق في كتاب ..

بال ، وتبسم في اكتئاب ..

***

الكوكب الوسنان يطفئ ناره خلف التلال

والجدول الهدار يسبره الظلام

إلا وميضًا ، لا يزال

يطفو ويرسب مثل عين لا تنام ؛

ألقى به النجم البعيد

يا قلب ؛ مالك في اكتئاب لست تعرف ما تريد ؟!

20/ 6/ 1948

***

لقاء ولقاء

لستِ أنت التي بها تحلم الروح ، ولست التي أغني هواها
كان حب يشد ، حولي ، ذراعيك ، ويدني من الشفاه الشفاها
واشتياق كأنما يسرق الروح - فما العيون إلا صداها !
وانتهينا ، فقلت « إني سأنساها » وغمغمت « سوف ألقى سواها

***

أمس طال اللقاء ؛ حتى تثاءبتِ ، وشاهدتُ في يديك الملالا ،
في ارتخاء النسيج تطويه يمناك وعيناك ترمقان الشمالا ،
في الغياب الطويل ، والمقعد المهجور ترمي يدي عليه الظلالا
في الشفاه والبطاء تدنو من الكوب .. وترتد ثم تلقي سؤالا

***

التقينا - أهكذا يلتقي العشاق؟ أم نحن وحدنا البائسان ؟
لا ذراعان في انتظاري على الباب ، ولا خافق يعد الثواني
في انتظاري ؛ ولا فم يعصر الأزمان في قبلة ، ولا مقلتان
تسرقان الطريق والدمع من عينيَّ ؛ والداء والأسى من كياني

***

قد سئمت اللقاء في غرفة أغضى على بابها اكتئاب الغروب
الضياء الكسول ، والمزهريات تراءى بهن خفق اللهيب
كالجناح الثقيل في دوحة صفراء في ضفة الغدير الكئيب

***

واحتشاد الوجوه مثل التماثيل احتواهن معبد مهجور ،
سمرت قبلة التلاقي على ثغري .. فعادت كما يطل الأسير
من كوى سجنه إلى بيته النائي - كما يخفق الجناح الكسير
للغدير البعيد - كالموجة الزرقاء جاشت فحطمتها الصخور !

عـزَّ حتـى الحـديث بـين الأحاديـث ، وحتـى التقاؤنـا بـالعيون ،
في فـؤادي الشـقي مثـل الأعاصـير ، وفي سـادعي مثـل الجنـون
التقينـا ؟ أكـان شـوقي للقيـاك اشـتياقًا إلى الضـياء الحـزين
واحتشاد الوجوه في الغرفة الجوفاء ؛ والشـاي ، والخطى ، واللحـون

***

الخطـي واللحـون ؛ مـن فجـوة البـاب تسـللن والضـياء الضـئيلا
والأزاهـير تشرب النـور في بـطء ويعكسـه ابتسـامًا ذلـيلاً
كابتسـاماتي الحيـارى وإطراقـي بـرأسي وقـد ذكـرت الحقـولا
والغنـاء الطـروب ، والمعبر المغمـور بـالنور والشـذى ؛ والنخـيلا

***

لسـتِ أنـت التـي بهـا تحلـم الـروح - ولكنـه الغـرام المضـاع
الخطى العابرات في النور والأنـداء ، والشـط والضـحى والشراع
التقينـا : يـد تُمَـدّ إلى أخـرى ، وللنـور في الشـفاه الـتماع
تـرقص القبلـة المرجـاة فيـه - ثـم يـدنو فـمٌ وتطـوي ذراع

***

لسـتِ أنـت التـي بهـا تحلـم الـروح - ولكنـه انتظـار اللقـاء
انتظـار التـي تحلـم بهـا الـروح إذا لفهـا اكتئـاب المسـاء
واسـتبد الحنـين ، وانثالـت الأصـداء مـن كـل ضـفة قمـر ،
لا تراهـا العيـون ؛ في عـالم نـاءٍ ، ومـن كـل بـاب كـوخ مضـاء

***

إنها الآن في انتظاري ؛ تحيل الطرف حيرى ، على امتداد الطريـق ،
والمسـاء الكئيـب قـد هـاج بالأعـداء تنسـاب مـن مكـان سـحيق :
« اتبعينـا .. فـإن في الشـاطئ النـائي شراعًـا يهـيم بالتصـفيق
والحبيـب المجهـول نـاداك ؛ وامتـدت ذراعـاه في انتظـار عميـق »

1948/12/14

هل كان حبًا

هل تُسمين الذي ألقى هيامًا ؟

أم جنونًا بالأماني؟ أم غرامًا ؟

ما يكون الحبُّ ؟ نَوْحًا وابتساما ؟

أم خفوقَ الأضلع الحرَّى ، إذا حان التلاقي

بين عَينينا ، فأطرقتُ ، فرارًا باشتياقي

عن سماء ليس تسقيني ، إذا ما ؟

جئتها مستسقيًا ، إلا أواما

***

العيون الحور ، لو أصبحنَ ظِلاً في شرابي

جفت الأقداحُ في أيدي صحابي

دون أن يَحظَينَ حتى بالحباب

هيئي ، يا كأس ، من حافاتك السكرى ، مكانا

تتلاقى فيه ، يومًا ، شفتانا

في خفوق والتهاب

وابتعاد شاعَ في آفاقه ظلُّ اقتراب

***

كم تمنى قلبيَ المكلومُ لوْ لم تستجيبي

من بعيدٍ للهوى ، أو من قريب ؛

آه لو لم تعرفي ، قبل التلاقي ، من حبيب !

أيُّ ثغرٍ مسّ هاتيك الشِّفاها

ساكبًا شكواهُ آهًا .. ثم آهًا ؟

غير أني جاهل معنى سؤالي عن هواها ؟

أهو شيءٌ من هواها يا هواها ؟

***

أحسدُ الضوء الطروبا

مُوشكًا ، مما يلاقي ، أن يذوبا

في رباط أوسع الشِّعرَ التثاما ،

السماء البكرُ من ألوانه آنًا ، وآنا

لا يُنيلُ الطرْفَ إلا أرجوانا

ليتَ قلبي لمحةٌ من ذلك الضوء السجين ؛

أهو حبٌّ كلُّ هذا ؟! خبريني

1946/11/29

***

الموعد الثالث

فـرّ النهـارُ مـن البيـوت النائيـات ، إلى السـحابِ
مـن شُرفـةٍ زرقـاء تحلـم بالكواكـب والضـبابِ
مـن مقلتـين عـلى الطريـق .. ومقلتـين عـلى كتـابِ
***

الــدربُ تحرقــه النوافــذ والنجــوم المُستسرــة
سـكرانُ تزحمـه الظـلالُ وتشرـب الأوهـام خمـره
هيهات ، لا تأتي . وتهمس « فيم تـأتي ؟ » شـبهُ فكـرة
***

قــد أذكرتنــي مقلتــاك رؤىً رســبنَ إلى الظــلام
زرقـاء تسـبح في ضـباب مـن شـحوبٍ وابتسـام
الليلــة القمــراء تــركض بــين أشــباح الغــمام
***

أفـق يـذوبُ عـلى الحنـين ، يكـاد يَغـرقُ في صـفائه
يطويـه ظـلٌّ مـن جنـاحٍ ، ضـاع فيـه صـدى غنائـه
أهــدابُكِ الســوداء تحملنــي ، فـأوُمِضُ في انطفائــه
***

مـن أنـت ؟! سـوف تمـرُّ أيـامي وأنسـجها سـتارا
هيهـات تُحرقـه شـفاهُكِ وهـي تسـتعر اسـتعارا
لا تلمســيه .. فأنـت ظِـلٌّ لـيس يختـرقُ القـرارا
***

مـات الفضـاءُ ، سـوى بقايـا مـن مصـابيح الطريـق
مبهـورة الأضـواء ، تنضـبُ في جـداول مـن بريـقِ
صـفراء تخنقهـا الظـلالُ عـلى فـم الليـل العميـق
***
فـيمَ انتظـاري كـالفراغ؟ وفـيم يأسـى كالرمـاد ؟
لن يسمع الدربُ الملول - وإن أصـاخ - سـوى فـؤادي
أما فؤادكِ .. ويح نفسي.! أيـن أنـت؟ ومـن أنـادي ؟
***

في أخريات الربيع

يــا ضــياء الحقــول ، يــا غنــوة الفــلاح في الســاجيات مــن أســحارهْ
أقــبلي ، فــالربيع مــا زال في الــوادي ، فــبلّي صــداك قبــل احتضــارهْ
لا تصــيبُ العيــونُ إلا بقايــاه ، وغــير الشرــود مــن آثــاره :
دوحــةٌ عنــد جــدول تــنفض الأفيــاء عنهــا وترتمــي في قــراره
وعــلى كــل ملعــبٍ زهــرةٌ غينــاء فــرَّت إليــه مــن أيــاره

***

في المســاء الكئيــب ، والمعــبرُ المهجــورُ ، والعابســاتُ مــن أحجــاره
مصــغياتٌ ، تكــاد مــن شــدّة الإصــغاء أن تــوهِمَ المــدى بانفجــاره
أرمــق الــدربَ ، كلــما هبّــت الــريحُ وحــفَ العتيــقُ مــن أشــجاره
كلــما أذهــل الربــى نــوحُ فــلاح يبــثُ النجــوم شــكوى نهــاره
صاحَ : « يا ليل » ، فاستفاق الصدى الغافي على السفح والـذي في جـواره
فــإذا كــلُّ ربــوةٍ رجَــعُ « يــا ليــل » .. ونــامَ الصــدى عــلى قيثــاره !
أيــن مــنهنَّ خفــقُ أقــدامك البيضــاء بــين الحشــيش فــوق اخضرــاره
مثــلَ نجمــين أفلتــا مــن مــدارين فجــال الضــياءُ في غــير داره
أو فراشــين أبيضــين اســتفاقا يسرــقان الرحيــق مــن خمــاره !!

***

أنــتِ في كــل ظلمــةٍ مَوعــدٌ وســنانُ ، مــا زال يومُــه في انتظــاره

***

ديوان شعر

« إلى مستعيرات ديوان شعري »

ديوانُ شعر ، ملؤه غزَلُ   بين العذارى بات ينتقلُ
أنفاسيَ الحرَّي تهيم على   صفحاته ، والحبُّ والأملِ
وستلتقي أنفاسُهنَّ بها   وترفُّ في جنباته القُبَلُ
ديوان شعر ملؤه غزل   بين العذارى بات ينتقل

***

لمّا يحين النَّوحَ والشكوى   كلَّ تقولُ : من التي يهوي ؟
وسترتمي نظراتهنَّ على الصَّفحات   بين سطوره ، نشوى
ولسوف ترتجُّ النهودُ أسىً   ويُثيرها ما فيه من نجوى
ولربَّما قرأته فاتنتي   فمضت تقول : من التي يهوى ؟

***

سيرين ما لاقيت في حبي   فيصحن يا للعاشق الصبِّ
ولقد تسيل دموعهن على   جنباته ، موصوله السكبِ
يا ليت قلبي من قصائده   لترى الحسان الغيد ما قلبي
سيرين ما لاقيت في حبي   فيصحن يا للعاشق الصبِّ

***

ديوان شعري ، رب عذراءٍ   أذكرتها بحبيبها النائي
فتحسستْ شفةٌ مُقبِّلةً   وشتيتَ أنفاسٍ وأصداءِ
فطوتُك فوق نهودها بيدٍ   واسترسلتْ في شبه إغفاء
ديوان شعري ، ربَّ عذراءِ   أذكرتها بحبيبها النائي

***

يــا ليتنـــي أصـــبحتُ ديـــواني لأفــــرَّ مــــن صَـــدر إلى ثــــانِ
قــد بــتٌّ مــن حَسَــدٍ أقــول لــه : يــا ليــت مــن تهــواك تهــواني
ألـــك الكـــؤوس ولي ثمالتهــــا ولــك الخلــود ، وإننــي فــانِ؟
يــا ليتنـــي أصـــبحتُ ديـــواني لأقــرَّ مـــن صـــدرٍ إلى ثـــانِ[100]

***

كــم غـــادة شـــاهدت مخـــدعها ومضـــيت شـــهر ليلهـــا معهـــا
قـــد هزّهـــا شـــوق لمعتســـف أمســـى هـــواه يســـيل أدمعهـــا
فمضـــت تـــذيع إليـــك قصـــتها وتبـــث همسًـــا فـــلّ أضـــلعها
كــم غـــادة شـــاهدت مخـــدعها ومضـــيت تســـهر ليلهـــا معهـــا

***

ســـتعيش بـــين النـــور والعطـــر وتفـــر مـــن صـــدر إلى صـــدر
فـــترى الثغـــور تعيـــد هامســـة مـــا فيـــك مـــن فـــتن ومـــن ســـحر
والنهـــد يرمـــي الظـــل فيـــك عـــلى روض الخيـــال ومـــرقص الشـــعر
ســـتعيش بـــين النـــور والعطـــر وتفـــر مـــن صـــدر إلى صـــدر

***

يســـمعن فيـــك أغـــاني الريـــف مـــــترنمًا بحســــانه الهيـــــف
المـــاء يشـــكو للجـــرار هـــوى والنخـــل في صـــمت وتعزيـــف
والليــــل والأنســــام عــــاطرة والـــزورق الغـــافي المجـــاديف
تلقـــى مســـامعها إلى الريـــف يشـــكو غـــرام حســـانه الهيـــف

***

ســـأبيتُ في نـــوْحٍ وتســـهيدِ وتبيـــتُ تحـــت وســـائد الغيـــد
أولســـتَ منّـــي ؟ إننـــي نكِـــدٌ مـــا بـــالُ حظِّـــك غـــيرَ منكـــودِ؟
زاحمـــــتَ قلبـــــي في محبتـــــه وخرجـــتَ منهـــا غـــيرَ معمـــود
أأبيـــــتُ في نـــــوحٍ وتســـــهيد وتبيـــتُ تحـــت وســـائد الغيـــد؟

***

(100) في رواية أخرى «أختال من صدر إلى ثان» .

ديـــوان شـــعر، ملـــؤه غـــزلٌ بـــين العـــذارى بـــات ينتقـــل
أنفـــاسي الحـــرى تهـــيم عـــلى صـــفحاته والحـــب والأمـــل
وســـــتلتقي أنفاســـــهن بهـــا وتخـــوم في جنباتـــــه القبـــل
ديـــوان شـــعر ملـــؤه غـــزل بـــين العـــذارى بـــات ينتقـــل

1944 /3 /26

***

نهر العذارى

يـا نهـر ، لـولا مُنحنـاكَ ومـا يُشـابك مـن فـروعِ
مـا كانـتِ البسـماتُ في عينـي تُطفـأ بالـدموعِ
***
حجَّبـتَ ، بالشـاو البعيـد تسـدُّ بابيـه الظِّـلالُ
وجهًـا تلاقـي في مُحيَّـاه الوداعـةُ والجـمالُ
***

مرآتـك الخضرـاء ، منـذ جَلَوْتها تحـت السـماءِ
مـا لاح فيهـا مثـلُ ذاك الوجـه .. في ذاك الصـفاء
***
إنْ أوقـدَ الليـلُ العميـقُ نجومـه في جانبيَـك
لّماحـةَ الأضـواءِ تغمـر بالأشـعَّة ضـفَتيك
***
حـدثت عنـه الـنجم والأهـات يقطعـن الخريـر
والـنجم يشـكو ، مـثلما تشـكو هـواك إلى الأثـير
***
ناشـدتَ ألحـاظَ الكواكـب وهـي تخـترقُ الظـلام
ألا يَـنَمنَ - وإن تشـهّينَ الكـرى - حتـى تنـام
***
« أنـتنَ أسـعدُ مـا أظـلّ الكـونُ يـا زهْـرَ النجـومِ
أنـتنّ أبصرـتنَّ ذاك الوَجْـه في الليـل البهـيم ! »
***

حتى إذا ما رنح النجمَ الأخيرَ سنا الصباحِ
فانقضَّ تحت القُبةِ الزرقاء ، مقصوص الجناحِ
وانساب في الوادي شتات الزارعين أو الرعاه
فالجو تنبض في نسائمه النديّة ألف آه

***

أصبحتُ فوق المعبر المهجور أرقبُ منحناك
فأبوح بالشكوى .. وتسكت عن شكاتي ضفتاك

***

يا نهر «جيكور» الجميل ومنتهى شكواك نور
لا الشمس مطفئة جواي ، ولا الكواكب والبدور

***

لا الصبح يوهن لاعجات الليل والوجد المثار
في مقلتيَّ ولا يهيض الليل أحقاد النهار

***

الفتنةُ السمراءُ تسرقها مياهُك بعد حينْ
الشَّعرَ ، والعينين والثغرَ المنضَّرَ والجبينْ

***

فإذا الهجيرة أطلقتها زُرْقةُ الأفقِ البعيدِ
فالظلَّ مقصوص الجناح يفرُّ من عودٍ لعودِ

***

والجوسق المستوحد المهجور في غاب النخيل
تأوى إليه الغادة السمراء لاهية الغليل

***

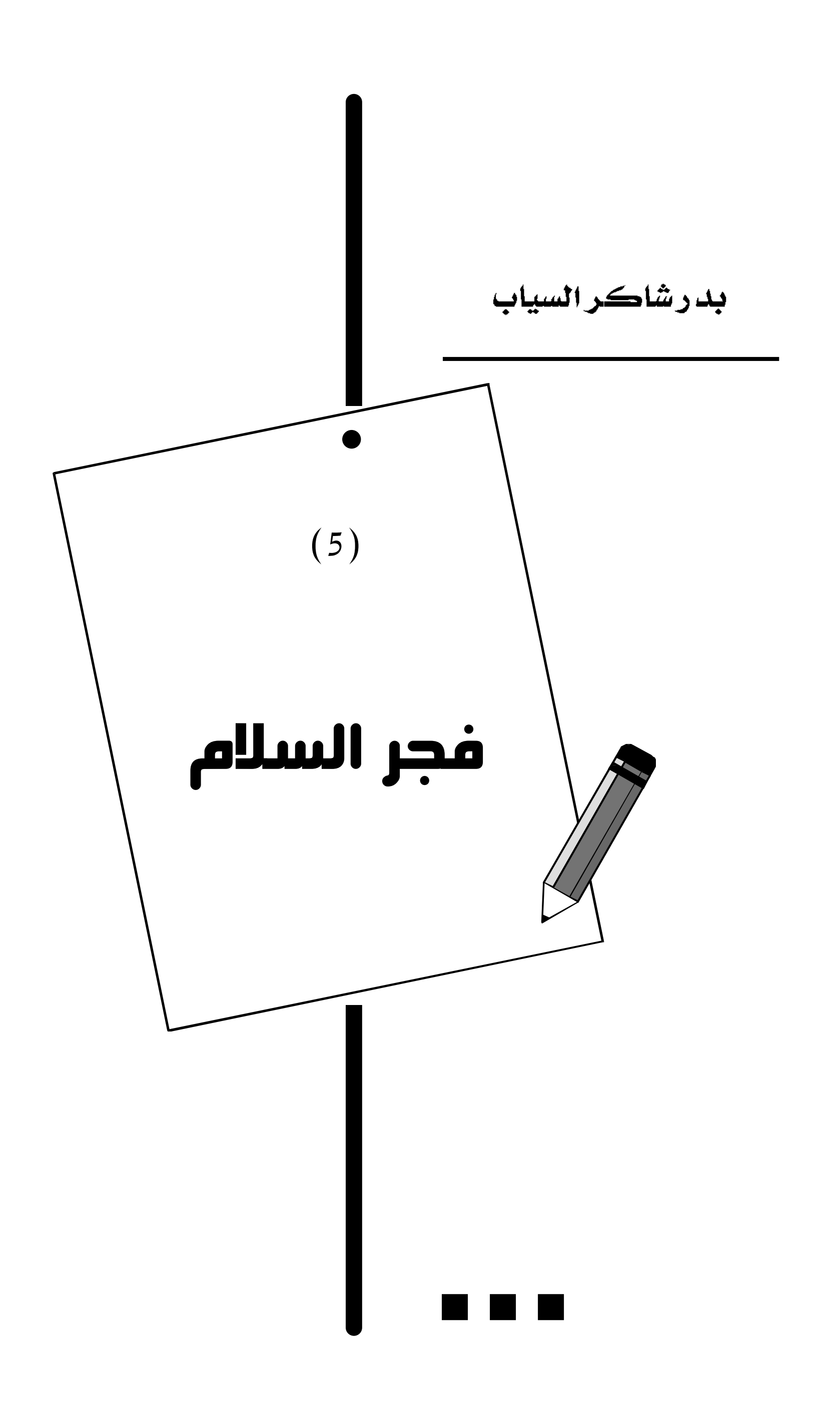
والدوحة اللغاء تحتبس البرودة في الظلال
مهد لأطفال الحقول ، وملعب رحب المحال

***

سـارت إليـكَ بطيئـة الخطـوات ذابلـة الشِّـفاه
جاءتـك ظمـأى ، بالبنـان الـرخص تغـترف الميـاه
***
كـم عُـدُتُ مخمـورَ الفـؤاد بموْعـد المـدّ القريـبِ
جــذلان أقــتحم الظهــيرةَ بــالتطلع والوثــوبِ
***
التوت فوق الشاطئ الغربي ، والسَّعفُ الصموتُ
لا يجهــلان تنهُّــداتي ، وهـــي بيـــنهما تمـــوت
***
والغـاب سـاعتي الحبيبـةُ مـن ظِـلالٍ عقرباهـا
كـــم أنبـــأني أن طـــرفي بعـــد حـــينٍ قـــد يراهـــا
***
واليـومُ يسـقي مـدُّك العـاتي أواخـرَ كـل جَـزرِ
لا ذاك يجلوهــا ، ولا هــذا بــما أرجــوه يجــري
واليـوم إن سـكر الخريـرُ وعـاد يحتضـنُ الجـرارا
لم القَ عذرائي .. فكيف الصَّبرُ يا نهر العـذارى ؟!

28/ 4/ 1946

بدر شاكر السياب



(5)

فجر السلام

فجر السلام

لا شهوة الموت في أعراق جزّارِ ... تقوى عليها ولا سيلٌ من النارِ

الموت أوهى يدًا من أن يشابكها ... وهي التي مدّت الموتى بأعمار

وهي التي لمت الأحقاب واعتصرت ... مما انطوى في دجاها فيض أنوار

ومسّت الصخر فاخضلّت جوانبه ... بالسنبل الغضِّ والريحان والنارِ

هذي اليد السمحة البيضاء كم مسحت ... جرحًا ، وكم أزهقت أنفاس جبار

وأطلقت في الدجى الأعمى حمامتها ... بيضاءَ كالمشعل الوهاج في غار

كأنها فجّرت ماء لظامئة ... أو أطلعت كوكبًا يأتمّه الساري

سل تاجر الموت كيف اصطك من فزع ... لما رآها ؟ وكم أودت بتجار

وسمّرت نعش طاغوت بها شرعت ... كفّاه من خنجر يدمي وأظفار

أما كفاه الذي امتصت على مَهَلٍ ... أنيابه من دم الغرثان والعاري

وما طفا عن شفاه الطفل من لبن ؟ ... أو حلمة المومس الشوهاء من عار ؟

فانقضَّ من كهفه الداجي ليبعثها ... شعواء كالبحر إن دوّى بإعصار ؟

حتى إذا امتار من أعمارها مددًا ... واقتات مما ستحيا ، عمره الهاري

أهوى على ظهر من لم يقض يعصره ... عن سلعة تعبر الدنيا ، فدولار

***

عيون وراء المدى ... تنام .. وترجو الغدا

دفوق السنا ، باسطًا ... لأحلى رؤاها يدا

ستجلبها .. واقعًا ... نقيًا .. كذوب الندى

يُكفِّر عما جنت ... عصور طواها الردى

أيفزعها المجرمونَ ... بها أشرعوا من مُدى ؟ [101]

كأن سياجًا يقامُ ... ليحجز عنها الغدا

(101) المِدى (بكسر الميم) السكاكين : جمع مُدْية .

وفي الحقـــــل بـــــين الظــــلال عـــــذارى حملـــن الســــلال
لهـــــن الهـــــوى والغنـــــاء وللظـــــــالمين الغـــــــلال
فبعـــــــد الشـــــــقاء المريـــــــر وغـــــبَّ الليـــــالي الطـــــوال
دنـــــا موعـــــد للحصـــــاد فغنينـــــــه .. للرجـــــــال
أيحســـــــــدهن الطغـــــــاة عــــــلى منـــــة للخيـــــال ؟

عــــــلى ضـــــحكة للربيـــــع وأنشـــــــودة للـــــــتلال ؟!
وشـــــيخ يـــــرب الحفيـــــد بأنبـــــاءِ قُطْـــــرٍ بعيـــــدْ
تحـــــدى حـــــراب الغـــــزاة وغيّبهـــــا في الجليـــــد
فأنبـــــت منهـــــا ســـــنابلَ ضـــــوء الصـــــباح الوليـــــد
هنالـــــك يبنـــــي الحيـــــاة كـــــما شـــــاء جيـــــل ســـــعيد
عمالقـــــــة بالفعـــــــال ورواد كـــــــون جديـــــــد
وآلهـــــــة يخلقـــــــون ... آلهـــــة مـــــن عبيـــــد !!

هنـــــاك يـــــرن الســـــلام كأهـــــداب طفـــــل ينـــــام
ويضـــــحك مـــــلء الحقـــــول وفي أغنيـــــات الغـــــرام
وينـــــبض حيـــــث المعامـــــل يجـــــرحن قلـــــب « الظـــــلامْ »
وفي المـــــدن الضـــــاحيات ينـــــدس وســـــط الزحـــــام
وحيـــــث التقـــــت - وهـــــي ترنـــــو - عيـــــون الـــــورى في وئـــــام
بـــــرغم اللظـــــى والحديـــــد نمـــــت زهـــــرة للســـــلام !!

***

واندّاحَ من جلة الليل التي شحبت ... شدق يزيد اتساعًا كلما اقتربا
كأن مقبرة طال الزمان بها ... وازلزّت فهي تبدي جوفها الخربا
تعلقت أعظم الموتى به ورنت ... ألحظها الحور فيها يشبه الغضبا
كأنها صرّت الأسنان من حنق ... شيئًا وسخرية منها بمن نكبا
كأن كل قتيل ، رغم سكرته ... بالصمت ، يسأل أمًا أثكلت وأبا
وزوجة وبنين استقتلوا وأخًا ... من كان فيها لقينا من ردى سببا
شدق يزيد اتساعًا كلما رفعت ... ستر الدجى خفقت من كوكب غربا
آلى على الأرض أن يجتث عاليها ... سفلاً ويصفع من يأتي بمن ذهبا
ولا يريق دمًا إلا وأضرمه ... نارًا وذرّى رمادًا منه أو لهبا
تسعى به الريح في الآفاق ناسجة ... للشمس من جذوة أو من دم حجبا
فالجو مقبرة كبرى .. معلقة ... تستعرض الشمس في ذراتها الحقبا
والأرض كالأبرص المنبوذ هرّأه ... داءٌ وعانى عليه الجوع والتعبا
تكدست فوقها الأجساد ناضجة ... قيحًا ودوّى عويل الناس واصطخبا
من كل رافعة جيدًا كأن يدًا ... جبارة ، جاذبته الطول فانجذبا
وانمط مثل عجين الرخو مرضعها ... لصق الثرى واكفهر الوجه وانقلبا

***

وهـــي التـــي بـــالأمس كانـــت كـــما رجـــى خيـــال ، للهـــوى الأولِ
يمـــــــوج في مرآتهـــــا ظلهـــــا سوســـــة بيضـــاء في جـــدول
وكــــــان نهــــــداها إذا رنحـــــت ريـــح الصـــبا مـــن ثوبهـــا المخمـــل
يشــــف تكويراهمـــــا عـــــن ســـنا يطفـــو بطوقيهـــا إلى المجـــتلى

***

كـــم عاشـــق كانـــت أمانيـــه أن يرتشـــف النـــور عـــلى جيـــدها
كــــان يغــــذيها إذا قطبــــت بـــالروح والآمـــال في عيـــدها
يـــا زهـــرة عاشــــقها لم يـــذد مـــن زعـــزع هبـــت لتبديـــدها
لـــو كـــان يهـــواك .. ارتمـــى دونهـــا ســـدًا .. ونجـــاك بتصـــعيدها

***

ظـــل لقابيـــل ألقـــى عـــبء ظلمتـــه　　　فحـــمًا يســود البرايــا حولــه القلــق
فحـــمًا تصـــدى لـــه البـــاغي بمقلتـــه　　　يذكيــه منهــا لظــى يخبــو ويــأتلق
إذا تضرـــم ، فانـــدك الفضـــاء جـــذى　　　غضـــبي ، ونـــش الـــدم الفـــوار
وانقض ـ من حيث تهوى الشمس غاربة ـ　　　ليـل مـن القاصـفات السـود أو شـفق [103]
جـن الرضـيع الـذي يحبـو وهـبَّ عـلى　　　رجليه يعـدو ويلـوي جسـمه العنـقُ
من فرط ما طال واسترخى وقد صهرت　　　أعراقــه الــزرق نــارًا فيــه تختنــق
كـــأن كفيـــه مـــذراتا ثـــرى .. ودم　　　لا مـا يمـد ابـن عـام : لفـه الغسـق
ولألأ البـــدر ، فاســـتدناه وانبســـطت　　　يمناه بالشوق .. حتى أظلم الأفـق
وأَزلـــزت لثـــة الشـــيخ التـــي هرئـــت　　　مـن شـدقة الأدرد المغفـور تنـدلق
تنســـاح كاللعنـــة الســـوداء يطلقهـــا　　　بعد الردى ، نسلة المطموس والخنق
يـــا ربـــما سرّت المـــوتى بـــأن هلكـــوا　　　قـــذائف كعيـــون الجـــن تنطلـــقُ
شـــدت عليهـــا يـــد عجفـــاء يـــدفعها　　　حقـد ويقتـات مـن أعصـابها فـرق
شـــلّت يـــدًا طالمـــا التّفـــت أصـــابعها　　　ثـم ارتخـت عـن وليـد بـات يختنـق
واستجهضـت كـل أنثـى وهـي تعضـبها　　　واسـتدفأ بـاللظى والـمُدن تحـترق
وقوّســـت مـــن ظهـــور كـــي يطاولهـــا　　　فـرح يلـج ارتفاعًـا وهـي تسـحق

***

وتطـــــل مـــــن أفـــــق يفتحـــــه　　　الشرـــــــــوق إلى الحفـــــــــافي
أيـــــــد تشـــــــير إلى الرقـــــــاب　　　المشرـــــــــئبة : لا تخـــــــــافي
لـــــــن يفصـــــد الجـــــلاد عرقًـــــا　　　مـــــن عروقـــــك لارتشـــــاف

(102) الجذى : جمع جذوة ، وهي الجمرة .

(103) هذا البيت والبيتان اللذان بعده ، تصف طفلاًشوه جسمه انفجار القنبلة الذرية ، فجن ، وأصبح ـ وهو لم يبلغ أوان المشي ـ يركض ورقبته التي طالت وانمطت تلوي جسمه ذات اليمين وذات الشمال كما أصبحت كفاه وكل واحدة منها كالمذراة ، وليست كف طفل عمره عام ، يرى القمر ؛ فيمد يده إليه يريده أن يدنو .

أيـــــدٍ تلـــــوح بالســـــلام.. كـــأن موشـــكة الضـــحايا
تكتـــــال مـــــنهن البقـــــاء – كـــأن أحضـــان الصـــبايا
أودعتهـــا الأطفـــال – لمســـا ينطفـــوا – حـــذر المنايـــا
***

ولكـــــم تناقلـــــت المعـــــابر والـــدروب صـــدى نـــداء
تتشـــابك الرغبـــات ، مثـــل الغـــاب ؛ فيـــه عـــلى رجـــاء
هـــو معـــبر الأجيـــال ، مـــن خطـــر يهـــمّ ، إلى نجـــاء
***

تعـــوي الـــذئاب ، ومـــا يـــزال يجـــيش كالـــدم في العـــروق
ينـــد العـــواء ، ويـــدفع المقـــل لغضـــاب عـــن الطريـــق
ويظـــــل يطفئهـــــا كـــــما لطفـــأت بقايـــا مـــن حريـــق
***

ويظـــــل يخفـــــق بالســـــلام ، كفـــا نشرـــت جناحًـــا
فيـــــه الحمامـــــة ... يلطـــــم الطلـــماء ، فـــانفرط ولاحـــا
مـــن شـــقها الألـــق الحبـــيس وظـــل ينطـــف .. ثـــم ســـاحا
***

صـــــور لنفســـــك في الخيـــــال أبـــاك في وســـط الحريـــق
يـــدعوك بالصـــوت الأبـــح ؛ وقـــد تخـــبط كـــالغريق
ويمـــد مـــن خلـــل الـــدخان يديـــه .. يبحـــث عـــن طريـــق
***

وانظـــــر لأمـــــك وهــــــي ترقــــــد في الـــــتراب عـــــلى قفاهـــــا
تتجـــــاذب العقبـــــان ثدييـــــــــ ـــــــها ويفقـــــا ناظراهـــــا
وتلـــــقَ مـــــن دمهـــــا الكـــــلاب ، وينخــــــر الـــــدود الشـــــفاها

وتمـــــل زوجـــــك وهــــــي تـــــركض بـــــــن أشـــــباح الجيـــــاع
شـــــعثاء تلهـــــث ؛ والريـــــاح تصـــــــكها دون انقطـــــــاعَ
حملـــــــت قميصـــــــك في ذراع ، والضـــــــــــيعة في ذراع ..

***

أو جثـــــة ابنـــــك وهــــــي تزحـــــف دوا رأس في ادلمـــــــــــــــاء
أو مرضـــــع ابنتـــــك الممـــــزق وهـــــو يســـــحق بالحـــــذاء
ورفـــــات موتـــــاك الـــــرميم وقـــــد تنـــــاثر في الهـــــواء

***

وإذا رأيـــــت عيـــــون جـــــير تلـــــك الرضـــــية كالمحـــــار
تـــــرتح غضـــــبي في قـــــرارة جـــــدول ضـــــحل القـــــرار
أفـــــلا تطـــــاردك العيـــــون .. أمـــــا تبصـــــك في احتقـــــار

***

صـــــور لنفســـــك في الخيـــــال . أبـــــاك في ليـــــل الشـــــتاء
وكـــــأنما ردت عليـــــه صـــــباه ؛ أخيلـــــــة الصـــــــلاء
مـــــا زال يقـــــرأ ، والصـــــغار يضـــــاحكونك في الخفـــــاء

***

وانظـــر لأمـــك وهـــي ننصـــت   أي عجــــــب يزدهيهــــــا
عـــادت إلى الصـــوت الرتـــب ؛   إلى الغـــوابر مـــن ســـنيها
وتمثلتـــــه فتـــــى .. يجمــــع   ســــــاعديه ، ويحتويهــــــا
***

وابســـط لزوجـــك – وانتشـــلها   وهـــي تلهـــث في الزحـــام –
كفًـــــا ســــــتختم – إذ تـــــو   قـــع بالمـــداد ، عـــلى الســـلام
فُـــرَج الجـــراح ، فتوقـــف الـــدم   والـــدموع عـــن انســـجام
***

الشــــــاطئ الضــــــحاك والأ   صـــداء والقمـــر الطـــروبُ
ســــكران يغـــرق في جـــدا   نلهـــا وتهمســــه الطيـــوب
وتضـــمها .. ويطـــل مـــن خلـــل   العيـــون مـــدى رحيـــب
***

تتــــنفس الأضــــواء فيــــه ..   كـــأنما ســـمعت غنـــاءَ
حلـــو الـــرنين ، فراقصـــته ،   هنـــاك أجنحـــة تـــراءى
بيضــــاء .. يتبعهـــا الصــــ   ـــغار بـــأعين تنـــدى أخـــاء
***

ليـــل العبوديـــة النكـــراء صـــدّعه ... مهـوى طواغيـت واستبسـال ثـوار
حتـــى إذا شَـــمر البـــاغي ليرأبـــه ... شـقا بـأن يصـهر الأجسـاد بالنـار
هبـــت أعاصـــير تـــذور مـــا يؤججـــه ... في وجهـه الراعـب النضـاح بالعـار
واسـتيقظ الشرـق عملاقًـا تمـوج عـلى ... عينيـه دنيـا مـن الأحقـاد والثـار
يرمــى ، ويرمــى ويسـعى نحـو غايتـه ... في لجـة مـن دجـى غضـبي وأنـوارِ
تطفـو عليهـا الضـحايا أو تغـوص إلى ... أعماقهـــا بـــين تيـــار وتيـــار
راياتـــه الـــداميات الظـــافرات كـــوى ... حمراء ينشـق (104) عنها سـجنه الضـاري
ألقـى بهـا السـلم في وجـه الطغـاة ردى ... وفي صـعيد الضـحايا حمـر أزهـار
وحطمـوا أفـوُق الغـل الـذي سـحبوا ... كـي يطرقـوا منـه تابوتًـا لجبـار
حيـث اشرأبـت عـلى حـرف الـردى أمـم ... شدت إلى الصخر إلا بعـض أحـرار
وأبتـاع بالـدرهم المجبـول مـن دمهـا ... فـيض الـدم الثـرّ منهـا شر تجـار
واسـتأجروها لصـنع المـوت منـه لهـا ... بـالزاد يبقـى دمهـا فيهـا لجـزار
أعمارهـــا مثـــل بئـــر للـــدم ابتلعـــت ... جـيلاً سـواها بهـن ابتاعـه الشـاري

وتطـــلَّ مـــن أَفـــقٍ يفتحـــه ... الشرـــــوق إلى الحفـــــافي
أبـــدٍ تشـــير إلى الرقـــاب ... المشرـــــئبة : « لا تخـــــافي !
لـــن يفصـــد الجـــلاد عرقًـــا ... مـــن عروقـــك لارتشـــاف »

***

(104) الكوى : جمع كوة ، وهي الفتحة في الجدار .

ولكم تناقلت المعابر   والدروب صدى نداء

تتشابك الرغبات ، مثل   الغاب ، فيه على رجاء

هو معبر الأجيال :   من خطر يهم ، إلى نجاء

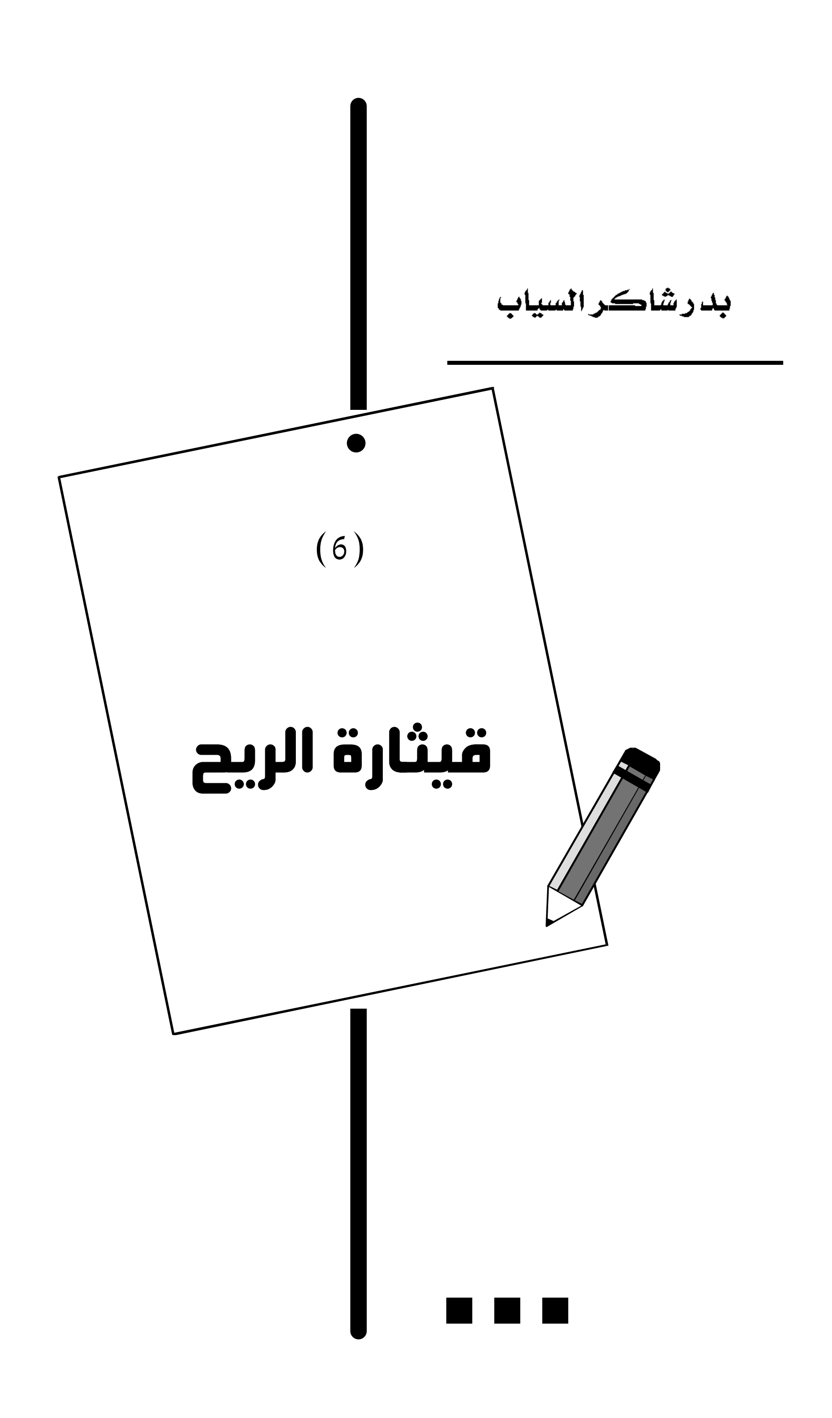
***

مازال يخفق بالسلام :   كأنما نشرت جناحا

فيه الحمامة – يلطم   الظلماء ، فانفطرت ولاحا

من شقها ، الألق الحبيس ،   وظل ينعطف ثم ساحا

***


بدر شاكر السياب
(6)
قيثارة الريح

ذبول أزاهر الدفلى

« إلى روح وورد زورث » [105]

لَـــــذع الأوام أزاهِـــــرَ الـــــدَّفَل	فـــذوت كـــما يـــذوي ســـنا المُقـــل
كانـــــت تعـــــير النهـــــر حمرتهـــــا	فيضيـــء فيـــه المـــوج كالشُّـــعَل
كانـــــت تعـــــير النهـــــر حلَّتهـــــا	فيســـــير في وشي مـــــن الحُلـــــلِ
كـــــم زينـــــت بـــــالأمس لبَّتـــــه	بقلائـــــد المرجـــــان ، والقبـــــل
واليـــوم أَطفـــئ نورهـــا وخبـــا	فكأنهـــــا لم تُنـــــد أو تمِـــــل
واليـــوم أصـــبح عِقـــدها بَـــدَدًا	فرأيـــتُ جيـــد النهـــر في عَطَـــل
ولكـــم مـــررت بزهـــرة ذبلـــت	فبكيـــتُ ، حـــين بكيتهـــا ، أمـــلي
وســـــقيتُها بـــــالراحتين كـــــما	تســـقي الســـحابةُ تربـــةَ الطَلـــل
فتراعشـــت في غضـــنها وهـــوتْ	ومضى النســيم بهــا عــلى عجــل
يــا عــينُ أيــن أزاهــر الــدَّفل	مُـــرِّي بجانـــب نهرهـــا وســـلي
لرجــوت – لــو دامــت غضــارتها –	وصــلَ التــي وعــدتْ فلــم تَصِــل
قـــد كـــان وَشْـــكُ ذبولهـــا أجـــلاً	للملتقـــى ففُجعْـــتُ بالأجـــلِ
ولكنـــــت آمـــــل أن أقبّلهـــــا	واعـــبَّ خمـــرةَ حســـنها الثمـــل
أمّـــا وقـــد ذبلـــت ، فـــلا أمـــلٌ	لي باللقـــاء فكيـــفَ بالقبـــل

أبو الخصيب 7/ 6/ 1944

***

(105) الإهداء في هذه القصيدة ، كما في سواها للشاعر هو «وليم وورد زورث [1770–1850] شاعر إنجليزي ، أسس المدرسة الرومانسية الطبيعية في الشعر ، تأثر بآراء «روسو» والثورة الفرنسية ، وأثر في عصره ، حيث تحول الاهتمام من العقل والحكمة إلى العاطفة والوجدان من أهم قصائده : «لفحات من الخلود» .

جدول جف ماؤه

المـــدّ هـــاجرُ ذاك الجـــدول النـــائي ... والصـمتُ معتـادُه مـن بعـد ضوضـاء

إلا حفيفًـــا يهـــزّ الشـــوقُ ســـامِعَه ... إلى ظـــلال تنـــير المـــوجَ لفّـــاءِ

يعلـو فيعقبـه صـمتٌ فـإن سـئمت ... أنغامُـه الصـمْت هبَّـت بعـد إغفـاءِ

تهـدَّل السَّـعَفُ الفينـان وافترشـت ... أفيـاؤه الضـفّة الظمـأى إلى المـاءِ

واسترسـلتْ وَرَقـاتُ التـوت هاويـةً ... في القعـر مـا بـين أعشـاب وحصـباء

كـأنهنّ ظـلال الـدوح قـد نصـلت ... مـن موجـةٍ ضـاحكتها الـريح زرقـاءِ

فغـودرت حـين آب الجـزْر ثاويـةً ... تلهـو الريـاح بهـا مـن كـل هوجـاءِ

يـا هـل رأيـت جـذوع النخـل عاريـةً ... مـــن ائـــتلاق سرابيٍّ ولألاء [106]

مـن كـل دائـرة في المـاء قـد رسـمت ... أخرى على الجذع من نور وأضواء

فلـو سرت في ضـمير المـوج وسوسـةٌ ... لأظهرتْهـا الجـذوع الشـمُّ للرائـي

يـا مـن رأى شـجرات المـوز داويـةً ... أوراقهـــنَ ظـــماءٌ بعـــد إرواء

يـا ربـما كـن والأمـواج ساربة ... مـن خلفهـن ، ومـا يشـكون مـن داء

والهفتـاه عـلى الأمـواج كـم عكسـت ... خيـال كـل قتـول الطـرف عـذراء

وظـل كـل طـروب الظـل راقصـةٍ ... مـن الأزاهـير ، حمـراء وصـفراء

فجاءهـا الصـيف ثـم البـين معتسـفًا ... واسترسل الجزر عودًا بعـد إبـداء [107]

---

(106) لم أجد خيرًا من هذه الكلمات لوصف ذلك التموج الشعاعي الذي تعكسه حركات الماء على جذوع النخيل ، ولا يدرك جمال هذا الوصف إلا من لاحظ تلك الانعكاسات . « الشاعر » .

(107) حاول الشاعر أن يعيد صياغة هذا البيت ، إلا أنه لم يكمل الصياغة الجديدة . [سلسلة المطبوعات الفنية ـ ديوان الشعر الحديث رقم 9 ـ وزارة الإعلام العراقية].

حتـى نظـرت ومـا للعـين منتجـع مـن أوجـه وأزاهـير ومـن مـاء

ومعـبر مـن جـذوع النخـل غـيّره مَـرُّ الليـالي بإيحـاشٍ وإبـلاء

يـا ربـما كـان ، والأيـام ضـاحكة درب الجمـيلات والـزُرّاع والشـاء

يـا ربـما ردّ – يـا نهـر – الزمـان لنـا مـا لـيس نرجـوه مـن أنـس وسرّاء

لارتـد ينصـب فيـك المـاء لـو رجعـت إلى حفافيـك بعـد النـأي حسـنائي

أبو الخصيب 12/ 8/ 1944

***

العش المهجور

« إلى روح وورد زورث »

بمنجـــىً مـــن مراقبـــة العيـــون ومنـــأىْ عـــن متابعـــة الظنـــون
وفي ظُلـــل النخيـــل ، حطـــام عـــشٍ تلفَّـــع بـــالأزاهر والغصـــون
ترحّـــل طـــائره فبـــات خلـــوًا عميـــق الحـــزن متصـــل الســـكون
يكـــاد نســـيجه عشـــبًا وزهـــرًا يبـــوح بـــما يسرّـــ مـــن الأنـــين
يحـــنُّ إلى الجـــداول والـــروابي وضـــاحكة الســـهول والحـــزون
لقـــد ذهـــب الـــذي ســـلاَّه عنهـــا فعـــاد إلى التشـــوُّق والحنـــين
كـــان العـــش حـــين خـــلا وأقـــوى ومـــات بـــه صـــدى الـــنغم الحنـــون
غـــدير جـــفّ غاربـــه وماتـــت أغـــاني موجـــه المـــرح المعـــين
كـــأن قشاشَـــه أوتـــار عـــود مكفّنـــةٌ بهـــا جثـــث اللحـــون
وأبـــدل مـــن ظعـــين قـــد تـــولّى بـــما لم يُســـلِه حُـــبَّ الظعـــين
إذا مَتَـــع النهـــار أوت إليـــه ظـــلال النخـــل ناعســـة الجفـــون
ويطرقـــه شـــعاع الـــنجم وَهْنًـــا وضـــوء البـــدر حينًـــا بعـــد حـــين
طـــروقَ الـــذكريات فـــؤاد صـــبٍّ كثـــير الشـــجوِ منقطـــع الـــوتين
تمـــرُّ بـــه النســـائم هامســـات فتنشرُـــ فيـــه عطـــر الياســـمين
وتـــوقظ في جوانبـــه الأغـــاني عـــذاب الجـــرس فاتنـــة الـــرنين
وكـــم عمرتـــه أنفـــاس الخزامـــى قـــد امتزجـــت بـــدمع نـــديٍّ هتـــون
ورُبَّـــةَ وحشـــةٍ تـــأوي إليـــه إذا أوَتِ الطيـــور إلى الوكـــونِ
ليُشْـــبهُني فحـــالُ مثـــل حـــالي وشـــأنَ في الغـــرام حكـــى شـــؤوني

فقلبـــي لا يـــزال قـــرين شـــجوٍ   متـــى هفـــت القلـــوب إلى قـــرين
إذا الأحـــلام زُرن عيـــون غـــيري   تـــزور العـــبرة الحـــرّى عيـــوني
يكـــاد العـــشُّ إن هتفَـــتْ صـــدوحٍ   يبادلهـــا عنـــاء شـــجٍ حـــزين
وليـــل نـــام ســـامرُه اكتئابـــا   أثـــار لـــه الخفـــيِّ مـــن الشـــجون
وأذْكُـــرهُ ليـــالي ذاهبـــاتٍ   فغـــصَّ مـــن الكآبـــةِ بالـــدجونِ

أبو الخصيب 27/ 7/ 1944

***

ثورة الأهلة [108]

« أحببتها وهي تكبرني بسبع .. فثارت أهلة تلك السنين السبع » [109]

أمـــا زلـــت تصـــبو إلى قربهـــا ... رويـــدًا فـــما أنـــت مـــن صـــحبها
تخطَّيْــتَ ســبعًا – مـــن المــثقلات ... بـــما لســـت تـــدري – إلى حبهـــا
تركـــت الأهلـــة عـــن جانبيـــكَ ... حيـــارى تُشـــكَّى إلى ربهـــا
« أكانــت ســدىً كــل تلــك السنين ... وقـــد هـــدَّنا الســـير في دربهـــا
أيطـــــوي مـــــداها إلى حبـــــه ... فتـــى مـــا رأينـــاه في ركبهـــا » [110]
تخطيــتَ ســبعًا فكــم مــن ضــحى ... وكـــم مـــن مســـاءٍ وليـــل بهـــا
وكـــم نبضـــة مـــن فـــؤاد التـــي ... تشـــوَّفْتَ للعطـــف مـــن قلبهـــا

أمـــا زلـــت مستســـلمًا للأنـــين ... رويـــدًا ، فعهـــدي بهـــا لا تلـــين
وهـــل تســـمع الشـــعر إن قُلْتـــهُ ... وفي مســـمعيها ضـــجيج الســـنين
أطلّــت عــلى الســبع مــن قبــل عشــ ... ــرين عامًـــا ، ومـــا كنـــت إلا جنـــين
وأمســـى – ولم تـــدرِ أنـــت الغـــرام – ... هواهـــا حـــديث الـــورى أجمعـــين
لقـــد نَبَّأوهـــا بهـــذا الهـــوى ... فقالـــت : ومـــا أكثـــر العاشـــقين
أمـــا زلـــت في غفلـــةٍ يـــا حـــزين ... أحبَّـــتْ ســـواك ففـــيم الحنـــين
حـــرام عليهـــا هنـــيء الرقـــاد ... أتغفـــو ومـــا أنـــت في النـــائمين

حزيران/ 1944/ بغداد

***

(108) ضمّنها الشاعر ثمانية أبيات من هذه القصيدة في قصيدة أهواء المنشورة في مجموعة «أزهار ذابلة» .
(109) الحديث للشاعر ، والمعنية به هي المعنية بقصيدة (اسم لباب) في ديوانه الأول « أزهار ذابلة » .
(110) الأقواس من وضع الشاعر .

أمير شط العرب

« إلى روح وورد زورث »

الشـــــط رواحــــــه الأصــــــيلُ فمضــــى عـــــلى رود يســــــيلُ
وأتـــــاه بعـــــد المــــدّ جـــز رٌ فهــــو موهـــــون كليـــــل
المـــــاء غـــــادر جانبيـــــ ــــه وراح يحـــــدوه الرحيـــــل
فتجــــــرَّدا مـــــن صـــــفحة زرقـــــاء زيّنهـــــا النخيـــــل
يــــا عـــين طـــوفي وامرحـــي فمطافُــــكِ الشـــط الجميـــل
وامشيـــــ عــــلى ثَـــبَج الميـــا ه كـــما مشـــى النَّسَـــمُ البليـــل
فهنــــا شراع خــــافق الـــــ ــــجنبات ذهَّبـــــهُ الأصــــيل
وهنــــاك صـــــاريةٌ تلـــــو حُ ، وثـــــمَّ مجــــدافٌ يجـــول
وعــــلى الســــماء غلالــــةٌ حمـــــراء نشّرهـــــا الأفـــــول
حمـــــراء توقـــــد في ضـــــلو عِ المـــــوج نـــــارًا لا تـــــزول
وبــــدا نخيـــل الضــــفة الـــــ أخـــــرى تحركــــــه القبــــول
كـــم تحتـــه مـــن منـــزل لا يســــتريح بــــه النزيـــــل
سَـــعَفٌ وجـــذعٌ بـــه الـــيرا جباتـــــه تعــــبٌ شَـــغول
ســـاجٍ يحـــفُّ بـــه الـــيرا ع الغـــض والســـدْرُ القليـــل [111]
وأمامــــه « بَلَـــمٌ » حبيـــ ـــس آدَهُ الحـــبس الطويـــل [112]
وهنـــاك في غـــاب النخيـــ ـــل يلفّـــه الظـــل الظليـــل
ثـــور يخـــور ونعجـــة تثغـــــو وأغنيـــــة تســـــيل
ولتَسْــمَع الطفـــلَ الصغيـــ ـــر يجيبـــه الشـــيخ الجليـــل

(111) اليراع : القصب (الشاعر) .

(112) البلم : زورق شط العرب ، تعمدت ذكره لأن لفظه « زورق » لا تعطي الصورة الصادقة لما أرآه ولم لا نـذكر البلم وقد ذكر المصريون زورق فينيسيا (الجندول) ، واستعمل الإنكليز لفظة بلم في لغتهم . (الشاعر) .

والغـــــادة الجـــــذلى يشـــــا	ركهـــا الغـــلام بـــما تقـــول
وأمـــــام عينـــــي جـــــدول	عــــذبٌ مُقَبَّلُـــــهُ ضـــــئيل
متعـــانق والشـــط فهـــو نجيُّـــ	ــــه العــــفُّ الوَصـــــول
يشـــكو إليـــه هـــوى الجـــرا	رِ فـــما يُبَـــلَّ لـــه غليـــل
يـــا شـــطَّ ليتـــك ســـامعي	أوَلَيـــت قلبـــك لي يميـــل
يـــا مـــوج ، يـــا مـــلاح ، يـــا	بـــيضَ الـــزوارق ، يـــا نخيـــل
يـــا ريـــح ، يـــا سرب الطيـــو	رِ البـــيض يرشـــده الـــدليل
شـــاركن قلبـــي في المسرـــة	.. لا رقيـــبٌ ، لا عـــذول

أبو الخصيب 30/ 8/ 1944

***

أراها غدًا

« على الرغم من أنك تكبريني بسبع من السنوات فقد تجرأت وأرسلت هذه الزفرة مع من يقرأها عليك . ولكن واأسفاه ، لا أعلم أأدى الرسالة أم خانها؟ » [113]

أراهـــا غـــدًا ، هـــل أراهـــا غـــدًا ... وأنســـى النـــوى ، أم يحـــول الـــردى

فـــؤادي ، وهـــل في ضـــلوعي فـــؤاد ... لقـــد كـــدتُ أنســـاه لـــولا الصـــدى

كـــأني بـــــه خـــــاذلي إن تمـــــر ... عـــلى بعْـــدِ مـــا بيننـــا مـــن مـــدى

مشـــى العمـــر مـــا بيننـــا فاصـــلاً ... فمـــــن لي بـــــأن أســـبق الموعـــــدا

ومـــن لي بطـــي الســـنين الطـــوال ... ستمضي‍ـ دمـــوعي وحبـــي ســـدى

أراهـــــا فـــــأذكر أني القريـــــب ... وأنســـى الفتـــى الشـــاردَ المُبْعَـــدا

أراهـــا فـــأنفض عنهـــا الســـنين ... كـــما تـــنفض الـــريح بَـــرْدَ النـــدى

فتغـــدو وعمـــري أخـــو عمرهـــا ... ويســـــتوقفُ المَوْلِـــــدُ المِوْلـــــدا

أغـــضُّ – إذا مـــا بـــدت – نـــاظريَّ ... فهيهـــات تعلـــم كـــم سُـــهّدا

ولـــو أنهـــا نُبّئَـــت بـــالغرام ... غرامـــي ، لقربـــت المنشـــدا

وقالـــت : أيُعصي‍ـ نـــداء الحـــب ... حَرِمْـــتُ الهـــوى إن عصـــيّت النـــدا

سأنســـى الجراحـــاتِ والأمنيـــاتِ ... ســـوى أن عينـــي تراهـــا غـــدا

بغداد 21/ 4/ 1944

***

(113) الحديث للشاعر .

يا نهر

يــا نهــر عـــاد إليــك بعــد شــتاتِهِ صــبٌ يفــيض الشــوق مــن زفراتِــهِ
حـــيرانُ يرمـــق ضـــفّتيكَ بلوعـــةٍ فيكـــاد يَصْرَـــعُ شـــوقه عبراتِـــهِ
كـــم رافقتْـــك فآنســـتك خطـــاه في غدواتـــه للحـــب أو روحاتـــه
أفأنـــتَ تـــذكره وتحفـــظ عهـــده أم قـــد نســـيت عهـــوده وســـاته
قـــد أنكرتْـــه فتاتُـــه وتبعتهـــا وهـــو الـــذي يفـــديكما بحياتـــه
لَيَـــوَدُّ مـــن شَـــغَفٍ بمائـــكَ لـــو غـــدا ظـــلاًّ يـــداعب فيـــه جنّياتـــه
متعلقًـــا بشرـــاع كـــل ســـفينةٍ ليجـــاذب المـــلاّح أغنياتـــه
وتلـــوذُ أنـــوار النجـــوم بصـــدره وتـــراقصُ الأمـــواج مـــن ضـــحكاته
يـــا نهـــر أيـــن مضى الزمـــان بأنســـهِ والمـــترَع المعســـول مـــن كاســـاته
وهـــل اهتـــدى الـــزمن الحقـــود فغـــال مـــا قـــد أودع المفـــؤود في خلواتـــه
قُبلاتـــه في صـــفّتيكَ صريعـــةً أفهـــل حفظـــت لـــه صـــدى قبلاتـــه
أمواجـــك اللائـــي شـــهدنَ غرامـــه وســـمعنَ لوعتـــه وبـــثَّ شـــكاته
عبثـــتْ بهـــن مـــن الليـــالي غَـــدْرَةٌ وأضـــاعهُنَ الجـــزرُ في سَـــفَراته
والـــدوح أســـلم للـــبلى ورقاتـــه وثمالـــة القـــبلات في ورقاتـــه
والـــريح أســـأمها انتظـــار إيابـــه وأملّهـــا ترديـــد أغنيّاتـــه

فرمــت لطــول عيائهــا مزمــاره وعفــا بمســمعها صــدى نغماتــه

يـا سـاقيَ الشـجرات مـا لـكَ لا تُـرى إلا كئيبًــا لــجَّ في حسرــاته

وتطـوف مـا بـين الريـاض أباحثًـا عــن غائــبِ حجَــب البعــاد سماته

مــا للــروابي أرَمَّتْــكَ شــكاتها والمــرجُ ألقــى فيــك شــبّاباته

فسـل الربـى عـن نورهـا وزهورهـا والمــرجِ عــن شــعرائه ورعاتــه

ذهبــوا فــما في الــروض إلا نــائح متفــرِّدٌ بدموعــه وأذاتــه

حُلْـوَ الخريـر ، مـلاذَ كـل معـذَبٍ ظمــيء الفــؤاد وأنــت بعــضُ ســقاته

أبو الخصيب 7/ 6/ 1944

***

مجرى نضير الضفتين

« إلى روح وورد زورث »

مُقَــلُ الظبــاء وأعــين الشــعراءِ   صــوَرٌ إلى المجـرى الضـئيل النـائي

بكــت تتــابع موجَــه وظلالــه   ومســاحِب الأنســام فــوق المــاء

ومنابــت العُشُــب النــديّ تنــاثرت   في القعــر أو في الضّــفة الخضرــاء

كســيَتِ بسَلْسَــلَ مائــه أنصــافُها   وتلثّمــت أنصــافُها بهــواء

ولكــل عــودٍ صــورةٌ أو ظُلَّــةٌ   تنســاب فــوق الصــفحةِ الزرقــاء

أو مــؤنس مِــنْ فيئــه مــترَجحٌ   في القعــر بــين فرائــد الحصــباء

فــإذا تنهــدت الريــاحُ تعلّقــت   مــن خوفهــا – الأفيــاءُ بالأفيــاء

وتــراعشَ العُشْــب النضــير ومــاؤه   مثــل ارتعــاش كواكــب الظلــماء

أو كالشرــاع تجاذبتــه نســائم   أو كــالفؤاد مُفاجــأَ بلقــاء

والقعــر طــافَ بــه ائــتلاقٌ عاجــلٌ   ودوائــرٌ جــذلى مــن الأضــواء

فكأنهــا جــنُّ الفــلاة تَمَثَّلَــتْ   في خــاطرٍ ، وعــرائسُ الــدَّأماء [114]

مــن كــل فاتنــةٍ يُنَشَّرــ ثوبَهــا   لَعِــبُ النســائمِ واهتــزازُ المــاء

عينــيَّ شــفكما الســهادُ وهــا هنــا   مــا تصــبوان إليــه مــن نعــماء

فِــتَنٌ بهــا ، عــما انطــوى وحُرِمْتُهــا   مــن فــاتن الأحــلام ، أي عــزاء

وطبيعــةٌ تغْنــيكما بَســماتُها   عــن بســمةِ التيَاهــةِ الحســناء

نظــرًا إلى المجــرى الضــئيل النــائي   وقــد ارتــدى حلــلاً مــن الألاء

وغــدا يتيــه عــلى الســماء بــما سَــبى   مــن لونهــا وجمالهــا الوضّــاء

وبــما اكتســى مــن خُضْرَــةٍ وغضــارةٍ   وبــما اجتنــى مــن وارف الأفيــاء

وبــما تحــيَّر مــن حبــاب فوقــهُ   وانســاب في مرآتــه الجلــواء

---

(114) الدأماء : البحر . (الشاعر) .

وبشـــاعرٍ سَــحَرَ الضــفافَ غنــاؤه　　فمضــــت تهـــزّ قيـــاثِرَ الأصـــداء

أوّاه لــــو رجَّعْـــــتِ لي أصـــــدائي　　مثـلَ الضـفاف متـى سـمعنَ غنـائي
لهتفــتُ : حُبُّــكِ شــفَّني ، فــأجَبْتني　　وأعَــدْتِ لي قَــولي ورجــع نــدائي
وهمســتِ : حُبَّــكَ شــفَّنس وأريتنــي　　صـــفر الحيـــاةِ ومنتهـــى أهـــوائي

بغداد 17/ 10/ 1944

***

لامس شعرها شعري

مــرّت فلامــس شــعرُها شــعري | فــإذا الهــوى بجــوانحي يسرــي
مــرت ولم أرهــا ، ســوى نبــأ | عَــذْب البشــائر ذاع في صــدري
القلـــب يعرفهــا بِمِشْـــيَتِها | بالظـــل ، بالأنفـــاس ، بـــالعطرِ
يـــا ليـــت شَـــعْرَيْنا إذا اعتنقـــا | عُقِــدا فــما انفرطــا مــدى الــدهر
بــل ليــت مُسرــعة الخطــى وقفــتْ | ووقفـــتُ حتـــى ســاعة الحشرــ
أشـــكو الغـــرام لهـــا فتبســـم لي | وتلـــين إن أســـمعتها شِـــعري

***

أدعــوك ، واســمك لســت أعرفــه | دعــوات حُــرٍّ ضــاق بــالأسرِ
آنســـتُ منـــك تطلّعًـــا ملكـــتْ | نظراتـــه الجـــمّاح مـــن فكـــري
أفعَــنْ هــوى مــا كــان مــن نَظــري | أم كـــان لهـــوًا عاجـــل المـــرِّ
يــوحي بسرــك ، لا ، بــل اتئــدي | أخشـــى الأســـى إن بُحـــتِ بالسرِّــ
فـــدعي الفـــؤاد يعـــيش مغتبطًـــا | جـــذلان مـــا بـــين الـــرؤى الزُهـــر
يـــا ليتنـــي وقـــد ابتعـــدت مـــدى | قبَلـــتُ مـــا لامســـتِ مـــن شـــعري
بــل ليــت مــا لامَسْــتِ منــه غــدا | حمـــراءٍ مشرـــقةً مـــن الزَهـــرِ
تكســـين شَـــعرَك مـــن مفاتنهـــا | ثوبًـــا مـــن الألاء والنشرـــ

بغداد 17/ 11/ 1944

***

صائده

« من وحي .. أ .. »

ضـــحى بَسَـــمَتْ أشـــعّتُه وطابـــا
وأغصـــــانٌ أبَــــتْ إلا اضـــــطرابا

وأزهـــــار يـــــذاب الطـــــلّ فيهـــا
وريـــــحٌ تــــنفض الطـــــلَّ المــــذابا

وقلـــــبٌ دائـــــم الهَـــيَمانِ أضـــحى
لفـــرط الشـــوق يلتهـــب التهابـــا

وهـــل أنســـى (لُبـــابَ) إذا تنـــاءت
وكـــل النـــاس يُـــذكِرُني (لُبـــاب)

متيَّمـــــــةٌ تســـــــهدها الليـــــــالي
وتســـــمعُها الخليّـــــاتُ العِتابـــــا

وأخـــرى غيرهـــا اجتـــذبت فتاهـــا
إلى أحضـــــان مخـــــدعها اجتـــــذابا

ومجنـــــونٌ يهـــــيم بـــــألفِ لـــــيلى
فـــلا وصـــلاً ينـــال ولا اقترابـــا

وفاتنـــــة تطلَّـــــعَ كـــــلَّ طـــــرفٍ
لهـــا ظمـــآن يســـألها الشرـــابا

سريـــت وراءهـــا وسرت ورائـــي
نجـــوب الـــروضَ عَـــوْدًا أو ذهابـــا

طـــروب كـــلَ مكتئـــب رآهـــا
فلـــيس يُحـــسُّ همًـــا واكتئابـــا

وصـــاحبةٍ لهـــا تبعـــت خُطاهـــا
كعـــابٌ غضـــةٌ صـــحبت كعابـــا

ولمـــا أن رأتنـــي بـــادرتني
بأنظـــارٍ لقيـــتُ بهـــا العـــذابا

وجاذبـــتِ الرفيقـــةَ ســـاعديها
فأذعنـــت انعطافًـــا وانجـــذابا

وكـــان تهـــامسٌ فارتـــاع قلبـــي
وأغـــرف في الظنـــون وقـــد أصـــابا

أجالـــت طرفهـــا فـــرأت فراشًـــا
ينيـــل الـــريح أجنحـــةً رطابـــا

طروبًـــا عـــاد يلـــثم كـــلّ غصـــنٍ
وينتهـــب الأزاهـــير انتهابـــا

فمـــن متـــآلفين هـــوى وشـــوقًا		ومنفـــــرد أبـــــى إلا اغترابـــــا
أتابعـــــه بعينـــــيَّ اشـــــتياقًا		وتلحظـــــه بعينيهـــــا ارتيابـــــا
فعـــادت وهـــي غاضـــبةٌ حســـود		فـــديتُ بروحـــي الغيـــدَ الغضـــابا
نظـــرتُ لهـــا وقـــد بســـطتْ يـــديها		لقـــنص فراشـــةٍ فـــدنوت قابـــا
فقلـــت أتصـــبح الحســـناءُ تجنـــي		عـــلى واه لتُعْـــذَلَ أو تُعابـــا
تصـــيدين الفـــراش ، كفـــاك صـــيدًا		قلـــوبٌ بـــات أســـلمها مصـــابا
ســـلي عينيـــك إن حاولـــت علـــمًا		أمـــا دعَتـــا فـــؤادي فاســـتجابا

بغداد 26/ 11/ 1944

***

ثورة على حواء

عـــبس الفـــؤادُ وكـــان يبتســـم
وهـــوَت عـــلى جنباتـــه الظُلَـــمُ

وأرى الخيـــالَ يكـــاد يخـــذلني
فـــأرشْ خيـــالي أيهـــا الألم

وافســـح لـــه الآفـــاق نائيـــةً
لا الـــوهم صَـــوَّرها ولا الحلـــم

قـــد لَفَّهـــا ليـــلٌ غلالتُـــه
قبَريـــةٌ ونجومُـــه الـــرِّمَم

مـــا في جوانبهـــا مـــن امـــرأةٍ
وعنـــاءَ مِـــلءُ فؤادهـــا حِمَـــمُ

إني عـــدوُّك يـــا مُغَـــرَّرَةً
ســـكرتْ بخمـــرة شرَّهـــا الأمـــم

مـــا فيـــكِ إلا كـــلَّ مَثْلَبَـــةٍ
مـــا فيـــكِ إلا الحـــزنُ والنـــدم

ولأنـــتِ يـــا محبوبتـــاه أســـى
للقلـــب يحطمـــه فيـــنحطم

ولأنـــتِ – مهـــما كنـــت – ســـافلةٌ
إن شـــاء ذلـــك أو أبـــى الخـــدم

خـدموا جمالـكِ وهـو – لـو علمـوا –
دَنَـــسٌ بثـــوبِ الطهـــرِ ملتـــثمِ

إني أشـــكُّ بكـــل غانيـــةٍ
لا بـــل أكـــادَ ، أكـــاد أتهـــم

وأقـــول جهـــرًا أنـــتِ عـــاهرةٌ
وليغضـــبنَّكِ ذلـــك – الكَلـــم

حطمـــت قلبـــي في الهـــوى سَـــفَهًا
فمتـــى ، وأيـــن ، وكيـــف أنـــتقم

ويمثـــل التـــذكارُ لي صُـــوَرًا
زهـــرًا معطّـــرةً فأبتســـم

كفًّـــا تصـــافحني مهنئـــةً
فكـــأنها نبضـــاتها نغـــم

وأكـــاد مـــن شَـــغَفٍ أقبّلهـــا
وأكـــاد حـــين نصـــولها أجـــمُ

فـــأعود أغتفـــر الـــذنوب لهـــا
ويـــورعني مـــا خطّـــه القلـــم

فأكـــاد أمحـــوه فيمنعنـــي
فكـــر يُـــريشُ جناحـــه الألم

وأعـــود أذكـــر مـــن مآثمهـــا
مـــا ردَّ قلبـــي وهـــو مضـــطرم

كيف الرضا والنفس جامحة ... وجراح قلبي ليس تلتئم

عَبَدَ النساءَ معاشِرٌ جهلوا ... ماذا يُخَبي ذلك الصنم

يُخفي الخساسة في تكبره ... لا سرَّ قدرته كما زعموا

وأشكُّ بالعذراء تظهرُ لي ... عذراءَ ما عِلقتْ بها التهم

وأقول : وجه البدر مؤتلق ... ولقد تُجلِّلُ ظهرَهُ الظّلَمُ

يا مَنْ غُررِتُ بحبها زمنًا ... اليوم أعقب حُبّكِ الندم [115]

قد كنت أجهَل أن من لبست ... طهر الهوى بالعهر تتسمُ

لله ما أوحيت من نغم ... أمن الخيانة ذلك النغم

أورثتِني شكًا بكلّ هوى ... وبكلّ من تسعى بها قدم

حتى غدوتُ وما أرى امرأةً ... إلا وثار الحقدُ يضطرم

لي عند كل جميلةٍ ترَةٌ ... فمتى ، وأين، وكيف أنتقم

بغداد 4/ 11/ 1944

***

(115) انظر : قصيدة المحبوبة المدنسة (الشاعر) .

بين الرضا والغضب

حـــواءُ عفـــوكِ إن جـــرى القلـــم | بغَـــوي شـــعر ملـــؤه تهـــم
قـــد كنــت في مــا قلــت معتســفًا | فلبـــئس قـــولاً ذلـــك الكَلِـــمُ
عجبًـــا أجـــرِّد منـــك عـــاهرةً | يـــا عفـــةً شـــهدت لهـــا الأمـــم
يلـــــومُ فالحرمـــــان أنطقنـــــي | ومحـــا خساســـةَ قـــولي النـــدم
ســـكرت روحـــي بـــالهوى زمنًـــا | فســـما الخيـــال وصـــفَّق الـــنغم
هجـــرتَ فـــامتلأ الفـــؤاد أســـىً | وعفـــا الغنـــاء ونُفِّـــر الحلـــم
وكئيبـــــة الـــــنغمات أسرجهـــــا | ولـــوى إليـــكِ عنانَهـــا الألم [116]
وردتْ عليـــك فســـاء موقعهـــا | وارتـــدَّ قلبـــك وهـــو يحتـــدم
والحـــزن لا يخشـــى إذا جمحـــت | يومًـــا قـــواه ولـــيس يحتســـم
حـــواءُ ليـــتَ هـــواك طـــال مـــدى | أو ليـــت جـــرح هـــواك يلتـــئم
أبـــــت الخيانـــــةُ أن تُملكـــــه | قلبًـــا بطهـــر هـــواه يتَســـمُ [117]
لا تعـــذلي شـــعري فلـــيس لـــه | ذنـــبٌ إذا هـــو جـــاء يضـــطَرم
لـــومي التـــي غـــدرت بصـــاحبه | وجفْتــه وهــو الأســى حُطَــم [118]
وظـــلال هـــدبكِ ، وهـــي أجنحـــةٌ | للحـــب في خـــديك ترتســـم
لـــو نلـــتُ منـــك العطـــف مـــا جزعـــتْ | نفسيـــ فجئـــتُ إليـــكِ اتهـــم
لا تحســـبي – إن جئـــتُ معتـــذرًا – | إني ذللـــتُ ، فقـــد أبـــى الشـــمم
إني امـــرؤ يرجـــو لـــديك منـــىً | ولســـوف تُـــدنيها لـــه الهِمـــم

---

(116) كئيبة النغمات : القصيدة السابقة « ثورة على حواء » . (الشاعر) .

(117) انظر : قصيدة « المحبوبة المدنسة » . (الشاعر) .

(118) انظر : قصيدة « المحبوبة المدنسة » . (الشاعر) .

إن تمنحيـــــه رضىً لقيــــتِ رضى   أو توســــعيه قـــلىَ فمنــــتقم

إن رمـــتِ روحانيـــةً وجـــدتْ   عنـــدي ومِـــلءُ رياضـــها نعَـــم

أو رمـــت شـــهوانيةً وُجِـــدت   عنـــدي وفيهـــا النـــار والحمـــم

وزعمـــتِ أن الشـــعرَ أجمَعَـــه   لـــو لم تكـــوني – غالَـــهُ العَـــدَمُ

مـــا هـــزَّت الأوتـــار أنملـــة   إلا وكـــان لأجلـــك الـــنغم

كـــذب لعمـــركِ تلـــك أمنيـــةٌ   حسـناء صـوَّرَها لـــك الحلـــم

أفتزدهـــي الأنهـــارُ إن وُصِـــفَتْ   أم تشـــمخ الربـــواتُ والقمـــم

وتعـــير الصـــحراء شـــاعرها   لـــولاي مـــات بكفّـــك القلـــم

إن تخلصيـــــ لي بـــتِّ خالـــدةً   في الشـــعر ، هاتفـــةً بـــك الأمـــم

وإذا نفـــرت فَلَعْنتـــي وجـــدت   للنـــــافرات وكلَّهـــــا ضرم

بغداد 8/ 11/ 1944

***

بين الروح والجسد

(قصة شاعرين)

يستفاد من مختلف المصادر أن (بين الروح والجسد) ملحمة للشاعر تقع في ألف ونيف من الأبيات . وكان قد أرسلها كاملة مع السيد فيصل جري السامر (وهو يستعد للدكتوراه) فسلمها بمصر كما ذكر ، إلى المرحوم الشاعر المصري علي محمود طه المهندس .. ولم يعرف مصيرها بعد .

وفيما يلي مائة وعشرون بيتًا منها جمعت من مسودة للشاعر ، ومن مجموعة (إقبال) التي صدرت له بعد وفاته ، ثم من إحدى الصحف العراقية التي كانت تصدر يومئذ . [انظر ط. دار العودة - ج1 ص409] .

1- شاعر الروح

هـذا الجـريحُ وجُرْحـه لا يضـمد	جـار الغـرام عليـه فهـو مسـهَّدُ
صـبٌّ أطـار الصَّـفوَ مـن أضـلاعه	قلـبٌ يمـرُّ بـه الهـوى فيعربـد
أوحـى إليـه الشـعر مـن آياتِـه	سـحرًا تُحَـلُّ بـه النفـوسُ وتُعقـد
باتـت تحلِّـق في الأعـالي روحـه	نشـوى ، وبـات خيالـه يتصـعَّد
واهـي الكيـان كـأنَّ خطبًـا هـدَّهُ	ذاوي الشـفاه لطـولِ مـا يتنهَّـدُ
وهـو المعطَّـلُ مـن قـوام فـارعٍ	يسـبي العيـون ووجنَـةٍ تتـورد
لم يُعـط مـن مـال سـوى أحلامـه	وكفـى بهـا مـن ثـروة لا تنفـد
مـا زال صرف الـدهر أبقـى أمَّـهُ	تأسـو الجـراح بكفّهـا أو تضـمد
كـم بـات يلـتمس الحنـان فـما رأى	طيـف الحنـان وفاتَـه مـا ينشـد
وأحـبَّ مـن جاراتـه فتّانـةً	مـا زال صـائدُ طرفِهـا يتصـيّد
عـفَّ الغـرام بحبسـه مـن حبـه	نَظَـرٌ يعـفُّ عـن الآثـام ويبعـد

2- شاعر الشهوة

تلـــك الـــدماء بقلبـــه المتضرّـــم ... تغـــلي فتـــدفع جســـمه للمـــأثم
ردَّ الهـــوى أحلامـــه مشـــبوبة ... نـــارًا ، فحلَّـــل فيـــه كـــل محـــرَّم
غـضَّ الإهــاب تظــل تــبرق عينــه ... سـحرًا تلـوذ بـه القلـوب وتحتمـي
وإذا العيـــون لمحـــنَ فـــارع قـــدِّه ... ورشـــفن خمـــرة ثغـــرهِ المتضرّـــم
وأوحَـــيْنَ للقلـــب الجليـــدِ بحبـــه ... فأطـــاعهن إطاعـــةَ المستســـلم
جـمُّ الثـراء سـبى العـذارى بـالغنى ... والحســـن حتـــى مـــا يُجـــدْنَ لمغـــرم
عـــاش الليـــالي وهـــو عـــفٌّ طـــاهرٌ ... يهديـــه روحُ العبقـــريِّ الُملهَـــم
حتـــى أحـــبَّ وضـــيعةً غـــدّارةً ... القتـــه في جنبـــات ليـــلٍ مظلـــم
قـــد كـــان يحســـبها مثـــالاً للتقـــى ... والطهـــر والخلـــق الرفيـــع الأكـــرم
حينًـــا وكـــذبت الليـــالي ظنّـــه ... وانجـــاب ثَمَـــة كـــل سرّ مســـهم
ويـــلاه ! ســـاء بكـــل خـــود ظنُّـــه ... وارتـــدَّ يحـــرق جســـمه بالمـــآثم
مـــا زال يـــروي الشـــعر عـــن شـــيطانه ... مُتحلبًـــا شرًّا صـــبيغًا بالـــدم
وأحـــب غانيـــةً فهيـــأ ســـمَّه ... سرًّا وخَبّـــأ صـــارمًا في المبســـم

***

3 - المحبوبة

حســناء تســفر عــن محيّــا شــاحب ... مــا زال يغلــب كــلَّ طــرف غالــب
رَمَقَــتْ صــباها وهــي في ريعانــهِ ... بنــواظر عــبري وقلــب ناصــب
ومضــت تقطّــع صــمتها ووجومهــا ... بتبســـماتٍ كالصـــباح الكـــاذب
لم تــدرِ مــا دَنَــسُ الغــرام وطهــره ... وأرى الســفينةَ أمرُهــا للراكــب

***

4 - لقاء بين شاعرين

في الريــف ، بــين نخيلــه المتعــانق ... وعــلى جوانــب كــلِّ نهــر دافــق
عســبٌ يجاذبُــه النســيم ظِلالَــهُ ... ونـدى يصـفِّق بـالأريج العـابق [119]
وأزاهــــر غَيْنــــاءُ رفَّ نَــــديُّها ... فرحًـا بأجنحـة الفـراش العاشـق
ومتــيَّمان تشــاكيا حَــرَّ الهــوى ... حينًــا ، فَــبرَّدَ خــافقٌ مــن خــافق

***

الشــاعر الغرّيــد لاقــى شــاعرًا ... هــذا يُــرى شــبقًا وهــذا طــاهرا
لــو كنــت ثمَّــةَ ســامعًا نجواهُمــا ... لســمعتَ مُتَّقيًــا ينــاجي فــاجرا
ورأيــت روحًــا ينــبري لنضــاله ... جَسَــدٌ تَوَثَّــبَ مســتخفًا ثــائرا
وبقيــتَ مضــطرب الخــواطر والهــوى ... بــين الفضــيلة والرذيلــةِ حــائرا

***

(119) صفقت الخمر : مزجت بالماء . (الشاعر) .

5 - حديث

شاعر الروح :

حيَّتـــكَ أنفـــاس الربيـــع البـــاكر ورعتـــك آلهـــة الهـــوى مـــن شـــاعر
مَـــرَّتْ ليـــال كنـــت فيهـــا غائبًـــا عنـــي فأظلمـــت الحيـــاةُ بنـــاظري
واليـــومَ عُـــدْتَ فعـــاد لي صـــفو المنـــى وتجلَّـــت الـــدنيا بثـــوبٍ ســـاحر
فلتَتَلُـــــونَّ عـــــليَّ مـــــا هيْأتَـــــهُ مـــن نغمـــة سكرى وشـعر نـاضِر[120]

شاعر الروح :

تـــأبى «ألـــيسُ» عـــلى أن تتبســـما فـــترد قلبـــي هانئًـــا متـــنغما
يـا صـوتها الطَّـرِب الحنـون ولا أرى أنـــى ســـمعت أرق منـــه وأرحمـــا
طُفْ بي ، لأقبس من صداك قصائدي وأصـــوغ في شـــعري حُـــلاك مُنَمْـــنما
لـــو عـــاش رتـــقٌ ســـواي أحبهـــا مـــثلي تركـــت لـــه الهـــوى فتـــنعَّما

شاعر الشهوة :

فـــاترك هـــواك فقـــد بُليـــتَ بمنـــدف بمتـــيَّم ، متشـــوقٍ ، مُتَلَهِّـــفِ
يهـــوى حبيبتـــكَ التـــي أصْـــفَيْتَها ودًا كـودِّ صـديقك ابـن الأحنـف[121]

(120) حذفت أبيات هنا ، لأنها خرجت على الدين والعرف .

(121) العباس بن الأحنف : الشاعر العف . (الشاعر) .

شاعر الروح :

أتُحِبّ صاحبتي ، وحبي طاهرٌ ... وهواك حبٌّ فاجرٌ لم يَشْرُفِ

نزَّهتها عن قول هجرٍ قُلته ... كادت تغصُّ به لهاة المِعزفِ

شاعر الشهوة :

هيهاتَ لست بتارك هذا الهوى ... لا الصدٌّ يورثني السُّلُوُّ ولا النوى

وحلفتْ ما أنا تاركًا حبي لها ... ظميءَ الفؤاد – يد الزمان – أم ارتوى[122]

شاعر الروح :

أمشاركي في حبِّ من أحببته ... بئس الشريك ، ولا سلمتَ من الجوى

شاعر الشهوة :

أمشاركي في حبّها ما ضرّني ... إني رأيتك لي شريكًا في الهوى

مالي ومالك أن تظلَّ رفيقها ... إن نلتُ بعد سويعةٍ تطويقها

أهوي على تلك الشفاه فأرتوي ... حينًا ، وأرشف - كيف شئت . رحيقها

وأمدّ كفي أينما شاء الهوى ... فأعود أقطف نورها وشقيقها

شاعر الروح :

زُورٌ لعمرك ما نطقتَ وخُدعةٌ ... تأبى عليَّ محبتي تصديقها

شاعر الشهوة :

وأَطوِّع الخصر النحيل بضمّةٍ ... من ساعدٍ ، ما خلتُه ليُطيقها

شاعر الروح :

لا تفجعنَّ فؤاد باكٍ موجَع ... بتصوّراتٍ زُوّقتْ تزويقَها

---

(122) «تارك» خبر للمبتدأ «أنا» . و«ما» هنا حجازية تعمل عمل ليس .

شاعر الشهوة :

سـأخفّ بعـد سُـويعةٍ للقائهـا		أولا تـرى كيـف اعترضـتُ طريقهـا

شاعر الروح :

رحمـاك! مـا أبقيـتَ لي مـن ملجـأ		إن كنـت تطمـح أن تكـون رفيقهـا

شاعر الشهوة :

طـال الثـواءُ وحـان أن نتفرّقـا		فـإلى اللقـاء ويـا لـه مـن ملتقـى

فغـدًا أعـود محـدِّثًا عـن قبلـةً		جـنّ الفـؤاد لهـا وخِصرـ طُوِّقـا

ونـواظرٍ متفـتراتٍ نشـوةً		وصـبابةٍ ، متلـذِّذاتٍ باللقـا

شاعر الروح :

لا تَقْسُـوَنَّ ورحمـة يـا صـاحبي		فالقلـب يوشـك مـن ضـنى أن يُحرقـا

أمخلِّفـي أشـكو لظـى الحـب أرجـع		لا تقسـونَّ عـلى الفـؤاد الموجَـع

بالماضـيات الزهـر مـن أيامنـا		بالمهجـة الحـرّى ، بفـيض الأدمـع

لا تعـدون عـلى التـي مَلَّكْتُهـا		روحـي ، ودونـك غيرهـا فاسـتمتعِ

لـو شـئتَ جاءتـك الغـواني خُشـعا		ينظـرن نظـرة وامـقٍ متطلِّـعِ

شاعر الشهوة :

لـو كـان في وسـع المشـوق العاشـق		تَـرْكَ الهـوى ، لصرـفتُ عنهـا خـافقي

ملحوظة : إلى هنا تنتهي الأبيات المكتوبة بخط السياب في الدفتر الذي روينا أغلب قصائده هنا . أما الأبيات التالية فقد ذكر السيد إلياس سروع ـ وهو شاب لبناني يعدّ رسالة جامعية عن السيَّاب ، وقد زار العراق لأغراض هذه الرسالة ـ للسيد فؤاد طه العبد الجليل أنه نقلها عن إحدى الصحف العراقية التي كانت تصدر في الأربعينيات . وبعد مطالعة هذه الأبيات وجدنا أن الناسخ قد وقع في بعض الأخطاء ولنا أن نتلافاها . هذا ولم يتأكد لنا ما إذا كانت هذه الأبيات تلي الأبيات التي سبقت روايتها مباشرة أم لا . على أن تسلسل المعاني يوضح بأنها لا تليها مباشرة[123] .

شاعر الشهوة :

أفأنــت تعشــق جســمها أم روحهــا — فيــا نــوح لم يــر شــاربًا أو طارقــا

مــا زال ناظرهــا الحــزين الأســود — يــذكي لــك جــذوةً لا تخمــد

وأرى ابتســامتها الشــجية لم تــزلْ — تــوحي أنــك بحســرة تتجــدد

إن كــان هَمُّــك مــن سراجِــك ضــوءه — فدع السؤل (فكل) [124] زيت يوقد

وإذا عشــقتَ مــن الكــؤوس بريقهَــا — فــاشربْ ســناها واتــركنَّ رحيقَهــا

مــاذا يضــيرك أن يكــون شرابــه — صــابًا ، وحســبي أن تــرى تصــفيفها

مــا زلــت تضــمن ودّهــا ووصــالها — مــاذا يضرُــك أن يكــون رفيقهــا

شاعر الروح :

روح مطهــــرةٌ وجســــمٌ فــــاجرُ — ولا قَــــرَّ لــــك أيهــــذا الــــداعرُ

الــروح والجــثمان شــخصٌ واحــدٌ — إن عَــفّ هــذا (عَــفَّ) ذاك الآخــرُ

هــل روحهــا – إن نلــت يومًــا جسمَها — فملأتَــه دنسًــا وعــارًا – طــاهرُ

كــلاّ ســأزجرُ عــن هواهــا خــافقي — فيطيعنــي وهــو الــذليلُ الصــاغر

---

(123) هذه الملحوظات وردت في نسخة «دارمية» بدمشق ونسخة دار العودة ببيروت .

(124) لم ترد عند الناسخ .

شاعر الشهوة :

الــــروح لـــيس بمشـــبهٍ جثمانَـــه ... لا تُجْــزِهِ بـــذنوب جســـم خانـــه
يـــارب جســـم غـــارق في قبحـــه ... قـــد ضَـــمَّ روحًـــا زانـــه مـــا زانـــه
لـــرب جســـم مُعْجـــبٍ لـــك حســـنه ... قـــد ضـــمَّ روحًـــا شـــانَه مـــا شـــانَه
لجســـمُ ثـــوبٌ مـــن تـــرابٍ هَـــيِّنٍ ... لا بـــدعَ إن دَنَـــسٌ عـــلا أردانَـــه

شاعر الروح :

الجســـم لـــولا روحـــه لم يفسَـــدِ ... فهـــي التـــي صرخـــت بـــه أن يعتـــدي
وإذا الـــرداءُ تدَنَّسَـــتْ أردانُـــه ... بمـــدَنَّسٍ فالـــذنبُ ذنـــبُ المرتـــدي

شاعر الشهوة :

[زعمـت] [125]أن الـروح [أَنـزل] [126] ... أو طـــاهرًا في الجســـم يـــومَ المولـــدِ
قـــد كـــان روح (ألـــيس) عفًّـــا طـــاهرًا ... ولســـوف يصـــبح غـــير عـــفٍّ في غـــد

شاعر الشهوة :

لا زلـت [حـرَان] [127] الجـوانح متعبـا ... صَـــبًا تقـــاربُ مُبغِضًـــا متجنبًـــا
غَشَّـــكَ روحانيّـــة خدَّاعـــةٌ ... مـــا إن تنيلـــكَ عنـــد خـــودٍ مطلبـــا
هـــنَّ الغـــواني همُّهُـــنَ مـــن الهـــوى ... أن يســـتفدن لـــذاذةً أو مكســـبا
لا أن يهـــيم بهـــن غِـــرٌّ شـــاعرٌ ... يرنـــو فيرجـــع باكيًـــا ومشـــببا

---

(125) وردت عند الناسخ «أزمعت» .

(126) وردت عند الناسخ «نزل» .

(127) وردت عند الناسخ حزان .

جاءت

جـــاءت يجاذبهـــا النســـيم ثيابهـــا	صـــبًا يملّـــك ســـاعدين شـــبابها
أضـــحت تـــورِّد خـــدّها أنفاســـه	وارتـدّ يرشـف كيـف شـاء رضـابها
ومضى_ يدغـــدغ صـــدرَها وبـــودَّه	أن لـــو يـــزيح عـــن النهـــود نقابهـــا
ترنـــو فيهلـــك غـــيرة حســـادها	ويميـــت أو يحيـــي الهـــوى أحبابهـــا

شاعر الشهوة :

وافتـك [ناعمـة] [128] القـوامِ تـأرَّدُ	فـــإذا الجـــوانح جمـــرةٌ تتوقـــد

(128) وردت عند الناسخ نائمة .

* الملاحظتان وردتا في نسختي «دارمية» ، و«العودة» .

اللعنات

(1) إلى النار

لا ترجفي يا بنان القارئ الأنا ... لا اتسقَ بابٌ ولا صافحتَ شيطانا
لا ترجفي وانشري سفرًا صحائفه ... دربٌ إلى النار لولاهنّ ما كانا
أفضى إلى عالم ناءٍ، إلى ظُلَمٍ ... كات حياةً على الدنيا، وأزمانا
حاك الخيال المدمي بعضها قصصًا ... ولواقعٍ المرُّ أنباء .. وألحانا
عذراء؛ ما وطئتْ رجلٌ مدارجها ... كالحر قاعًا .. وغيب الله – شطآنا
واد من النار داجٍ: لا ألمَّ به ... (شيخ المعرّة) يستوحيه «غفرانا»[129]
ولا تخطّى بـ(دانتي) بابه بصرٌ ... خض الجحيم دمًا يغلي .. ونيرانا[130]
وادي حزانا ومظلومين تملؤهُ ... أطيابُ أحيائنا الغضبى، وموتانا
ضجّوا لدى الله بالشكوى فرق لها ... قلبًا وهزّ النجوم الزهر غضبانا
وانثال كالغيث – لو أنّ لظى – ... صوتٌ سرى زعزعًا، وانشقّ بركانا
«ويل الطغاة السكارى من عقاب غدٍ ... إذ زلزل الكوكب المنكود إيذانا»[131]
فزمزم الحشدُ والنكباء تنشرُهُ ... حبًا، وتطويه كفُّ الله أحيانا
«ربّاه لو أن في طول انتظار غدٍ ... جوى لما أسمعْتَكَ الريح شكوانا»
«ما كان حتمًا علينا أن يُعذّبنا ... طاغٍ، وأن يشهد الرحمن بلوانا»
«النار أشهى .. فهات النار تصهرنا ... يوم الحساب ومتّعنا بدنيانا»
«إن كان لا يدخل الجنّات .. داخلها ... إلا شقيًّا على الأولى وغرثانا»
«وكان أمرك أن نرضى بما صنعوا ... فاحفظْ عبيدكَ .. فالشيطان مولانا»

***

(129) في المخطوطة فوق كلمة «يستوحيه»، «يستجديه» بخط أكثر حداثة يختلف عن خط المجموعة .

(130) دانتي تقرأ « دنتي » لكي ينسجم الوزن .

(131) هذه الأقواس من وضع الشاعر السياب، وما سيلي أكثره من وضع محققي الديوان قبل ذلك .

(132) أصل البيت أجريت عليه تصحيحات بقلم مغاير . كان :

ربما لو أن جدوى في انتظار ... غد ما زال وسنان، لم تسمعك شكوانا

(2) ضحكة الشيطان

إبليسُ أصغى إلى الشكوى وعصبتُه ... في غفلةٍ من شهابٍ ساهم النارِ
والليلُ داجٍ تكاد العين تحسبُهُ ... قبرًا تمطّى على جثمان جبار
يا هولها في سكون الليل . قهقهةً ... كأنما انفضَّ عنها جَوْفُ إعصار
دوَّى الصدى في الكهوف الجوف يقلقها ... فانقضَّ بالرعد منها كلُّ منهار
وهبَّ في مخدع الآثام طاغيةٌ ... من نومه القانيء المختوم .. بالعار ؟
وبات يضحكُ حتى جُنَّ وانطلقت ... يباقاه عَدْوًا وراء الكوكب الساري

إبليسُ :

«يا آدم المجبول من حمأٍ ... تُحييه من تحت أقدامي يد الباري»
«لا يبرح الحقد بي أفعى تعبُّ دمي ... عبًّا وتنفخ في صدري إلى النار»
«أطلقتُها أمس يوم التين نافثة ... في أذن حوَائك الحمقاء أسراري»
«واليوم يا قبحة يومًا يطرّبني ... أشهى من الدم في سكين جزّار»
«واليوم لافحَّت الأفعى ولا لدغتْ ... ولا أثِمْتُ ، ولا أشرعتُ أظفاري»
«إن كنت لا أترك الدنيا يعيث بها ... طاغِ شرايينه الحمراءُ أوتاري»
«لو يرفع الغيبُ عن عينيك راحته ... أو يهمس الغدُ للماضي بأخباري»
«أو كنت تستوقف الموتى وقد ركبوا ... جياد (عزريلَ) من دار إلى دار»
«وتسألُ الميِّت المحمول هيكله ... من ضفَّة (الكنج) ملفوفًا بأطمار»
«عن أمسه الراعب الخاوي وحاضره ... والناس ما بين أخيارٍ وأشرارٍ»
«لاجْتثَّ أكفانه الصفراء عن فمِهِ ... وارتجَّ – بالآه تترى – صدرُه الهاري»
«وقال أمّا عن الدنيا فما برحتْ ... أيام قابيل سكرى بالدم الجاري»

«(...) أدمـــع الـــثكلى لآلـــؤه (...) إليهـا ذراعًـا جائع عـاري» [133]

«والعـالم الحـاطم الـذرّات – يـدفعها كيـف اشـتهى – بـاع أغلالهـا بـدينار»

«واسـتنزف الشـاعر اللاهـي ملاحنـه في مـدح سـكران أو تمجيـد خمّـار»

واحْتـــث إبلـــيس أفراسًـــا مجنّحـــة بالنـــار حمـــراءَ ، والكبريـــتِ ملتهبـــا

رقْـــشُ الثعـــابين في أفواههـــا لُـــجُمٌ والـــريح في منخريهـــا تـــنفخ القصـــبا

قصـف البراكـين أحنـى مـن حوافرهـا وقعًـــا إذا أطلقتهـــا تضرـــب الســـحبا

قــد أَنعلــتْ قلــب ســفّاح وطاغيــةٍ فلــو يمــسُّ الحجــار الجامــد ارتعبــا

مـن وقعهـنَّ التظـى مـلء المـدى سررٌ يــنفضُّ برقًــا عــلى الآفــاق أو شُــهبا

وقـــال إبلـــيس، والظلـــماء راعشـــةٌ مـــن تحتِـــه أمعنـــتْ نحـــو الثـــرى هربـــا

«الأرض لي .. مـا عليهـا مـن ينـازعني (...) الخطايا (...) للخنى نصبا [134]

أورثتهـا مـن يشـاء الشرَّـ مـن خـدمي بـــاتو شـــكوكًا ، وبـــاتوا في يـــدي لعبـــا

كـم أوقـد الراهـب القنـديلَ مـن لهبـي واستقطر الشيخ مما أهمس الخطبا [135]

ألقـى عـلى الأرض ظـلّي تـاجر جشـعٌ يخفـي بـه عـن عيـون النـاس مـا نهبـا

قال اسجدوا خشعًا حتى إذا سجدوا عـــاف المصـــلّى وأمســـى يجمـــع الـــدهبا

«يـا سـيِّد النـار» نـادى مـارد قـدحتْ عينـــاه نـــارًا، وقـــد أفضىـــ بـــها رغبـــا

«يـا سـيِّد الهـوْة الحمـراء مـن سـقر لازلْــتَ ربّ الخطايــا والخنــى حقبــا»

حتــى إذا انصــبَّت الأزمــانُ في أبــدٍ ظمـــآن، أصـــبْحتَ ظـــلاً فيـــه، ملتهبـــا

« لي خنجــرٌ طالمــا احمــرَّت مضــاربُهُ حتـى صـدئنَ احمـرارًا ، وانحنـى تعبـا»

(133) هكذا ورد البيت .

(134) هكذا في الأصل .

(135) إلى جانب لفظة : « استقطر » في المسودة لفظة : « استنزل » .

«أهويـتُ يومًـا مـن الأيـام أصـقلُهُ بـالربع مـن (أطلـس) العـاتي ولا
فـما يـزال النجيـع الرطـبُ منـدفقًا في كـلِّ ركـنٍ مـن الـدنيا ، ومنسـكبا
حتـى إذا ابـيضَّ نصـلٌ وانـبرى حجـرٌ أبصرـتُ ظـلاً عـلى مرآتِـهِ اضـطربا
أنثـى مـن الطـين ، لا حـوّاء تشـبهها حسـنًا ، ولا العـالم الأعـلى بـما رحبـا
أنثـى وبغـداد مأواهـا ، وفاتنـةٌ بـين السكارى ، ونـارٌ جـاورتْ حطبا
لميـاءُ مـا تمتمـتْ في الليـل سـاحرةٌ مثـل اسـم لميـاء لفظًـا يبعـث الطربـا
«غمّازتاهـا تطـيلان .. ابتسـامتها عمرًا ، وتستوقفان الكوكـب الشـحبا»
«طيـفٌ تـراءى عـلى نصـلٍ تقلّبُـهُ يمنـاي جـذلان في آنٍ .. ومكتئبـا»
«أرخيـتُ مـن نشـوةٍ كفـي ومـا حملـتْ الصـخر والخنجـرَ القتّـال واللهبـا»
«ثـمّ امتطيـتُ الغيـوم الرائحات: لظىً يذكيـه شـوقي ويُطفيـه السرـى خببـا»
«حتـى سـملتُ بأظـافري عـلى خنـقٍ عينَ الصباحِ ومزَّقتُ الضحْى غضبا»
«وانهـار في دجلـة الرعنـاء شـاطئها فارتـاع «نـوحٌ» يعـدّ القـار والخشـبا»

« يا ومضة الخنجرِ المسموم في جلدي يا حيَّة وجرْها القتّال أحلامي»[137]
«يـا نصـفَ عـذراء يـا قـبرًا أوسِّـدُهُ أشـباح أبنـائيَ الصرـعى ، وأيّـامي»
« يا ملعب الـدود يـا سـوطًا أسـوقُ بـهِ خيـل الخطايـا إلى سـاحات آثـامي»
«يـا رقيـة الشرّـ – إن حثْحَثْـت مركبـةً أوقرتُهـا بالبغايـا والـدم الظـامي»
«يا مغزلاً في يـد الفـوضى نسجتُ عـلى منواله الرخو ثوب العار والذامِ»[138]

***

(136) جبل أطلس في أفريقيا الشمالية ـ السياب ـ .

(137) في المسودة شطبت لفظة «المسموم» بالقلم الرصاص وكتب فوقها «المأجور» .

(138) في المسودة شطبت لفظة «الجون» واستبدلت «بالرخو» .

(3) غضبة إبليس

وانقـضَّ إبلـيسُ في الظلـماء صـاعقةً ... مـن غيظـةٍ ثـم شـقَّ الجـوَّ مرتفعـا
واسـتركض الصـافن المحـوم يضربُهُ ... بالـدوح مـن غـاب «أفريقيَّـة» اقتُلِعـا
كـأنّ أغصـانه الحمـرا .. إذا التهبـت ... نـارًا وخـرَّت تباعًـا ، كوكـبٌ صـفعا
فـارفضَّ في الجـوِّ أقباسًـا مروعـةً ... تنهال حتى تصيح الأرض : واجزعا
وامتـدَّت القبضـة السـوداء وانتزعـت ... مـن سرجـه المـارد المنكـود .. فانتزعـا
وهـــزّهُ هـــزةُ فكَّـــت مفاصـــله ... حتى استغاث ارتياعًـا واشتكى وجعـا
«مولاي .. مولاي» نادى بعد حشرجةٍ ... «لا تأخـذ البـائس المضـني بـما صـنعا»
«مـا كـان ذنبـي؟ أجئـتُ الله معتـذرًا ... عـما مضى- أم نشرـتُ الـبرِّ والورعـا»
«مـا خنـت إبلـيس» وامتـدتْ إليـه يـدٌ ... أخـرى ودوّى هـزيمٌ ينشرـ الفزعـا
«مـا خنتنـي؟ أيهـا الطـين الحقـير ، بـلى ... قد خنتَ عهدي وخنت الأفعوان معا»
«لميـاء سـكرى بأقـداحي ، يضـاجعها ... طـاغٍ شـوى حلمتيهـا بعـدما رضـعا»
«ولا تحــدّثني عنهــا فتطربنـــي؟! ... أين الهوى من حديث بالـدم انـدفعا؟»

***

فـأطرق المـارد المنكـود وانحـدرت ... مـن مقلتيـه الجـذى دمعًـا فأخفاهـا
واجتـثَّ مـن غيمـةٍ ربـداء معظمهـا ... وجفّـف الـدمع حينًـا ثـم خلاّهـا
وقـال: لـولا يـدٌ مـن سيدي اعترضـتْ ... أسـمعْتُه مـن لحـون الشرّ- .. أحلاهـا
ما كانـت الغـادة السـكرى سـوى قـدح ... أسقي بـه السـمّ ، فـانظر بعـض قتلاهـا
..هـذا هـو الشـاعر الفـاتي تخلِّـده ... أنشـــودةٌ تعـــبرُ الأجيـــالَ غنّاهـــا

مـا انفـكَّ يشـدو ومـا انفكـت ملاحنُـهُ — يحفـرنَ قـبري وإن حجّبـتُ معناهـا
حتـــى رآهـــا ، فغنّـــى بابتســـامتها — وأخفـتِ الظلـمَ عـن عينيـه عيناهـا
لا أنـــه الكـــادح الغرثـــان .. تلهمـــهُ — شـعرًا ولا الأيّـم الغرثـى ، وطفلاهـا
سـكران يصـحو عـلى كـاس فيثملـه — مـا عَـبَّ منهـا ، ويسـتوحي بقاياهـا
يستوقف اليـوم ، لا يـدري إذا وقفـتْ — أنـــواره ، فـــالتقى لـــيلي وناجاهـــا
كم من قلوب حيارى تحتهـا انسحقتْ — وكـم شـقيٍّ بعـين اليـأس يرعاهـا
عامـــان ذابـــا عـــلى قيثـــاره .. غـــزلاً — وقطّـــرا روحـــه الـــولهى وعبّاهـــا
شـــدّ اليمـــين عـــلى كـــأسٍ ، وطالعـــه — مـن غورهـا الواقـع الـدامي فأرخاهـا
واستنطق الكـأس والأشباح فارتجفـتْ — مـذعورة ثـم قالـت كيـف تهواهـا؟!
قـم فـانظر النـور مـن شـبّاك مخـدعها — يلقـي عـلى الشرـفة الوسـنى خطاياهـا
ظـــلاًّن رانـــا عـــلى الأســـتار واقتربـــا — حتـــى اســـتحالا إلى ظـــلّ تغشـــاها

***

فاجتاحـت الجـوَّ مـن إبلـيس قهقهـةٌ — كـــادت لهـــا الأنجـــم الزرقـــاء تنتشـــر
وقـال : عُـدْ واجمـع الأوتـار في يـده — واتركـــهُ يشـــدو بـــها لم يـــروه وتـــر
وليصرـف القلـب عـن لميـاء يعصرـهُ — للبائســـين ، فـــماذا أنـــت تنتظـــر؟
كـــم شـــاعر قَبْلـــه انســـابت قصـــائده — فاسـتقبلتْها قلـوبٌ مسَّـها الخـدرُ[139]
في غرفـــة خـــاف أن يجتـــاز مـــدخلها — ضـوء النهـار فغشـى جوّهـا الكـدرُ
جدرانها الراعبات السود مـا استلمت — إلا لهـــاث الضـــحايا وهـــي تحتضرـــ
ولا اكتست من ظلال غـير مـا عكسـوا — ولا ارتـوتْ مـن دمـاء غـير مـا قطـروا
يســـتقبل الليـــل لا أقدامـــه امتلكـــتْ — أرضًـا سـوى مـا يَمسُّ الأصبع الحذِرُ
ولا ذراعـــاه والأغـــلال تشـــبحها — تُطـوي ارتياحًـا ولا السـاعات تُختصرـ
حتـــى إذا اكتظّـــت الآلام فانعصرـــتْ — نومًـا كـما امـتصَّ عـبءَ الغيمـةِ المطـرُ

(139) يلي هذا البيت : أربع أبيات لا تؤثر على سياق المعنى وغير واضحة في المسودة .

نـادى بـه الحـرس السـجان يوقظـه ... بالنـار مـن فوَّهـات النـار تنفجـرُ
وكـم يـدٍ يتـأبّى أن يلامسـها ... ثـوب البغـي ، ويـأبى العـار ،
أهـوت عليـه انتقامًـا منـه تلطمـه ... عـلى شـفاه تمنـى لحنهـا الـوتر
تنـزل الشـعر منهـا للعيـيِّ فـما ... وللـذي ارتـاب عزمًـا لـيس ينكسر
وللضـعيف سـلاحًا ، والطريـد أخًـا ... وللظلـوم رقـادًا ملـؤه الهـذَر
واجتـازت البـاب آهـات يرددهـا ... مستضـعفون احتـوتهم مثلـه الحجـر
حتـى إذا صرَّ ذاك البـاب منفرجًـا ... عـن فجـوة دسَّ فيهـا ضـوءه القمـرُ
وحـدَّق الشـاعر المفجـوع .. لاح لـه ... نعـش عليـه اصـفرار النـور منكسر
تلطّخـتْ بالـدم القـاني جوانبـه ... ولم تـزل قطـراتٌ منـه .. تنحـدر
ولم يـزل شـاعر الأحـرار تعصره ... آلامـه السـود حتـى أقبـل السـحر
فقطّعـت ضـحكة جوفـاء أطلقهـا ... مـا لم يقطِّعـه مـن أعصـابه السـهر

***

والشـاعر الثـائرُ التركـيُّ مـا برحـتْ ... تلقى عليه الظلال السود قضبانُ (141)
إنْ مـرّت الطـير أسرابًـا بـه التمعـتْ ... عينـاه بالشـوق واسـتبكاه تحنـان
أوشـعّتْ الكـوّة السـوداء عـن شـفقٍ ... قـانٍ ، دمـاء الضـحايا فيـه ألـوانُ
نـزا وأهـوى عـلى القضـبان يجـذبها ... ودمـدمت منـه كالآهـات ألحـان
كـم بـات يغفـو عـلى رؤيـا مكـرَّرة ... مـا غيَّرتْهـا عـلى جفنيـه أزمـانُ
الليـل في نصـفه الثـاني يلوّنُـهُ ... نصـفٌ مـن القمـر المكـدود ، نعسـان
تثاءبـت منـه في البسـفور أخيلـة ... كسـلى ورانـت عـلى الشـطّين أحـزان
وللسـفينة في الأمـواج وهوهـةٌ ... يصدي لها الشـاطئ السـاجي ، وارنـان
التظـى المـاء والشـطّان وانفجـرا ... كـما تشـظى ومـجَّ النـار بركـان

(140) في الأصل : واشتهارها العار .. إلخ .

(141) يقصد ثورية . له : هو : « ناظم حكمت » [1902-1963] شعره ذو نفحة .

وزلــزل الأفــق حتــى كــاد يلمسُــهُ   لــو كــان الشــاطئ المــذعور ، إنســان
وأومضــت بالــدم القــاني كواكبــه   كــما يحــدِّق تحــتَ الليــل ذؤبــان
وعبــت المــوت عبًّــا وهــي مائلــة   ســـفينةٌ لم يزدهـــا عنـــه ربّـــان
حتــى إذا مــا اســتقرّ المــوج وائتلقــتْ   في أرجـــوان مـــن القمـــراء شـــطآن
وكـــدَّس القمـــر الـــدامي أشـــعَّته   جسرًـا عــلى المــاء ، تطفــو منــه ألــوان
ســارت عليــه مــن الأشــباح قافلــةٌ   شـــتّى عظـــام تُغشِّـــيهنَّ أكفـــان
ورجْرج الماء مـن بعـد السـكون صـدى   نـــاءٍ ســـيندكّ مهـــما اجتـــاح طغيـــان

***

حتــى إذا ارتــاح ممــا قــال ، بــادرَهُ   من موكـب الجنَّـة الصـاغين .. ملحـاح
أين السُّرى ، فيم نجتاز الفضا صعدًا؟   والشرـقُ وســنانُ لا يغشــاه مصــباح
فقــال إبلــيس: إن الأرض لهــي كــما   حــدَّثتَ عنهــا فــما للنــاس إصــلاح
أمــا الســماء فقــد ســدَّت مســالكها   مــن خصــمي الظــافر الجبّــارَ أشــباح
مــا زال فيهــا يحــفّ الأنبيــاء بــه   حفًّــا وتُزجــي لــه التســبيح أرواح
واللعـــن حظِّـــي إذا مـــا آيـــة تُليـــتْ   أو رتَّلــتْ باســمه المرهــوب أمــداح
لأجلعــــنَّ ســــماء الله لي هــــدفًا   أحتــلّ آفاقهــا القصــوى وأجتــاح
آليـــتُ ألا يـــرى الله المقـــيم بهـــا   إلا صريعًـــا عـــلى الغـــبراء ينـــداح
فوَلْــوَل المــارد الملحــاح واختلجــت   عينـــاه ذعـــرًا وإن غطّتهـــا راح
يــا ســيد الشرّــ والحكّــام مالئــةٌ   أكــوابهم مــن دمــاء الفتيــة الــراح
أطلقـت أفعـاك في الظلـماء فانطلقـت   غرثـى عـلى الكوكـب الأرضي تجتـاح
في كـــل حقـــل تهـــزُّ الـــريح ســـنبله   جـيش وفي كـل قصرـ للـردى سـاح
في النهــر نــاء وخلــف الليــل فوَّهــةٌ   حمـــراءُ ، والشـــطّ بالبـــارود نضَّـــاح
اليوم قـد هـبَّ شـعب الصـين مـن أسر   فالليــل ينجــاب ، والأغــلال تنــزاح
في ثغرهـــا غنـــوة حمـــراء ينقلهـــا   مــن ثغــر (هــومير) للأســماع فــلاح
هبَّـتْ وفي يـدها الكـأس التـي صرعـت   سـقراط يسـقي بهـا الطـاغين كـدّاح

***

حتـى إذا مـا انتهـى قولـه ، اتقـدتْ أحـداق إبلـيس تختـار الشـياطينا
حتى استقرت على (بلزاب) فانغمدت في قلبـه الخـائف المـذعور سـكينا
وانهـال إبلـيس بالألفـاظ صـاخبة كالنـار مسرـى وكالإعصـار تلحينا
عـار وأنـت الـذي لم يـثن ركبتـه لله ، إن صرت عبـد الآدميينـا
وطـأت خـديك للثـوار يسـحقها حـافٍ وعـارٍ وخـذَلت السـلاطينا
ورحـت تـزعم أن النـاس مـا برحـوا صرعـىً عـلى بـاب طـاغٍ مـن موالينـا
إذا سـألتك عـن أحـوال مملكـة نبـأتَ دون اكـتراث مـثلما شـينا
أما استقرَّت عـلى اليونـان ذات ضحى عينـاك أو وطـأت أقـدامك الصـينا؟
واهتـزَّ ظلّـك في الأنهـار فاصـطخبت بالنـاس غرقـى ودمّـرن البسـاتينا
ولا سـمعت عـن اليونـان مـن نبـأ نطـوي بـه مـا انتهزنـا مـن ليالينـا
ومـا الـذي جد في الـدنيا ، وهـل وطـن منهـا ارتخـى عنـه ظـل المستبيحينا
وقـد تمـرّ عـلى اليابـان تقصـفها بالصـاعقات وتفـتضّ البراكينـا
فكيـف لم تـدر أن الصـين ثـائرة تمشيـ عـلى النـار تجتـاح الميادينـا
فقـال بلـزاب عنـدي مـا ستسـمعه فاسـتعمل الرفـق في التأنيـب واللينـا
أمـا السـماء فلـن نرقـى معارجهـا والأرض كالنـار تغـلي تحـت أيـدينا
فلنـثن أفراسـنا عنهـا نـؤمُّ .. بهـا ركنًا من الأرض حتى الصبح يؤوينا
نسـتطلع الـرأي عـما سـوف نصـنعُه فقـال إبلـيس : هيـا .. نـأت شـيرينا

***

(4) على شيرين

ولاح شـــيرين في الظلـــماء تحســـبه ... أكـداس غـيم تغطِّي جانـب الـوادي
صـــاغ الجليـــدُ لــــه تاجًـــا لآلئـــهُ ... نـار الرعـاة وظـلّ الكوكـب الهـادي
واصـطكت الـريح تعـوي في مغـوره ... كالمسـتغيث وقــد شـدَّت بأصــفاد
وســدّت الأفــق الشرــقي أخيلــة ... ســودٌ كمــوتى أفــاقوا دون ميعــاد
تــدنو فينحــلَّ عنهـــا مـــا يخالطهـــا ... مـن عتمـة الليـل إذا تكسـى بأجسـاد
حتى استقرّت على شيرين وانتصبتْ ... مـا بـين تلـك الـذرى في زيّ أكـراد
واختـــال إبلـــيس بالجلبـــاب قانيـــة ... ألوانـــه يشـــتهيها كـــلَّ .. جـــلاد
وقـال : يـا معشر الجـنّ انتحـوا جهـةٌ ... تغزونهـــا واتركـــوني بـــين قـــوّادي

***

ثـــم انثنـــى يرســـم الـــدنيا بأصـــبعه ... فـــوق الجليـــد ويمحوهـــا ويبتســـم
حتـــى اســـتقرَّت عـــلى حـــال فلوَّنهـــا ... مـن نـار عينيـه يرنـو وهـي تضـطرم
ولم يـــزل تتقـــرّى الطـــينَ راحتُـــهُ ... حينًـــا ، ويهمـــس إنِّي ســـوف أنـــتقم
وتــارة يلمـــس اليونـــان .. متقـــدًا ... بـــالغيظِ يرنـــو إلى بلـــزاب أو يجـــمُ
فقـال بلـزاب : إن الأنجـم انطفـأت ... خلـف الجبـال وكـادت تسـطع القمـم
فلنسـبق الفجـر نقضي قبـل مطلعـه ... حاجاتنـــا مـــن حـــديث ملـــؤه الألم
أمـا عـن الصـين فـالجوّ الفسـيح لظـى ... داجٍ ومـــلْ الصـــحاري والحقـــول دمُ
جـرى جـداولاً فاقتـات الجيـاع عـلى ... حافاتهـــا والضـــحايا شـــأنها الكـــرم
وارتـجَّ فيهـا خيـال مـن يـدٍ حطمـتْ ... غـلاً مـن العـار يصـدأ فوقـه القِـدَم
وانجــاب عنهــا ظــلامٌ كــان ينشرــه ... غربانـك السـود حين اجتاحـه الضَرَم
أمـا الشـمال ففـي أقصـاه مـا شـجت ... مـن عـاطلين بـدٌ ، أو جـائعين .. فـمُ
آســـاه بالرحمـــة الثـــوَار واختصرـــوا ... عمـر الشـقاء بـها شـادوا ومـا هـدموا
أمـــا الجنـــوب فحتـــى الآن تمهـــره ... مـن كـلِّ طـاغٍ بأختـام الـردى قَـدَم

وهـي فـما عـاد يقـوى أن يخـوض وغـى ... جـيشٌ هــو الجــوع والأعيــاء والسَـقَمُ
وآوت (الكـــاي) في أقصى ـ جزائـــره ... دارٌ بهـــا الظـــالم المقهـــور يعتصـــم
أذكـــى بريـــق المنايـــا في لآلئـــه ... نـــار الـــوغى ثـــم ولّى وهـــي تضـــطرم
كــم ليلــةٍ بــات والمصــباح يغســلها ... بــالنور يرنـــو إليهـــا .. وهـــو مبتســـم
ونقّطتهـــا عيـــون الـــدود يعكســـها ... قـــبرٌ عـــلى الجثـــة العجفـــاء ينهـــدم
مادرّهـــا الأحمـــر القـــاني ســـوى حُلـــم ... بـــاقٍ علـــيهن مـــن ثغـــر الرضـــيع دم
ومـــا الـــوميض الـــذي فيهـــا ســـوى رئـــةٍ ... يهتـــزُّ فيهـــا خيـــالٌ للـــردى .. نهـــم

***

هيهات هيهات لا أنسى ضحىً غرقتْ ... آفاقُـــهُ في لهـــاث العســـجد النـــائي
في قريـــةٍ في شـــمال الصـــين لوّنهـــا ... أيلـــول ، فاســـتقبلتْها صـــفحةُ المـــاء
وأومـــض الـــدرب حتـــى ذاب آخـــره ... ثـــم اختفـــى غـــير ذكـــرى تُقلـــقُ الرائـــي
وأقبَلَـــتْ مـــن بعيـــدٍ فيـــه مركبـــة ... تطوي الحقول النشاوي ذات ضوضـاء
تنســـاب جـــذلى وفيهـــا اثنـــان ســـائقها ... وأجنـــبٌ جـــاء يســـعى خلـــف أبنـــاء
ما سرّح الطرف حتى اهتزَّ من طربٍ ... وصـــــاح يشـــــفع أقـــــوالاً بـــــإيماء
«يـــا روعـــةَ الجوســـق النـــائي تعانقُـــه ... بـــيض الأزاهـــير في استحياء عـــذراء»
أيلـــول والزهـــر قبـــل اليـــوم مـــا اجتمعـــا ... في جـــوف وادٍ ولا في قـــاع بطحـــاء
فغمغـــمَ الســـائق الجـــذلان مـــرَّ .. عـــلى ... عينيـــه كالليلـــة القمـــراء .. تـــذكارُ
هـــذا دم الصـــين! هـــذا جهـــد قائـــدها ... ذاك ابتســـام الضـــحايا! تلـــك أثـــمارُ
تفاحـــةٌ بعـــد أخـــرى لـــفَّ حمرتهـــا ... عـــن لحـــظ أيلـــول فلاّحـــون أحـــرارُ
والعـــدل عـــمَّ أرضًـــا فهـــي عابقـــةٌ ... بـــالزهرِ ، مـــلأى وكـــلّ العـــام آذارُ
بـــالأمس كنـــا نجـــرُّ النـــير تحملـــه ... أعناقنـــا ثـــم تعيـــا ثـــم تنهـــارُ
وكلـــما انهـــار جيـــلٌ قـــام يخلفـــه ... جيـــلٌ أو انـــزاح طـــاغٍ لاح جبـــارُ
نـــاعورة ثورهـــا المعصـــوب نـــاظره ... شرع الطغـــاة ، ومجـــرى مائهـــا العـــارُ
والجيـــل للجيـــل كالأقـــداح فارغـــةً ... تهـــوي ، ومـــلأى ســـتهوي وهـــو دوارُ

حتى انتبهنا على الرايات نشّرها مصبوغة بالدم المسفوك ثوّارُ
تلقي على الموقد المهجور أخيلةً فانزاح ظلّ الردى واهتزّت النارُ
واجتاحت الأرض تطوي باع سيّدها بالغلِّ عنها ويمشي خلفها الثارُ
ثم اجتمعنا على البشرى وجيء به كنعجةٍ ساقها للذبح جزارُ
تنفَّس الرعب في عينيه فانطفأت في ذلك الزئبق المذعور أنوارُ
يهوي على ركبتين اصطكّتا فرقًا ويستغيث وماء العين مدرارُ
وقال : لم أجن ذنبًا .. ثم طاف به طرفٌ على الأوجه العجفاء ينهارُ
فطالعتْه عيونٌ من مغاورها وأعظمٌ برزتْ جوعًا ، وأطمار
كأنما الكون تابوت أَعدّ له من كلّ عين عليه انحطّ مسمارُ
وصاح قاضٍ من الثوّار نحنُ لكم عونٌ على الظالم الباغي وأنصار
هذا أوان التشفِّي لا نجاء لمن خان الشعوب ولن يجديه إنكار
يوم الظلامات لا الشكوى بضائعة ولا القضاءُ محاب فيه غدّار
فليطفح المرجل الغالي بما خنقتْ من حقده العاصف المكبوت أظفار
مغموسة بالدم المنساب شدّ بها شرعٌ أجير وسفّاكون أشرار
ولتقضموا من يدٍ كانت تمدّ على آثامها من جراب البغي أستار
فما تشكّى امرؤٌ منّا ولا شخصت إلا إلى المنزل المرعوب أبصار
قال : انطقوا لا تخافوا بأس من نسجت أكفانه اللذة الحمراءُ .. والعارُ
وأثقل الأمسُ والأغلال حاضره حتى انحنى فارتمى عن رأسه الغار
فقالت امرأةٌ غرقى .. مفجّعةٌ لم يطو شكواه شانٍ وهو مختار
نحن المدينون للباغي بما امتلأتْ به صكوكٌ وضاقتْ عنه أسفار
ألفٌ وألفان موكولٌ بهنَّ ..دمٌ للبائسين وآمالٌ .. وأوطار

نحـــن المـــدينون مـــا ينفـــكَّ يخنقنـــا ... صــكٌ إذا نــدّت الشــكوى وأنــذار

يــا ضــيعة الثــأر والأفــواه تلجمهــا ... مستمسـكاتٌ لـدى البـاغي وأسـفار

أختامهــا الحمــر أفــواه قــد التصــقت ... بالقلــب يــروي صــداها منــه تيّــارُ

مختومــةٌ كــل خــتم صــاحَ فيــه فــمٌ ... ظمــآن للــدم ، في الأكبــاد حفّــار

قــد ســطرتْها يــد البــاغي وخبأهــا ... درج تخفـــى فـــما افتضّـــتْهُ أنظـــار

فاســتلّت الــدرج مــن أحضــان مخبئــه ... أيــدٍ ونــادى فــمٌ : فلتضرـــم النـــار

واســتوقد النــار مــن مصــباح ثاكلــةٍ ... ذو غلّـــةٍ مـــن بنيهـــا حقـــده النـــارُ

حتــى تــذرّى رمــادًا كــلَّ مســتند ... وازحزحـت عـن رقـاب النـاس أنيـارُ

يـا ريـحُ ذرّيـه .. هـذا البغـيُ طـاح بـه ... مـــن هـــذه الأمـــةِ الصـــفراء إعصـــارُ

حتــف المــدينين لا ينشــقّ بــاب غــدٍ ... إلا عليهـــــا ، ولا تمتـــــدُّ أعـــــمارُ

فوَلوَل الناس بالشكوى كما انفجرتْ ... مـن نعشـها الأبـيض المصـهور أنهـار؟

وأقبلـــتْ تخنـــق الجـــاني بحـــاضره ... مـــن أمســـه الـــداعر الممســـوخ أخبـــار

يـــا للكتـــاب المـــدمّى : كـــاد كاتبـــه ... يرميـــه بـــالزور لـــو لم تبـــق آثـــار

تطويـــه إطراقـــة الـــثكلى وينشرـــه ... لحـــظ اليتـــيم ، ودمـــعٌ فيـــه يحتـــار

حتـــى ســـمعنا دم الطـــاغوت يهرقُـــه ... قـــاضٍ نزيـــهٌ ، وجـــلاّدون أخيـــار

واخضــلّت التربــة الجــرداءَ ، وزّعهــا ... بـــالحقِّ فينـــا ، وبالقســـطاس ثـــوار

***

أهـــوى بإبهامـــه العـــاتي وخاتمـــه ... يمضي ـ لمسـتأجريه الصـيد مـا كتبـوا

أو تحمــل الخــائف الموتــور فامتــدت ... ألحـاظ إبلـيس واستشرـى بـه الغضـبُ

وقــال : «يكفيــك» نــادى بعــد زمجــرة ... رفقًــا فقــد أزعجتنــا هــذه الخطــبُ

حــدثتَ حتــى كــأنّ العــالم انبســطتْ ... أنحــاؤه تحــت عينــي وهــو يلتهــب

قرّبــت أطرافــه القصــوى ســوى بلــدٍ ... يرتــاد ســمعي حــديث عنــه مقتضــبُ

***

فـازورّ بلـزاب كـالمفجوء وارتفعـتْ عينـاه نحـو الشـمال المعـتم الخـالي

مـولاي نـادى وقـد أومـا بأصـبعه بين الـذرى تحت ذاك الكوكب العـالي

شـعبٌ خطـا في طريـق ربّـما بقيـتْ لـــولاه أمنيـــة عـــزلاء في بـــال

طافـــت رؤاهـــا بـــأفلاطون باهتـــةً ألوانهـــا فـــاكتفى منهـــا بـــأظلال

اعتـادت الشـاعر الوسـنان فائتلقـت أبـــواب أيتوبيـــا الزرقـــاء كـــالآل

حتـى إذا امتـدَّت الأيـدي لتطرقهـا ذابـتْ فلـم يبـقَ إلا محـض أقـوال

وأقبـل الفيلسـوف الحـرّ وانتزعـتْ كفّـاه خـيط السـتار القـاتم البـالي

***

بدر شاكر السياب



(7)

أنْشُودَة المطر

غريب على الخليج

الريح تلهث بالهجيرة ، كالجثام ، على الأصيلِ

وعلى القلوع تظل تُطَوى أو تُنشَّرُ للرحيل

زحم الخليجَ بهنّ مكتدحون جوّابو بحارِ

من كلّ حافٍ نصف عاري .

وعلى الرمال ، على الخليج

جلس الغريبُ ، يسرِّح البَصَر المحيَّر في الخليج

ويهدُّ أعمدة الضياء بما يصعِّد من نشيجِ

« أعلى من العبَّاب يهدر رغوُةُ ومن الضَجيجِ

صوت تفجَّر في قرارة نفسي الثكلى : عراق ،

كالمدَّ يصعد ، كالسحابة ، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي : عراق ،

والموج يُعول بي : عراق ، عراق ، ليس سوى عراق !

البحر أوسعَ ما يكون وأنت أبعد ما تكون

والبحر دونك يا عراق .

بالأمس حين مررتُ بالمقهى ، سمعتك يا عراقُ ..

وكنت دورة أسطوانة

هي دورة الأفلاك من عُمُري ، تكوَّر لي زمانه

في لحظتين من الزمان ، وأن تكن فقدت مكانه .

هي وجه أُمي في الظلامِ

وصوتها ، يتزلقان مع الرَؤى حتى أنام ؛

وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهَمَّ مع الغروب

فاكتظَّ بالأشباح تخطفُ كلَّ طفلٍ لا يؤوبُ

من الدروب؛

وهي المفليَّة العجوز وما توشوش عن « حزام » (142)

وكيف شقَّ القبر عنه أمام « عفراءَ » الجميلة

فاحتازها .. إلا جديلة .

(142) يقصد «عروة بن حزام» شاعر عربي من «عُذرة» ، أحد العشاق الذين قتلهم العشق ، وصاحبته «عفراء بنت مالك العذرية» .

زهراء ، أنت .. أتذكرين

تنّورها الوهّاج ترحمه أكف المصطلين ؟

وحديثَ عمتيَ الخفيضَ عن الملوك الغابرين ؟

ووراء بابٍ كالقضاء

قد أوصته على النساء

أيدٍ تُطاع بما تشاء ، لأنها أيدي رجال .

كان الرجال يعربدون ويسمرون بلا كلال .

أفتذكرِينَ ؟ أتذكرِينَ ؟

سعداء كنا قانعين

بذلك القَصص الحزين لأنه قصص النساء .

حَشْدٌ من الحَيوَات والأزمان ، كنا عُنْفُوانه ،

كنا مَداريْه اللذين بينهما كيانه .

أفليس ذاك سوى هباء ؟

حُلُمٌ ودورة اسطوانة ؟

إن كان هذا كلَّ ما يبقى فأين هو العزاء ؟

أحببتُ فيكِ عراقَ روحي . وحببتُك أنتِ فيه ؛

يا أنتما ، مصباح روحي أنتما . وأتى المساء

والليل أطبق ، فلتشعّا في دجاه فلا آتيه .

لو جئتِ في البلد الغريب إليَّ ما كمل اللقاء !

الملتقى بك والعراقُ على يَدَيَّ .. هو اللقاء !

شوق يخضُّ دمي إليه ، كأنَّ كلَّ دمي اشتهاء ،

جوع إليه .. كجوع كلَّ دم الغريق إلى الهواء .

شوق الجنين إذا اشرأبَّ من الظلام إلى الولاده !

إني لأعجب كَيف يمكن أن يخون الخائنون !

أيخون إنسانٌ بلاده ؟

إن خان معنى أن يكون ، فكيف يمكن أن يكون ؟

الشمس أجمل في بلادي من سواها ، والظلامْ

ـ حتى الظلام ـ هناك أجملُ ، فهو يحتضن العراق .

واحسرتاه ، متى أنامْ

فأحسّ أن على الوساده

من ليلك الصيفي طلاًّ فيه عطرُك يا عراق ؟

بين القرى المتهيَّبات خطاي والمدنِ الغريبه

غنَّيْتُ تُربتكَ الحَبيبه

وحملتُها فأنا المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبه ،

فسمعتُ وقع خطى الجياع تسيرُ ، تدمى من عُثار

فتذرُّ في عينيَّ ، منكَ ومنِ مناسمها ، غُبار .

ما زلتُ أضرب ، مُتربَ القدمين أشعث ، في الدروب

تحت الشموس الأجنبيَّه ،

متخافِقَ الأطمار ، أبسط بالسؤال يدًا نديّه

صفراء من ذُلٍّ وحُمّى ، ذلِّ شحّاذٍ غريبٍ

بين العيون الأجنبية ،

بين احتقارٍ . وانتهارٍ ، وازورارٍ .. أو « خطيّه » [143] ،

والموت أهون من « خطيه » ،

من ذلك الإشفاق تعصره العيونُ الأجنبيه

قطرات ماء .. معدنّيه !

فلتنطفيَ ، يا أنتِ ، يا قطراتُ ، يا دمُ ، يا .. نقودُ ،

يا ريح ، يا إبرًا تخيط لي الشراع ـ متى أعودُ

---

(143) كلمة اشفاق في اللهجة العراقية ، والكويتية العامية .

إلى العراق ؟ متى أعودُ ؟

يا لمعةَ الأمواجِ رنَّحهنَّ مجدافٌ يرودُ

بي الخليجَ ، ويا كواكبه الكبيرةَ .. يا نقودُ !

ليتَ السفائنَ لا تُقاضي راكبيها عن سِفارِ

أو ليت أنَّ الأرضَ كالأفق العريض ، بلا بحار !

ما زلت أحسب يا نقود ، أعدّكنَّ وأستزيد ،

ما زلت أُنقِصُ ، يا نقود ، بكنَّ من مُدَدِ اغترابي ،

ما زلتُ أُوقد بالتماعتكنَّ نافذتيّ وبابي

في الضفة الأخرى هناك فحدثيني يا نقودُ

متى أعود ؟ متى أعودُ؟

أتُراه يأزف ، قبل موتي ، ذلك اليوم السعيدُ ؟

سأفيقُ في ذاك الصباح ، وفي السماء من السحابِ

كسَرٌ ، وفي النسمات بَرْدٌ مُشبع بعطور آبِ ؛

وأُزيح بالثُؤبَاء بُقيا من نعاسي كالحجابِ

من الحرير ، يشفّث عما لا يبينُ وما يبينْ :

عما نسيتُ وكدتُ لا أنسي ، وشكٍّ في يقين .

ويضيءُ لي ـ وأنا أمدُّ يدي للبسَ من ثيابي ـ

ما كنتُ أبحثُ عنه في عتَمات نفسي من جواب

لِمَ يملأ الفرحُ الخفيُّ شعابَ نفسي كالضباب ؟

اليوم ـ واندفقَ السرورُ عليَّ يفجأُني ـ أعودُ !

واحسرتاه .. فلن أعودَ إلى العراق !

وهل يعودُ ؟

من كان تُعْوِزُهُ النقود ؟ وكيف تُدّضخَرُ النقودُ ؟

وأنت تأكل إذا تجوع ؟ وأنت تُنفقُ ما يجودُ

به الكرام ، على الطعام ؟

لتَبكينَّ على العراقِ

فما لديك سوى الدموع

وسوى انتظارك ، دون جدوى ، للرياح ، وللقلوع !

الكويت ـ 1953

***

مرحى غيلان

ـ « بابا .. بابا .. »

ينساب صوتُكَ في الظلام ، إليَّ ، كالمطر الغضيرِ ،

ينساب من خَلل النُعاس وأنتَ ترقد في السريرِ

من أيّض رؤيا جاء ؟ أيِّ سماوةٍ ؟ أيِّ انطلاقِ ؟

... وأظلُّ أسبح في رشاشٍ منه ، أسبح في عَبير .

فكأنَّ أوديةَ العراقِ

فتحتْ نوافذَ من رؤاكَ على سهادي : كلُّ وادِ

وهبته عشتارُ الزاهرَ والثمار ، كأنَّ روحي

في تربة الظلماءِ حبةُ حنطةٍ وصداكَ ماءُ .

أعلنتِ بعثي يا سماءُ .

هذا خلودي في الحياة تكنُّ معناه الدماءُ .

***

« بابا ... » كأنَّ يد المسيح

فيها ، كأنَّ جماجم الموتى تُبرعِمُ في الضريحِ .

تموز عاد بكل سنبلةٍ تُعابث كلَّ ريحِ .

***

« بابا ... بابا ... »

أنا في قرار بويبَ [144] أرقد في فراشٍ من رمالِهُ ،

من طينه المعطور ، والدم من عروقي في زلاله

ينثال كي يهبَ الحياة لكل أعراق النخيلِ ،

أنا بَعْلُ : أخطر في الجليلِ ...

على المياه ، أنثُّ في الورقات روحي والثمارِ

والماء يهمس بالخرير ، يصلّ حولي بالمحار

وأنا بوَيْبُ أذوب في فرحي وأرقد في قراري .

***

« بابا ... بابا ... »

يا سُلّم الأنغام ، أيَّةُ رغبةٍ هي في قرارِكْ ؟

« سيزيف » يرفعها فتسقط للحضيض مع انهيارِكْ .

يا سُلَّمُ الدم والزمان : من المياه إلى السماءِ

غيلانُ يصعد فيه نحوي ، من تراب أبي وجدّي

ويداه تلتمسان ، ثمَّ يدي وتحتضنان خدّي

فأرى ابتدائي في انتهائي .

***

---

(144) بويب : نهر في قرية جيكور .

« بابا ... بابا ... »

جيكور من شفتيكَ تولَد ، من دمائِكَ في دمائي

فتُحيل أعمدةَ المدينة

أشجار توت في الربيع . ومن شوارعها الحزينه

تتفجَرُ الأنهار ، أسمع من شوارعها الحزينه

ورَقَ البراعم وهو يكبر أو يمصُّ ندى الصباحِ

والنُّسغَ في الشجرات يهمس ، والسنابلَ في الرياح

تَعِدُ الرَّحى بطعامهنّ

كأنّ أوردةَ السماءِ

تتنفّسُ الدمَ في عروقي والكواكب في دمائي .

يا ظلِّي الممتدَّ حين أموت ، يا ميلاد عمري من جديدِ :

الأرض (يا قفصًا من الدم والأظافر والحديدِ

حيث المسيح يظلُّ ليس يموت أو يحيا .. كظلِّ ،

كيدٍ بلا غَضَبٍ ، كهيكل ميِّتٍ ، كضُحى الجليد ،

النور والظلماءُ فيه متاهتان بلا حدودِ)

عشتار فيها دون بَعْلِ

والموت يركض في شوراعَها ويهتف : يا نيامُ

هبّوا ، فقد وُلِدَ الظلامُ (145)

وأنا المسيح ، أنا السلامُ

والنار تصرخُ يا ورود تفتَّحي ، وُلِدَ الربيعُ

وأنا الفُرات ؛ ويا شموعُ

رشِّي ضريحَ البَعْل بالدم والهُباب وبالشحوبِ .

والشمس تُعْول في الدروبِ :

بردانةٌ أنا والسماء تنوء بالسُحبُ الجليد .

***

« بابا ... بابا ... »

من أيِّ شمس جاء دفؤك أي نجم في السماء ؟

ينسلُّ للقفص الحديدِ ، فيورقُ الغَدُ في دمائي ؟

***

---

(145) كان كهنة إيزيس ـ وهي معبودة مصرية صوّرها المصريون في صورة امرأة ـ ينطلقون ، في منتصف ليلة 25/ 12 من كل عام ، هاتفين في شوارع الإسكندرية لقد وضعت العذراء حملها وقد ولدت الشمس . حيث انتشرت عبادة إيزيس في العصر البطلمي في الإسكندرية . وأشهر معابدها يقع على جزيرة فيلة عند أسوان .

أغنية في شهر آب «أغسطس»

تموز[146] يموت على الأفُقِ

وتغور دماه مع الشفقِ

في الكهف المعتم ، والظَلماءْ

نقالة إسعاف سوداءْ

وكأن الليل قَطيع نساءْ :

كحلُ وعباءاتٌ سودُ .

الليل خباء

الليل نهار مسدودُ

ناديتُ مربّية الأطفال الزنجية :

الليل أتى يا مُرجانه

فأضيئي النور . وماذا ؟ إني جوعانه .

و .. نسيت ـ أما من أغنيّة ؟

بمَ يهذر هذا المذياعُ ؟

في لندن ، موسيقى جازٍ ، يا مرجانه ،

(146) يوليو .

فإليها .. إني فرحانه

والجاز من الدم إيقاعُ .

تموز يموت ومرجانه

كالغابة تربض بردانه ..

وتقول ، ويخذلها النَّفسُ :

« الليل ، الخنزير الشرسُ ،

الليل شقاءْ ! »

مرجانه .. هل قرع الجرسُ

فتقول ، ويخذلها النَّفسُ :

« في الباب نساء » .

وتعد القهوة مرجانه .

وعلى الأكتاف البيض فراءْ :

الذئب يدثِّر إنسانه ،

وعلى الأثداء من النِّمرِ

شرقٌ يتسلّل ، ملء الغابَ ، من الشجرِ

والليل يطول مع السمر ..

الليل كتنور ـ من أشباح البشرِ

خبزٌ يتنشق نيرانه

والضيفة تأكل جوعانه

من هذا الزاد . ومرجانه

كالغابة تربض بردانه .

والضيفة تضحك وهي تقول : « خطيب سعادْ

جافاها ، وانطوت الخطبه !

الكلب تنكَّر للكلَبه .. »

تموز يموت بدون معاد ،

والبرد ينثّ من القمرِ

فتلوذ بمدفأة من أعراضَ البشر .

والليل يطفِّئ شطآنه

والضيفة تقبع بردانه

وفراء الذئب تغطيها ..

وتطفأت النيران اللاتي كانت بالدم تذكيها .

ليلٌ وجليد

يتساقط عبرهما صوتٌ ، رنَّات حديدْ

وعواء ذئاب يخفيها ..

الصوت بعيد

والضيفة مثلي بردانه .

فتعال وشاركني بردي

بالله تعالْ

يا زوجي ، ها إني وحدي

ـ والضيفة مثلي بردانه ـ

فتعال تعالْ

فأمامك وحدك أقدر أن أغتاب الناس بلا استثناءْ

بالله تعالْ

فالناس كثيرٌ .. والظلماءْ

نقّالة موتى سائقها أعمى ، وفؤادك جبّانه .

***

غارسيا لوركا

في قلبه تنَّور

النار فيه تطعم الجياع

والماء من جحيمه يفور :

طوفانه يطهّر الأرض من الشرور

ومقلتاه تنسجان من لظى شراع

تجمعان من مغازل المطر

خيوطه ، ومن عيونٍ تقدح الشررْ

ومن ثديّ الأمهات ساعة الرضاعْ

ومن مُدى تسبل منها الثمر

ومن مدى للقابلات تقطع السررْ

ومن مدى الغزاة وهي تمضغ الشعاع

شراعة النديّ كالقمرْ

شراعه القوي كالحجرْ

شراعه السريع مثل لمحة البصرْ

شراعه الأخضر كالربيع

الأحمر الخضيب من نجيع

كأنه زورق طفل مزّق الكتاب

يملأ مما فيه ، بالزوارق النهر ،

كأنه شراع كولمبس في العبابْ

كأنه القدر .

***

تعتيم

حين يذرّ النُّورْ

ـ يلقى به التنور ـ

عن وجهك الظلماء

ويهمس الديجورْ

آهاته السمراء

على محيّضاك

تهجس عيناكِ

بكلّ حزن الدهور

وكل أعيادها :

أفراح ميلادها

وغمغمات النذور

وزهرها والخمور !

النور والظلماء

أسطورةِ منحوتة في الصخورْ :

كم ذاد بالنَّارِ ،

من أسدٍ ضارٍ

وكم أخاف النمور ،

إنسان تلك العصور

بالنُّور والنَّارِ !

فأطفئي مصباحنا أطفئيه

ولنطفئ التنورْ

وندفن الخبز فيه ،

كي لا تعيد الصخورْ

أُسطورة للنار ، ظلَّت تدور

حتى غدا أول ما فيها

آخر ما فينا ـ وليل القبور

أوّل ما فيها ـ

ولنبق في الديجور

كي لا ترانا نمور

تجوس في الظلماء

لترجم الأحياء

ـ من غابة في السماء ـ

بالصخر والنار

وتسبيح القبور !

***

المخبر

أنا ما تشاء : أنا الحقيرْ

صبَّاغ أحذية الغزاة ، وبائع الدم والضمير

للظالمين : أنا الغراب

يقتات من جثث الفراخ . أنا الدمار ، أنا الخراب !

شفة البغيّ أعفّ منِ قلبي ، وأجنحة الذباب

أنقى وأدفأ من يدي . كما تشاء ... أنا الحقير !

لكنَّ لي من مقلتيّ - إذا تتبَّعتا خطاك

وتقرّتا قسمات وجهك واتعاشك - إبرتينِ

ستنسجان لك الشراكْ

وحواشيَ الكفن الملطّخ بالدماء ، وجمرتينِ

تروعان رؤاك إن لم تحرقاكْ !

وتحول دونهما ودونك بين كفيّ الجريده

فتندّ آهتك المديده

وتقول : « أصبح لا يراني » ... بيد أن دمي يراك

إني أحسَك في الهواء وفي عيون القارئين .

لِمَ يقرؤون : لأن تونسَ تستفيق على النضال ؟

ولأن ثوّار الجزائر ينسجون من الرمالْ

ومن العواصف والسيول ومن لهاث الجائعين

كفنَ الطغاة ؟ وما تزال قذائف المتطوعين

يصفرن في غسق القنال ؟

لِمَ يقرأون وينظرون إلَيَّ حينًا بعد حين

كالشامتين ؟

سيعلمون من الذي هو في ضلالْ

ولأنّنا صداُ القيود .. لأنّنا صدأ القيود ..

لأنّنا ...

نهض الحقير

وسأقتفيه فما يفرّ ، سأقتفيه إلى السعير .

أنا ما تشاء : أنا اللئيم ، أنا الغبيّ ، أنا الحقود

لكنّما أنا ما أريد : أنا القويّ ، أنا القدير .

أنا حامل الأغلال في نفسي ، أقيِّد من أشاءُ

بمثلهنّ من الحديد ، وأستبيح من الخدود

ومن الجباه أعزُهنَّ . أنا المصير ، أنا القضاء .

الحقد كالتنور فيَّ : إذا تلهّب بالوقود

ـ الحبر والقرطاس ـ أطفأ في وجوه الأمَّهاتْ

تنورهنّ ، وأوقف الدم عن ثدي المرضعات .

في البدء كان يطيف بي شَبحٌ يقال له : الضمير

أنا منه مثل اللص يسمع وقع أقدام الخفير .

شَبحٌ تنفَّس ثمّ مات

واللص عاد هو الخفيرْ .

في البدء لم أكُ في الصراع سوى أجير

كالبائعات حليبهنّ ، كما تؤجَّر ـ للبكاء

ولندب موتي غير موتاهنّ ـ في الهند النساء .

قد أمعن الباكي على مضضٍ ، فعاد هو البكاء !

الخوف والدمُ والصغَّار . فأي شيء أرتجيه ؟

فعلى يدي دمٌ وفي أذنيَّ وهْوهة الدماء

وبمقلتيَّ دمٌ وللدّم في فمي طعمٌ كريه !

أثقل ضميرك بالآثام فلا يحاسبك الضمير

وانسى الجريمة بالجريمة والضحية بالضحايا .

لا تمسح الدم عن يديك فلا تراه وتستطير

لفرط رعبك أو لفرط أساك .. واحتضن الخطايا

بأشدّ ما وسع احتضانٌ تنجَّ من وخز الخطايا .

قوتي وقوتُ بنيّ لحمٌ آدمي أو عظام

فليحقدنّ على كالحمم المستعرّة الأنام

كي لا يكونوا إخوةً لي آنذاك ، ولا أكون

وريث قابيل اللعين سيسألون

عن القتيل؟ فلا أقول :

« أنا الموكّل ، ويلكم بأخي ؟ » فإن المخبرين

بالآخرين موكّلون !

سحقًا لهذا الكون أجمع وليحلّ به الدمارْ !

مالي وما للناس ؟ لست أبًا لكل الجائعين

وأريد أن أروي وأشبع من طوى كالآخرين

فلينزلوا بي ما استطاعوا من سباب واحتقار

لي حفنة القمح التي بيدي ودانية السنين

ـ خمسٌ وأكثر .. أو أقلّ ـ هي الربيع من الحياة

فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث في الفلاة

روحَ النماء ، وبالبيادر وانتصار الكادحين

فليحلموا إن كانت الأحلام تشبع من يجوع .

إني سأحيا لا رجاء ولا اشتياق ولا نزوع ،

لا شيء غير الرعب والقلق الممض على المصير

ساء المصير !

ربّاه إن الموت أهون من تَرقُّبِهِ المرير

ساء المصير :

لِمَ كنت أحقر ما يكون عليه إنسانٌ حقير ؟!

***

عرس في القرية

مثلما تنفض الريحُ ذرَّ النُضارْ

عن جناح الفراشة ، مات النهار .

النهار الطويلْ

فاحصدوا يا رفاقي ، فلم يبق إلاّ القليل .

كان نَقْرُ الدَّرابك منذ الأصيل

يتساقط مثلَ الثمار ،

من رياح تهوِّم بين النخيل .

يتساقط مثل الدموع

أو كمثل الشرار :

إنها ليلة العُرس بعد انتظار !

مات حبٌّ قديمٌ ، ومات النهار

مثلما تُطفئُ الريح ضوءَ الشموع .

الشموع ... الشموع ،

مثل حقل من القمح عند المساء ،

من ثغور العذارى تعبُّ الهواء ،

حين يرقصنَ حول العروس

منشداتٍ : « نوار ، اهنئي يا نوار !

حلوةٌ أنتِ مثل الندى ، يا عروس » .

يا رفاقي ، سترنوا إلينا ، نوار

من علٍ في احتقار .

زهّدتها بنا حفنةٌ من نُضار :

خاتمٌ أو سوار ، وقصرٌ مشيدْ

من عظام العبيد ..

وهي ، يا رب ، من هؤلاء العبيد !

ولو أنَّا وآباءنا الأولين

قد كدحنا طوال السنين

وادّخرنا ـ على جوع أطفالنا الجائعين ـ

ما اكتسبناه في كدّنا من نقود ،

خاتمٌ ضمَّ في ماسه الأزرق

من رفات الضحايا مئات اللحود

اشتراها به الصيرفيُّ الشقي .

مثلما تنثر الريح عند الأصيل

زهرة الجلنَّار ،

أقفر الريفُ لـمَّا تولَّت نوار .

بالصبابات يا حاملات الجرار

رحْنَ واسألنها : « يا نوار

هل تصيرين للأجنبي الدخيل ؟

للذي لا تكادين أن تعرفيه ؟

يا ابنة الريف ، لم تنصفيه !

كم فتىً من بنيه

كان أولى بأن تعشقيه ؟

إنهم يعرفونك منذ الصغرْ

مثلما يعرفون القمر

مثلما يعرفون حفيف النخيلْ

وضفاف النهر

والمطر

والهوى ، يا نوار ... »

احصدوا يا رفاقي ، فإن المغيب

طاف بين الروابي يرش اللهيب

من أباريق مجبولة من نضار ؛

والزغاريد تصدي بها كل دار :

أوقد القصر أضواءه الأربعين ،

فاتبعوني إليها مع الرائحين .

اتركوني أغني أمام العريس

وأراقص ظلي كقرد سجين

وأمثل دور المحب التعيس

ضاحكًا من جراحات قلبي الحزين ،

من هواي المضاع ،

من قلوب الجياع

حين تهوى ، ومن ذلة الكادحين .

سوف آكل حتى ينزَّ الدمُ

من عيوني .. فما زال عندي فمٌ :

كل ما عندنا نحن ، هذا الفمُ !

كان وهمًا هوانا ، فإن القلوب

والصبابات وقفٌ على الأغنياء !

لا عتاب .. فلو لم نكن أغبياء

ما رضينا بهذا ، ونحن الشعوب .

***

مرثية الآلهة

بلينـا ومـا تـبلى النجـوم الطوالـعُ ... ويبقـى اليتـامى بعـدنا والمصـانع
ويبقى «كربٌّ» الجالب الكرب كالصدى ... يغـصّ المنـادي بـالردى ، وهـو
كـأنّ الأميبـى تـوأمٌ وهـو تـوأمٌ ... لها ، فهو في منجىً من الموت قابعُ [148]
ولكنـه الفـرد الـذي يزحـف الـورى ... إلى حيـث ترمـي مقلتيـه المطـامعُ
أعنقـاءُ مـن صـحراء مجـدٍ تقحّمـت ... بها مغـرب الشـمس البعيـد الزعـازعُ
أم انسـلّ مـن أهـرام فرعـون هـاجعٌ ... وقتْـه انتقـاص الـدود منـه ، المباضـعُ
ومـن ليس يحيـا لـن يـرى وهـو هالـكٌ ... لـو كـان يحيـا مـا عدتـه الفواجـعُ
ومـا كـان إلا اسمًا « كـربٌّ » ابـن مثلـه ... بـه يُـدمغ اثنـان : الـورى والبضـائعُ
ولكنـه اسْـمٌ بالأسـاميّ يغتـذي ... تهجّـاه زفّـار اللّظـى والمـدافعُ
تمنيـتُ أنـى آلـةٌ : لا يُصـيبها ... كـلالٌ ولا وقـتٌ بهـا مـرّ ضـائعُ
لهـا مـن دمـاء النـاس قـوتٌ وخلفهـا ... مـن المـال عـن أن ينفـذ القـوتَ مـانعُ
ومـا تخطـئ الآلات في الجمـع تـارةً ... وفي الطّرح ، إن يخطئ من الناس جامُع
ولا عاقبتهـا عصـبةٌ مـن ورائهـا ... علينـا عقـابٌ برّئـوا منـه ، واقـعُ
ألا كـم رفعنـا مـن إلـهٍ وكـم هـوى ... إلـهٌ وأضـحى ثالـث وهـو رابـعُ
فـما جاوزتْنـا صـورةٌ منـه خطّهـا ... عـلى غفلـةٍ منـا مُجيـعٌ وجـائعُ
ومـا كـان معبـودًا سـوى مـا نخافـه ... ونرجـوه أو مـا خيّلتـه الطبـائعُ
فتمـوز مثـل الـلاّتِ ، والرعـد مـا رمـى ... بغـير الـذي تُطـوى عليـه الأضـالعُ

---

(147) كروب Krupp [1812–1887] مؤسس معامل كروب الشهيرة في أسن للصناعات الثقيلة والأسلحة .

(148) **الأميبي** : حيوان أولي من خلية واحدة نواتها بيضية ، تحيطها كتلة محببة ، تتلوها طبقة هلامية رائقة ، ويتحرك بالأقدام الكاذبة .

وكم ألَّه التَمرَ التهاميّ معشرٌ ... لما ليس يحيا دونه الناس راكعُ
فلـمّا شكا بعد الأثافيّ قدرها ... وضنَّت على الشَّدق الحفيّ المراضعُ
كفى كل ثغر كان يدعوه جوعه ... إلـهٌ أحاطته المدى والأصابعُ
دمي هذه الخمر التي تشربونها ... ولحمي هو الخبز الذي نال جائعُ
ولما تشظّى قلب نرسيس وانثنى ... يلمّ الشظايا منه شارٍ وبائعُ
وغذّى بها القلب الذي حين ذاقها ... نـما فيه نابًا كوسجٍ فهو قاطعُ
هوى كلَّ عالٍ من إله وسافلٍ ... إلى حيث ما من راحلٍ ثمَّ راجعُ
وأفضى ـ إلى العرس السديميّ معدن ... بها امتاحَ من إحداق « ميدوز » [149]
هو الشمس إلاّ أنَّ في زمهريره ... من الموت ظلاً حجَّبته البراقعُ
جزى أمّه الأرض التي من عروقها ... ربا واغتذى في جوفها وهو هاجعُ
بشرّ ـ الذي يُجزى به شرّ من عذا ... وأروى ، ويجزاه العدوُّ المنازعُ
فأدمى بنيها وارتعى من بناتها ... حقولاً ترجّى ، فهي شوهٌ بلاقعُ
كقابيل يغتال الأشقاء ، راكل ... ـ كأوديب ـ للخبز الإلهي صافِعُ
وهذا الإله الأملس الفظّ ما جَلا ... لنرسيس يجثو عنده وهو خاشعُ
سوى وجه نرسيس الرخامي ، شابه ... شحوبٌ يهوذيُّ التلاوين ناقعُ
وأوفى من الأرباب جيل يئمّه ... على قمّشة الأولمب ربُّ مخادعُ[150]
ترى « فحمَ » إذ يلقاه يَلقاه راجفًا ... و « فولاذ » من تلماح عينيه مائعُ
ويا عهد كنّا كابن حلاّج: واحدًا ... مع الله إن ضاع الورى فهو ضائعُ
أكلَّ الرِّجال الجوف أن يملؤوا به ... خواء الحشا هذا الإله المضارعُ
فعادَ الفقير الرّوح من ليس كاسيًا ... به ظاهرًا منَّا .. فحلّ التنازعُ

(149) ميدوزا : نافست «منيرفا» في جمالها . فغضبت الآلهة وحولت شعرها إلى ثعابين مخيفة . وجعلت عينيها قادرة على أن تحول إلى حجارة كل الأشياء التي تنظر إليها .

(150) هو : «زيوس» أبو الآلهة والناس في الأساطير الإغريقية .

من رؤيا فوكاي

(فوكاي ، كاتب في البعثة اليسوعية في هيروشيما جُن من هول ما شاهده غداة ضربت بالقنبلة الذرية) .

1 - هياي .. كونغاء كونغاي[151]

ما زال ناقوس أبيكِ يُقلق المساءْ

بأفجع الرثاء :

« هياي .. كونغاي ، كونغايْ » .

فيفزع الصغارُ في الدروبْ

وتخفق القلوب

وتغلق الدّثور ببكّينَ وشنغهايْ

من رجع : كونَغاي ، كونَغاي . !

فلتُحرقي وطفلك الوليد ،

(151) تحدثنا إحدى الأساطير الصينية عن ملك أراد ناقوسًا ضخمًا يصنع من الذهب ، والحديد ، والفضة والنحاس . وكلف أحد الحكام بصنعه ، ولكن المعادن المختلفة أبت أن تتحد واستشارت كونغاي - وهي ابنة ذلك الحاكم - العرافين بالأمر فأنبؤوها بأن المعادن لن تتحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء .. وهكذا ألقت كونغاي بنفسها في القدر الضخمة التي تصهر فيها المعادن .. فكان الناقوس .. وظل صدى كونغاي يتردد منه كلما دق . « هياي .. كونغاي كونغاي » . [عن ط. العودة ج2 ص32].

ليجمعَ الحديد بالحديد

والفحمَ والنحاس بالنُّضار

والعالمَ القديمَ بالجديد

آلهة الحديدِ والنحاسِ والدّمار ،

أبوك رائدُ المحيطِ ، نام في القرار :

من مقلتيه لؤلؤٌ يبيعه التجار [152] ...

وحظكِ الدُّموع والمحار

وعاصف عاتٍ من الرصاص والحديد .

وذلك المجلجلُ المرنُّ من بعيد :

لمن ، لمن يدق : « كونَغاي ، كونغاي » ؟

أهمَّ بالرَّحيل في « غِرناطة » الفجرْ ؟

فاخضرَّت الرياح ، والغديرُ ، والقمرْ [153]

أم سمَّر المسيحُ بالصليب فانتصرْ

وأنبتتْ دماؤه الورود في الصخَرْ ؟

---

(152) شكسبير ـ العاصفة أغنية « أريل » ـ روح الهواء الذي سخره « بورسبيرو » الساحر ـ لفرديناند « على عمق أذرعة خمس ينام أبوك في قرارة البحر ، لقد أصبحت عيناه لؤلؤتين ،، اسمع ها هو الناقوس ينعاه » . وقد اتخذه ت س . إليوت في قصيدته الكبرى « الأرض الخراب » رمزًا عن « الحياه من خلال الموت ولكن لاحظ كيف حولت « يبيعه التجار » المعنى ! [الشاعر].

(153) هذا البيت مقتبس من قصيدة للشاعر الإسباني القتيل لوركا . شاعر الغجر . [الشاعر].

أم أنها دماءُ كونغاي ؟

ورغمَ أن العالمَ استسرّ واندثر [154]

ما زال طائرُ الحديد يذرع السماء ،

وفي قرارة المحيطِ يعقد القرى

أهداب طفِلِك اليتيم ، حيثُ لا غِناءْ

إلاَّ صراخ « البابيون » : « زادُكَ الثرى ،

فازحفْ على الأربع .. فالحضيض والعلاء

سيَّان « والحياة كالفناء ! »

سيَّان « جنكِيزُ » ، و« كونَغايْ »

هابيلُ قابيلُ ، وبابلٌ كشنغهايْ ،

وليست الفضَّة كالحديد !

(154) هذا البيت والأبيات الستة التي تليه ـ تكاد تكون حرفية ـ عن الشاعرة الإنكليزية ايديت ستويل من قصيدتها الرائعة ترنيمة السرير LULLABY حيث تجلس البابيون ـ القردة ـ في قاع المحيط تهتز مهد طفل بشري ـ قتل « طائر الحديد » أمه ـ وتغني له مصبحة بهذا ـ وهي القردة ـ أما للطفل= =البشري ومعلمه له أيضًا . وليلاحظ قراء قصيدتي هذه أن هناك شخوصًا ثلاثة تترابط في ذهني : الصياد الياباني ـ أو الصيني ـ الفريق الذي أخاطب ابنته ، وأبو « فرديناند » ـ الذي زعم أريل أنه غرق ـ والقردة « البابيون » التي اتخذت مكان أم الطفل في قرارة المحيط ، كما جاء في قصيدة إيديت ستويل . [الشاعر].

هياي .. كونغاي ، كونغاي !

الصين حقلُ شايْ ،

وسوق شنغهاي

يعجُّ بالمزارعين قبل كلَّ عيد

هياي .. كونغاي ، كونغاي !

***

2 - تسديد الحساب

تلك الرواسي كم انحطَّ النهار على | أقصى ذُراها ، وكم مرَّت بها الظلَمُ
فما فرحنَ بآلاف الشموسِ ، ولا | من ألفِ نجمٍ تردى مسَّها ألم
صمَّاءُ ، بكماء ، لم تأخذ ، ولا وهبتْ | ولا ترصَّدها موت ولا هرم
لو أودع الله إياها أمانته | لنالهنّ على استيداعها ندمُ
ولاقتسمنَ مع الحياء ما دفعت | من جزيةٍ لا تُوفَّى حين تُقتسم :
عن كلِّ قهقهةٍ من صرخةٍ ثمنٌ | وما استجدَّ دمٌ إلا وضاع دمُ
وما تحمَّل آلام المخاض ولم | يقرب من النور إلاّ الفكرُ والرحمُ
وإن يكن أسعدَ الأحياء أكملها | فإنما هو أشقاهنَّ لا جَرَمُ ؟
« قابيلُ » باقٍ وإن صارت حجارته | سَيفًا ، وإن عادَ نارًا سيفهُ الخدمُ
وردَّ « هابيلُ » ما قضاه بارئه | عن خَلقهِ ، ثمَّ ردَّت باسمه الأمَمُ
واليومَ في حين وفَّى الدَّين غارمه | إلا بقايا وكادت تخلص الذِّممُ
وكاد يُرجع للدنيا بشاشتها | ما قرَّبته الضحايا وهي تبتسمُ
مشى على الأرض خلقٌ عاش في دمه | من وحشها في المخاض الأول الضرمُ
خَلقٌ تراءى لـ « يحيي » ساعة افترست | عينيه رؤيا لها مَن هؤلاء فم [155]
لو يُقبض النورُ بالأيدي لسوَّره | دونَ الورى .. ولتعمَّ العالم الظّلمُ
ريَّانُ عطشانُ لا يروي ، بلا فرحٍ | جذلانُ ، بادٍ عليه الجوع والبشمُ

---

(155) يحيي : القديس يوحنا المعمدان ، ابن زكريا وإليصابات من أنسباء يسوع المسيح . عاش في برية اليهودية ، ثم ظهر على شاطئ الأردن يعمد بالماء ، ويبشر بمجيء المسيح . قطع هيرودوس رأسه بتحريض «هيرودية» زوجته ، نحو 31 ق.م.

كأنـــه ـ وهـــو مـــاض في غوايتـــه ـ من نفسه اقتصَّ ، فهو الماءُ والحمـمُ

تفجـر الضَّـحِكُ المسـلوبُ مـن رئـةٍ منخوبـةٍ بعـد أخـرى هـدها السـقمُ

عـن ضـحكة أطلقوهـا فهـي صـاعقةٌ أصـابهم والـورى مـن رجعهـا صـممُ

واسـتنزفوا متعـةَ الأحيـاء : مـا دفعـوا عنهـا ، ولا غارمًـا مـا استنزفوا رحمـوا

ثـم اسـتزادوا .. فـإن لم يـذهبوا ديـةً أو يقصروا عـن طـماحٍ يـرجحِ العـدمُ !

***

3 - حقائق كالخيال [156]

مـاذا تريـد العيـون السـود مـن رجـلٍ ... قـد حـاش زهـر الخطايـا حـين لاقاهـا
زهـرًا عـلى جسـمي المحمـومِ أقطفـه ... في باقــةٍ مــن جــراحٍ بــتُّ أصــلاها
هــذا الربيــع الــذي تهــدي شــقائقه ... ريـــحَ المنايـــا إلى قلبـــي بريَّاهـــا
أزهــار تمــوز مــا أرعــى : أســلِّمه ... في عتمــةِ العــالم السُّــفليِّ إياهــا؟ [157]
أم صِــلّ حــوّاء بالتّفــاح كافــأني ... وهـو الـذي أمـسِ بالتفـاح أغواهـا ؟
مــاذا تريــد العيــون الســود؟ إن لهــا ... مـا لسـتُ أنسـاه منهـا حـين أنسـاها
مــا بــالهن استغضــنَ البــوم أوعيــةً ... عن أوجه الغيـد .. حتى ضـاع معناهـا
أيــن المنــاقير مــن لعــس مراشــفها ... ربِّي؟ وأيــن ابتســام كــان يغشــاها
مــن هــذه الخربــة الظلــاء محدقــة ... بي أعـين البـومِ مـن أجـداث موتاهـا ؟
قفـراء مـن غـير ثكْـلى شـفَّ مئزرهـا ... عـن وهـج فانوسـها الكـابي وأخفاهـا
تسـعى كـما اصـطاد في ليـلٍ يراعتـه [158] ... طفـلٌ ، وطـارت وقـد ألـوى جناحاهـا
محنِّيـــةٍ تتقـــرَّى كـــل شـــاهدةٍ ... مـن كـل قـبر ، كـما لـو كـان طفلاهـا
في كــلِّ قــبر يــذوقان الــردى : ديــة ... عمَّــن يــؤاوي وعــن أحيــاء دنياهــا
نـــادتهما فـــانبرى يزقـــو لصـــيحتها ... مـن حيـث ردّ الصـدى بـومٌ ونـاداهـا
« أمــاه إنــا هنــا ريــحٌ بنــا عصــفت ... لم نــدر أيــن أنهينــا بعــد لقياهــا »
وانشــقّ مــن خلفهــا قــبرٌ ليبلعهــا ... واحتازهــا واشرأبَّــت منــه كفَّاهــا
يحــتضُّ فانوســها التمتــامُ بيــنهما ... والريح خرساء تعبي غير .« ها.ها.ها.»

(156) المتحدث في هذه القصيدة مريض في مستشفى الصليب الأحمر في هيروشيما ، مصاب بالزهري الذي افترس دماغه حتى عاد يتخيل أشياء لا وجود لها ، ولكنه ـ خلال أوهامه ودون وعي منه ـ يصور جانبًا مما حدث في هيروشيما حيت ألقيت عليها القنبلة .

(157) تموز هو أدونيس إله الخصب والنماء ، وحبيب عشتروت ـ أوفينوس ـ إلهة الحب . وهو يقضي ـ نصفًا من السنة ـ الشتاء ـ في العالم السفلي مع برسفون ، والنصف الآخر ـ الصيف أو الربيع ـ على الأرض مع فينوس .

(158) **اليراعة** : ذبابة مضيئة ، حباحب .

ويُلمّ سازاك [159] كيف اندك حائطه ... حتى تعرى ليّ السهلُ الذي حجبا ؟

سهل سكنّ الصلال الرّقْط ، أجهضه ... عادٍ من المحل حتى يفزع العطبا

وانبحَّت التربةُ العجفاء ـ من عطش ـ ... عن أشدُق فاغراتٍ تنبح السحبا

والشمس كالأطلس [160] المسعور ... والريحُ تصليه من تنورها لهبا

الريح؟ لا ليست الريح التي ركضت ... بيضاء سوداء رقطاء القفا عجبا

عنقاء في مَسعر الجوزاء أعينُها ... والصخر يرفضّ من أظلافها شهبا

تلك الزرافات في السهل العقيم لها ... مرعى روى من سرابٍ ينبت السّغبا

ما روّعتها سوى ضوضاء خشخشة ... في كفِّ أبرص يعدو خلفها خببا

تخفيه عنها ضماداتٌ ، ويظهره ... ما نزَّ من قيحه الدامي وما شخّبا

نادى ، وكفّاه تختضّان « واحربَا » ... فاستعبر العاصف المصدور « واحربا »

« ماء اسْقِ يا ماء » تلهاثٌ مقاطعه ... منزوعة من لسان يشبه الخَشَبا

حتى استجاب السحاب الجوْن فانعقدت ... في الجوّ حبّاته الغبراء فاحتجبا

وانهلَّ لا عن ندىً صافٍ ولا مطر ... بل عن دم ، من ثُدي مزّقت حُلبا

أو عن مشاش من الأحدّاق فقّأها ... سِيخٌ لجنكيزَ [161] دامٍ ينفث اللهبا

« ماء ، اسق يا ماء » والغيث الرهيب كلٌ ... مَفريةٌ سحَّت الآجال والكربَا

---

(159) الدكتور سازاكي كان طبيبًا في مستشفى الصليب الأحمر في مدينة هيروشيما .

(160) **الأطلس** : الذئب .

(161) جنكيز خان [1167-1227] فاتح مغولي ، فتح منغوليا [1206] واتخذ قرقوم عاصمة له . استولى على أغلب أراضي الصين ، فتح تركستان وبلاد ما وراء النهر ، وأفغانستان . وتوغّل في جنوب أوربا .

لم يبـق مـن مـر تـوٍ أو ظـامئ، بفـمٍ	أو دون .. إلا ومـن مـاء الـردى شربـا

ويـلٌ لسـازاك! مـاذا ينْتـوي بـدمي	مـن نيّـةٍ .. فهـو يستصـفي ويمتـار؟

تلـك الزجاجـات أشـلاء مجـزأة	منـي، دمـي مختـزٍ فـيهنّ مـوّار!

لم تـثن سـازاك عـن شـحذٍ لمديتـه	آهـات مـرضى، ولا ألهـاء زوار!

إني لـدارٍ بـأني حـين يشرعها	ران إليهـا، فملـدوغٌ، فمُنْهـار

هـل تبتغـي شـفرتاها غـير آنيـةٍ	فيهـا دمـي راجـفٌ، والـداء والعـار؟

ما كنت يومًا ولا المرضى سوى عَرضٍ	ـ في عـين سـازاك ـ يُجبـى منـه إيجـار

سـت وعشرـون: أعـدادٌ عـلى سررٍ	أمـا الأصـحاء والمـرضى فأصـفار!

فالرقم «عشرون» لا يسقى سوى لبنٍ	والـرقم «عشرـ» نعـاه اليـوم محـرار

واليـوم لم يبـقَ مـا أعطيـه عـن مـرضٍ	إلا دعـائي وقـولي «نعمـتِ الـدار!»

فليلْـقَ سـازاك مـن سـمي «ثمانيـة»	غـيري، ويستوفِ أجرَ القبر حفـار!

***

قافلة الضياع

أرأيت قافلة الضيّاع؟ أما رأيت النازحين؟

الحاملين على الكواهل ، من مجاعات السنين

آثام كل الخاطئين

النازفين بلا دماء

السائرين إلى وراءْ

كي يدفنوا « هابيل » وهو على الصليب ركام طين؟

« قابيل ، أين أخوك؟ أين أخوك؟ »

جمّعتْ السماءْ

آمادَها لتصيح كوّرت النجوم إلى نداء :

« قابيل ، أين أخوك ؟ »

يرقد في خيام اللاجئين

السلّ يُوهن ساعديه ، وجئته أنا بالدواءْ

والجوع لعنة آدم الأولى وإرثُ الهالكين

ساواه والحيوان ثم رماه أسفل سافلين

ورفعته أنا بالرغيف ، من الحضيض إلى العلاءْ

الليل يُجهض ، والسفائن مثقلات بالغزاه :

بالفاتحين من اليهود

يلقين في حيفا مراسيهنّ ـ كابوس تراه

تحت التراب محاجر الموتى فتجحظ في اللحود

ألليل يجهض فالصباح من الحرائق .. في ضحاه

ألليل يجهض فالحياه

شيء ترجّح لا يموت ولا يعيش بلا حدودْ

شيء تفتّح جانباه على المقابر والمهود

شيء يقول : « هنا الحدود !

هذا لكل اللاجئين وكل هذا .. لليهودْ! »

النار تصرخ في المزارع والمنازل والدروب

في كل منعطف تصيح : « أنا النضار ، أنا النضار »

من كل سنبلة تصيح ومن نوافذ كل دار

« أنا عجل « سيناء » الإله ، أنا الضمير ، أنا الشعوب

أنا النضار ! »

النار تتعبنا ، كأنّ مدى اللصوص وكل قطّاع الطريقْ

يلهثن فيها بالوباء ، كأن ألسنة الكلاب

تلتزّ منها كالمبادر وهي تحفر في جدار النور بابْ

تتصبّب الظلماء كالطوفان منه ؛ فلا ترابْ

ليُعاد منه الخلق ، وانجراف المسيح مع العبابْ

كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيق

يسدّ ما حفرته ألسنة الكلاب

فاجتاحه الطوفان : حتى ليس ينزف منه جنب أو جبين

إلا دجىً كالطين تبني منه دور اللاجئين

النار تركض كالخيول وراءنا أهمُ المغولُ

على ظهور الصافنات؟ وهل سألت الغابرين

أروضوا أمس الخيول؟

أم نحن بدء الناس : كل تراثنا أنصاب طينْ

النار تصهل من ورائي والقذائف لا تنامُ

عيونُها وأبي على ظهري ، وفي رحمي جنينْ

عريان دون فمٍ ولا بصرٍ تكوّر في الظلام

في بركة الدم وهو يفرك أنفه بيدٍ وكالجرس الصغير

يرن ملء دمي صداه ـ تكاد تومض كل روحي بالسلام

حتى أكاد أراه في غبش الدماء المستنير

عريان دون فم كأفقر ما يكون : بلا عظامْ

وبلا أب ، وبدون حيفا دون ذكرى ـ كالظلام!

أسريت أعبر ، تحت أجنحة الحديد به الزمان

من الحقول إلى المراعي فالكهوف

والأرض تطمس من وراء ظهورنا ، كالأبجدية

الدور فيها والدوالي شاخصات كالحروف

فكأن أمسِ غدٌ يلوح وليس بينهما مكانْ

لم يخرجونا من قرانا وحدهنّ ولا من المدن الرخيّه :

لكنهم قد أخرجونا من صعيد الآدميّه !

فاليوم تمتلئ الكهوف بنا ونعوي جائعين

ونموت فيها لا نخلف للصغار على الصخور

سوى هباب ما نقشنا فيه من أسدٍ طعين!

ونموت فيها لا نخلّف بعدنا حتى قبور

ماذا نحطّ على شواهدها؟ .أ. « كانوا لاجئين؟ »

اليوم تمتلئ الكهوف بنا : تظلل بالخيامِ

وبالصفيح ، وقد تغلهنَّ بالآجرّ دور

والنور كالتابوت فيها ، ليس فيه سوى ظلامْ

بين الكهوف وبين حيفا من ظلامٍ ألف عامِ أو يزيدْ

بين الكهوف وبين أمس هناك بئر لا قرار

لها ، كهاوية الجحيم تلزّ فاها دون نارْ

تتعلّق الأحداث فيها كالجلامد في جدارْ

لحدًا على لحدٍ ، أُزيح الطين عنها والحجارْ

من يدفن الموتى وقد كشفوا وماتوا من جديدْ؟

من يدفن الموتى ؟

ليولد ، تحت صخرة كل شاهدة ، وليدْ؟

من يدفن الموتى لئلا يُزحموا باب الحياةِ

على أكفّ القابلاتْ؟

من يدفن الموتى لنعرف أننا بشر جديدْ!

في كل شهرٍ من شهور الجوع يومئ يوم عيدْ

فنخفّ نحمل من « تذاكرنا » صليب اللاجئين :

ـ « يا مكتبًا للغوث في سيناء هبْ للتائهين

مَنًّا وسلوى من شعير ، والمشيمةَ للجنين

واجعل له المطّاط سرَه

وارزقه ثديًا من زجاجٍ واحْشُ بالأدريج صدره »

وبأيما لغة تقول فيستجيب الآخرون

ونورث الدم للصغار ؟

أعلمت ـ حين نقول : دار أو سماء ـ أيّ دارٍ

أو سماء تخطران على العيون ؟

هيهات ، ليس للاجئين واللاجئات من قرار

أو ديار ،

إلا مرابع كان فيها أمس معنى أن نكون

سنظل نضرب كالمجوس نجسّ ميلاد النهار!

كم ليلةٍ ظلماء كالرّحم انتظرنا في دجاها

نتلمس الدم في جوانبها ونعصر من قواها

شعّ الوميض على رتاج سمائها مفتاح نار

حتى حسبنا أن باب الصبح يفرج - ثم غار

وغادر الحرسُ الحدود

واختصّ رعدٌ في مقابر صمتها يعد القفار ،

ثم اضمحلّ إلى غبار بين أحذية الجنود

الليل أجهض : ناره الحمّى وديمته انتحاب الضائعين

الليل أجهض : ليس فيه سوى مجوس اللاجئين

النار تركض كالخيول وراءنا . أهمُ المغولُ

على ظهور الصافنات؟ وهل سألتَ الغابرينَ

أروضوا أمسِ الخيول ؟

أم نحن بدء الناس : كل تراثنا أنصاب طين؟

***

يوم الطغاة الأخير

(أغنية ثائر عربي من تونس لرفيقته)

« إلى الملتقى ... » ، وانطوى الموعدُ

وظلّ الغدُ :

غد الثائرين القريبْ

يدأُ بيدٍ من غمار اللهيب

سنرقى إلى القمة العاليه

وشعرك حقلٌ حباه المغيب

أزاهيره القانيه

نرى الشمس تنأى وراء التلالْ

وبين الظلال

قد رفَّ ، مثل الجناح الكسير

على كومةٍ من حطام القيود

على عالم بائدٍ لن يعود

سناها الأخير

تقولين لي : « هل رأيت النجوم؟

أأبصرتها قبل هذا المساء

لها مثل هذا السّنا والنّقاء؟ »

تقولين لي : « هل رأيتَ النجوم؟

وكم أشرقت قبل هذا المساء

على عالم لطّخته الدماء :

دماء المساكين والأبرياء! »

تقولين لي : « هل رأيتَ النجوم؟

تُطلّ على أرضنا وهي حرّه

لأول مرّه؟ »

نعم أمس حين التفتّ إليكِ

تراءين كالهجس في مقلتيك

وإذ يستضيء المدى بالحريق

فيندكّ سجن ويُجلي طريقْ

ويُذكي بأطيافه الدافئه

محيّاك باللهفة الهانئة ؟

تقولين « نحن ابتداء الطريق ـ

ونحن الذين اعتصرنا الحياه :

من الصّخر تدمي عليه الجباه

ويتمصّ ري الشفاه ،

من الموت في موحشات السّجونِ ؛

من البؤس ، من خاويات البطون؛

لأجيالها الآتية

لنا الكوكب الطالعُ

وصبح الغد الساطعُ

وآصاله الزاهيه! »

***

إلى جميلة بو حريد

لا تسمعيها .. إنّ أصواتنا

تخزى بها الريحُ التي تنقلُ ،

باب علينا من دمٍ مُقْفَلُ

ونحن في ظلمائنا نسأل :

« من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتلُ ؟

من يصلب الخبز الذي نأكلُ ؟

نخشى إذا واريتِ أمواتنا

أن يفزعَ الأحياءَ ما يُبصرونْ ،

إذ يُقفر الكهف الذي يأهلون ؛

إن عربد الوحشُ الذي يطعمون

من أكبُد الموتى ، فمن يبذلُ؟

يا أُختنا المشبوحةَ الباكيه،

أطرافُك الداميه

يقطرْن في قلبي ويبكين فيه

يا من حملتِ الموتَ عن رافعيه

من ظلمة الطين التي تحتويه

إلى سماوات الدم الواريه ،

حيث التقى الإنسان والله ، والأموات والأحياء في شهقةٍ،

في رعشةٍ للضربة القاضيه

الأرضُ ، أمُّ الزهر والماء والأسماك والحيوان والسنبلِ،

لم تبلُ في إرهاصها الأول

من خضّة الميلاد ما تحملينْ :

ترتجُّ قيعان الميحطات من أعماقها ، ينسحُّ فيها حنين ،

والصخر منشدٌّ بأعصابه ـ حتى يراها ـ في انتظار الجنين

الأرض؟ أم أنت التي تصرخين؟

في صمتك المكتظِّ بالآخرين؟

في ذلك الموت ، المخاض ، المحب ، المبغض ، المنفتح ، المقفلِ

ونحن؟ أم أنت التي تولدين؟

أسخى من الميلاد ما تبذلين،

والموت ، أقسى منه ، من كل ما عاناه أجيالٌ من الهالكين،

أنَّ الذي من دونه الجُلْجله

والسوطَ والسجَّانَ والمقصله،

أنَّ الذي يفديكِ أو تفتدين،

غيرُ الذي آذاه بالنار أو بالعار والماء الذي تشربين :

عبءٌ من الآجال ما أثقله!

كم حاول الجلاد أن ينزله ،

كم ودَّ أن تُلقيه إذ تعجزين

مشبوحةَ الأطراف فوق الصليبْ،

مشبوحة العينين عبر الظلام،

يأتيك من وهرانَ ـ يا للزحام! ـ

حَشْدٌ مُشع باشتعال المغيب،

يأتيك كل الناس ، كل الأنام،

يرجون ، مما تبذلين ، الطعام

والأمنَ والنعماء والعافيه

وأنتِ مثلُ الدوحةِ العاريه،

لم يُبق منك البغيُ إلا الجذور

الموت واه دونها ، والنشورُ

فيها وتجري دونكِ الساقيه

ما شبَّ في وهران من بُرعُمِ

أو أزهرت في أطلس عَوسَجه ،

إلا ودبّت في مسيل الدمِ

نمنةٌ منعشةٌ مبهجة

توحي بأن الأرض ظلت تدور

طاحونةً للقاتل المجرمِ

تسحق منه واهنِ الأعظُمِ ،

وأنَّ ألوانَ الأذى والعذَاب

ذخرٌ لنا ، نجلوه يوم الحساب

نسقي به الباغين ، نُروي التراب

من لفحِهِ ـ أن الهوى والشباب

لم يذهبا ـ أن البعاد اقتراب ـ

أن من الدمع الذي تسكبين

أسلحةً في أذرع الثائرين

جاء زمانٌ كان فيه البشرْ

يفدون من أبنائهم للحجر :

« يارب عطشى نحن هات المطر !

رو العطاشى منه . روِّ الشَّجَرْ »

وجاء حينٌ عاد فيه البشر

يفدون بالأنعام ما تحبس السماء في أعماقها من قدر

وجاء عصرٌ سار فيه الإله

عريان ، يدمي ، كي يروي الحياه

واليوم ولّى محفل الإله ،

واليوم يفدي ثائر بالدماءْ

الشيبَ والشبانَ ، يفدي النساء،

يفدي زروع الحقل ، يفدي النماء،

يفدي دموع الأيِّم الواله

بالأمس دوى في ثرى يثربِ

صوتٌ قويٌّ من فقير نبي،

ألوى ببغي الصَّخْر لم يضربِ ،

وحطّم التيجانَ أيُّ انطلاقْ

في مصرَ ، في سوريّةٍ ، في العراق،

في أرضكِ الخضراء . كان انعتاق!

بالأمس وارى قومك الآلهه

عشتار ، أم الخِصْب ، والحب ، والإحسان ، تلك الربّة الوالهة

لم تُعطِ ما أعطيتِ ، لم تُرْوِ بالأمطارِ ما روّيت : قلبَ الفقير،

لم يعرف الحقد الذي يعرفونْ

والحسَدَ الآكلَ حتى العيون

نحن بنو الفقر الذي يزعمون

في كل عصر أنهم وارثوه

قابيل فينا ما تهاوى أخوه

من ضربة الحقد التي يضربون

يوم ابتدأنا كان عبءُ السماء

ملقىً على أطلس ،

يزحمه بالمنكب الأمْلس

ثم ارتقى « إيفل » [162]، تمّ البناء

فانحطّ ذاك العبء حينًا عليه ،

ثم انطلقنا نحن من جانبيه

حتى حملنا عبئها ، كل ما فيها من الأبراج والأنجمِ،

يا أختنا المشبوحة الباكية ،

أطرافك الداميه

يقطرن في قلبي ويبكين فيه

لم يلقَ ما تلقين أنتِ المسيحُ

أنتِ التي تفدين جُرُح الجريح

(162) برج إيفل في باريس .

أنت التي تُعطين .. لا قبضَ ريح ،

يا أُختنا ، يا أُمَّ طفالنا

يا سقف أعمالنا

يا ذرة تعلو لأبطالنا

ما حزَّ سوط البغي في ساعديْك

إلا ، وفي غيبوبة الأنبياء ،

أحسستِ أنّ السوط ، أن الدماء ،

أنّ الدجى ، أن الضحايا .. هباء

من أجل طفل ضاحكته السماء

فرحان في أرضه

وبعضُه فرحانُ من بعضهِ ،

أحسستِه يحبو على راحتيْك ،

سمعته يضحك في مسمعْيك

يهتف : « يا جميله

يا أختيَ النبيله ،

يا أختيَ القتيلة ،

لك الغد الزاهي ما تشتهينْ »

وأنت إذ أحسست ، إذ تسمعين ،

تعلو بك الآلام فوق الترابْ

فوق الذرى ، فوق انعقاد السحاب ،

تعلين حتى محفل الآلهه

كالربّة الواهه ،

كالنسمةِ التائهه

لا تسمعيها .. إنّ أصواتنا

تخزي بها الريحُ التي تنقلُ

بابٌ علينا ، من دمٍ ، مُقْفَلُ

ونحن نُحصي ، ثَمَّ ، أمواتنا

الله لو لا أنت يا فاديه

ما أثمرت أغصانُنا العاريه

أو زنبقت أشعارنا القافيه

إنّا هنا .. في هوةٍ داجيه

ما طاف لو لا مقلتاكِ الشعاعْ

يومًا بها . نحن العراة الجياع؛

لا تسمعي ما لفَّقوا ، ما يُذاع ،

ما زيَّنوا ، ما خطَّ ذاك اليراع

إنَّ هنا كومٌ من الأعظمِ

لم يبق فينا من مسيل الدمِ

شيء نروي منه قلبَ الحياة

إنّا هو موتى ، حفاة ، عراة

لا تسمعيها .. إنّ أصواتنا

تخزي بها الريحُ التي تنقلُ ،

بابٌ علينا ، من دمٍ ، مُقْفَلُ

ونحن في ظلمائنا نسأل :

« من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتَلُ؟ »

يا نفحةً من عالم الآلهه

هبَّت على أقدامنا التائهه ،

لا تمسحيها من شواظ الدماء،

إنا سنمضي في طريق الفناء؛

ولترفعي « أوراس » حتى السماء

حتى تروي من مسيل الدماء

أعراقُ كلَّ الناس ، كلِّ الصخور ،

حتى نمسَّ الله . حتى نثور!

***

رسالة من مقبرة

« إلى المجاهدين الجزائريين »

من قاع قبري أصيحْ

حتى تئنَّ القبورْ

من رجع صوتي ، وهو رملٌ وريح :

من عالم في حفرتي يستريح ،

مركومةً في جانبيه القصور ،

وفيه ما في سواه

إلا دبيبَ الحياه ،

حتى الأغاني فيه ، حتى الزُّهور

والشمسُ ، إلاّ أنها لا تدور

والدُّود نخَّار بها في ضريح

من عالم في قاع قبري أصيح

« لا تيأسوا من موْلدٍ أو نشور ! »

النور من طين هنا أو زجاجْ ،

قُفلٌ على باب سورْ

النور في قبري دجّى دون نور

النور في شُباك داري زجاج ،

كم حدّقتْ بيَ خلفه من عيونْ

سوداءَ كالعارِ

يجرحن بالأهدَالب أسراري

فاليوم داري لم تعدْ داري

والنور في شبَّاك داري ظنونْ

تمتصُّ أغواري

وعند بابي يصرخ الجائعون

« في خُبزِكُ اليوميِّ دفءُ الدِّماء

فاملأ لنَا ، في كال يومٍ ، وعاء

من لحمك الحيِّ الذي نشتهيه ،

فنكهةُ الشمس فيه

وفيه طعم الهواء ! »

وعند بابي يصرخ الأشقياءْ :

« أُعصرْ لنا من مقلتيكَ الضياء

فإننا مُظلمون! »

وعند بابي يصرخ المخبرون :

« وعَرٌ هو المرقى إلى الجلجلة [163]،

والصَّخرُ ، يا سيزيفُ ، ما أثقله

سيزيف .. إنّ الصخرةَ الآخرون! »

لكنَّ أصواتًا كقرع الطبولْ

تنهلَّ في رمسي

---

(163) الجلجلة : الجبل الذي حمل المسيح صليبه إلى قمته .

من عالم الشمسِ

هذه خُطى الأحياءَ بين الحقول

في جانب القبر الذي نحن فيه

أصداؤها الخضراء

تنهلُّ في داري

أوراقَ أزهار

من عالم الشمسَ الذي نشتهيه

أصداؤها البيضاء

يَصدعنَ من حولي جليدَ الهواء

أصداؤها الحمراء

تنهلُّ في داري

شلالَ أنوارِ ،

فالنور في شبَّاك داري دماء

ينضَحنَ من حيث التقى ، بالصخورْ

فِي فُوهةِ القَبرِ المغطَّاة ، سور

هذا مخاضُ الأرض لا تيأسي؛

بُشراكِ يا أجداث ، حانَ النشورْ!

بشراكَ .. فِي « وهران » أصداءُ صوْر

سيزيفُ ألقى عنه عبء الدُّهور

واستقبلَ الشمسَ على « الأطلسِ ! »

آهٍ لوهرانَ التي لا تثور !

***

في المغرب العربي

قرأتُ اسمي على صخره

هنا، في وحشة الصحراءْ ،

على آجرّة حمراء ،

على قبر . فكيف يحسُّ إنسانٌ يرى قبره؟

يراه وإنه ليحارُ فيه

أحيّ هو أم ميتٌ ؟ فما يكفيه

أن يرى ظلاً له على الرمالْ ،

كمئذنةٍ مُعفّرةٍ

كمقبرةٍ

كمجدٍ زالْ

كمئذنةٍ تردد فوقها اسمُ الله

وخُطَّ اسمٌ له فيها ،

وكان محمدٌ نقشًا على آجرَّةٍ خضراءْ

يزهو في أعاليها ..

فأمسى تأكل الغبراء

والنيرانُ ، من معناه ،

ويركله الغزاة بلا حذاء

بلا قدم

وتنزف منه ، دونَ دمٍ ،

جراحٌ دونما ألم -

فقد مات ..

ومتنا فيه ، من موتى ومن أحياء

فنحن جميعنا أموات

وأنا ومحمد والله

وهذا قبرنا : أنقاض مئذنة معفّرةٍ

عليها يُكتبُ اسم محمدٍ والله ،

على كِسرةٍ مبعثرة

من الآجرّ والفخّارْ

في قبر الإله ، على النهار

ظلٌّ لألف حربةٍ وفيلْ

ولوْنُ أبرهَه[164]

وما عكسته منه يدُ الدليل ،

والكعبة المحزونة المشوَّهه

قرأت اسمي على صخره،

على قبرين بينهما مدى أجيالْ

يجعل هذه الحفره

تضمّ اثنين : جد أبي ـ ومحضُ رمالْ

ومحضُ نثارة سوداء منه ، استنزلا قبره ـ

وإياي ، أبنَه في موته والمضغةِ الصلصال

وكان يطوف من جدِّي

مع المدِّ

هتافٌ يملأ الشطآنَ : يا وديانِنا ثوري!

ويا هذا الدمُ الباقي على الأجيالْ

يا إرثَ الجماهير ،

تشظَّ الآن واسحقْ هذه الأغلالْ

(164) أبرهة : صاحب قصة الفيل في القرآن الكريم .

وكالزلزال

هُزَّ النيرَ ، أو فاسحقه واسحقنا مع النيرِ

وكان إلهنا يختالْ

بين عصائب الأبطال ،

من زندٍ إلى زندِ

ومن بنْدٍ إلى بندِ

إلهُ الكعبة الجبّارْ ،

تدرع أمس في ذي قار

تَدرَّعَ من دم النعمان[165] في حافاتها آثارْ

إله محمد وإله آبائي من العرب ،

تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوّار ،

وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار

وأبصرناه يهبط أرضنا يومًا من السحب

جريحًا كان في أحيائنا يمشي ويستجدي ،

(165) هو : النعمان بن منذر ماء السماء .

فلم نضمدْ له جرحًا

ولا ضحَّى

له منا بغير الخبز والأنعام من عبْدِ!

وأصوات المصلين إرتعاشٌ من مراثيهِ

إذا سجدوا ينزُّ دمُ

فيسرع بالضماد فمُ :

بآياتٍ يغضّ الجرح منها خير ما فيهِ ،

تداوي خوفنا من علمنا أنا سنحييه

إذا ما هلل الثوار منا : « نحن نفديه ! »

أغار ، من الظلام على قرانا

فأحرقهنَّ ، سربٌ من جرادِ

كأن مياه دجلة ، حيث ولى ،

تنمّ عليه بالدم والمداد

أليس هو الذي فجأ الحُبالى

قضاه ، فما ولدْنَ سوى رمادِ؟

وأنعل ، بالأهلة في بقايا

مآذنها ، سنابك من جوادِ ؟

وجاء الشام يسحب في ثراها

خُطى أسدين جاعا في الفؤاد؟

فأطعم أجوع الأسدين عيسى

وبلّ صداه من ماء العماد

وعضّ نبيّ مكة .. فالصحاري

كل الشرق ينفرُ للجهادِ؟

أعاد اليوم ، كي يقتصّ من أنّا دحرناهُ؟

وإن الله باق في قرانا ، ما قتلناه ؟

ولا من جوعنا يومًا أكلناه؟

ولا بالمال بعناهُ.

كما بعوا

إلههُم الذي صنعوه من ذهبٍ كدحناه؟

كما أكلوه إذ جاعوا.

إلههمُ الذي من خبزنا الدامي جبلناهُ ؟

وفي باريس تتخذ البغايا

وسائدهنّ من ألم المسيحِ

وبات العقمُ يزرع في حشاها

فم التنِّين : يشهق بالفحيحِ

ويقذف من حديدٍ في حمانا

جحافل كالفوارس ، دون روحِ

تجدّ وراء مكة في الصياصي

أقمناها ، ويثرب في السفوحِ

قرأت اسمي على صخره ..

وبين اسمين في الصحراء

تنفس عالمُ الأحياء

كما يجري دمُ الأعراق بين النبض والنبض

ومن آحرّةٍ حمراء ماثلة على حُفره

أضاء ملامح الأرضِ

بلا ومض

دمُ فيها ، فسمَّاها

لتأخذ منه معناها

لأعرف أنها أرضي

لأعرف أنها بعضي

لأعرف أنها ماضيَّ ، لا أحياه لولاها

وأني ميِّت لولاه ، أمشي بين موتاها

أذاك الصاخب المكتظ بالرايات وادينا؟

أهذا لوْن ماضينا

تضوَّأْ من كوى « الحمراءْ »

ومن آجرّةٍ خضراء

عليها تكتب اسم الله بقيا من دم فينا ؟

أنبرٌ من آذان الفجر ؟ أم تكبيرة الثوارْ

تعلو من صياصينا ..؟

تمخَّضت القبور لتنشرَ الموتى ملادينا

وهبّ محمدٌ وإلهه العربيّ والأنصارْ :

إن إلهنا فينا

***

مرثية جيكور

يا صليب المسيح ألقاكَ ظلاً فوق « جيكور »[166] طائر من حديد
يـا لظـلٍّ كظلمـة القـبر في اللـون ، وكـالقبر في ابـتلاع الخـدود
والتهـام العيـون مـن كـل عـذراء كعـذراء « بيـت لحـم » الولـود
مـرّ عجـلان بـالقبور العـواري مـن صـليب عـلى النصـارى شـهيد
فاكتسـت منـه بالصـليب الـذي مـا كـان إلا رمـز الهـلاك الأبيـد :
لا رجـاءٌ لهـا بـأن يُبعـث المـوتى ولا مأمـل لهـا بـالخلود !
ويـل جيكـور؟ أيـن أيامهـا الخضرُ ـ ولـيلاتُ صـيفها المفقـود؟
والعشـاءُ السـخيّ في ليلـة العـرس وتقبيلـة العـروس الـودود
وانتظارٌ له على الباب؟« محمود ، تأخرت يا أبا محمود نادِ محمود! »
ثـم يـوفى عـلى الجمـعِ بمنـديل عرسـه المعقـود
نقطتُـه الـدماء يشـهدنَ للخـدر بعـذراء ، يـا لهـا مـن شـهود[167]
لا على العقـم والـرّدى ، بـل عـلى الميلاد والبعـث والشباب الجديـد!
أيّ صـوت يصـيح : « محمـود ، محمـود تـأخرت! » كـالنواح البعيـد؟
أيـن محمـود؟ لـيس محمـود في الـدار ولا الحقـل! يـا أبـا محمـود
نـادِ محمـود . كـاد أن يهتـف الـديكُ ومـا زال جمعنـا في الوصـيد
قـلَ لـه يُـبرز الـدماءَ فإنَّـا في انتظـار لهـا وشـوق مبيـد!
ذر نجـمُ الصـباح . محمـود ، محمـود ، أأقبلـت بالـدم المنشـود؟

---

(166) جيكور : قرية الشاعر في جنوب البصرة .

(167) يطلب من العريس في العراق في ليلة العرس أن يبرز منديلاً ملطخًا بالدماء يشهد على أن العروس عذراء .

أي جـــرح ينـــز منـــه الـــدم المـــوَّار في بـــاب داركَ المرصـــود؟
إنـه منـك! منـك هـذا الـدم الشرّ ومـن جانـب العـروس القديـد!
الصــليبُ ، الصــليبُ! إنّــا رأينــاه وقــد مــرَّ كالخيــال الشَّرــود
قــد رأينــاه في الصــباح ، وفي الليــل ســمعنا كقعقعــات الرعــود
أهــو هــذا الــذي يريــدون؟ أشــلاءً وأنقــاض منــزل مهــدود؟
أفــما قامــت الحضــارات في الأرض كعنقــاء مــن رمــادِ اللحــود؟
لا ولم تُفــرخ العقــولُ عــلى المجهــول يســبرْنَ فيــه غــورَ الوجــود!
أو يشــقُّ العُبــابَ قلــعٌ يصــكُّ الــريحَ صــكًا إلى البعيــد البعيــد؟
أو يلـــمّ النســـيمَ عقـــدًا مـــن النـــور ويـــذروه باقـــة مـــن ورود
ســاحرٌ فجَّــر المــدى عــن مــدى مــلآنَ بــاللحن مُنــزِعٍ بالنشــيد؟
أو تدقّ الأجراس : « يا أرضُ ، يا بشراك بالحبّ والمسيح الوليد؟ »
لا ولم يُختم الزجـاج عـلى كـل « هِرقَـلٍ » [168]مـن العقـار الأكيـد
بخنــق المــوتَ كلــما هــمَّ بالنــاس ويجتــاح كــاسرات الأســود؟
لا ولا قــيسَ بعــدما لفَّــه الليــل مــن الأرض واحتــوى مــن حــدود
بالــذي قــاس حافــةَ الســاعةِ القــوراء في قرصــها ذراعــا حديــد؟
أو يفـضّ الظـلام؟ ألا لكـي تنـدكّ « جيكـور » بالسـلاح الجديـد؟
كــي يراهــا عــلى اتســاع المــدى والشــأوِ مــن لــيس طرفــه بالحديــد؟
مــن وراء المحــيط والليــل والغابــات والبيــد والــذرى والســدود!
أين من شـال « جـين » أطـمار « كلثـوم؟ » وأن الغضـا مـن الأركيـد؟
فـيمَ أسرى صـحاب « جـين » المغـاوير إلى زوج « كلـثم » المنكـود؟
يــا رمــادًا تــذرَّه الزعــزع الشــعثاء في مقلــة القمــير الوحيــد ،

(168) هرقل أكثر الأبطال شهرة في الأساطير اليونانية والرومانية لقوته وشجاعته.

أنت « جيكور » كل جيكور : أحداق العذارى وباسلات الزنود
والرؤوس التي حثا فوقهنَّ الدهر ما في رحاه من تنكيد
صرَّد القمح من نثار لها اللون ، ولم تحظَ بالرغيف الوئيد
فهي صحراء تزفر الملح آهات وشكوى ، لمائها المؤود !

خورس [169]:

شيخ اسمُ الله .. ترللا

قد شابَ ترلّ ترلَ ترارِ .. وما هلّا

ترلل .. العيد ترللا

ترللا . عرس « حمادي »

زغردن ترلّ ترللاّ

الثوب من الريز .. ترلْلا

والنقشُ صناعةُ بغداد

***

(169) يغني الخورس أغنيتين عراقيتين شعبيتين : (شيخ اسم الله) نبات كالحلفاء تؤكل أزهاره وهي في براعمها ، وتتفتح عن سنابل تشبه الرؤوس التي شابت .

إنها الريح! فاملئي الريح يا جيكور بالضحك أو نثار الورود!
فقطْب الصمتُ حيث كانت أغانيك ، وحيث العبير نتن الصديد
جاء قرنٌ وراح والمدن في ضوضاء ، وما زلن من حساب النقود
ضاع صوتٌ الضعاف فيها وآهات النبيِّين وابتهال الطريد
واستحال الفضاء من ضجة الآلات فيها ومن لهاث العبيد
غير هذا الفضاء : شيئًا لغير الآدميين – ربما للقرود ..
ربما للذئاب والدود والأدنى من الدود في الحضيض البليد!
ظلّ ذاك الضجيج كالجيفة الحبلى بما ليس غير عقم الولود ،
ثمة التمّ في كرات من النار .. فألقى عليك صمت اللحود!
لا عليك السلام يا عصر « تعبان بن عيسى » وهنت بين العهود!
ها هو الآن فحمة تنخر الديدانُ فيها فتلتظي من جديد :
ذلك الكائن الخرافيّ في جيكور ، « هومير » (170) شعبه المكدود
جالس القرفصاء في شمس آذار وعيناه في بلاط « الرشيد » ،
يمضغ التبغ والتواريخ والأحلام ، بالشدق والخيال الوئيد
ما تزال « البسوس » محمومة الخيل لديه ، وما خبا من « يزيد »
نار عينين ألقتاها على « الشمْر » (171) ظلالاً مذبحات الوريد!
كلما لزّ شمره الخيل أو عرّى أبو زيده (172) التحام الجنود
شدّ راحًا وأطلق المغزل الدوَّار يدحوه للمدار الجديد!
وانتهى من حديثه الضخم عن ضخم من الغزل ، وانتهى من قعود
نصف عريان يسحب الطرف عن صدر تعرى وعن قميص فقيد
غير بقيا على فمٍ دقَّ حتى عن فم العنكبوت ، في رأس عود

(170) هومير : القرن التاسع ق.م ، شاعر ملحمي يوناني نسبت إليه الإلياذة والأوذيسه .

(171) الشمر : قاتل الحسين ، في موقعة «كربلاء» بالعراق .

(172) أبو زيد الهلالي بكل سيرة شعبية .

مغـزلٌ يـنقض الـذي حاكـه النـولُ ، وجهـد أضـاع شـتى جهـود
فهــو كــدّ ولــيس بالكــدّ ، أردى قبلــه اثنــين وأدعــى بالمزيــد
حــاضر غــير حــاضر ، منــه للــماضي فنــاء وللغــد الموعــود
لا عليـك السـلام يـا عصرـ تعبـان بـن عيسـى وهنـت بـين العهـود
أنــت أيتمــت كــل روح مــن المــاضي ، وســوّدت آلــة مــن حديــد
تســكب الســم واللظــى لا حليــبَ الأم أو رحمــةَ الأب المفقــود
سُــلَّمٌ في الحضــيض أعــلاه مرقــاه انخفــاضٌ وإن بــدا كالصــعود
حـدَّقت منـه في الـورى مقلتـا « فوكـاي » تستشرـقان أيـام « هـود »
والمســيحَ المبيــعَ بخسًــا بــما لــو بيــع لحــمًا لنــاء عــن تســديد!
حدّقي حيث شئتِ ، يا عين فوكاي المدَمّاة ، من مداك المديد!
فهــي ســوق تُبــاع فيهــا لحــومُ الآدميــين دون ســلخ الجلــود
كــل أفريقيــا وآســية الســمراء ، مــا بــين زنجهــا والهنــود
واشــترى لحــم كــل مــن نطــق الضــاد تجــار تبيعــه لليهــود
هكــذا قــد أســفّ مــن نفســه الإنســان وانهــار كانهيــار العمــود
فهـو يسـعى وحلمـه الخبـز والأسـمال والنعـل واعتصـار النهـود!
والــذي حــارت البريــة فيــه [173] بالتآويــل ، كــائنٌ ذو نقــود!

***

(173) قال المعري : والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

تموز جيكور

-1-

نابُ الخنزير يشقّ يدي

ويغوص لظاه إلى كبدي ،

ودمي يتدفَّق ، ينسابُ :

لم يغدُ شقائقَ أو قمحًا

لكنَّ ملحًا « عشتار » .. وتخفقُ أثوابُ

وترفَ حيالي أعشابُ

من نعْلٍ يخفق كالبرق

كالبرق الخلب ينسابُ

لو يومض في عِرْقِي

نور ، فيضيء لي الدنيا !

لو أنهض ، لو أحيا !

لو أُسقي ! آه لو أسقي !

لو أنّ عروقي أعناب !

وتقبِّل ثغري عشتارُ ،

فكأن على فمها ظُلْمه

تنثال عليَّ وتنطبقُ ،

فيموت بعينيَّ الألق

أنا والعُتْمه ..

–2–

جيكورُ .. ستولدُ جيكورُ :

النَّوْر سيُورق والنُّورُ

جيكور ستولد من جُرْحي ،

من غصَّة موتي ، من ناري

سيفض البَيْدر بالقمحِ ،

والجرْن سيضحك للصبحِ ،

والقريةُ دارًا عن دارِ

تتماوج أنغامًا حلوّه ،

والشيخ ينامُ على الربوه ؟

والنخل يوسوس أسراري

جيكور ستولد .. لكنّي

لن أخرج فيها من سجْني

في ليل الطين الممدود

لن ينبض قلبي كاللحْنِ

في الأوتارِ ،

لن يخفق فيه سوى الدودِ

– 3 –

هيهات . أتولد جيكورُ

إلا من خضة ميلادي؟

هيهات . أينبثقُ النورُ

ودمائي تُظلم في الوادي؟

أيُسَقْسقُ فيها عصفور

ولساني كومةُ أعوادِ ؟

والحقلِ ، متى يلد القمحَا

والورد ، وجُرحي مغفورُ

وعظامي ناضجةٌ مِلحا ؟

لا شيء سوى العدم العدم ،

والموتُ هو الموتُ الباقي

يا ليلُ أظِلَّ مسيل دمي

ولتغدُ تُرابًا أعراقي؟

هيهات . أتولد جيكور

من حقد الخنزير المدثِّر بالليْل

والقُبلة بُرعمةُ القَتل

والغيمةُ رملٌ منثورُ

يا جيكور

***

جيكور والمدينة

وتلتفُّ حولي دروب المدينة :

حبالاً من الطين يمضغن قلبي

ويعطين : عن جمرة فيه ، طينه ،

حبالاً من النار يجلِّدْن عُرىَ الحقول الحزينه

ويُحْرقن جيكور في قاع روحي

ويزرعن فيها رماد الضغينه

دروبٌ تقول الأساطير عنها

على مَوْقدٍ نام : ما عاد منها

ولا عاد من ضفّة الموت سارٍ ،

كأن الصدى والسكينه

جناحا أبي الهول فيها ، جناحان من صخرة في ثراها دفينه

فمن يَفجر الماء منها عيونًا لتُبنى قرانا عليها؟

ومن يرجع الله يومًا إليها؟

وفي الليل ، فردَوْسها المستعاد

إذا عرَّش الصخرُ فيها غصونه

ورصَّ المصابيحَ تُفاح نارٍ

ومدّ الحوانيتَ أوراقَ تينه ،

فمن يُشعل الحبَّ في كل درب وفي كلِّ مقهى وفي كل دار؟

ومن يُرجع المِخلبَ الآدميَّ يدًا يمسح الطفلُ فيها جبينه؟

وتخضل من لمسها ، من ألوهية القلب فيها ، عروق الحجار؟

وبين الضُّحى وانتصاف النهار :

إذا سبّحت باسم ربِّ المدينه

ـ بصوت العصافير في سدرة يخلق الله منها قلوب الصغار ـ

رحى معدن في أكُفِّ التجار

لها ما لأسماك جيكور من لمعةٍ واسمها من معانٍ كثار ،

فمن يسمع الروح؟ من يبسط الظلَّ في لافحٍ من هجير النضار؟

ومن يهتدي في بحار الجليد إليها فلا يستبيحُ السفينه؟

وجيكور ، من غلَّق الدور فيها ـ وجاء ابنها يطرق البابَ ـ دونه؟

ومن حوَّل الدرب عنها .. فمن حيث دار اشرأبّت إليه المدينة؟

وجيكور خضراءُ مسَّ الأصيل ذرى النخيل فيها

بشمس حزينه

يمدُّ الكرى لي طريقًا إليها :

من القلب يمتدُّ ، عبرَ الدهاليز عبر الدجى والقلاع الحصينه

وقد نام في بابلَ الراقصون

ونام الحديدُ الذي يشحذونه ،

وغشَّى ، على أعين الخازنين ، لهاثُ النُّضار الذي يحرسونه :

حصاد المجاعات في جنتيها

رحىً من لظى مرَّ دربي عليها ،

وكرم من عساليجُه العاقراتُ شرايينُ تموزَ عبرَ المدينه ،

شرايين في كل دارٍ وسجنٍ ومقهى

وسجن وبارٍ وفي كل ملهى

وفي كل مستشفيات المجانين ..

في كل مبغىً لعشتار ..

يُطلعنَ أزهارهنَّ الهجينه :

مصابيحَ لم يُسرج الزيتُ فيها وتمسسْه نار

وفي كل مقهى وسجن ومبغى ودار :

« دمي ذلك الماء ، هل تشربونه؟

ولحمي هو الخبز ، لو تأكلونه! »

وتموز تبكيه لاةُ الحزينه

ترفع بالنواح صوتها مع السَّحَرْ

ترفع بالنواح صوتها ، كما تنهَّد الشجر

تقول : « يا قطار ، يا قدَرْ

قتلتَ - إذ قتلته - الربيعَ والمطرْ »

وتنشر (الزمان) و(الحوادثُ) الخبرْ [174]

ولاة تستغيث بالمضمِّد ، الحفرْ

أن يُرجع ابنها : يديه ، مقلتيه ، أيَّما أثَرْ !

وترسل النواح : « يا سنابل القمَرْ

دم ابني الزجاج في عروقه انفجر

فكهرباءُ دارنا أصابت الحجَرْ

وصكه الجدارُ ، خضّه ، رماه لمحةَ البصرْ

(174) « الزمان » ، و« الحوادث » جريدتان .

أراد أن يُنير ، أن يبدِّد الظلام .. فاندحرْ »

وتُرسل النواحَ .. ثم يصمت الوَترْ

وجيكور خضراء

مسّ الأصيل

ذرى النخل فيها

بشمس حزينه

ودربي إليها كومض البروق ،

بدا واختفى ثم عاد الضياء فأذكاه حتى أنارَ المدينه

وعرَّى يدي من وراء الضِّماد كأن الجراحات فيها حروق

وجيكور من دونها قام سورٌ ، وبوابةٌ ، واحتوتها سكينه

فمن يخترق السور؟ من يفتح الباب يدمي على كل قفل يمينه؟

ويُمناي : لا مخلبٌ للصراع فأسعى بها في دروب المدينه

ولا قبضةٌ لابتعاث الحياة من الطين ..

لكنها محضُ طينه

وجيكور من دونها قام سورٌ ، وبوابةٌ ، واحتوتها سكينه

***

العودة لجيكور

-1-

على جواد الحُلمُ الأشهبِ

أسريتُ عَبرَ التلالْ

أهرب منها ، من ذُراها الطوال ،

من سوقها المكتظّ بالبائعين،

من صبحها المتعب

من ليلها النابح والعابرين ،

من نورها الغَيهب ،

من ربها المغسول بالخمر ،

من عارها المخبوء بالزهر ،

من موتها الساري على النهر [175]

يمشي على أمواجه الغافيه

أواه لو يستيقظ الماء فيه ،

لو كانت العذراء من وارديه ،

(175) يقصد المسيح فمن معجزاته أنّه مشى على الماء .

لو أن شمس المغرب الداميه

تبتلُّ في شطيه أو تُشرقُ ،

لو أن أغصان الدُّجى تورقُ

أو يُوصَدُ الماخور عن داخليه

– 2 –

على جواد الحُلُم الأشهب

وتحت شمس المشرق الأخضرَ

في صيف جيكور السخيِّ الثري

أسريتُ أطوي دربيَ النائي

بين الندى والزهر والماء

أبحث في الآفاق عن كوكَب [176]

عن موْلد للروح تحت السماءْ

عن منبع يُروي لهيب الظماء

عن منزل للسائح المُتْعبِ

(176) .. وبزغ كوكب عرف منه المجوس أن المخلص قد ولد .

– 3 –

جيكور ، جيكور : أين الخبزُ والماءُ؟

الليل وافى وقد نام الأدلاءُ ؟

والركبُ سهرانُ من جوعٍ ومن عطشٍ

والريح صَرٌّ ، وكل الأفق أصداءُ

بيداءُ ما في مداها ما يبين به

دربٌ لنا وسماء الليل عمياءُ

جيكور مدِّي لنا بابا فندخله

أو سامرينا بنجم فيه أضواء!

-4-

من الذي يسمع أشعاري؟

فإن صمت الموت في داري

والليل في ناري

من الذي يبكي ومن يستجيب

للجائع العاري؟

من يُنزل المصلوبَ عن لَوحِهِ؟

من يطرد العقبان عن جرحه؟

من يرفع الظلماء عن صبحه؟

ويُبدل الأشواك بالغارِ (177)؟

أواه يا جيكور لو تسمعينْ !

أواه يا جيكور .. لو توجدين!

لو تنجبين الروح ، لو تُجهضين

كي يُبصر الساري

نجمًا يُضيء الليل للتائهين

(177) إشارة إلى التاج من الشوك الذي ألبسه اليهود للمسيح سخرية منه .

– 5 –

نزْعٌ ولا موْتُ ،

نُطْقٌ ولا صوتُ ،

طَلْقٌ ولا ميلاد ،

من يصلب الشاعرَ في بغداد؟

من يشتري كفَّيه أو مُقْلتيه؟

من يجعل الأكليل شَوْكًا عليه؟

جيكور يا جيكور

شدَّت خيوطُ النور

أرجوحةَ الصُّبْحِ

فأولمي للطيور

والنملِ من جُرْحي

هذا طعامي أيْها الجائعون

هذه دموعي أيها البائسون

هذا دعائي أيها العابدون

أن يقذف البركانُ نيرانَهُ ،

أن يُرسل الفرات طوفانِهُ ،

كي نُشرق الظُلْمَه ،

كي نعرف الرحمه؛

جيكور يا جيكور

شدّت خيوط النور

أُرجوحة الصبحِ

فأولمي للطيور

والنملِ من جُرْحي!

– 6 –

هذا حرائي [178] حاكت العنكبوتْ

خيطًا إلى بابه

يهدي إليَّ الناس إني أموت

والنور في غابه

يُلقي دنانير الزمان البخيلْ

من شرفات في سعفات النخيل

جيكور ، يا جيكور : خلٌّ وماءْ

(178) حراء ، الغار الذي هبط فيه الوحي على النبي محمد ﷺ حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة اختبأ - والمشركون جادون في أثره - في غار حاكت العنكبوت بيتها على بابه فبدا مهجورًا ولم يهتد المشركون إلى مخبأ محمد ﷺ .

ينساب من قلبي ،

من جُرحيَ الواري ،

من كل أغواري

أواه يا شعبي ..

جيكور ، يا جيكور هل تسمعينْ ؟

فلتفتح الأبواب للفاتحين

ولتجمعي أطفالك اللاعبين

في ساحة القرية هذا العشاءْ

هذا حصاد السنين :

الماء خمرٌ ، والخوابي غذاء [179]

هذا ربيع الوباء

(179) وأحال المسيح الماء إلى خمر فشرب الحاضرون .

-7-

أقوى من الأسوار هذا الجوادْ

« أقوى جوادُ الحُلُمِ الأشهبُ »

لأن الحديدُ المغتذي بالحداد

وانخذل الموكبُ

جيكور ، ماضيكِ عاد

....

هذا صياحُ الديك : ذاب الرقاد

وعدتُ من معراجي الأكبر :

الشمس أم السنبل الأخضرِ

خلف المباني ، رغيفْ

لكنها في الرصيف

أغلى من الجوهر

والحبُّ : « هل تسمعين

هذا الهتاف العنيف؟

ماذا علينا؟ إن عبد اللطيف

يدري بأنّا .. ما الذي تحذرين؟

وانخطفتْ روحي ، وصاح القطارْ

ورقرقت في مقلتيَّ الدموعْ

سحابةً تحملني ، ثم سار

يا شمس أيامي ، أما من رجوع؟

....

جيكور ، نامي في ظلام السنين

***

رؤيا في عام 1956

-1-

حطَّت الرؤيا على عينيَّ صقرًا من لهيب :

إنها تنقضّ ، تجتثُّ السواد

تقطع الأعصاب تمتص القذى من كل

جفنٍ ، فالمغيبْ

عاد منها توأمًا للصبح - أنهار المدادْ

ليس تطفي غلَّة الرؤيا : صحاري من نحيب

من جحورٍ تلفظ الأشلاء ، هل جاء المعادْ؟

أهْو بعثٌ ، أهْو موتٌ ، أهْي نار أم رماد؟

أيها الصّقر الإلهيّ الغريبْ

أيها المنقضُّ من أولمبَ في صمتِ المساءْ

رافعًا روحي لأطباق السماء

رافعًا روحي - غنيميدا [180] جريحًا ،

---

(180) أحب «زيوس» غنيميد ، وهو راع يوناني ، فاختطفه بوساطة صقر ، واحتفظ به لنفسه .

صالبًا عينيّ - تموزًا ، مسيحًا ،

أيها الصقر الإلهيّ ترفَّقْ

إن روحي تتمزق ،

إنها عادت هشيمًا يوم أن أمسيت ريحًا

في غيمة الرؤيا

يوم بلا ميعاد

جنكيز هل يحيا

جنكيز في بغداد؟

عينٌ بلا أجفانْ

تمتدّ من روحي

شدقٌ بلا أسنانْ

ينداح في الريح

يعوي : أنا الإنسانْ

-2-

يا جوادًا راكضًا يعدو على جسم الطريح

يا جوادًا ساحقًا عينيّ بالصخر السنابك

رابطًا بالأربع الأرجل قلبي

فإذا بالنبض نقرٌ للدرابك

وإذا بالنار دربي

سحّت الرؤيا ضياء من لظاها

صابغًا ما تبصر العين القريحْ

مازجًا بالشيء ظلّه

خالطًا فيها يهوذا بالمسيح ،

مدخلاً في اليوم ليله

بانيًا في عروة المهد الضَّريح

الدماء

الدماء

الدماء

وحدّت بالمجرمين الأبرياء ،

نصبت في شدْقيي الذئبة كرّسي القضاء ،

ماذا جنى شعبي؟

حلت به اللعنة

من زاده المحنة ،

رحماك يا ربي

من مائه الديدان

من لبسه الأكفان

من طيره الغربان

ينقرن في قلبي

واليوم في بيدري

لم يبقَ من حبي

شيءٌ ـ هنا حبتان

فأمطري أمطري

وإن يكن نيرانْ

وأثمري أثمري

وإن يكن ثعبان

-3-

ما الذي يبدو على الأشجار حولي من ظلال؟

منجلٌ يجتثّ أعراق الدوالي

قاطعًا أعراق تموز الدفينه

وعلى القنّب أشلاء حزينه :

رأس طفلٍ سابح في دمه

نهد أم تنقر الديدان فيه ، في سكينه ،

أي آه من دمٍ في فمه؟

ما الذي ينطف من حلمته ، من لحمه؟

يا حبال القنب التفي كحيات السعير

واخنقي روحي وخلي الطفل والأم الحزينه؟

يا حبالاً تسحب الموتى إلى قبرٍ كبيرِ

- جفنةٍ قد هيّؤوها للوليمه -

يا حبالاً تسحب الأحياء - من شيخٍ كبيرِ ،

من فتاة أو عجوزٍ ، من ضلوعٍ حطموها

عَلّقت فيها تميمه ،

من صدور مزَّقوها ،

زرعوا فيها بذورًا من رصاصٍ ، من حديد

ما الذي تثمر هاتيك البذور

غير أحجار القبور ؟

غير تفاح الصديدْ؟

– 4 –

تموز هذا ، أتيس [181]

هذا، وهذا الربيع

يا خبزنا يا أتيس ،

أنبتْ لنا الحب وأحي اليبيس

(181) ايتيس يقابل تموز الإله البابلي عند سكان آسيا الصغرى القدماء ، يحتفل بعيده في الربيع ، حيث يربط تمثاله على ساق شجرة ، وحين تبلغ الحمية أوجها عند أتباعه وعابديه ، يجرحون أنفسهم بالسيوف والمدى حتى تسيل دماؤهم قربانًا دلالة الخصب .

التأم الحفل وجاء الجميع

يقدّمون النذور ،

يحيون كل الطقوس

ويبذرون البذور

سيقان كل الشجرْ

ضارعة ، والنفوس

عطشى تريد المطر

شدّوا على كل ساق

ياربّ ، تمثالكْ

فلتستق كل العراق

فلْتسقِ فلاحيك ، عمالك

شدّوا على كل ساق

أواه ، ما شدّوا؟

أواه ، ما سَمروا؟

أغصان زيتوننا أثقلها الوردُ

ورد الدم ، الأحمر

شدوا على كل ساقْ

يارب تمثالك

فاسمعْ صلاة الرفاق

ولترع فلاحيك ، عمالك

يعبر السهلَ بيني وبين المدينه

مثل حبل يشدّ السفينه

وهي تهوي إلى القاع كان النواح

مثل خيط من النور بين الصباح

والدجى ، في سماء الشتاء الحزينه

ثم تغفو ، على ما تُحسُّ ، المدينه

حينما يُزهر التوتُ والبرتقالْ ،

حين تمتدُّ « جيكورُ » حتى حدودِ الخيال ،

حين تخضرُّ عُشبًا يغني شذاها

والشموس التي أرضعتها سناها ،

حين يخضرُّ حتى دجاها ،

يلمس الدفء قلبي ، فيجري دمي في ثراها

قلبيَ الشمسُ إذْ تنبضُ الشمس نورا ،

قلبيَ الأرض ، تنبض قمحًا ، وزهرًا ، وماءً نميرا ،

قلبي الماءُ ، قلبي هو السنبلُ

موته البعثُ : يحيا بمن يأكلُ

في العجين الذي يستدير

ويُدحى كنهدٍ صغير ، كثدي الحياه ،

متُّ بالنار : أحرقت ظلماء طيني ، فظلَّ الإله

كنتُ بدءًا وفي البدء كان الفقيرْ

متُّ ، كي يؤكل الخبز باسمي ، لكي يزرعوني مع الموسمِ ،

كم حياة سأحيا ، ففي كل حفره

صرتُ مستقبلاً ، صرت بذره ،

ذرتُ جيلاً من الناس : في كل قلبٍ دمي

قطرةٌ منه أو بعض قطره

هكذا عدتُ ، فاصفرَّ لما رآني يهوذا

فقد كنت سِرَّه

كأن ظلاً ، قد اسودَّ ، منّي ، وتمثال فكره

جُمِّدتْ فيه واستُلَّتِ الروحُ منها ،

خبزَ الألمِ

« الأقَّةُ » صاح القصّابُ ،

« من هذا اللحم بفلسينِ » ،

اقطعْ من لحم النهدين

اللحمُ لنا ، والأثوابُ

ستكون لمسح السكينه

من آثار دم الأطفال

من آثار دم المسكينه

فلتحيَ زنود العمال

في قلبي دمدم زلزالُ

فجنائن بابل تندثرُ ،

في قلبي يصرخ أطفالُ ،

في قلبي يختنق القمر

الظلمة تعبس في قلبي

والجو رصاصْ

والريح تهبُّ على شعبي

والريح رصاص

أواه لقد هجم التتر

فالصبح رصاص

والليل رصاص

– 6 –

الرؤيا تلمح كالقلع

في بحرٍ يُزبد غضبانا ،

طورًا للأغوار وأحيانا

يعلو فنراه ، وفي سمعي

أصداء تصمت أو تعلو ،

وبياني يغمض أو يجلو :

أي حشد من وجوهٍ كالحات ،

من أكفٍّ كالتراب

نبتها الآجرَ والفولاذ كالأرض اليباب؟

أي حشدٍ من ذئاب ؟

يطعمون الجو ريح المعمل ؟

أي نعشٍ ، أي شكوى ، أي دمعٍ من نساء ثاكلات؟

أي جمعٍ من عذارى نادبات

أي موت مثكل

يا لعشتارتِنا يبكينَ تموز القتيل

العازر قام من النعش

شخنوب [182] العازر[183] قد بعثا

حيًّا يتقافز أو يمشي

كم ظلَّ هناكَ وكم مكثا

أترى عامًا أم عامين؟

(182) **العازر** : أحياه المسيح بعد موته ، وهي إحدى معجزاته .

(183) **شخنوب** : عامل تظاهر بالموت ووضع بالنعش وحمله الثوار على أن الجيش هو الذي قتله . ولما سقط النعش قام ومشى .

أم دامت ميتته ساعة؟

شخنوب العامل ، من راعه؟

فتنكر للدينارين

وتواثب يركض مذعورًا ؟

الموت الزائف خاتمةٌ

لحياة زائفة مثله ،

والبعث الزائف عاقبةٌ

للموت الزائف من قبله

-7-

ولفني الظلام في المساءْ

فامتصت الدماء

صحراءُ نومي تُنبت الزهَرْ ؛

فإنما الدماء

توأم المطر

***

قارئ الدم

أنا أيها الطاغوت مقتحم الرِّتاج على الغيوب

أبصرت يومك وهو يأزف

هذه سحب الغروب

يتوهَّج الدم في حفافيها وتنثر في الدروب

شفقَ البنفسج والورود ولون أردية الضحايا

فتشعّ أعمدة عوابس ، والرصيف من الصبايا

والنسوة المتهامسات كحقل قمح ، والسطوح

كأن بابلَ أودعتها من جنائنها بقايا

لو أن غرسًا كان من بشر ، وأسمع من يصيح

« هوذا يساق إلى الحساب » كأن أعراق المغيب

قطعت فصاح ، كأن صوتًا على لظى حملته ريح

من كل أودية الجحيم - هواه ! -

إني شهدت سواك ينسفه اختناقٌ للصدور

بغيظها ، وسمعت قفقفة الضحايا في القبور

ودم الحوامل وهو تشربه الأجنة في دجاها

فسمعت وقع خطاك خائرة تجر إلى السعير

حطام جسمك ، والسعير مدى تراها

تحتز من قصبات صدرك ثأر كل دم العصور ؛

إني أكلت مع الضحايا في صحاف من دماء ،

وشربت ما ترك الفم المسلول منه على الوعاء ،

وشمعتُ ما سلخ الجُذام من الجلود على ردائي

ونشقت ماء جوارب السجناء في نفس الهواء

فشممت فيه دخان دارك واحتراق بنيك فيها

وشواء لحم بنيك ، لولا أن شيمة محرقيها

ألا يذوق الأبرياء جزاء غير الأبرياء

إني شببت مع الجياع ، مع الملايين الفقيره

فعرفت أسرارًا كثيرة

كل اختلاجات القلوب وكل ألوان الدعاء

إغضاءة المقل الضريره

يتطلع الدم في ظلام جفونهنَّ إلى الضياء ،

والحاملات نذورهن إلى قبور الأولياء

الموقدات شموعهنّ تلقّ ألسنها الكثيره

كِسَر الرغيف ويعتصرن دم الثديِّ إلى الدماء

وتأوُّه المستنقعات وزفة البرديِّ فيها

وطنين أجنحة البعوض كأن غرقي ساكنيها

يتنفسون من القرار ويضرعون إلى السماء

أن ينجوَ الأطفالَ من غرق وحمَّى في الهواء

وملالة الأكواخ تشرب كل أمطار الشتاء

حتى تغص بها فللقصب النقيع بكل ماء

شهقات محتضر يُغرّ وإن تقيأ بالدواء ،

وتنهد الأشجار عطشى يابسات في الظهيره

تنكسر الورقات فيها والمناقير الصغيره،

فكأن مقبرة الهجيره

تمتصُّ من رحم الحياة لتسقي الموتى عصيره

أنا قارئ الدم لا تراه وأنت أنت المست . بيحُ ،

أفلست تجرؤ أن تحدق فيه علك تستريحُ

من ازدياد دم تُذرّ على جفونك منه نار

لزج يسل مع الرقاد كأن بؤبؤك الذبيح

قابيل حدَّق في دماء أخيه أمس وأنت يأخذك الدوار

من رؤية الدم وهو ينزف ثم يركد فالغبار

من تحته كفم الرضيع له اختلاج وافترار

أتخاف أن تطأ النبؤة مقلتيك « هو الدمار »

أتخاف منها أن تفرّ كأن سرب قطًا يثارُ

فأنت من هلع تخضّ إلى المشاش « هو الدمار »

إني خبرت الجوع يعصر من دمي ويمصّ مائي

وعرفت ما قلق الطريد يكاد كل فم ورائي

يعوي بـ « ها هو ذا » وتوشك كل عين ألتقيها

أن يومض اسمي في قرارتها وجهلي بالدروب

ولست أسأل عابريها عن بعيد عن قريب

من منتهاها واكتئابي والحنين مع الغروب

وتوقع المتعقبين خطاي أحسب في صداها

وقع الخطى وأكاد ألتفت التفاتة مُستريب

ألا تشدّ يدٌ على كتفي ، وأُوشك أن أرها

أعرفتَ ذاك؟ فسوفَ تعرف منه دنيا في مداها

تصطفّ أعمدةٌ عوابسُ ثم تسمع من يصيحُ

« هوذا يساق إلى الحساب » كأنما اطَّرحت رداها

جثثُ القبور ، كأن صوتًا من لظى حملته ريح

من كل أودية الجحيم : هوا ..ه!

ثعلب الموت

كم يُمضُّ الفؤاد أن يُصبح الإنسان صَيْدًا لرميةِ الصيّاد؟

مثل أيِّ الظِّباء ، أيِّ العصافير ، ضعيفًا

قابعًا في ارتعادة الخوف ، يختضُّ ارتياعًا ، لأنَّ ظلاً مخفيًا

يرتمي ثم يرتمي في اتِّئاد

ثعلبُ الموت ، فارسُ الموت ، عزرائيل يدنو ويشحذ النَّصْل آه

منه آه ، يصكُّ أسنانه الجوعى ويرنو مهدِّدًا . يا إلهي

ليت أنّ الحياة كانت فناء

قبل هذا الفناء ، هذه النهايه ،

ليت هذا الختامَ كان ابتداء

واعذاباه ، إذ ترى أعْينُ الأطفال هذا المهدِّدَ المستبيحا ،

صابغًا بالدماء ، كفَّيْه ، في عينيْه نارٌ وبين فكّيْه نارُ

كم تلوَّثْ أكفُّهم واستجاروا ،

وهو يدنو .. كأنّه احتثَّ ريحًا ،

مستبيحًا

مستبيحًا ، مهدِّدًا ، مستبيحًا

مَنْ رآها ، دجاجةَ الريف ، إذ يُمسي عليها المساءُ في بستانِهْ؟

حين ينسلُّ نحوها الثعلب الفرّاس ، يا للصريف من أسنانِه!

وهي تختصُّ ، شلّها الرعبُ ، أبقاها بحيثُ الردى ـ كأنَّ الدروبَ

.. استلها ماردٌ ، كأنَّ النيوبا

سورُ بغداد موصد الباب ، لا منجى لديه ولا خلاصٌ يُنال

هكذا نحن ، حينما يُقل الصيّادُ عزريل : رجفةٌ فاغتيالُ

المبغى

بغداد[184]؟ مبغىً كبيرْ

(لواحظ المغنيّه

كساعةٍ تتكُّ في الجدارْ

في غرفة الجلوس في محطّة القطارْ)

يا جثةً على الثرى مستلقيه

الدود فيها موجةٌ من اللهيب والحريرْ

بغداد كابوسٌ : (ردىً فاسدُ

يجرعه الراقدُ

ساعاته الأيام ، أيّامه الأعوام ، والعام نيرْ :

العام جُرْحٌ ناغرٌ في الضمير)

عيون المها بين الرصافة والجسْرِ

ثقوب رصاصٍ رقّشتْ صفحة البَدرِ؛

ويسكب البدر على بغداد؟

من ثُقْبيَ العينين شلالاً من الرمادْ :

(184) كتبت قبل ثورة سنة 1958.

الدور دارٌ واحده ،

وتُعصر الدروب ، كالخيوط ، كلُّها

في قبضةٍ مارده

تمطُّها ، تشلُّها ،

تُحيلها درْبًا إلى الهجيرْ

وأوجه الحسان كلُّهنَّ وجه « ناهده »

(حبيبتي التي لُعابها عَسَلْ ،

صغيرتي التي أردافُها جبل

وصدرها قُلل)

ونحن في بغداد؟ من طينِ

يعجنه الخزّافُ تمثالا ،

دنيا كأحلام المجانين

ونحن ألوانٌ على لجَّها المرتجِّ أشلاءً وأوصالا

بالأمس كان العيد ، عيد الزهورْ :

الزاد تحثوه الربى ، والخمور ،

والرقص ، والأغنيات

والحب ، والكركرات

ثم انتهى إلا بقايا طيور

تلتقط الحَبَّ ، وإلاَّ دماء

ممّا نماه الحقلُ - طيرٌ وشاء -

وغير أطفال يطوفون أُور :

- « العيدُ ، من قال انتهى عيدُنا؟

فلتملأ الدنيا أناشيدُنا

فالأرض ما زالت بعيدٍ تدور ..

بالأمس كان العيد ، عيد الزهور ،

واليوم؟ ما نفعلُ؟

نزرع أم نقتلُ؟

أهذه بغداد؟

أم أن عاموره

عادتْ فكان المعادْ

موتًا؟ ولكنني في رنّة الأصفادْ

أحسَسْتُ .. ماذا؟ صوتَ ناعوره

أم صيحةً النُّسْغ الذي في الجذورْ؟

***

النهر والموت

بُوَيْبْ ...

بُوَيْبْ ...

أجراسُ بُرجٍ ضاع في قرارة البَحَرْ

الماء في الجرار ، والغروب في الشَّجَر

وتنضحُ الجرارُ أجراسًا من المطرْ

بلورُها يذوب في أنينْ

« بُوَيْبُ .. يا بُوَيبْ ! » ،

فيَدْلَهِمُّ في دمي حنينْ

إليْكَ يا بُوَيْب ،

يا نهري الحزينَ كالمطرْ

أودُّ لو عدوتُ في الظلامْ

أشدُّ قبْضتيَّ تحملان شوْقَ عام

في كل إصبَع ، كأني أحملُ النّذورْ

إليكَ ، من قمحٍ ومن زهور

أودُّ لو أُطلُّ من أسرّةِ التلال

لألمحَ القَمَرْ

يخوض بينَ ضفتيكَ ، يزرع الظلالْ

ويملأ السِّلال

بالماء والأسماك والزّهَرْ

أودُّ لو أخوض فيكَ ، أتبعُ القمرْ

وأسمعُ الحصى يصلُّ منك في القرار

صليل آلاف العصافير على الشجر

أغابةٌ من الدموعِ أنت أم نهرْ ؟

والسَّمكُ الساهرُ ، هل ينام في السَّحَرْ ؟

وهذه النجومُ ، هل تظلُّ في انتظارْ

تُطْعِمُ بالحرير آلافًا من الإبَرْ ؟

وأنتَ يا بُويْب ..

أودُّ لو غرقتُ فيك ، ألقِطُ المحارْ

أشيدُ منه دار

غير أحجار القبور ؟

غير تفاح الصديدْ ؟

–4–

خاف أن تفضح الموت في ماء عينيه

(عيناه صخره

راح فيها يُواري عن الناس قَبرَه)

خاف من دفئها ، من محالٍ عليه ، فخبَّر عنها

ـ « أنت! أم ذاك ظلي قد ابيضَّ وارفضَّ نورا؟

أنت من عالم الموت تسعى! هو الموتُ مرَّه

هكذا قال آباؤنا ، هكذا علمونا فهل كان زورا؟ »

ذاك ما ظنَّ لما رآني ، وقالته نظره

قدمٌ تعدو ، قدمٌ ، قدمُ

القبر يكاد بوقْع خطاها ينهدمُ

أترى جاءوا؟ من غيرهُم؟

قدمٌ .. قدمٌ .. قدمٌ

ألقيتُ الصخر على صدري ،

أو ما صلبوني أمسِ؟ .. فها أنا في قبري

فليأتوا - إني في قبري

من يدري أني ..؟ من يدري ؟

ورفاق يهوذا؟! من سيصدِّق ما زعموا؟

قدمٌ .. قدمُ

ها أنا الآن عريانُ في قبري المظلم :

كنتُ بالأمس ألتفُّ كالظنِّ ، كالبرْعم ،

تحت أكفاني الثلجِ ، يخضلُّ زهرُ الدمِ ،

كنتُ كالظلِّ بين الدجى والنهارْ -

ثم فجَّرتُ نفسي كنوزًا فعرَّيتها كالثمار

حين فصَّلْتُ جيبي قماطًا وكمّي دثار ،

حين دفَأتُ يومًا بلحمي عظامَ الصغار ،

حين عرَّيْتُ جرحي ، وضمّدتُ جرحًا سواه ،

حُطِّمَ السور بيني وبين الإلهْ

فاجأ الجندُ حتى جراحي ودقات قلبي

فاجؤوا كلَّ ما ليس موتًا وإن كان في مقبره

فاجؤوني كما فاجأ النخلة المثمره

سربُ جَوْعي من الطير في قريةٍ مقفره

أعينُ البندقيات يأكلْنَ دربي ،

شُرَّعٌ تحلم النارُ فيها بصلبي ،

إن تكن من حديدٍ ونارٍ ، فأحداقُ شعبي

من ضياء السماوات ، من ذكريات وحُبِّ

تحمل العبءَ عني فيندي صليبي ، فما أصغره

ذلك الموتُ ، موتي ، وما أكبره!

بعد أن سمَّروني وألقيتُ عينيَّ نحو المدينه

كدتُ لا أعرف السهلَ والسور والمقبره

كان شيءٌ ، مدى ما ترى العينُ ،

كالغابة المزْهره ،

كان ، في كلِّ مرمى ، صليبٌ وأمٌّ حزينه

قُدِّس الربُّ؟

هذا مخاضُ المدينه

***

مدينة السندباد

جوعانُ في القبر بلا غذاءْ

عريان في الثلج بلا رداء

صرختُ في الشتاء :

أَقِضّ يا مطرْ

مضاجع العظام والثلوج والهباءْ ،

مضاجعَ الحَجَرْ ،

وأنبتِ البذورِ ، ولتفتّح الزّهرْ ،

وأحرق البيادر العقيم بالبروقْ

وفجِّرْ العروقْ

وأثقلِ الشجرْ

وجئتَ يا مطرَ ،

تفجَّرتْ تنثك السماءُ والغيومُ

وشُقِّق الصَخر ،

وفاض ؛ من هباتك ، الفراتُ واعتكرْ

وهبَّتِ القبورُ هُزَّ موتها وقام

وصاحتِ العظام :

تبارك الإلهُ ، واهبُ الدَّمِ المطرْ

فآه يا مطرْ !

نودُّ لو ننامُ من جديد ،

نودُّ لو نموت من جديد ،

فنومنا براعِمُ انتباه

ومّوتِنا يخبِّئ الحياه ؛

نود لو أعادنا الإله

إلى ضمير غيبه المُلبّد العميق ؛

نو لو سعى بنا الطريق

إلى الوراء ، حيث بدْؤه البعيد

منْ أيقظَ « العازرِ » من رقاده الطويل ؟

ليعرف الصباح والأصيلْ

والصيفَ والشتاء ،

لكي يجوع أو يُحسَّ جمرةَ الصدى ،

ويحذر الردى ،

ويحسب الدقائق الثِّقال والسِّراعْ

ويمدح الرعاع

ويسفك الدماء !

منْ الذي أعادنا ، أعاد ما نخاف؟

من الإلهُ في ربوعنا؟

تعيش ناره على شموعنا

يعيش حقده على دموعنا

– 2 –

أهذا أدونيس هذا الخواءْ؟

وهذا الشحوبُ ، وهذا الجفاف؟

أهذا أدونيس؟ أين الضياءْ؟

وأين القطافْ؟

مناجلُ لا تحصد ،

أزاهرُ لا تَعقدُ ،

مزارعُ سوداء من غير ماءْ!

أهذا انتظار السنين الطويله ؟

أهذا صراخ الرجوله؟

أهذا أنينُ النساء؟

أدونيس! يا لانذحار البطوله

لقد حطَّم الموتُ فيك الرجاءْ

وأقبلتَ بالنظرة الزائغه

وبالقبضةِ الفارغه :

بقبضةٍ تهدِّدُ

ومنجل ، لا يحصدُ

سوى العظام والدمِ

اليوم؟ والغدُ؟

متى سيولد ؟

متى سنُولد ؟

– 3 –

الموتُ في الشوارعِ،

والعقم في المزارعِ ،

وكلُّ ما نحبّه يموتْ

الماء قيَّدوه في البيوتْ

وألهثَ الجداولَ الجفافْ

هُمُ التتارُ أقبلوا ، ففي المدى رُعافْ ،

وشمسنا دمٌ ، وزادُنا دم على الصِّحاف

محمّدُ اليتيمُ أحرقوه فالمساء

يضيءُ من حريقه ، وفارت الدماءْ

من قدميه ، من يديه ، من عيونهِ

وأحرق الإله في جفونه

محمَّد النبيُّ في « حِراء » قيَّدوه

فسُمِّر النهارُ حيث سمّروه

غدًا سيُصلب المسيحُ في العراقْ ،

ستأكل الكلابُ من دم البراقْ [185]

(185) الجواد الذي أسرى عليه النبي محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ليلة معراجه .

-4-

يا أيها الربيع

يا أيها الربيعُ ما الذي دهاكْ ؟

جئتَ بلا مطرْ

جئتَ بلا زَهَرْ ،

جئتَ بلا ثمرْ ،

وكان منتهاك مثل مبتداكْ

يلفُّه النجيع ..

وأقبل الصيفُ علينا أسودَ الغيومْ

نهاره هموم ،

وليله نسهر فيه نحسب النجوم ؛

حتى إذا السنابلُ

نضجْنَ للحصاد

وغنَّت المناجلُ

وغطّت البيادر الوهادْ ،

خُيِّل للجياع أنَّ ربَّة الزَّهرْ ،

عُشتار قد أعادت الأسير للبشر ،

وكلَّلت جبينه الغضير بالثمر ،

خُيِّل للجياع أنَّ كاهل المسيحْ

أزاح عن مدفنه الحجَر

فسار يبعث الحياة في الضَّريحْ

ويبرئ الأبرص أو يجدِّد البصر ؟

من الذي أطلق من عقالها الذئاب ؟

من الذي سقى من السَّراب ؟

وخبّأ الوباء في المطرْ ؟

الموتُ في البيوت يُولَدُ ،

يولد قابيلُ لكي ينتزعَ الحياه

من رحِم الأرض ومن منابع المياه ،

فيُظلم الغدُ

وتُجهض النساء في المجازر ،

ويرقص اللهيبُ في البيادر ،

ويهلك المسيحُ قبل العازر ؛

دعوه يرقدُ ،

دعوه فالمسيح ما دعاه !

ما تبغون! لحمه المقدِّدُ

يُباع في مدينة الخُطاه ،

مدينةِ الحبال والدماء والخمور ،

مدينة الرصاص والصخور!

أمس أزيح من مداها فارس النُّحاس ،

أمس أزيح فارسُ الحجر ،

فران في سمائها النعاسْ

ورنَّق الضجَر ،

وجال في الدروب فارسٌ من البشرْ

يقتل النساء

ويصبغ المهودَ بالدماء

ويلعن القضاء والقدر !

– 5 –

كأن بابل القديمة المسوَّره

تعود من جديدْ ،

قبابها الطوالُ ، من حديدْ

يدق فيها جرسٌ كأنّ مقبره

تئن فيه والسماء ساحُ مجزره

جناتها المعلقات زرعها الرؤوس

تجزُّها قواطع الفؤوس

وتنقر الغربان من عيونها ،

وتغرب الشموس

وراء شعرها الخضيب في غصونها

أهذه مدينتي؟ أهذه الطلول

خُطّ عليها : « عاشت الحياة »

من دم قتلاها ، فلا إله

فيها ، ولا ماءَ ، ولا حقول؟

أهذه مدينتي؟ خناجر التتر

تغمد فوق بابها ، ولا يزورها القمر ؟

أهذه مدينتي أهذه الحُفرُ

وهذه العظامْ؟

يطلُّ من بيوتها الظلام

وتُصبغ الدماء بالقتام

لكي تضيع ، لا يراها قاطع الأثر؟

أهذه مدينتي؟ جريحة القباب

فيها يهوذا أحمر الثيابْ

يسلِّط الكلاب

على مهود إخوتي الصغار .. والبيوت،

تأكل من لحومهم . وفي القرى تموت

عشتار عطشى ، ليس في جبنها زهَرْ ،

وفي يديها سلَّة ثمارهُا حَجَرْ

تُرجَم كلُّ زوجة به وللنخيلْ

في شطَّها عويل

***

أنشودة للمطر

عيناك غابتا نخيلٍ ساعةَ السحَرْ ،

أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء .. كالأقمار في نَهَرْ

يرجّه المجذاف وهنا ساعة السَّحَر

كأنما تنبض في غوريهما ، النُّجوم ..

وتغرقان في ضباب من أسىً شفيفْ

كالبحر سرَّح اليدينُ فوقه المساء ،

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف ،

والموت ، والميلاد ، والظلام ، والضياء ؛

فتستفيق ملء روحي ، رعشة البكاء

ونشوةٌ وحشيَّةٌ تعانق السماء

كنشوة الطفل إذا خاف من القمر !

كأن أقواس السحاب تشرب الغيومْ

وقطرةً فقطرةً تذوب في المطر ..

وكركر الأطفالُ في عرائش الكروم ،

ودغدغت صمت العصافير على الشجر

أنشودةُ المطر ..

مطر ...

مطر ...

مطر ...

تثاءب المساء، والغيومُ ما تزالْ

تسحُّ ما تسحّ من دموعها الثقالْ

كأن طفلاً بات يهذي قبل أن ينام :

بأنَّ أمّه ـ التي أفاق منذ عامْ

فلم يجدها ، ثم حين لجَّ في السؤال

قالوا له : « بعد غدٍ تعود .. » ـ

لابدَّ أن تعودْ

وإن تهامس الرفاق أنَّها هناكْ

في جانب التلّ تنام نومة اللّحودْ

تسفّ من ترابها وتشرب المطر ،

كأن صيادًا حزينًا يجمع الشِّباك

ويعلن المياه والقَدَر

وينثر الغناء حيث يأفل القمرْ

مطر ...

مطر ...

أتعلمين أيَّ حزْنٍ يبعث المطر ؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر ؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضيّاع ؟

بلا انتهاء ـ كالدَّم المراق ، كالجياع ،

كالحبّ ، كالأطفال ، كالموتى ـ هو المطر !

ومقلتاك بي تطيفان مع المطر

وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ

سواحلَ العراق بالنجوم والمحار ،

كأنها تهمّ بالشروق

فيسحب الليل عليها من دمٍ دثارْ

أصيح بالخليج : « يا خليجْ

يا واهب اللؤلؤ ، والمحار ، والرّدى ! »

فيرجعُ الصّدى

كأنّه النشيجْ :

« يا خليج

يا واهب المحار والردى »

أكاد أسمع العراق يذْخرُ الرعودْ

ويخزن البروق في السّهول والجبالْ

حتى إذا ما فضّ عنها ختمها الرّجالْ

لم تترك الرياح من ثمودْ

في الواد من أثرْ

أكاد أسمَع النخيل يشرب المطر

وأسمع القرى تئنّ ، والمهاجرين

يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع ،

عواصف الخليج ، والرعود ، منشدين :

مطر ...

مطر ...

مطر ...

وفي العراق جوعْ

ونثر الغلالَ فيه موسم الحصادْ

لتشبع الغربان والجراد

وتطحن الشّوان والحجر

رحىً تدور في الحقول .. حولها بشرْ

مطر ...

مطر ...

مطر ...

وكم ذرفنا ليلة الرحيل ، من دموعْ

ثمَّ اعتللنا ـ خوف أن نلامَ ـ بالمطر

مطر ...

مطر ...

ومنذ أنْ كنَّا صغارًا ، كانت السماء

تغيمُ في الشتاء

ويهطل المطر ،

وكلَّ عام ـ حين يعشب الثرى ـ نجوعْ

ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوعْ

مطر ...

مطر ...

مطر ...

في كل قطرة من المطر

حمراءُ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ

وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة

وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد

أو حُلمةٌ توردت على فم الوليدْ

في عالم الغد الفتيّ ، واهب الحياة !

مطر ...

مطر ...

مطر ...

سيُعشبُ العراق بالمطر .. »

أصيح بالخليج : « يا خليج ..

يا واهب اللؤلؤ ، والمحار ، والردى! »

فيرجع الصدى

كأنَّه النشيج :

« يا خليج

يا واهب المحار والردى »

وينثر الخليج من هِباته الكثارْ ،

على الرمال .. رغوة الأُجاجَ ، والمحار

وما تبقّى من عظام بائس غريق

من المهاجرين ظلّ يشرب الردى

من لجَّة الخليج والقرار ،

وفي العراق ألف أفعى تشرب الرَّحيقْ

من زهرة يربُّها الفرات بالنَّدى

وأسمع الصدى

يرن في الخليج

« مطر ...

مطر ...

مطر ...

في كل قطرة من المطرْ

حمراءُ أو صفراء من أجنَّة الزَّهَرْ

وكلّ دمعةٍ من الجياع والعراة

وكلّ قطرة تراق من دم العبيدْ

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد

أو حُلمةٌ توردت على فم الوليدْ

في عالم الغد الفتيّ ، واهب الحياة !»

ويهطل المطرْ ..

***

سربروس في بابل

ليعو سَرْبروسُ [186] في الدروب

في بابلَ الحزينةِ المهدَّمه

ويملأ الفضاء زمزمه ،

يمزِّق الصّغار بالنيوب ، يقضم العظامْ

ويشرب القلوب

عيناه نَيزكان في الظلام

وشدقُه الرهيب موجتان من مُدى

تخبئ الردى

أشداقه الرهيبة الثلاثةُ احتراقْ

يؤجُّ في العراقْ

ليعو سربروس في الدروب

وينبش التراب عن إلهنا الدفين

(186) الكلب الذي يحرس مملكة الموت ، في الأساطير اليونانية .

تموزنا الطعين ،

يأكله : يمص عينيه إلى القرارْ ،

يقصم صلبه القويَّ ، يحطم الجرار

بين يديْهِ ، ينثر الورود والشقيقْ

أواه لو يُفيق

إلهنا الفتيُّ ، لو يُبرعمُ الحقولْ ،

لو ينثر البيادر النُّضار في السهول ،

لو ينتضي الحُسام ، لو يفجر الرعود والبروق والمَطرْ

ويطلق السيول من يديه . آه لو يؤوب !

لحافنا التراب ، فوقه من القمَرْ

دمٌ ، ومن نهود نسوة العراق طينْ

ونحن إذ نبصُّ من مغاور السنين

نرى العراقَ ، يسألُ الصغارُ في قراره :

« ما القمحُ ؟ ما الثمرُ ؟ »

ما الماء ؟ ما المهود؟ ما الإله؟ ما البَشَرْ ؟

فكلٌّ ما نراه

دمٌ ينز أو حبالٌ ، فيه ، أو حُفَرْ

أكانت الحياه

أحبَّ أن تُعاش ، والصغارُ آمنين؟

أكانت الحقولُ تُزهرُ ؟

أكانت السماء تُمطر ؟

أكانت النساء والرجال مؤمنينْ

بأنَّ في السماء قوّةً تدبِّرُ ،

تُحِسُّ ، تسمع الشكاةَ ، تُبصر ،

ترقَّ ، ترحم الضِّعافَ ، تغفر الذنوبْ ؟

أكانت القلوبْ

أرقَّ ، والنفوسُ بالصفاء تقطرُ ؟

وأقبلْ إلهة الحصادْ ،

رفيقة الزهور والمياه والطيوبْ ،

عُشتارُ ربَّةُ الشمال والجنوب ،

تسير في السهول والوهادْ

تسير في الدروب

تلقط منها لحم تموزَ إذا انتشرْ ،

تلمُّه في سلَّةٍ كأنه الثمر

لكنَّ سربروس بابا ـ الجحيم

يحبُّ في الدروب خلفها ويركضُ ،

يمزِّق النعالَ في أقدامها ، يعضعضُ ،

سيقانها اللدان ، ينهش اليدين أو يمزِّق الرداءْ ،

يلوّث الوشاحَ بالدمِ القديم

يمزج الدم الجديدَ بالعواءْ

ليعو سوبروسُ في الدروبْ

لينهش الألهة الحزينةَ ، الألهة المروَّعة ؛

فإن من دمائها ستُخضب الحبوب ،

سينبت الإلهُ ، فالشرائحُ الموزَّعة

تجمَّعتْ ، تململتْ . سيُولدُ الضياءْ

من رحمٍ ينزُّ بالدماء

***

مدينة بلا مطر

مدينتُنا تؤرِّق ليلَها نارٌ بلا لَهَب

تُحمُّ دروبها والدُّور ، ثم تزول حمّاها

ويصبغها الغروبُ بكل ما حملتْه من سُحُب

فتوشك أن تطيرَ شرارةٌ ويهبَّ موتاها :

« صحا من نومه الطينيِّ تحت عرائش العِنَب ..

صحا تموزُ ، عاد لبابل الخضراء يرعاها »

وتوشك أن تدقَّ طبولُ بابل ، ثم يغشاها

صفيرُ الريح في أبراجها وأنينُ مرضاها

وفي غرفات عُشْتارِ

تظل مجامر الفخّار خاويةً بلا نارِ ،

ويرتفع الدعاءُ ، كان كلَّ حناجر القَصَبِ

من المستنقعات تصيح : لاهثةً من التَعَبِ

تؤوب إلهةُ الدم ، خُبْزُ بابلَ ، شمسُ آذارِ

ونحن نهيم كالغرباء من دارٍ إلى دارِ

لنسألَ عن هداياها

جياعٌ نحن .. واأسفَاه فارغتان كفَّاها ،

وقاسيتان عيناها

وباردتان كالذهب

سحائبُ مُرْعداتٌ مُبرقاتٌ دون إمطارِ

قَضَيْنا العام ، بعد العام ، بعد العامَ ، نرعاها ،

وريحٌ تشبه الإعصار ، لا مرَّت كإعصار

ولا هدأتْ ـ ننام ونستفيقُ ونحن نخشاها

فيا أربابنا المتطلعين بغَيْر ما رحمه ،

عيونكمُ الحجار نُحِسُّها تنداح في العتمه

لترجمنا بلا نقمه ،

تدور كأنهنَّ رحىً بطيئاتٌ تلوكُ جفونَنَا حتى ألفْناها ،

عيونكم الحجار كأنَّها لبَنات أسوارِ

بأيدينا ، بما لا تفعل الأيدي ، بنيناها

عذارانا حزانى ذاهلاتٌ حول عشْتارِ

يغيض الماء شيئًا بعد شيء من محيَّاها ،

وغُصنا بعد غصْن تذبل الكرمه

بطيءٌ موْتنا المنْسل بين النور والظلمة ،

له الويلاتُ من أسدٍ نكابد شَدقه الأدردْ!

أنارُ البرق في عينيه أم من شُعلة المعبد؟

أفي عينه مبخرتان أوجرتا لعشتار؟

أنافذتان من ملكوت ذاك العالم السود:

هنالك حيث يحمل ، كلَّ عامٍ ، جُرحَه الناريَ

جُرحَ العالم الدوَار ، فاديهِ

ومنقذه الذي في كل عام من هناك يعود بالأزهارِ

والأمطار ـ تجرحنا يداه لنستفيقَ على أياديهِ ؟

ولكن مرّت الأعوام ، كثرًا ما حسبناها ،

بلا مطر .. ولو قطرَه

ولا زهر .. ولو زهره

بلا ثمر ـ كأن نخيلَنا الجرداء أنصابٌ أقمناها

لنذبل تحتها ونموت

سيِّدنا جفانا . آه يا قَبْرَه

أما في قاعك الطينيِّ من جرّة؟

أما فيها بقايا من دماء الرب . أو بذره؟

حدائقه الصغيرة أمس جعنا فافترسناها :

سرقنا من بيوت النمْل ، من أجرانها ، دخْنًا وشوفانًا

وأوشابًا زرعناها

فوَّفيْنا ـ وما وفَّى لنا ـ نّذره! »

وسار صغار بابل يحملون سلال صبَّار

وفاكهةٍ من الفخَّار ، قربانًا لعشتار

ويشعل خاطفُ البرق ،

بظلٍّ من ظلال الماء والخضراء والنار ،

وجوهَهُم المدورة الصغيرة وهي تستَسْقي

فيوشك أن يفتِّح ـ وهي تومِضُ ـ حقلُ نوَّارِ

ورفَّ ـ كأنّ ألف فراشةٍ نُثرتْ على الأفْقِ

نشيدُهم الصغيرُ : قبورُ إْخوتِنا تنادينا

وتبحثُ عنكِ أيدينا

لأنّ الخوفَ ملءُ قلوبنا ، ورياحَ آذارِ

تهزُّ مهودنا فنخاف . والأصوات تدعونَا

جياعٌ نحن مرتجفون في الظُلمه

ونبحث عن يدٍ في الليل تُطعمنا ، تغطّينا ،

نشدُّ عيوننا المتلفتات بزندها العاري

ونبحث عنكِ في الظلماء ، عن ثديْين ، عن حُلْمَه

فيا مَن صدرُها الأفْق الكبير وثديُها الغيْمه

سمعتِ نشيجنا ورأيتِ كيف نموت .. فاسْقينا!

نموت ، وأنتِ ـ واأسفاه ـ قاسيةٌ بلا رحمه

فيا آباءنا ، من يفتدينا؟ من سيُحيينا؟

ومن سيموت : يُولِمُ لحمَه فينا؟

وأبرقت السماء كأنّ زنبقة من النارِ

تفتَّح فوق بابل نفسَها . وأضاء وادينا ،

وغلغل في قرارة أرضِنا وهَجٌ فعرّاها

بكلّ بذورها وجذورها وبكلِّ موْتاها

وسحَّ ـ وراء ما رفعتْه بابلُ حول حُمَّاها

وحول ترابها الظمآن ، من عَمَدٍ وأسوارِ

سحابٌ .. كان لولا هذه الأسوار روَّاهَا !

وفي أبَدٍ من الإصغاء بين الرعد والرعدِ

سمعنا ، لا حفيفَ النّخل تحت العارض السحّاح

أو ما وشْوشِتْه الريحُ حيث ابتلّت الأدواح ،

ولكنْ خفقةَ الأقدام والأيدي

وكركرةً و « آهَ » صغيرة قبضتْ بيُمناها

على قمَر يرفرُفْ كالفراشةِ ، أو على نجْمَه

على هبةٍ من الغيْمه،

على رعشات ماء ، قطرةٌ همستْ بها نسمَه

لنعلم أنّ بابلَ سوف تُغسَل من خطاياها !

***

بورسعيد

يا حاصدَ النار من أشلاء قتلانا ... منكَ الضحايا ، وإن كانوا ضحايانا

كم من ردىً في حياة ، وانخذال ردىً ... في ميتةٍ وانتصار جاء خُذْلانا !

إنّ العيون التي طفّأت أنجُمَهَا ... عجّلْن بالشمس أن تختار دنيانا

وامتدّ ، كالنور ، في أعماق تُربتنا ... غرْس لنا من دمٍ ، واخضل موتانا

فازَّلْزَلي يا بقايا كاد أوَّلُنا ... يُبقي عليها ، من الأصنام ، لولانا

نحن الذين اقتلعنا من أسافِلِها ... لاةً وعُزّي ، وأعليْناهُ إنسانا

حُيِّيتِ بورْت سعيدٍ ، من مسيل دمٍ ... لولا افتداءٌ لما يُغليه ، ماهانا

عاناك في الليّل داجٍ من جحافِلِها ... نورًا من الله أعماها ونيرانا

ما عادَ ليلٌ قد استخفى بأقنعةٍ ... من أوجُهِ الناس ، لولا أنتِ ، عرْيانا

ليلٌ تُعيذُ الكهوفُ السودُ آنيةً ... فيها وفكَّا لموتاها وصوّانا

من بعض ما فيه من ظلماءَ ، ما عُرفتْ ... باسم لها ، فهي قبلَ اسمٍ إذا كانا

حُيِّيتِ من قلعةٍ ما آدَ كاهلها ... عِبْءُ السماوات إلاّ خفَّ إيمانا

أمسكتها أن يميد الظالمون بها ... دينًا لنا وانتصاراتٍ وعُنوانا

يا مرفأ النور ، ما أرجعتِ وادعةٍ ... من غير زاد ، ولا آويتِ قُرصانا

ولا تلفظتِ من مرساك معتديًا ... إلا مدمي ذليلَ الهام خَزْيانا

جمّعت من شطٍّ صُورٍ لُمْحَ أحرُفِها ... واخترت من بابلٍ واحتزت مروانا

والنيلُ ساقَ العذارى من عرائِسه ... للخِصْب ، في موكب الفادين ، قُربانا!

فالوَيْل.. لو كان للعادين ما قَدَروا ... لانهدَّ من حاضرٍ ماضٍ فأخزانا

فلا ابتنى هرمًا بان ، ولا لبستْ ... تيجانَها ، في انتظار الروحِ ، موتانا

ولا تفجَّر في «ذي قارَ» فِتْيَتُها   ولا تنَفّستِ الصحراءُ قُرآنا !

حيِّيتِ موتى ، وأحياءً وأبنيةً   مستشهداتٍ أو استعصيْنَ أركانا

والنار والباذرون النار كم زرعوا   من كلِّ ثكلىً لعزرائيل بُستانا!

من كل وجهٍ لطفلٍ فيه زنبقةٌ   تَدْمي ، وتلتمُّ فيه الرِّيح غِرْبانا

الجوّ مما يلزون الحديدَ بهِ   قاعُ الجحيم التظى وانصبَّ طوفانا

سقاك من كلِّ غيمٍ فيه أحرَزَهُ   جوفُ الثرى واشتهتْه النارُ أزمانا

كأس الرِّصاص التي غنَّى بتوأمها   «سقراط» وابتلَّ منها جرحُ وهرانا [187]

---

(187) سقراط [469–399] فيلسوف يوناني ، كان يتحدث إلى الناس في الفضيلة والعدل والتقوى أُتّهم بإفساد عقائد الشباب . فحكم عليه بشرب السم .

من أيِّها رئةٍ ؟ من أي قيثارِ

تنهلُّ أشعاري؟

من غابةِ النارِ؟

أم من عويل الصبايا بين أحجار

منها تتر المياه السودُ واللبن المشويُّ كالقار؟

من أيِّ أحداق طفلٍ فيكِ تُغتصَبُ؟

من أيِّ خبز وماءٍ فيك ما صلبوا؟

من ايِّها شُرْفةٍ ؟ من أيِّها دارِ؟

تنهلُّ أشعاري

كالثارِ؟

كالنور في رايات ثوَّار؟

من مائلكِ السهران أوتاري؟

أم بُرجكِ الهاري

يبكي دمًا من جرح بحَّار؟

أطفالكِ الموتى ، على المرفأ

يبكون في الريح الشماليه ،

والنور من مصباحه المطفأِ

قد غار كالمديه

في صدري العاري

أطفالك الأموات عارُ الحديدْ

في عرسه الدامي ، وذلُّ الرصاصْ ،

مالوا بملك شقاء العبيد

واستنزلوا أربابه للقصاص

في ساحة النارِ

يبكون في الريح الشماليه

أسرى ، على السُّفن الصليبيه ،

والريح كالمديه

تجتث أظفاري

يبكون .. في داري

بالقشِّ والطين سدّوا كوَّةَ القَمَرِ ،

والريحُ في الشجر

قد كمَّموا فاها،

كي لا تصيح : اخبؤوا عن عيُن الغَجَرِ

أطفالكم ، فهي ما ترتدُّ أحداها

إلا وحال الذي تلقى ، إلى حَجَرِ

الريحُ قيثاري

قد كمَّموا فاها

هاويكِ أعلى من الطاغوت فانتصبي ... ما ذلَّ غيرُ الصفا ـ للنار ـ والخشب

حُيّيتِ من قلعةٍ شقَّ الفضاءَ بها ... أَسٌّ لها في صدور الفتيةِ العرب

الطين فيها دمٌ منا ، وجندلُها ... من عزمةٍ ، والحديد الصَّادُ من غضب

أنتِ السماوتُ والأرض ، التي خُلِقت ... في عشرة تحسب الأيام بالحُقْب

والصخر فيكِ استمدَّ الروحَ إذا لمستْ ... عُقْمَ الجماداتِ فيه إصبَعُ اللَّهب

في كلِّ أنقاض دار ، من صفاه يدٌ ... جبّارةٌ تصفع العادين كالشهب

ما انهدَّ إلا وأعلى في ضمائرنا ... سدًّا من الثار أعيي حيلة النَّوَب

والماء ، حتى زلال الماء ، فيكِ مُدىً ... من فضة الله توهي جحفل الذهب

ما بلَّ للجحفلَ المأجور غُلّته ... حتى جبى قِدْرَ ماء من دمٍ سرب!

أملى على كلِّ شيء فيكِ جوهَرَه ... حِلْفٌ لجيشين : ذيي قُربي وذي أرب

إن الحديدَ الذي صُنتِ الحياةَ به ... غيرُ الحديد الذي وافاك بالعطب

والخير في بُندقيات قذائفها ... حتفُ المغيرين ، والميلادُ في قُضُب

لكنه الشرُّ في خبزٍ حقائبُهُ ... عونٌ لأعدائكِ الجوعى ، وفي قِرَب!

ليست المسيحَ الذي داجى بشرْعتِه ... من باع مثواه ، راء فيك عن كثب

خرسٌ نواقيسكِ الثكلى ، وداميةٌ ... فيكِ الأناجيلُ ، والموتى بلا صُلُب

والحابس الماءَ عن جرحاكِ حمَّلها ... عبءَ الصليبين من حُمَّى ومن خشب

واستنطق الأمَّ ثكلى : أين جيرتها ... من فتيةٍ لاصطياد العسكر اللَّجب ؟

فالتمَّ في مقلتيها ، وهي تنظره ... كلَّ المخاضات والتسهيد والنَّصَب

كأنما استودعتها كلَّ والدةٍ ... آجالَ كلِّ الذراري طيلة الحِقَبِ

فاختارت الموت معلوكًا مراضعُها ... معروكةً في رحىً تترى من الرُّكَبِ

تفدي بما يستبيح الجندُ من دمها ... والنار ، أعراض كلِّ الخرَّدِ العُرُبِ

أبناءُ «جنكيزَ» في روح ، وإن بعدوا ... في نسبةٍ ربَّ قُربى دونَ مُنْتَسَبِ

شرُّ اللصوص ، إذا عفَّ التتارُ .. فما ... عفوا عن الرِّيش والأسمال واللَّعبِ !

فلتنفخ الصُّورَ في أفريقيا أَمَمٌ ... بالأمس قد أنزلوها أسفل الرُّتب

ولتُسمعنَّ الزنوج البيض صيحتها ... «إنا إلى الله أدنى منكِ في نسب!»

حُيِّيتِ فالوحش أوهى فيك مخلبهُ؛ ... يا غابة النار قد أثمرْتِ بالغَلْب!

من أيِّ عبءٍ على روحي ومسمارِ

من أعين ، في صليب تحت أسواري،

تأتيكِ أشعاري؟

حمراء خضراءَ من جُرحٍ ومن غارِ ،

خضراءِ من راية ، حمراء من نار،

خضراء كالماء في فردوسكِ الجاري؟

يا ليت أوتاري

خضراءُ حمراءُ من قلبي ومن ثاري!

يا ليتَ أبواب قلبي منكِ تلتهبُ!

يا ليتها دون قُفْل ، ليتها خشَبُ!

أو خرّبَ الجندُ قلبي ، فهي تنتحبُ

في كلِّ إعصارِ !

سودٌ ، كما اسودّت الأموات ، أنهاري

فالطين فيها فمٌ يمتصُّ أسفاري ،

والريحُ في داري

سوداءُ ما رفَّ منها باللَّظى عَصَبُ

لا تسألِي بعدُ عنها : إنها عشُب

أعواده السود غذَّى عجلهُ الذهبُ

منها ، فخبّأتُ في عيني قيثاري!

كوني لأشعاري

وحيًا ، وشدِّي ببأس منك أوتاري

يا مرفأ النور ، كن مرسىً لأفكاري!

يا مرفأ النار

ألهبتَ أغواري

بالثارِ

مزّقت عنها سودَ أستارِ

فانهلّتِ الشمسُ على داري

كم من دفين ، كلُّ ماء القنالْ

في مدّه العاتي وفي جزرهِ ،

يلقي على صدرهِ

عبْئًا من الظلماء ـ كان القتال

من أجل أن يرتاح في قبرهِ!

ما كان إلاَّ من دموع الرِجَال

والنسوة الباكين في قعره،

هذا الذي بين العُبابْينِ سال!

كالليل هذا الماءُ فوقَ القبورْ

كالنارِ ، كالإعصار ، كالداء :

تختضُّ في ليل الخليج الصدور ،

والشمسُ تحسو كلَّ ماءِ الصدور

في عالم لم تمشِ فيه العصور

من ملتقى للماء بالماء!

كالليل هذا الماء ، ند الحياه :

الموْت والميلاد بَوّابتاه

في قاعِهِ الموتى قد استبدلوا

بالنبض ، ما يُرغي به المرجلُ

في موقرات ، من سفين الغزاه ،

بالموتُ مما يصنع المعملُ

حتى إذا ما رشَّ عارَ العُتاه

بالدمع من عينيه ، والنارِ

من قالبَه المورق بالغارِ ،

أنسانُكِ العملاقِ ظِلّ الإله ،

ظِلُّ الملايين التي مقلتاه

عنها ترى ما في خيال تراه ،

هذا الذي أعصابُها في قِواه .

أحيي دم الموتى ، فخرَّ الطغاه!

فليحرس الأحياء باب الحياه!

غاض المغيرون عن واديكِ وانحسروا   فالأرضُ تدمي بقتلاها وتزدهرُ

وازداركِ الموتُ لا مُلْسًا ملامحه   بيضًا، كما تهلك الأنعام والشجَر

حاشاك!! فالموتُ توري فيكِ حدّتُه   طعْمَ الدم الحيِّ، ما يرقى به البشر

أخفاهُ عنك التزامٌ واشتباكُ يدٍ   في مثلها، فهو حيثُ اجتازهُ البصر

حتى إذا ارتدَّ واستبشعتِ صورتهُ   أدركتِ أيّ انتصار ذلك الظَّفَرُ!

أدركتِ أنَّ الضحايا ردّ كاثرَها   فيكِ الأقلَّ المضَحَّي أنَّها كثُر

من سدّدَ النارَ في أيديكِ، يُوردها   كيْدَ المغيرينَ منه الظنُّ والنظر؟

واحتاز في قلبه الأحقاب، يزرعها   في جانب منه واستبسالكِ الثمر؟

واستنفر الشرق حتى كاد ميِّته   يسعى أهذا صلاحُ الدين أم عمَر؟

هذا الذي حدثتنا عنه أنفسنا   في كل دهياء نبولها وننتظر

هذا الذي كلَّ، عن سحقٍ لبذرته   بالخيل والذابلات، الرومُ والتتر

يا أمَّةً تصنع الأقدارَ من دمها   لا تيأسي إنّ «سيف الدولة» القدر

أعطى لكلِّ انتصار فيك جدّتَهُ   فاخضل واخضلت الآياتُ والسُّورُ

في مسجدٍ أمّ مشّاءٌ بأمّتِه   فيه المصلّين، حتى كبَّرَ الحجر!

واستشرفَ الساحَ ناء عنه يحمله   ما بين جنبيْه، رام فيه منْتصر

عينٌ لسيناء ترقى كلّ رابيةٍ   فيها، وعينٌ وراء النيلِ تنحدر

أو تنفِضُ الأفقَ، حتى ضاءَ من لهب   حملاقها، فهي مما راءَ تستعِر!

جاؤوك! جاء الصليبيون، قاصفةً   تنقضُّ في أثرْ أَخرى، فاللظى مطر

في كلِّ فانوس موتى من قذائفها   نورٌ له اختضّت الأبعادُ والعُصُر

فالشرق عارٍ مدى عينيْه، منبسطٌ   كالراحة: الدور، والأكواخ والحُفر

يكاد يبصر ما أبقاه مكتدّحٌ   في جبهةٍ، واغتذى من مقلةٍ سَهرُ

إيماضةَ البرق: إلا أنها حقبٌ   تُطوى، ومستقبل يُبنى ويدّخر!

المجد لله والإنسان: إن يدًا   تحيي وقلبًا يداوي، منهما أثر!

يا قلعة النور تدمي كلَّ نافذةٍ   فيها، وتلظى، ولا تستلم، الحُجَر

أحسَسْتُ بالذّلّ أن يلقاك دونَ دميً   شعري، وأني بما ضحَّيْتِ أنتصر

لكنّها باقةٌ أسعى إلَيكِ بها   حمراءُ يخضل فيها من دمي زهَر!

***

المومس العمياء

الليل يُطبق مرَّة أخرى ، فتشربه المدينه

والعابرون ، إلى القرارة .. مثل أغنيةٍ حزينه .

وتفتحت ، كأزاهر الدفلى ، مصابيح الطريق ،

كعيون « ميدوزا » [188] ، تحجَّر كل قلب بالضغينه ،

وكأنها نذرٌ تبشر أهل « باب » بالحريق .

من أي غاب جاء هذا الليل ؟ من أي الكهوف

من أي وجر للذئاب ؟

من أي عش في المقابر دفَّ أسفع كالغرب ؟

« قابيل » [189] أخفِ دم الجريمة بالأزاهر والشفوف

وبما تشاء من العطور أو ابتسامات النساء

ومن المتاجر والمقاهي وهي تنبض بالضياء

عمياء كالخفاش في وضع النهار ، هي المدينه ،

والليل زاد لها عماها .

والعابرون :

الأضلع المتقوّسات على المخاوف والظنون ،

---

(188)عيون ميدوزا تحول كل من تلقى بها عيناه إلى حجر في الأساطير اليونانية .

(189) إشارة إلى قصة هابيل وقابيل في القرآن الكريم ، وكيف أرشد الغراب قابيل كيف يدفن أخاه .

والأعين التعبى تفتش عن خيال في سواها

وتعدّ آنية تلألأُ في حوانيت الخمور :

موتى تخاف من النشور

قالوا سنهرب ، ثم لاذوا بالقبور من القبور !

من هؤلاء العابرون ؟

أحفاد « أوديب » [190] الضرير ووارثوه المبصرون .

(جوكست) أرملة كمس ، وباب « طيبة » ما يزال

يُلقي « أبو الهول » الرهيب عليه من رعب ظلال

والموت يلهث في سؤال

باقٍ كما كان السؤال ، ومات معناه القديم

من طول ما اهترأ الجواب على الشفاه .

وما الجواب ؟

« أنا » قال بعض العابرين ...

وانسلَّت الأضواء من باب تثاءب كالجحيم

تطفو عليهن البغايا كالفراشات العطاش

---

(190) أوديب : أمر أبوه «لاوس» عند ولادته بأن يترك على جبل حتى يموت خوفًا من أن تتحقق النبوءة بأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه . ولكنه أنقذ ، ورباه ملك كورنثه . علم أوديب بالنبوءة ففرّ من كورنثة . وفي طريقه إلى طيبة تقابل مع «لاوس» وقتله . ثم زوّجه أهل طيبة من «جوكاستا» بعد أن خلعهم من الوحش الذي كان يهددهم عندما عرف الحقيقة فقأ عينه ، وانتحرت أمه .

يبحثن النيران عن قطرات ماء .. عن رشاش .

لا تنقلنَّ خطاك فالمبغى « علائي » (191) الأديم :

أبناؤك الصرعى تراب تحت نعلك مستباح ،

يتضاحكون ويعولن .

أو يهمسون بما جناه أب يبرّؤه الصباح

مما جناه ، ويتبعون صدى خطك إلى السكون

الحارس المكدود يعبر ، والبغايا متعبات ،

النوم في أحداقهن يرفّ كالطير السجين ،

وعلى الشفاه أو الجبين

تترنح البسمات والأصباغ ثكلى ، باكيات ،

متعثرات بالعيون وبالخطى والقهقات ،

وكأن عارية الصدور

وصال جندي قتيل كللوها بالزهور ،

وكأنها درج إلى الشهوات ، تزحمه الثغور

حتى يهدَّم أو يكاد . سوى بقايا من صخور

جيفٌ تستَّرُ بالطلاء ، يكاد ينكر من رآها

أن الطفولة فجَّرتها ، ذات يومٍ ، بالضياء

(191) نسبة إلى أبي العلاء المعري .

كالجدول الثرثار ـ أو أن الصباح رأى خطاها

في غير هذا الغار تضحك للنسائم والسماء،

ويكاد ينكر أن شقًا لاح من خلل الطلاء

قد كان ـ حتى قبل أعوام من الدم والخطيئة

ثغرًا يكركر ، أو يثرثر بالأقاصيص البريئه

لأب يعود بما استطاع من الهدايا في المساء

لأبٍّ يقبّل وجه طفلته النديّ أو الجبينْ

أو ساعدين كفرختين من الحمائم في النقاء

ما كان يعلم أن الفم فم كبئرٍ دون ماءْ

ستمصُّ من ذاك المحيا كل ماءً للحياء

جتى يجفَ على العظام ـ وأن عارًا كالوباء

يصم الجباه فليس تُغسل منه إلا بالدماء

سيحلّ من ذاك الجبين به ويلحق بالبنين ـ

والساعدين الأبيضين ، كما تنوِّر في السهولْ

تفاحة عذراء ، سوف يطوِّقان ، مع السنين

كالحيتين ، خصور آلاف الرجال المتعبين

الخارجين ، خروج آدم ، من نعيم في الحقول

تفاحة الدمُ والرغيف وجرعتان من الكحول

والحية الرقطاء ظلٌ من سياط الظالمين

يا أنتَ ، يا أحد السكارى ،

يا من يريد من البغايا ما يريد من العذارى

(ما ظلَّ يحلم ، منذ كان ، ويزرع في الصحاري

زبد الشواطئ والمحارا

مترقبًا ميلاد «أفروديت» [192] ليلاً أو نهارا)

أتريد من هذا الحطام الآدميِّ المستباحْ

دفءَ الربيع وفرحة الحمل الغرير مع الصباح

ودواءً ما تلقاه من سأمٍ وذلٍّ واكتداح

المال ، شيطان المدينه

لم يحظ ، من هذا الرهان ، بغير أجساد مهينه

«فاوست» [193] في أعماقهن يعيد أغنية حزينه

المال ، شيطان المدينه ، ربُّ « فاوست » الجديد

---

(192) تشكلت « أفروديت » من زبد البحر وتدفأت بدم كائيلوس أو أورانوس . وولدت بالقرب من جزيرة قبرص في صدفة من اللؤلؤ .

(193) تقول الأسطورة أنّ الشيطان اشترى فاوست روحًا وجسدًا لقاء أن يرد عليه شبابه ، ويريه شبح هيلين الإغريقية نظير أن يكون في خدمته .

جارت على الأثمان وفرة ما لديه من العبيد،

الخبز والأسماك حظٌّ عبيده المتذللين

مما يوزع من عطايا ـ لا اللالىء والشباب ،

والمومس العجفاء ـ لا « هيلين » والظمأ اللعين

لا حكمة الفرح المجنَّح والخطيئة والعذاب

الخيل من سأمٍ تحمحم وهي تضرب بالحوافر [194]

حجر الطريق

هلمَّ : فالحوذي يبحث عن مسافر

والريح صرٌّ ، والبغيُّ بلا زبائن منذُ حين

إن لم تضاجعها وصدَّ سواك عنها معرضينَ

فكيف تحيا ، وهي ، مثلك لا تعيش بلا طعام؟

لا تخشَ منها أن تُراعَ بها تآكَّلَه الجذام

من صدرك النخر العريض . وأنت ويحك يا أخاها

ماذا تريد ، وعمَّ تبحث في الوجوه؟ ويا أباها

أطعن بخنجرك الهواء .. فأنتما لن تقتلاها

---

(194) البيت من « فاوست » لغوته ، بقوله الشيطان لفاوست حين كان يزور مرغريت « التي غرر بها وقتل أخاها وولدت طفلاً فقتلته » وهي في سجنها .

هي لن تموتْ :

سيظل غاصبها يطاردها وتلفظها البيوت

ستظلُ ـ ما دامت سهام التبر تصفر في الهواء ـ

تعدو ، ويتبعها «أبولو» [195] من جديد كالقضاء ،

وتظلّ تهمس ، إذ تكاد يداه أن تتلقَّفاه :

« أبتي .. أغثني» بيد أنك لا تصيخ إلى النداء ،

لو كنت من عرق الجبين ترشَّها ومن الدماء

وتحيلها امرأة بحقٍّ ، لا متاعًا للشراء

كلّلت منها ، بالفخار وبالبطولات ، الجباها!

وكأن ألحاظ البغايا

إبَرٌ تُسَلُّ بها خيوط من وشائعَ في الحنايا

وتظل تنسج ، بينهن وبين حشد العابرين،

شيئًا كبيت العنكبوت يخضّه الحقد الدفين :

(195) كانت « دفني » ابنة إله صغير ، إله أحد الأنهار وقد رآها « أبولو » إله الشمس الجبار فأحبها وطاردها محاولاً اغتصابها . وقد استنجدت بأبيها فرشها بحفنة من الماء وأحالها إلى شجرة غار تضفر من أغصانها الأكاليل للأبطال . أما سهام التبر ، الذهب ، فهي السهام التي كان كيوبيد يرشق بها قلب أبولو ليلهب الحب فيه وقد استعرناها رمزًا لسطوة المال .[الشاعر]

حقدٌ سيعصف بالرجالْ

والأخريات ، النائمات هناك في كنف الرجال

والساهرات على المهود وفي بيوت الأقربين

حول الصلاء بلا اطّراحٍ للثياب ولا اغتسال

في الزمهرير ، ودون عدٍّ لليالي والسنين!

ويمرُّ عملاق يبيع الطير ، معطفه الطويلْ

حيران تصطفق الرياح بجانبيه ، وقبضتاه

تتراوحان : فللرداء يدٌ وللعبء الثقيلِ

يدٌ وأعناق الطيور مرنحات من خطاه

تدمي كأثداء العجائز يوم قطّعها الغزاه

خطواته العجلى ، وصرخته الطويلة : « يا طيورْ

هذه الطيور ، فمن يقول تعال .. »

أفزعها صداه

يأتيه من غُرَف البغايا كاللهاث من الصدور

ويدٌ تشير إليه عن كثب ، وقائلة تعال!

بين التضاحك والسعال :

عمياء ، تطفئ مقلتاها شهوة الدم في الرجال

وتحسّسته كأن باصرةً تهمُّ ولا تدور

في الراحتين وفي الأنامل وهي تعثر بالطيور ،

وتوسلته : « فدى لعينك ـ خلّني بيدي أراها »

ويكاد يهتك ما يغلّف ناظريها من عماها

قلبٌ تحرَّق في المحاجر واشرأبَّ يريد نور!

وتمسّ أجنحة مرقَّطة فتنشرها يداها،

وتظل تذكر ـ وهي تمسحهن ـ أجنحة سواها

كانت تراها وهي تخفق .. ملء عينها تراها :

سربٌ من البطّ المهاجر ، يستحثُ إلى الجنوب

أعناقه الجذلى .. تكاد تزيد من صمت الغروب

صياحتُه المتقطعات ، وتضمحل على السهوب

بين الضباب ، ويهمس البردي بالرجع الكئيب

ويرج وشوشة السكونْ

طلْقٌ .. فيصمت كل شيء .. ثم يلغط في جنون

هي بطّة فلمَ انتفضتِ؟ وما عساها أن تكون؟

ولعل صائدها أبوك ، فإن يكنْ فستشبعون

وتخفّ راكضةً حيالَ النهر كي تلقى أباها :

هو خلف ذاك التل يحصد . سوف يغضب إن رآها

مرَّ النهار ولم تُعنّه .. وليس من عون سواها

وتظل ترقى التل وهي تكاد تكفر من أساها

... ...

يا ذكرياتُ علام جئتِ على العمى وعلى السهاد؟

لا تمهليها ، فالعذاب بأن تمرّي في اتئاد

قصّي عليها كيف مات وقد تضرَّج بالدماء

هو والسنابل والمساء .

وعيون فلاحين ترتجف المذلّة في كواها

والغمغمات : « رآه يسرق » ، واختلاجات الشفاه

يخزين ميّتها ، فتصرخ : « يا إلهي ، يا إلهي ..

لو أن غير « الشيخ! » وانكفأت تشدّ على القتيل

شفتين تنتقمان منه أسى وحبًا والتياعا

وكأن وسوسة السنابل والجداول والنخيل

أصداء موتى يهمسون : « رآه يسرق » في الحقول

حيث البيادر تفصد الموتى فتزداد اتساعا!

... ...

وتحسُّ بالدم وهو ينزف من مكان في عماها

كالماء من خشب السفينة ، والصديد من القبور ،

وبأدمع من مقلتيها كالنمال على الصخور

أو مثل حبات الرمال مبعثرات في عماها

يهوين منه إلى قرارة قلبها آهًا فآها

ومن الملوم وتلك أقدارٌ كُتبن على الجبين؟

حتمٌ عليها أن تعيش بعرضها ، وعلى سواها

من هؤلاء البائسات ، وشاء رب العالمين

ألا يكون سوى أبيها - بين آلافٍ - أباها

وقضى عليه بأن يجوع

والقمح ينضج في الحقول من الصباح إلى المساءْ

وبأن يلصّ فيقتلوه .. (وتشرئب إلى السماء

كالمستغيثة ، وهي تبكي في الظلام بلا دموع)

والله - عزّ وجل - شاء

أن تقذف المدنُ البعيدة والبحار إلى العراق

آلاف آلاف الجنود ليستبيحوا ، في زقاق

دون الأزقة أجمعين

ودون آلاف الصبايا ، بنت بائعة الرقاق :

تلك الشقيّة ، ياسمينْ

(ذاك اسم جارتها الجديد ، فليتها كانت تراها

هل تستحق اسمًا كهذا : ياسمين وياسمين؟)

ومن الذي جعل النساءْ

دون الرجال ، فلا سبيل إلى الرغيف سوى البغاء؟

الله ـ عزّ وجلّ ـ شاء

ألا يكنَّ سوى بغايا أو حواضن أو إماء

أو خادمات يستبيح عفافَهن المترفونْ

أو سائلات يشتهين الرجال المحسنون!!

لو لم تكن أنثى! ـ وتسمع قهقهات من بعيد:

« عباس » عاد من الترصُّد بالرجال على الوصيد

ولسوف تترح راحتاه غُسالة الضيف الجديد

لو لم تكن أنثى .. وتسمع قهقهاتٍ من بعيد

يا ليت حمّالاً تزوجها يعود من المساء

بالخبز في يده اليسار وبالمحبة في اليمين

لكن بائسة سواها حدثتها منذ حين

عن بيتها وعن ابنتيها ، وهي تشهق بالبكاء

عن زوجها الشرطيّ يحمله الغروب إلى البغايا

كالغيمة السوداء تُنذر بالمجاعة والرزايا ،

أزراره المتألّقات على مغالق كل باب

مُقلُ الذئاب الجائعات ترود غابًا بع غاب

وخطاه مطرقة تسمّر ، في الظلام ، على البغايا

أبوابهنّ إلى الصباح - فلا اتِّجارٌ بالخطايا

إلا لعاهرة تُجاز بأن تكون من البغايا

ويظلّ يخفرِّهن من شبعٍ ، وينثر في الرياح

أغنيَّةً تصف السنابل والأزاهر والصبايا

وتظل تنتظر الصباح وساعديه مع الصباح

تصغى - وتحتضن ابنتيها في الظلام - إلى النباح

وإلى الرياح تئن كالموتى وتعول كالسبايا

وتُجمِّع الأشباح من حفر الخرائب والكهوف

ومن المقابر والصحاري بالمئات وبالألوف

فتَقِفُ من فزعٍ وتحجب مقلتيها بالغطاء ،

ويعود والغبش الحزين يرش بالطل المضاء

سعفَ النخيل .. يعود من سهرٍ يئن ومن عياءِ

- كالغيمة اعتصرت قواها في القفار ، وترتجيها

عَبرَ التلال قوىً تجوع - لكي ينام إلى المساء :

عيشٌ أشقُّ من المنيّة ، وانتصار كالفناء

وطوى يعبّ من الدماء وسُمٌّ أفعى في الدماء

وعيون زان يشتهيها ، كالجحيم يشعّ فيها

سخرٌ وشوق واحتقار ، لاحقتها كالوباء ..

والمال يهمس أشتريك وأشْتريك فيشريها

... ...

... ...

يا ليتها ، إذن انتهى أجلٌ بها فطوى أساها

«لو أستطيع قتلتُ نفسي» همسةٌ خنقت صداها

أخرى توسوس : «والجحيم؟ أتصبرين على لظاها؟

وإذا اكفهرَّ وضاق لحدك ، ثم ضاق ، إلى القرار

حتى تفجّر من أصابعك الحليب رشاش نارِ

وتساءل الملكان : فيمَ قتلتِ نفسك يا أثيمة؟

وتطّفاك إلى السعير تكفرين عن الجريمه

أفتصرخين : أبي فينفض راحتيه من الغبار

ويخف نحوك وهو يهتف : قد أتيتك يا سليمه؟ »

حتى اسمُها فقدته واستترت بآخر مستعارِ

هي - منذ أن عميَت - « صباحُ »

فأيُّ سخريةٍ مريره!

أين الصباح من الظلام تعيش فيه بلا نهار

وبلا كواكبَ أو شموعٍ أو كوى وبدون نار ؟

أو بعد ذلك ترهبين لقاء ربَّك أو سعيره؟

القبر أهون من دجاك دجىً وأرفق ، يا ضريره

يا مستباحة كالفريسة في عراءٍ ، يا أسيره

تتلفَّتين إلى الدروب ولا سبيل إلى الفرارِ؟

... ...

وتحسّ بالأسف الكظيم لنفسها : لِمَ تُستباح؟

الهر نام على الأريكة قربها .. لِمَ تستباح؟

شعبان أغفى ، وهي جائعة تلمّ من الرياح

أصداء قهقهة السكارى في ازقة ، والنباح

وتعدّ وقع خطى هنا وهناك : ها هو ذا زبون

هو ذا يجيء - وتشرئبّ ، وكاد يُلمس .. ثم راح

وتدقّ في أحد المنازل ساعة .. لِمَ تستباح؟

الوقت آذان بانتهاء والزبائن يرحلون

لِمَ تستباح وتستباح على الطوى . لِمَ تستباح؟

كالدرب تذرعه القوافل والكلاب إلى الصباح؟

الجوع ينخر في حشاها ، والسكارى يرحلون،

مروا عليها في المساء وفي العيشة ينسجون

حلمًا لها هي والمنون

عصَبَات مهجتها سَداه وكل عوق في العيون ،

والآن عادوا ينقضون .

خيطًا فخيطًا من قرارة قلبها ومن الجراح .

ما ليس بالحلم الذي نسجوه ، مالا يدركون

شيئًا هو الحلم الذي نسجوا وما لا يعرفون،

هو منه أكثرُ : كالحفيفِ من الخمائل والرياح ،

والشعرِ من وزن وقافية ومعنى ، والصباح .

من شمسه الوضاء ... وانصرفوا سكارى يضحكون !

فليرحلوا . ستعيش ، فهي من السعال ومن عماها

أقوى ، ومن صخب السكارى

فامضِ عنها يا أساها!

ستجوع عامًا أو يزيد ، ولا تموت ، ففي حشاها

حقدٌ يؤرث من قواها

ستعيش للثأر الرهيب

والداء في دمها وفي فمها . ستنفث من رداها

في كل عرق من عروق رجالها شبحًا من الدم واللهيب ،

شبحًا تخطّفَ مقلتيها أمس ، من رجل أتاها

ستردُّه هي للرجال ، بأنهم قتلوا اباها

وتلقفوها يعبثون بها وما رحموا صباها ،

لم يبتغوها للزواج لأنها امرأة فقيره،

واستدرجوها بالوعود لأنها كانت غريره ،

وتهامس المتقوّلون فثار أبناء العشيره

متعطشين ـ على المفارق والدروب ـ إلى دماها

وكأن موجة حقدها ورؤى وأساها

كانت تقرّب من بصيرة قلبها صورًا علاها

صدأ المدينة وهي ترقد في القرارة من عماها :

كل الرجال؟ وأهل قريتها؟ أليسوا طيبين؟

كانوا جياعًا ـ مثلها هي وأبيها ـ بائسين ،

هم مثلها ـ وهم الرجال ـ ومثل آلاف البغايا

بالخبز والأطمار يُؤتَجَرون ، والجسد المهين

هو كل ما يتملكون ، هم الخطاة بلا خطايا

وهم السكارى بالشرور كهؤلاء العابرينَ

من السكارى ، بالخمور .. كهؤلاء الفاجرين بلا فجور

الشاربين ـ كمن تضاجع نفسها ـ ثمن العشاء

الدافنين خروق بالية الجوارب في الحذاء ،

يتساومون مع البغايا في العشيّ على الأجور

ليوفّروا ثمن الفطور!

ليس الذين تغصّبوها من سلالة هؤلاء :

كانوا كآلهة مقطَّبة الجباه من الصخور

تمتصُّ إلى البرايا كالصواعق من علاء!

وتحسّ ، في دمها ، كآبة كلّ أمطار الشتاء

من خفْق أقدام السكارى ، كالأسير وراء سور

يصغي إلى قرع الطبول يموت في الشفق المضاء

هي والبغايا خلف سورٍ ، والسكارى خلف سور ،

يبحثن هنَّ عن الرجال ، ويبحثون عن النساء ،

دميتْ أصابعهن : تحفر والحجارة لا تلين،

والسور يمضغهن ثم يقيئهن ركام طين:

نصبًا يخلّد عار آدم واندحار الأنبياء ،

وطلول مقبرةٍ تضم رفات « هابيل » الجنين!

سور كهذا ، حدّثوها عنه في قصص الطفوله :

«يأجوج» [196] يغرز فيه ، من حنق ، أظافره الطويله

ويعضّ جندله الأصم ، وكفُّ «مأجوج» الثقيله

تهوي كأعنف ما تكون ، على جلامده الضخام ،

والسور باقٍ لا يَثَلُّ .. وسوف يبقى ألف عام،

لكنّ (إن ـ شاء ـ الإله)

ـ طفلاً كذلك سمّياه ـ

سيهبّ ذات ضحىً ويقلع ذلك السور الكبير

.. ألطفل شاب وسورها هي ما يزال كما رآه

من قبل يأجوج البرايا توأمٌ هو للسعير!

لصَّ الحجارة من منازلَ في السهول وفي الجبال

يتواثب الأطفال في غرفاتها ويكركرون..

والأمهات يلدن والآباء للغد يسمون ،

لم يُبْقِ من حجَر عليها ، فهي ريح أو خيال

وأدارَ من حُطَمِ البلاط رحى ، وساط من البطون

---

(196) يأجوج ومأجوج ، شعبان بدائيان كانا يسكنان السهول الشمالية الشرقية للعالم القديم . هاجرت منها جماعات إلى الجنوب كان لها خطرها مما دفع بذي القرنين إلى بناء سد حديدي ليوقف تدفقهم . تضيف الأساطير أنّهما يلحسان السور بلسانهما كل يوم حتى يصبح في رقة قشرة البصل ، ويدركهما التعب فيقولان « غدًا سنتم العمل » وفي الغد يجدان السور على عهده من القوة والمتانة .. وهكذا . حتى يولد لهما طفل يسميانه « إن شاء الله » فيحطم السور .

ما ترتعيه رحاه من لحم الأجنّة والعظام ،

وكشاطئين من النجوم على خليج من ظلام

يتحرَّقان ولا لقاءَ ويخمدان سوى ركام ـ

شق الرجالَ عن النساء : سُلالتين من الأنام

تتلاقيان مع الظلام وتَنْفُصِلان مع الشروق :

زانٍ وزانية ، وبائعة وشار ـ والطعام

لا الحبُ والأحقاد لا الأشواق ـ تنبض في العروق !

زان وزانية؟ .. ايمكن ذاك وهي بلا عشاء؟

لم يُعرض الزانون عنها وحدها؟ لم يعرضون

وهي الفقيرة فقر شحّاذ؟ أما هي كالنساء؟

أو ما لها جسد كنا ضجة الثمار؟ أيعثرون

لو يقطعون الليل بحثًا والنهار ـ على سواها

في حسنها هي؟ في غضارة ناهديها أو صباها

وبسعرها هي؟ أي شيء غير هذا يبتغون؟

أ « زهور » أجمل أو « سعاد؟ » بأي شيء جارتاها

تتفوقان؟

وعضّت اليد وهي تهمس : بالعيون ... !»

عمياء أنت وحظك المنكود أعمى يا سليمه

.. وتلوب أغنية قديمه

في نفسها وصدى يوشوش : يا سليمه ، سليمه (197)

نامت عيون الناس . آه .. فمن لقلبي كي ينميه؟

ويل الرجال الأغبياء ، وويلها هي ، من عماها!

لم أصبحوا يتجنبون لقاءها؟ أيضاجعونَ

عيونها ، فيخلّفوها وحدها إذ يعلمون

بأنها عمياء؟ فيم يكابرون ومقلتاها

ما كانتا فخذين أو ردفين؟ وهي بهؤلاء

أدري ، وتعرف أي شيء في البغايا يشتهون

بالأمس ، إذ كانت بصيره ،

كان الزبائن بالمئات ، ولم يكونوا يقنعون

بنظرة قمراء تغصبها من الروح الكسيره

لترش أفئدة الرجال بها ، وكانوا يلهثون

(197) أغنية شعبية « سليمة يا سليمة . نامت عيون الناس . كلبي (قلبي) ش يتيمه؟ » .

في وجهها المأجور ، أبخرة الخمور ، ويصرخون

كالرعد في ليل الشتاء :

عَبرَ ابتسامتها أو الفخذ التي زلق الرداء

عنها ، أو النهدين نمِّ عليهما قلق الضياء .

« إن كنتِ لا تتجردين كما أتيت إلى الوجود ،

إن كنت لا تتجردين .. فلا نقود! »

ولعلّ غيرة « ياسمين » وحقدّها سبب البلاء :

فهي التي تضع الطلاء لها وتمسح بالذرور

وجهًا تطفَّأت النواظر فيه ..

- « كيف هو الطلاء؟

وكيف أبدو؟ »

- « وردةٌ .. قمر .. ضياء! »

زورٌ .. وكل الخلق زور ،

والكون مَيْنٌ وافتراء

لو تبصر المرآة - لمحة مقلتيها - لو تراها

ـ لمح النيازك ـ ثم تغرق من جديد في عماها !

برقّ ويُطفأ .. ثم تُحكم فرقها بيدٍ ، وفاها

بيدٍ ، وترسم بالطلاء على الشفاه لها شفاها

شفتاك عارية وخدُّك ليس خدك يا سليمه،

ماذا تخلَّف منك فيك سوى الجراحات القديمه؟

وتضمُّ زهرةَ قلبها العطشى على ذكرى أليمه :

تلك المعابثة اللعوب .. كأنها امرأة سواها!

كالجدولين تخوض ماءهما الكواكب ـ مقلتاها،

والشَّعر يلهث بالرغائب والطراوة والعبير

وبمثل أضواء الطريق نعسْنَ في ليل مطير ،

والثغر بين الجلنّار وزهرة النهد الصغير

كانت إذا جلست إلى المرآة يفتنها صباها

فتظل تعصر نهدها بيدٍ ، وتحملها رؤاها

من مخدع الآثام في المنفى ، إلى قصر الأمير:

تقتات بالعسل النقيِّ ، وترتدي كسل الحرير

ليت النجوم تخرُّ كالفحم المطفَّأ ، والسماء

ركام قارٍ أو رماد ، والعواصف والسيول

تدقُّ راسية الجبال ولا تخلِّف في المدينة من بناء!

أن يعجز الإنسان عن أن يستجير من الشقاء

حتى بوهم أو برؤيا ، أن يعيش بلا رجاء ...

أوليس ذاك هو الجحيم؟ أليس عدلاً أن يزول؟

شبع الذُّباب من القمامة في المدينة ، والخيول

سرِّحن عن عرباتهن إلى الحظائر والحقول ،

والناس ناموا ـ وهي ترتقب الزناة بلا عشاء

هذا الذي عرضته كالسلع القديمة : كالحذاء،

أو كالجرار الباليات ، كأسطوانات الغناء ..

هذا الذي يأبى عليها مشترٍ أن يشتريه

قد كان عرضًا ـ يوم كان ـ ككل أعراض النساء!

كان الفضاء يضيق عن سعة ، وتُرتخص الدماء

إن رنَّق النظر الأثيم عليه . كان هو الأباء

والعزة القعساء والشرف الرفيع . فشاهديه

يا أعين الظلماء ، وامتلأي بغيظك وارجميه

بشواظ عارك واحتقارك يا عيون الأغبياء!

ـ « لا تتركوني يا سكارى

للموت جوعًا ، بعد موتي ـ ميتة الأحياء ـ عارا

لا تقلقوا .. فعماي ليس مهابة لي أو وقارا

مازلت أعرف كيف أُرعش ضحكتي خلل الرداء

ـ إبّان خلعي للدراء ـ وكيف أرقص في ارتخاء

وأمسُّ أغطية السرير وأشرئبُّ إلى الوراء

مازلت أعرف كل ذاك ، فجربوني يا سكارى !

من ضاجع العربية السمراء لا يلقى خسارا

كالقمح لونك يا ابنة العرب ،

كالفجر بين عرائش العنب

أو كالفرات ، على ملامحه

دعة الثرى وضرواة الذهب

لا تتركوني .. فالضحى نسبي :

من فاتح ، ومجاهد ، ونبي !

عربية أنا : أمتي دمها

خير الدماء .. كما يقول أبي

في موضع الأرجاس في جسدي ، وفي الثدّي المذال

تجري دماء الفاتحين . فلوثوها ، يا رجال

أواه من جنس الرجال .. فأمس عاث بها الجنود

الزاحفون من البحار كما يفوز قطيع دود

يا ليت للموتى عيونًا من هباء في الهواءِ

ترى شقائي

فيرى أبي دمه الصريح يعبُّ أوشال الدماء

كالوحل في المستنقعات . فلا يردَّ الخاطبينَ

أبٌ سواه : لأن جدة أمِّ ذاك من الأماء

ولأن زوجة خال ذلك بنت خالة هؤلاء!

أنا يا سكارى لا أرد من الزبائن أجمعين

إلا العفاة المفلسين ،

أنا زهرة المستنقعات ، أعبُّ من وحل وطين

واشعّ لونَ ضُحىً .. »

وذكرها يجعجعة السنينَ

سُعالها . ذَهَبَ الشباب !!

ذهب الشباب !! فشيِّعيه مع السنين الأربعين

ومع الرجال العابرين حيال بابك هازئين

وأتى المشيب يلف روحك بالكآبة والضباب

فاستقبليه على الرصيف بلا طعام أو ثياب ،

يا ليتكِ المصباحُ يخفق ضوْؤهُ القَلِقُ الحزين

في ليل مخدعك الطويل ، وليت أنك تُحْرِقينَ

دمًا يجفُّ فتشترينَ

سواه : كالمصباح والزيت الذي تستأجرين [198].

عشرون عامًا قد مضين ، وشبْتِ أنت ، وما يزالُ

يذرذر الأضواءَ في مُقَل الرجال

لو كنت تدّخرين أَجْرَ سناه ذاك على السنين

أثريْتِ ...

ها هو ذا يُضيء فأيَّ شيء تملكين؟

ويح العراق! أكان عدلاً فيه أنك تدفعينَ

---

(198) تدفع البغايا للسمسارات أجرًا ليليًا عن المصابيح في غرفاتهن قدره ربع دينار لكل مصباح!

سُهاد مقلتك الضريرة

ثمنًا لملء المصباحُ بالنور الذي لا تبصرين؟

عشرون عامًا قد مضين ، وأنت غرثى تأكلينَ

بنيك من سَغَبٍ ، وظمأى تشربينَ

حليب ثديك وهو ينزف من خياشيم الجنين!

وكزارع لَهَمَ البذور

وراح يقتلع الجذور

من جوعه ، وأتى الربيع فما تفتَّحت الزهور

ولا تنفَّست السنابل فيه

ليس سوى الصخورِ

سوى الرمال ، سوى الفلاه.

خَنْتِ الحياة ، بغير علمك ، في اكتداحك للحياه!

كم ردّ موْتَك عنكِ موتُ بنيك ، إنك تقطعين

حبلِ الحياة لتقضيه وتضفري حبلاً سواه،

حبلاً به تتعلّقين على الحياة : تضاجعينَ

ولا ثمار سوى الدموع ، وتأكلينَ ،

وتسهرين ولا عيون ، وتصرخين ولا شفاه ،

وغدًا بحبلك تُشنقين !

وغدًا . وأمس .. وألف أمس ـ كأنما مَسح الزمان

حدودَ ما لك فيه من ماض وآت

ثم دار ، فلا حدود

ما بين ليلك والنهار ، وليس ، ثم ، سوى الوجودِ ..

سوى الظلام ، ووطء أجساد الزبائن ، والنقود ،

ولا زمان ، سوى الريكة والسرير ، ولا مكان!

لم تحسبين ليالي السأم المسهَّدة الرتيبة؟

ما العمر؟ ما الأيام؟ عندك ، ما الشهور؟ وما السنين؟

ماتت « رجاء » فلا رجاءَ . ثكلتِ زهرتك الحبيبه!

بالأمس كنت إذا حسبت فعُمْرَها هي تحسبين

ما زال من فمها الصغير

طراوة في حلمتيك ، وكركراتٌ في السرير

كانت عزاءك في المصيبه ،

وربيع قفرتك الجديبه

كانت نقاءك في الفجور ، ونسمةً لك في الهجير،

وخلاصك الموعود ، والغبشَ الإلهيَّ الكبير !

ما كان حكمة أن تجيء إلى الوجود وأن تموت؟

ألتشرب اللبن المرنَّق بالخطيئة واللعاب :

أو شال ما تركتْه في ثدييك أشداقُ الذئاب؟

كان الزُّناة يضاجعونك وهي تصرخ دون قوت

فكأنها ، وهي البريئه ،

كانت تشاركك العذاب لكي تكفِّر عن خطيئه!

أفترضين لها مصيرك؟

فاتركيها للتراب

في ظلمة اللحد الصغير تنام فيه بلا مآب

فالنور والأطفال والبسمات حظ المترفين ،

والجوع والأدواء والتشريد حظ الكادحين ..

وأنت بنت الكادحين ،

... ...

مات الضجيج وأنتِ، بَعْدُ، على انتظارك للزناه،

تتنصَّتين ، فتسمعينَ

رنين أقفال الحديد يموت ، في سأم ، صداه:

الباب أُوصِد ..

ذاك ليل مرَّ ..

فانتظري سواه

***

حفار القبور

-1-

ضوْء الأصيل يغيم ، كالحلم الكئيب ، على القبور

واهٍ ، كما ابتسم اليتامى ، أو كما بهتتْ شُموع

في غيهب الذكرى يُهوِّم ظلُّهنَّ على دموعْ

والمدْرجُ النائي تهبّ عليه أسراب الطيورِ،

كالعصفات السود ، كالأشباح في بيتٍ قديمْ

برزتْ لتُرعب ساكنيه

من غرفةٍ ظلماء فيه

وتثاءبَ الطَّلَلُ البعيد ـ يُحدق الليل البهيمْ

من بابه الأعمى ومن شُباكه الخربِ البليدِ

والجوُّ يملؤه النعيبْ ..

فتُردّدُ الصحراءُ ، في يأسٍ وإعوالٍ رتيبْ،

أصداءه المتلاشياتْ ،

والريح تذْروهنَّ ، في سأم . على التل البعيد!

وكأن بعض الساحراتْ

مدَّت أصابعها العجاف الشاحات إلى السماء :

تُومي إلى سِرب من الغربان تلويه الرياحْ

في آخر الأفق المضاء.

حتى تعالى ثم فاض على مراقيه الفساحْ

فكأن ديدانَ القبورْ

فارتْ لتلتهم الفضاءَ وتشربَ الضوءَ الغريقْ

وكأنها أزفَ النشورْ

فاستيقظ الموتى عطاشى يلهثون على الطريق!

وتدفَّع السربُ الثقيلْ ،

يطفو ويرسب في الأصيل ،

لجِبًا يرنِّق بالظلام على القبور الباليات

وظلاله السوداء تزحف ، كالليالي الموحشَاتِ ،

بين الجنادل والصخور

وعلى القبور !

وتنفس الضوء الضئيلْ

بعد اختناق بالطيوف الراعبات وبالجُثامْ ،

ثم ارتخت تلك الظلال السود وانجاب الظلام :

فانجاب عن ظلٍ طويل

يُلقيه حفارُ القبورْ :

كفان جامدتان ، أبرد من جباه الخاملين،

وكأنّ حولهما هواء كان في بعض اللحودِ

في مُقلةٍ جوفاءَ خاويةٍ يهوّم في ركودِ

كفّان قاسيتان جائعتان كالذئب السجينْ ،

وفمٌ كشقٍّ في جدارِ

مُستوحدٍ بين الصخور الصمِّ من أنقاض دارِ

عند المساء .. ومقلتان تحدقان ، بلا بريقْ

وبلا دموع ، في الفضاء :

هو ذا المساء

يدنو ، وأشباح النجوم تكاد تبدو ، والطريق

خال - فلا نعشٌ يلوح على مَداه .. ولا عويلْ -

إلا النعيبْ

وتنهُّدَ الريح الطويل !

وعلامَ تنعب هذه الغربان والكون الرحيبْ

باقٍ يدور .. يعجُّ بالأحياء : مرضى ، جائعين

بيضَ الشعور كأعظمُ الأموات ـ لكن خالدين

لا يهلكون؟ علامَ تنعب؟ إنَّ عزرائيل ماتْ!

وغدًا أمواتُ ، غدًا أموات!

وهزَّ حفارُ القبورْ

يُمناه في وجه السماء ، وصاحَ ربّ! أما تثور

فتبيدَ نسلَ العار .. تُحرقَ ، بالرجوم المهلكات،

أحفادَ عادٍ ، باعةَ الدمِ والخطايا والدموعِ؟

ياربّ .. ما دام الفناء

هو غايةُ الأحياء ، فأمرْ يهلكوا هذا المساء!

سأموتُ من ظماء وجوعِ

إن لم يمتْ ـ هذا المساءَ إلى غدٍ بعضُ الأنامْ؛

فابعث به قبلَ الظلام!

ياربّ .. أسبوعٌ طويل مرَّ كالعام الطويلْ ،

والقبرُ خاوٍ ، يفغر الفمَ في انتظار .. في انتظارْ،

ما زلت أحفره ويطمره الغبار ـ

تتثاءب الظلماء فيه ويرْشح القاع البليلْ

مما تعصّر أعين الموتى وتنضحه الجلود:

تلك الجلود الشاحبات وذلك اللحم النثيرْ!

حتى الشفاه يمصُّ من دمها الثرى - حتى النهود

تذوي ، ويقطر ، في ارتخاء من مراضعها ، المغيرْ! (199)

واهًا لأجساد الحسان! أيأكل الليل الرهيبْ

والدودُ ، منها ، ما تمناه الهوى؟ واخيبتاه!

كم جثةٍ بيضاء لم تفتضَّها شفتا حبيبْ ،

أمسى يضاجعها الرغام؟

هل كان عدلاً أن أحنّ إلى السراب ، ولا أنالُ

إلا الحنين - وألف أنثى تحت أقدامي تنامْ؟

أفكلّما اتّقدت رغابٌ في الجوانح شحَّ مالُ؟

مازلت أسمع بالحروب - فأين أين هي الحروب؟

أين السنابك والقذائف والضحايا في الدروب..

لأظلَّ أدفنها وأدفنها .. فلا تسع الصحاري

فأدسَّ في قمم التلال عظامهنَّ وفي الكهوفِ؟

(199) اللبن الممزوج دمًا .

فكأن قعقعة المنازل في اللظى نَقر الدّفوفِ

أو وقع أقدام العذارى

يرقصن حولي لاعبات بالصنوج والبسيوف!

نُبِّئْتُ عن حربٍ تدور ـ لعلَّ عزرائيل فيها ..

في الليل يكدح والنهار ، فلنْ يمرَّ على قرانا

أو بالمدينة وهي توشك أن تضيقَ بساكنيها!

نبئت أن القاصفات هناك ما تركتْ مكانًا

إلا وحلّ به الدمار .. فأيُّ سوقٍ للقبور!

حتى كأن الأرض من ذهب يُضاحك حافريها،

حتى كأن معاصرَ الدم دافقاتٌ بالخمورِ!

أوّاه لو أني هناك أسدّ ، باللحم النثيرِ،

جوعَ القبور وجوعَ نفسي .. في بلاد ليس فيها

إلا أراملَ .. أو عذارى غاب عنهنَّ الرجالُ

وافتضَّهنَّ الفاتحون إلى الذماء ـ كما يُقال!

مازلت أسمع بالحروب . فما لأعين موقديها

لا تستقرُّ على قرانا؟ ليت عيني تلتقيها

وتخضُّهنَّ إلى القرار ـ وكالنيازكِ والرُّعود

تهوي بهنَّ على النخيل ، على الرجال ؛ على المهودِ!

حتى تحدّق أعين الموتى ، كآلاف اللآلي ،

من كل شبر في المدينةِ .. ثم تُنظم كالعقود

في هذه الأرض الخراب ـ فيا لأعينها ويا لي !

رباه! إني أقشعرُّ .. أكاد أسمع في الخيال

أغنيَّة تصف العيونْ ..

تنثال من مقهى ، فأنصت في الزحام ، وينصتون!

وكأنَّ ما بيني وبين الآخرين من الهواء

ثديٌ سخيٌّ بالحليب وبالمحبة والإخاء

ياربَّ .. أسبوع يمرُّ ولست أسمع من غناء

إلاَّ النعيبْ

وتنهُّد الريح الرتيب !

واخيبتاه ! ألن أعيش بغير موت الآخرين؟

والطيِّبات : من الرغيف ، إلى النساء ، إلى البنين

هي منَّة الموتى عليَّ فكيف أُشفق بالأنامِ؟

فلتمطرنَّهم القذائف بالحديد وبالضرام،

وبما تشاء من انتقام :

من حُمّيّاتٍ أو جذام !

نذرٌ عليَّ : لئنْ تشبَّ لأزرعنَّ من الورود

ألفًا تروى بالدماء .. وسوف أرصف بالنقودِ

هذا المزار .. وسوف أركض في الهجير بلا حذاء

وأعدّ أحذية الجنود ..

وأخطُّ ، في وحل الرصيف وقد تلطخ بالدماءِ ،

أعدادهنَّ .. لأستبيح عدادهنَّ من النهود!

وسأدفن الطفلَ الرمِيَّ وأطرح الأمَّ الحزينه

بين الصخور على ثراه ..

ولسوف أغرز بين ثدييها أصابعيَ اللعينه

ويكاد يخنقها لهاثي وهي تسمع ، في لظاه ،

قلبي ووسوةَ النقودِ .. نقودها! واخجلتاه!

أنا لست أحقرَ من سواي . وإن قسوت فلي شفيعُ

إني كوحشٍ في الفلاء ..

لم أقرأ الكتبَ الضخام ـ وشافعي ظمأ وجوع

أو ما ترى المتحضرينَ

المزدهين من الحديد بما يطير وما يذيع؟

مهما ادَّنأت فلن أسفَّ كما أسفُّوا .. لي شفيع

إني نويت .. ويفعلون؛ وإنَّ من يئد البنينْ

والأمهات ويستحل دم الشيوخ العاجزين

لأحطُّ من زانٍ بها انتهك الغزاة وما استباحوا!

والقاتلون هم الجناة وليس حفار القبور ؛

وهم الذين يلوِّنون لي البغايا بالخمور ،

وهم المجاعة ، والحرائق ، والمذابح ، والنواحُ ،

وهم الذين سيتركون أبي وعمته الضريره

بين الخرائب ينبشان ركامهن عن العظام،

أو يفحصان عن الجذور ، ويلهثان من الأوام ..

والصخر كالمقل الضريره

وسيوثقون بشعر أختي قبضتي .. وكالظلام

وكخضَّة الحمّى ، تسمِّرها على دمها صدورٌ

تعلو وتهبط باللهاث ، كأنهن رحىً تدور

يا مجرمون ، إلى الوراء! فسوف تنتفض القبورُ

وتقيء موتاها . ويا موتي ، على اسم الله ثوروا

رباه ، عفوك .. إن « قابيل » المكبَّل بالحديدْ

في نفسيَ الظلماء هبَّ وقرَّ يعصره الملالْ!

فالليل جاءَ ، وما أزال

مستوحدًا أرعى القبور وأنفض الدربَ البعيد

وكأن يا بشرى! كأنّ هناك في أقصى الجنوب

خطًا كأذيال الظلام ولمعةً كدمِ الغروب!

لكأنه ضيفٌ جديد!

وبدا الجنازُ ، وراح يشهق وهو يدنو في ارتخاءْ ،

الأوجه المتحجّرات يضيئها الشفق الكئيب،

والغمغمات الخافتات من انفعالٍ أو رياءْ،

والنعشُ يحجبه غطاءْ

ألوانه المترنِّحات كأنما اعتصرَ المغيبُ

فيها قواهُ ، وذاب فيها كوكب واهي الضياءْ،

حتى إذا انهال الترابُ وصفُح القبر الجديدْ،

وتراعشَ الألقُ الضئيل ، على الظهور المتعباتِ

حتى اضمحل ، وغيَّبتها ظلمةُ الأفق البعيد .

كانت مصابيح السماء تذرُّ ضوءًا كالضبابْ

بين القبور الموحشات

وعلى الخرائب والرمال . وكان حفار القبور

متعثر الخطوات يأخذ دربه تحت الظلام..

يرعى مصابيح المدينة وهي تخفق في اكتئابْ ،

ويظلَّ يحلم بالنساء العاريات وبالخمور ،

وتحسست يده النقودَ وهيَّأ الفمَ لابتسام .

حتى تلاشى في الظلام!

– 2 –

النور ينضح من نوافذِ حانةٍ عبرَ الطريقِ ،

وتكاد رائحة الخمورْ

تلقي ، على الضوء المشبَّعِ بالدخان وبالفتورْ

ظلاً كألوان حيارى واهياتٍ من حريق

ناء ، تهوّم ، في الدجى الضافيِّ ، على وجهٍ حزين

وتلوح أشباحٌ عجافُ

خلف الزجاج .. تهيم في الضوء السرابي الغريقِ

ويشدُّ حفار القبور على الزجاجة باليمين ،

وكمن يحاذر أو يخافُ

يرنو إلى الدرب المنقط بالمصابيح الضئال ،

وترحكت شفتاه في بطء وغمغم في انخذاَل :

« أظننت أنك سوف تقتحم المدينة كالغزاه ..

كالفاتحين وتشتريها بالذي ملكت يداك :

بأقل من ثمن الطلاء القرمزي على شفاه

أو في أظافر لاحقتها ، ذات يوم ، مقلتاك ،

سأعودُ ، لا نهدٌ تعصره يدي حتى الذهولْ ،

حتى التأوه ، والأنين وصرخة الدم في العروقْ

والسكرة العمياءَ .. والخدر المضعضع . والأفول!

والأذرع المتفتِّراتُ ـ يلوِّن الضوءُ الخفوقُ

هزاتها المستسلمات ، وينفح الدم والعبيرْ

ظلٌّ لهن على السريرْ

الأذرع المتفتراتُ ، وزهرتان على الوسادْ

نسجتهما كفٌّ مخضَّبة الأظافرِ ـ زهرتانِ

تتفتحان على الوسادة كالشفاه ، وتهمسان

نغمًا يذوب إلى رقادْ

ونعومة الكتفين ، والشعر المعطَّر ، والشحوبُ ،

وتألق الجيد الشهيِّ ، ولفحةُ النفس البهير

والنور منفلتًا من الأهداب .. تثقله الطيوبُ ،

قلقًا كمصباح السفينةِ رواحته صبًا لعوبُ ،

وتخافق الأظلال في دعةٍ ، ووسوسةُ الحرير

والحلمتان : أشد فوقهما بصدري في اشتهاءْ ـ

حتى أحسهما بأضلاعي وأعتصر الدماء

باللحم والدمِ والحنايا ، منهما ـ لا باليدين ،

حتى تغيبا فيه ـ في صدري ـ إلى غير انتهاء ،

حتى تمصّا من دماي .. وتلفظاني ، في ارتخاء،

فوق السرير ... وتشرئبَّا ثمَّ نثوي جثتينْ !

– 3 –

دربٌ كأفواه اللحودْ.

لولا التماعات الكواكب، وانعكاس من ضياءِ

تلقيه نافذةٌ. ووقع خطىً تهاوي في عياء

يُصدي له الليلُ العميق، وحارسٌ تعبٌ يعودْ

وسنان يحلم بالفراش وزوجه: تُذكي السراجْ

وتؤجِّج التنّورَ صامتةً.. وأخيلةُ اللهيب

تُضفي عليها ما تشاءُ من اكتئابٍ وابتهاجْ

ثمَّ اضمحل الحارس المكدود، والنغم الرتيبْ:

- وقع الخطى المتلاشيات كأنه الهمس المريب-

ما زال يخفق من بعيدْ

وتململت قَدَمان، وارتفعت يدٌ بعد انتظار

وهوت على الباب العتيق، فأرسل الخشبَ البليدْ

صَوتًا كإيقاع المعاول حين إدبار النهار

بين القبور الموحشات. وأطبق الصمتُ الثقيلْ،

وأطلَّ من إحدى النوافذ، وهي تُفتح في ارتيابْ،

وجهٌ حزين .. ثم غاب!

وتحرَّك البابُ المضَعْضَع وهو يُجهش بالعويلْ

وتقول أنثى في اكتئاب

« شيفٌ جديدٌ » ثم تفرك مقلتيها في فتور

ويظلُّ يزحف كالكُسوف - يُحجّب الألقَ الضئيلْ

عن وجهها - ظِلٌّ يقيّدُها بحفّار القبور !

– 4 –

في زهوة الشَّفَقِ والملوَّن حيثُ يحترق النهارُ -

في عَودة الرُّعيانَ أشباحًا يظللها الغُبار -

في ساعة الشوْق الكئيبِ إلى شواطئ كالضبابِ ،

وإلى أكُفٌّ مُخلِصاتْ ،

وإلى أغان مُبهماتٍ هائمات في شعاب

أنأى مِنَ الأصداءِ .. تغشاها نُجومٌ سَاهماتْ -

في ساعة الشَّفَق الملوَّن كان إنسانٌ يثورْ

بين الجنادل والقبورْ ،

نَفْسٌ معذَّبة تثورْ

بين الجنادل والقبور :

« أأظلُّ أحلم بالنُّعوش ، وأنفضُ الدرب البعيدْ

بالنظرة الشَّزْراء ، واليأسُ المظلَّلُ بالرجاءْ

يطفوا ويرسب ، والسماء كأنها صَنمٌ بليدْ

لا مأملٌ في مقلتيه .. ولا شواظَ .. ولا رثاءْ؟

لو أنها انفجرتْ تُقهقِهُ بالرعود القاصفات!

لو أنها انكمشتْ وصاحتِ كالذئاب العاويات :

« فاتَ الأوانُ . فخطَّ لحدَكَ واثو فيه إلى النشورِ!

لو أنها انطبقت عليَّ كأنها فمُ أفَعوانْ!

لو أنها اعتصرتْ قِواي!

وماتَ ظلّ الأرجوانْ

في آخر الأفق البعيد ، ولألأتْ قطراتُ نور

مما تُبعثره المدينةُ وهي تبسمُ في فتور

وكأنما رضعتْ مصابيحَ المدينةِ مُقلتاه

فَسرتْ لهيبًا في دماه وألغمتْها بالرغاب،

وكأنهُنَّ ، على المدى المقرور ، آلافُ الشّفَاه

تدعوه ظمأى ، لاهثات .. مثل أحداق الذئاب :

« ما زلتِ تحترقين من فرحٍ ، واحتراقُ انتظارًا ،

صبُبّي سناك على الترابِ

وعلى الكؤوس الفارغات : وبَعْثريه على كتابِ

أو بين أغطية الموائد وهي تنتظر النهارا ..

ظلّتْ تُعابثها شِفاه الريح ، وانصرفَ السكارى !

راحوا إليها مسرعين - إلى التي ارتعشتْ قِواها

بين التوجع والذهول ، على يديَّ وفي دمائي

ليلٌ وأعقبهُ الصباح .. ونبّأتني مقلتاها

أنّا انتهينا

يا سماءُ ، ويا قبورُ .. أما أراها ؟

لابُدَّ من هذا ! - وصوَّبَ مقلتيه إلى السماءِ

حنقًا يُزمجر ، ثم أطرقَ وهو يحلم باللقاء :

بابٌ تفتَّح في الظلام ، وضحكةٌ وشذى ثقيلْ ..

ويدان تجتذبان أغطيةَ السرير وتُرخيانِ

إحدى الستائر ..

ثم تنطفئان في الضّوءْ الضئيلْ !

وتغيم أخيلةٌ وتُجلى ـ ثم تبرز حُلمتان ..

ويُطلُّ وجهٌ شاحب القسمات مُختلج الشفاه

وتغيم أخيلة وتُجلى ـ ثم تُفتح مقلتاه :

فيرى القبورْ ،

ويرى المصابيح البعيدةَ كالمجامر في اتّقادِ ،

ويرى الطريق إلى القبور

يكتظّ بالأشباح زاحقةً إليه على اتّئاد ،

فيصيح من فرح : « سألقاها فإن الطريق

نعشًا .. وإن حفَّ النساءُ به وأملقَ حاملوه!

إني سألقاها ! » ـ وينهض وهو يرفع باليمين

فانوسهُ الصدئ العتيقْ ..

يلقي سناه على الوجوه

وعلى الدثارِ القرمزي وفي عيون القادمين

لو أنه اخترقَ الدثار بمقلتيه وبالضياء ـ

لو حدّثَ التابوتُ عمَّنْ فيه .. أو رفعتْ يداها

« أو هبّةٌ للزعزع النكباء حاشيةَ الغطاءِ

تحت النجوم الساهمات ..

لكاد ينكر من رآها !

ماتتْ كمنْ ماتوا ، وواراها كما وارى سواها :

واسترجعتْ كفّاه من يدها المحطمةِ الدفينهْ

ما كان أعطاها - وإنْ حملتْ يدُ امرأة سواها

تلك النقود .. بل البقايا من نفايات المدينهْ -

وتظل أنوار المدينة وهي تلمعُ من بعيدِ ،

ويظلُّ حفار القبور

ينأى عن القبر الجديدِ

متعثرَ الخطوات .. يحلم باللقاء ، وبالخمور !

***

الأسلحة والأطفال

-1-

عصافيرُ؟ أم صبية تمرحُ

عليها سنًا من غدٍ يلمح؟

وأقدامها العاريه

محارٌ يُصلصل في ساقيه

لأذيالهم رفَّةُ الشمألِ

سرتْ عبر حقلٍ من السنبل ،

وهسهسةُ الخبزُ في يوم عيدْ ،

وغمغمةُ الأمّ باسم الوليد

تناغيه في يومه الأول

كأنّيَ أسمع خفق القلوعْ

وتصخاب بحارةِ السندبادْ ..

رأى كنزه الضخْم بين الضلوع

فما اختار الاه كنزًا .. وعاد!

صدىً عابرٌ من وراء العصورْ :

من الكهفِ ، والغاب ، والمعبدِ ،

سرى دافئًا من عروق الصخور

وإزميل نحّاتها المُجْهَدِ ،

يغنّي بأشواقه العاتيه

إلينا : إلى القمّة العاليه ..

إلى أن يفلّ الردى بالحياه

وتلقاه أجيالها الآتيه

على صخرة حمَّلتْها يداه

تحاياه : في بسمة في الشفاه

وفي أعين حَجَّرتْ مقلتاه

عليها دموعها الجاريه

صدىً رجّعته الأكُفّ الصغارْ

يصفّقن في الشارع المشرقِ

كخفق الفراشات مرّ النَهار

عليها بفانوسه الأزرق

وكم من أبٍ آيب في المساء ،

إلى الدارِ من سعيه الباكر ،

وقد زمّ من ناظريه العناء

وغشّاهما بالدم الخاثر ؛

تلقَّاه ، في الباب ، طفلٌ شرود

يكركر بالضحكة الصافيه ،

فتنهلُ سمحاء ملء الوجود ،

وتزرع آفاقه الداجيه

نجومًا ، وتنسيه عبء القيود

وهُمْ في ليالي الشتاء الطوال

ربيعٌ من الدفء والعافيه ،

تلمّ العجائزُ فيه الورود

ويلمحن عهد الصِّبا ثانيه ،

ويرقصن بين التلال

ويرجِّحن أرجوحة في الخيال :

بعذراء في ليلةٍ مقمره

وفي ظلّ تفاحة مُزهره

تنام العصافير فيها ..

وهم في الصباح

خطىً خافقاتٌ على السلَّمِ ،

وأيدٍ على أوجُه النوَّم

يدغدغنها في مزاح!

وأغنيةٌ من أغاني الطريق

بلحن سوى لحنها الأول

وشأوٍ من الصوت مستعجل

وهم رفقة الأمِ إذ تستفيق

وإذ تُشعل النار في الموقد

كَخيطٍ ترى فيه بدء الغد!

عصافيرُ؟ أم صبيةٌ تمرح؟

أم الماء : من صخرة ينضج

فيخضلَ عشبٌ وتندى زهور

زهورٌ ونور

وقبرةٌ تصدح

وتفاحةٌ مزهرة

لخفق العصافير فيها

صدى قُبلة الأم تلقى بنيها

ـ « دعيني .. فما تلك بالقبرة!

دعيني أقل أنه البلبلُ

وإن الذي لاح ليس الصباح » (200)

أتلك السفين التي تُعولُ

على مرفإٍ ناوحته الرياح؟

تُلوِّح منها أكفُّ الجنود

لألفٍ كـ« جولييت » فوق الرصيف :

(200) عن روميو وجولييت لشكسبير .

« وداعًا وداعَ الذي لا يعود! »

وأمٍّ كما استوحشت في الخريف

وراء الدجى ، دوحة عاريه

وفرّت عصافيرها الشاديه!

عصافير؟ أم صبية تمرح؟

أم الماء من صخرة ينضح

ولكنْ على جثّةٍ داميه؟

وقبَّرةٍ تصدحُ

ولكنّ على خِرْبةٍ باليه؟

عصافير؟!

بل صبية تمرح

وأعمارها في يد الطاغية

تغلغل فيها نداء بعيد :

« حديد عتيق .. رصاص .. حديد »

وكالظلّ من باشق في الفضاء

ـ إذا اجتاح ، كالمدية الماضيه ،

عصافيرَ تشدو على رابيه ـ

ترامي إلى الصبية الأبرياء

نداءٌ تنشّقتُ فيه الدماء

« حديد عتيق .. حديد عتيق!

رصاص .. » فحتى كأن الهواء

رصاص ، وحتى كأن الطريق

حديد عتيق

وينفضّ، كالمعول الحافر ،

صدى راعب من خطى التاجر

له الويل .. ماذا تريد؟

« حديد عتيق .. رصاص .. حديد! »

لك الويل من تاجرٍ أشأمِ

ومن خائض في مسيل الدم

ومن جاهل أن ما يشتريه

- لدرء الطوى والردى عن بنيه -

قبورٌ يوارون فيها بنيه!

« حديد عتيق .. رصاص .. حديد .. »

حديدٌ عتيقٌ لموتِ جديد !

– 3 –

« حد .. يد »

لمن كل هذا الحديد!

لقيدٍ سَيُلوى على معصمٍ ،

ونصلٍ على حُلْمةٍ أو وريد،

وقُفْلٍ على الباب دون العبيد ،

وناعورةٍ لاغتراف الدم

« رصَا.. ص »

لمن كل هذا الرصاص ؟

لأطفال كوريَّةَ البائسين ،

وعمّال مرسيليا الجائعين ،

وأبناء بغدادَ والآخرين

إذا ما أرادوا الخلاص

حديد .. رصاص .. رصاص .. رصاص!

(حديد ...)

وأصغي إلى التاجر،

وأصغي إلى الصبية الضاحكين ؛

وكالنصل قبل انتباه الطعين ،

وكالبرق ينفضّ في خاطري

ستار ، وكالجرح إذا ينزف ـ

أرى الفوّهات التي تقصف

ـ تسدّ المدى ـ واللظى ، والدماء

وينهلّ كالغيث ، ملء الفضاء ،

رصاص ونار : ووجهُ السماء

عبوسٌ لما اصطكَّ فيه الحديد

حديد ونار ، حديد ونار ..

وثَمَّ ارتطام ، وثَمّ انفجار ،

ورعد قريب ، ورعد بعيد

وأشلاء قتلى ، وأنقاض دار !

حديد عتيق لغزوٍ جديد

حديد .. ليندكّ هذا الجدار

بما خطّ في جانبيه الصغار

وما استودعوا من أمان كبار :

« سلام »

كان السنا في الحروف

تخطّى إليها ظلامَ الكهوف

بآمال إنسانها الأول

وما اختطّ من صورة في الحجار

تحدّى بها الموت : فهي انتصار

وتَوْقٌ إلى العالم الأفضل ؟

« حديد .. رصا..ص .. حديد عتيق

رصاصٌ .. » ليخلوَ هذا الطريق

من الضحكة الثرّة الصافيه

وخفقِ الخطى والهتاف الطروب

فمن يملأ الدار عند الغروب

بدفء الضحى واخضلال السهوب

لظى الحقد في مقلة الطاغيه

ورمضاءُ أنفاسه الباقيه

يطوفان بالدار عند الغروب

وأطلالها الباليه!

حديد عتيق .. نحاس عتيق »

وأصداء صفارة للحريق !

« حديد ، حديد »

وأمٌّ تبيع السرير العتيق ،

تبيع الحديد الذي أمس كان

مِهادًا عليه التقى عاشقان

وشدّ نداء الحياة العميق

دراعًا بأخرى ، فما تخفقان!

فيا حسرتا حين يمسي غدًا

شظايا تدوي وبعض المدى

تُنحَّى بها عن ذراع ذراع

وينهدّ مهدٌ ، ويخبو شعاع

أمن حيثُ كان التقاء الشفاه

على الحبُّ : ينسجن خيط الحياه ـ

يحوك الردى غزله الأسودا

دمًا أو دخانًا؟ .. يحوك الردى

شباكًا من النار حول البيوت

على صبيةٍ أو صبايا تموت؟

ويرتدّ حتى حديد السرير

جناحًا عليه المنايا تغير ،

وحتى الذي في عيون الدُمى

من المعدن الزئبقي الحسير

رصاصًا أبح الصدى مُزْرِما

-5-

« حديد ، عتيق ، حديد ، حديد

وأقدامها العاريه

محارٌ يصلصل في ساقيه ،

ويعتاد بالي - كرعدٍ بعيد -

ضجيج الخطى وانهيار الصخور

وخفق الفوانيس في المنجم ،

وما نض من عاريات الظهور

وما انسح في سعلة من دم!

وملءُ السنا من غبار الحديد ،

نواقيسُ فيها يرنّ السكون ..

وأجراسُ مركبة من بعيد

يخفّ لها صبية يلعبون :

نواقيس في الفجر ، واليومُ عيد ،

وفي الماء أظلاف جسر جديد ،

وهمس النواعير ، والزارعون ،

وفي كل حقل ـ كنبض الحياه ـ

تهزّ المحاريثُ قلب الثرى

وتَبني القرى :

قرى طينها من رميم الطغاه

وتخضلّ حتى الصخور الضَنينه ،

ويُثمر حتى سراب الفلاه

مدينه

فأخرى ، فأخرى ، إلى منتهاه!

« حديد .. حديد! »

وأقدامها العاريه ،

وخفق الفوانيس في المنجمِ ،

وأعماقه الرطبة الداجيه

كظلّ الردى ـ فاغرات الفم ،

كبئرٍ من الظلمة الطاميه

ستمتاح منها ألوفُ القبور،

ويهوي ـ مع الزعزع العاتيه ـ

عمىً من دجاها على كل نور :

على النور من باب كوخٍ مضاء

ومن كوّة في خيام الرعاء

ومن شُرفةٍ ظلّها الياسمين

« دعيني أقلْ أنه البلبلُ

وإن الذي لاح ليس الصباح »

على النور من موقد السامرين

ومن مدرجٍ بالسنا يُغسل ؛

على كل نور ، تذرّ الرياح

ظلالَ الطواغيت في المنجمِ

كناعورة لاغتراف الدمِ

تذرّ الريّاح ، الرياح ، الرياح ،

أراجيحَ في الملعب المظلم

وخَفْقَ الفوانيس والأنجم

وخفق الخطى والأكفّ الصغار

وخفق الفراشات مرّ النهار

عليها بفانوسه المعتم

فمن يملأ الدارَ عند الغروب

بدفء الضحى واخضلال السهوب؟

رصاص ، حديد ، رصاص ،. حديد

وآهاتُ ثكلى ، وطفلٌ شريد!

ومن يُفهم الأرض أن الصغار

يضيقون بالحفرة الباردة؟ (201)

إذا استنزلوها وشطّ المزار

فمن يتبع الغيمة الشارده؟

ويلهو بلقط المحار؟

ويعدو على ضفَّة الجدول؟

(201) إيديث سيتويل في قصيدتها أم ترثي طفلها : « أن الأرض عجوز شاخت حتى لا تعلم بأن الصغار يتحركون كظلال الربيع » .

ويسطو على العشّ والبلبل؟

ومن يتهجّى ـ طوال النهار ـ

ومن يلثغ الراء، في المكتبِ؟

ومن يرتمي فوق صدر الأبَ

إذا عاد من كدّه المتعب؟

ومن يؤنس الأمَّ في كلَ دار؟

أسىً موجع أن يموت الصغار

أسىً ذقتُ منه الدموع، الدموع

أجاجًا ومثل اللظى في الفمِ،

وأحسستُ فيه اشتعال الدم

بعينيَّ، منا نازفات الضلوع:

عويل من القرية النائية

وشيخ ينادي فتاهُ الغريق

بهذا الطريق وذاك الطريق،

ويسعى إلى الضفَّة الخالية

يسائل عنه المياه

ويصرخ بالنهر .. يدعو فتاه ؛

ومصباحه الشاحب

يغنِّي سدى زيته الناضب :

« محال تراه! »

ويحنو على الصفحة القاتمه

يحدِّق في لهفة عارمه

فما صادفت مقلتاه

سوى وجه المكفهرِّ الحزين

ترجرجه رعشة في المياه

تغمغم : « لا ، لن تراه ! »

« حديد عتيق » ورعب جديد!

« حديد .. رصا..ص » لأن الطغاه

يريدون ألاّ تتم الحياه

مداها ، وألاّ يحسّ العبيد

بأنّ الرغيف الذي يأكلون

أمرُّ من العلقمِ

وأنّ الشراب الذي يشربون

أجاجٌ بطعم الدم

وأنّ الحياة الحياة انعتاق ،

وأن ينكروا ما تراه العيون :

فلا بيدرٌ في سهول العراق ،

ولا صبية في الضحى يلعبون

ولا همس طاحونةٍ من بعيد ،

ولا يطرق الباب ساعي البريد

ببُشرى ، ولا منزلُ

يضيء الدجى منه نورٌ وحيد

سخيّ كما استضحك الجدول ،

ولا هدهدات ، ولا جلجل

يرنّ بساق الوليد

وبين الربى في رقاب الجداء ،

ولا وسوس الشاي فوق الصِّلاء،

ولا قصّة في ليالي الشتاء

لأن الطواغيت لا يسمعون

صداح العصافير في المغرب

- كما صلصل الفضّة القامرون -

ولا زفّةَ السنبل المذهب

لأنّ الطواغيت لا يحلمون

بغير المبيعات والأسهم

وأن الطواغيت لا يسمعون

سوى رنّة الفلس والدرهم

لأن الطواغيت لا يبصرون

على الشاطئ الأسْيويّ البعيد

سوى أنّ سوقًا يباع الحديد

وتُستهلك الريح والنار فيها

تدرّ العطايا على فاتحيها

-7-

بأقدام أطفالنا العاريه

يمينًا ، وبالخبز والعافيه :

إذا لم نعفّرْ جباه الطغاه

على هذه الأرجل الحافيه

وأن لم نذوّب رصاص الغزاه

حروفًا هي الأنجم الهاديه

(فمنهنّ في كل دارٍ كتاب

ينادي : قفي واصدأي يا حراب)

وإن لم نضوِّ القرى الداجيه

ولم نخرس الفوّهات الغضاب

ونُجِل المغيرين عن آسيه ..

فلا ذكَرتنا بغير السِّباب

أو اللَّعن أجيالُنا الآتيه!

سلام على العالم الأرحب ،

على الحقل ، والدار ، والمكتب،

على معملٍ للدُّمي والنسيج،

على العشِّ والطائر الأزغب ،

على التوت وسنانَ فيه الأريج

ووقع المجاديف في المغرب ،

على زهرة في وساد العروس ،

على صبية في انتظار الأب ،

على شاعر تستحمّ الشموس

بعينيه يصغى إلى جندب ؛

سلام على العالم الأرحب

سلام على (الكنج) فاض النعيم

ورنّت أغاريد في ضفَّتيه :

قرىً من سنًا عاصرات عليه

عناقيد من ضوئهنّ العظيم

سلام على الصين والحاصدين

وصيّاد أسماكها الأسمر،

وما أنبتت من دم الثائرين

وما افترّ في البيرق الأحمر ؛

على صبية في قراها البعاد

وفي ظلّ تفاحها المزهر

وما جرّرت في ليالي الحصاد

ثيابُ العذارى على البيدر

سلام لأن الربيع

يمرّ بودياننا كل عام ،

وما زال قوس الغمام

ولولا الذي كدّسوا من نضار

به يستضيئون دون النهار

تجوع الملايين عن جانبيه

وينحطّ ، في كل يوم ، عليه

دمٌ من عروق الورى أو نُثار

كذرّ الغبار ـ

لما هزّت الأمّهات المهود

على هوة من ظلام اللحود ،

ولم تذرف الدمع عبر البحار

وعبر الصحاري ، نساءُ الجنود ،

ولم يرفع الزراع الأشيب

إلى مقلتيه ، اليد الراجفه

يحدّق في عتمة العاصفه

ويصغي وفي روعه « القاصفه» ،

ولم يبكِ صرعى بنيه الأبُ

جزوعًا بأن يثكلِ الآخرين ،

ولا شرّدت نومةَ العاشقين

كوابيسُ من أعين الهالكين

وإرنان صفَّارة تنعب :

« وغى .. » ، فاستفاقوا ولا كوكب

ولا لمعة من سراج تبين

سوى قعقعات السلاح

وعصف الرياح ،

ولا ساءل الأم طفل غرير :

ألا بلدة ليس فيها سماء؟

ـ فلا قاذفات المنايا تغير

وي من شظايا تسد الفضاء ـ

ولا اختضّ في الصرصر اللاجئون

ولألاء « يافا » تراه العيون

وقد حال من دونه الغاصبون

بما أشرعوا من عطاش الحراب

وما استأجروا من شهود كذاب

وما صفّحوا بالردى من حصون

سلامٌ على العالم الأرحب

على مشرق منه أو مغرب

سلامٌ لآفون [202] روّى عروق

شكسبير والزهر والداليه

أفقْ شاعرَ النور ، أن الشروق

(202) آفون : نهر في بريطانيا يمر بقرية شكسبير .

تهدده غيمة داجيه ،

سعى « مكبث » [203] تحتها في احتراس

لقتل النعاس ..

لقتل النعاس البريء :

سلام لباريس « روبسبير » [204]

و« إلوار »[205] والغابةِ الحالمه

وعشّاقها في المساء الأخير

تذرّيهمُ قوَةٌ ظالمه

كدوّامة من رياح السعير :

على « تونس » من لظاها ظلال

وحول « الرباط » المدمّى هدير

وفي جيرة الصين حلَّ انخذال

بقطعاتها الفظّة الضارية

لك المجد يا آسيه !

سلام لفينيس [206] والكرنفال

وأضوائه الثرّة الزاهيه ،

---

(203) مكبث : بطل إحدى مسرحيات شكسبير وقد قتل دنكان وهو نائم في ضيافته مطمئن إليه : « لقد قتل مكبث النعاس ، النعاس البرئ » شكسبير .

(204) روبسبير [1758–1794] من زعماء الثورة الفرنسية . بدأ عهد الإرهاب فكان من ضحاياه .

(205) «إلوار» شاعر فرنسي .

(206) فينيس : مدينة البندقية بإيطاليا .

وهمس المحبين بين الظلال

وفي دفء قمرائه الضاحيه

– 8 –

عصافير ؟ أم صبية تمرح؟

أم الماء من صخرة ينضح؟

وأقدامها العاريه

مصابيح ملء الدجى تلمح ،

هتكنا بها مكمن الطاغيه

وظلماء أو جاره الباليه

علينا لها : أنها الباقيه

وأنّ الدواليب في كل عيد

سترقى بها الريح .. جذلى تدور !

ونرقى بها من ظلام العصور

إلى عالم كل ما فيه نور

(رصاص ، رصاص ، رصاص ، حديد

حديد عتيق) ..

لكونٍ جديد!

***


بدر شاكر السياب
(٤)
المعبد الغريق

شباك وفيقة

-1-

شبَاكُ وفيقةَ في القريهْ

نشوانٌ يُطلُ على الساحه

(كجليل تنتظر المشيه

ويسوع) وينشر ألواحه .

ايكار يمسِّح بالشمس

ريشات النسر وينطلقٌ ،

ايكار تلَقَّفه الأفق

ورماه إلى اللجج الرمس .

شبَاك وفيقة يا شجره

تتنفسُ في الغَبَش الصاحي

الأعين عندك منتظره

ترقَّب زهرةَ تفاح

وبُوَيب نشيدْ

والريح تُعيدْ

أنغام الماء على السَّعَف

***

ووفيقةُ تنظر في أسف

من قاع القبر وتنتظر :

سيمرُ فيهمسه النهرُ

ظلاً يتماوج كالجَرَسِ

في ضحوة عيدْ ،

ويهفّ كحبات النّفَسِ

والريح تُعيد

أنغام الماء (هو المَطَرُ)

والشمس تكركر في السعفِ

شباك يضحك في الألق؟

أم باب يُفتَح في السورِ

فتفر بأجنحة العبق

روح تتلهف للنورِ ؟

يا صخرةَ معراج القلب

***

يا « صور » الألفة والحبِّ

يا دربًا يصعد للرب

لولاك لما ضحكتْ للأنسام القريه ،

في الريح عبير

من طوق النهر يهدهدنا ويغنينا

(عوليس[207] مع الأمواج يسير

والريح تذكّره بجزائر منسيّه :

« شبنا يا ريح فخلّينا »)

***

العالم يفتح شبّاكه

من ذاك الشباك الأزرقْ ،

يتوحَد ، يجعل أشواكه

أزهارًا في دعة تعبق

شباكٌ مثلك في لبنان ،

شباكٌ مثلك في الهندِ ،

وفتاة تحلم في اليابان

(207) من أبطال اليونان في حرب طروادة ، ملك «إيثاكا» وزوج بينيلوب ، وأبو تيليماك . [انظر الأوذيسة لهوميروس] .

كوفيقة تحلم في اللّحدِ

بالبرق الأخضر والرعدِ

***

شباك وفيقة في القريه

نشوان يطل على الساحه

(جحليل تحلم بالمشيه

ويسوع) . ويُحرق ألواحه

***

شباك وفيقة

–2–

أطلّي فشبَاكك الأزرقُ

سماء تجوع ،

تبيّنتُه من خلال الدموع

كأني بيَ أرتجفَ الزورق

إذا انشقّ عن وجهك الأسمر

كما انشق عشتروت المحار

وسارت من الرغو في مئزرِ

ففي الشاطئين اخضرار

وفي المرفأ المغلق

تصلِّي البحار

كأني طائر بحرٍ غريب

طوى البحر عند المغيب

وطاف بشبّاكك الأزرق

يريد التجاءً إليه

من الليل يربدّ عن جانبيه

فلم تفتحي

ولو كان ما بيننا محضَ باب

لألقيتْ نفسي لديكِ

وحدَقت في ناظريكِ

هو الموت والعالم الأسفلُ

هو المستحيل الذي يُذهل

تمثّلت عينيكِ يا حفرتينِ

تطلان سخرًا على العالمِ

على ضفة الموت بوَابتين

تلوحان للقادم

وشبّاككِ الأزرقُ

على ظلمةٍ مطبقُ ،

تبدّي كحبل يدَ الحياة

إلى الموت كيلا تموت

شفاهك عندي ألذّ الشفاه

وبيتُكِ عندي أحبُ البيوت

وماضيكِ من حاضري أجملُ :

هو المستحيل الذي يُذهل ،

هو الكامل المنتهي لا يريد

ولا يُشتهى أنه الأكملُ ،

ففي خاطري منه ظلٌ مديد

وفي حاضري منه مستقبلُ

***

تُرى جاءك الطائرُ الزنبقيّ

فحلّقتِ في ذات فجر معَه

وألقى نعاس الصباح النقيّ

على حسِّك المشتكي برقعه؟

وفتحت عينيك عند الأصيل

على مدرجٍ أخضر

وكان انكسار الشعاع الدليل

إلى التل والمنزل المرمر

هناك المساء اخضرار نحيل

من التوت والظل والساقيه

وفي الباب مدّ الأمير الجميل

ذراعيه يستقبل الآتية :

« أميرتي الغالية

لقد طال منذ الشتاء انتظاري

ففيم التأني وفيم الصدود؟ »

***

وهيهات أن ترجعي من سفار

وهل ميِّتٌ من سفار يعود؟

جيكور 29/ 4/ 1961

حدائق وفيقة

لوفيقة

في ظلام العالم السفليّ حقلٌ

فيه مما يزرع الموتى حديقة

يلتقي في جوها صبح وليلُ

وخيال وحقيقة

تنعس الأقمار فيها وهي تجري

مثقلات بالظلال

كسلال من ثمار ، كدوال

سُرّحت دون حبال

كل نهر

شرفَة خضراء في دنيا سحيقة

ووفيقة

تتمطى في سرير من شعاع القمر

زئبقي أخضر ،

في شحوب دامع ، فيه ابتسامْ

مثل أفق من ضياء وظلامْ

وخيال وحقيقة

أي عطر من عطور الثلج وانِ

صعّدته الشفتان

بين أفياء الحديقة

يا وفيقة؟

***

تخالها تلوح في القرار

من جدول أحاله النهار

صدى من المياه مقمرا

كأن عشتروت آخر فوقها الحجار

صفائحا من الزجاج ، أصبح الثرى

ذرّا من الضياء والغبار

***

والحمامُ الأسودُ

يا له شلالَ نور منطفي !

يا له نهر ثمارٍ مثلها لم يُقطفِ !

يا له نافورة من قبر تموز المدمّى تصعدُ !

والأزاهير الطوال ، الشاحبات ، الناعسه

في فتور عصّرت أفريقيا فيه شذاها

ونداها ،

تعزف النايات في أظلالها السكرى عذارى لا نراها

روّحت عنها غصون هامسه

وفيقة

لم تزل تثقل جيكور رؤاها

آه لو روى نخيلات الحديقة

من بويب كركرات ! لو سقاها

منه ماء المد في صبح الخريف !

لم تزل ترقب بابًا عند أطراف الحديقة

ترهف السمع إلى كل حفيف !

ويحها .. ترجو ولا ترجو وتبكيها مناها :

لو أتاها .. !

لو أطال المكث في دنياه عامًا بعد عامِ

دون أن يهبط في سلّم ثلجٍ وظلامِ !

***

هناك حين يهبط الموت في سكون

يسمّر العيون

على شموس تنشر الظلام

هناك يستنيم في محفة الغصون

شذى إذا تنشقته روح ميت غفا

له ونام

شعوره القديم واستراح للقتام

ووفيقة

تبعث الأشذاء في أعماقها ذكرى طويله

لعشيش بين أوراق الخميله

فيه من بيضاته الزرق اتقاد أخضرُ

(أي أمواج من الذكرى رفيقه)

كلما رف جناح أسمر

فوقها والتم صدر لامعاتٌ فيه ريشاتٌ جميلة

أشعل الجوَّ الخريفيَّ الحنانُ

واستعاد الضمّة الأولى وحواءَ الزمانُ

تسأل الأمواتَ من جيكور عن أخبارها ،

عن رباها الربد ، عن أنهارها

آه والموتى صموتٌ كالظلام

أعرضوا عنها ومروا في سلامِ

وهي كالبرعم تلتف على أسرارها

والحديقة

سقسق الليل عليها في اكتئابِ

مثل نافورة عطرٍ وشرابِ

وخيال وحقيقة

بين نهديكِ ارتعاش يا وفيقه

فيه بَرْدُ الموت باكِ

واشرأبّت شفتاكِ

تهمسان العطر في لَيل الحديقة .

1961/8/12

***

أم البروم

(المقبرة التي أصبحت جزءًا من المدينة)

رأيت قوافل الأحياء ترحل عن مغانيها

تطاردها ، وراء الليل ، أشباح الفوانيس

سمعت نشيج باكيها ،

وصرخة طفلها ، وثغاء صاد من مواشيها ،

وفي وهج الظهيرة صارخًا « يا حاديَ العيس »

على ألم مغنِّيها

ولكن لم أرَ الأموات يطردهن حفَارُ

من الحفر العتاق وينزع الأطفان عنها أو يغطيها

ولكن لم أر الأموات ، قبل ثراك ، يُجليها

مجون مدينةٍ ، وغناء راقصةٍ ، وخمّارُ

يقول رفيقي السكران : « دعاها تأكل الموتى

مدينتنا لتكبر ، تحضن الأحياء ، تسقينا

شرابًا من حدائق برسفون [208]، تعلَنا حتى

تدور جماجمُ الأموات من سُكْرٍ مشى فينا ! »

مدينتنا منازلها رحىً ودروبها نارُ

لها من لحمنا المعروك خبزٌ ، فهو يكفيها

علام تمدّ للأموات أيديها ، وتختارُ ،

تلوك ضلوعَها وتقِيئها للريح تسفيها ؟

تسلل ظلها الناري من سِجْن ومستشفى

ومن مبغى ومن خمارةٍ .. من كل ما فيها ،

وسار على سلالم نومنا زحفًا

ليهبط في سكينة روحنا ألَمًا فيبكيها

وكانت ، إذ يُطلَ الفجر ، تأتيك العصافيرُ

تساقَطُ ، كالثمار على القبور ، تنقِّر الصمتا

فتحلم أعين الموتى

بكركرة الضياء وبالتلال يرشُها النورُ ،

(208) هي بروسيربينا ، وبالإغريقية «برسيفون» ، أو «كوريا» . ابنة كيريس (آلهة الخصب) وجوبيتر - سيد العالم لسفلي - اختطفها «بلوتون» . حزنت كيريس لفقدها . ثم طلبت من جوبيتر أن يعيدها من الدار الآخرة . فاستجاب لها جوبيتر بشرط ألا تكون قد أكلت هناك شيئًا . وحيث أنها أكلت ست حبات من «الرُّمان» فقضى عليها أن تبقى في الجحيم بصفتها زوجة بلوتون ، وملكة مملكة الأشباح .

وتسمع ضجةَ الأطفال أُمّ ثلاثةٍ ضاعوا

يتامى في رحاب الأرض : إن عطشوا وإن جاعوا

فلا ساق ولا من مُطعمٍ ، في الكوخ ظلوا واعتلى النعش

رؤوس القوم والأكتاف .. أفئدة وأسماعُ

ولا عينٌ ترى الأمَّ التي منها خلا العش

وفي الليل

إذا ما ذر ذر الأنوارَ في أيدٍ من الظلمة ،

ودبّتْ طفلة الكفين ، عارية الخطى ، نسمه

تلمّ من المدينة ، كالمحار وكالحصى من شاطئ رملٍ ،

نثار غنائها وبكائها - لم تترك العتمه

سوى زَبَدٍ من الأضواء منثور

يذوب على القبور ، كأنه اللِبنات في سورِ

يباعد عالمَ الأموات عن دنيا من الذلّ

من الأغلال ، والبوقات ، والآهات ، والزُّحمه

وأوقدت المدينة نارها في ظلَّة الموت

تقلّع أعينَ الأموات ثم تدسُّ في الحفرِ

بذور شقائق النعمان ، تزرع حبّة الصَمتِ

لتثمر بالرنين من النقود ، وضجّة السفر ،

وقهقهة البغايا والسكارى في ملاهيها

وعصّرت الدفين من النهود بكل أيديها

تمزّقهن بالعجلات والرقصات والزُمُرِ

وتركلهنَ كالأكَر

تفجرها الرياح على المدارج في حواشيها

وحيث تلاشت الرعشات والأشواق والوجد

وعاد الحب ملمس دودة وأنين أعصار ،

تثاءبت المدينة عن هوىً كتوقد النارِ

تموت بحرِّها ورمادها ودخانها الهاري ،

ويا لغة على الأموات أخفى من دُجى الغابهْ

ترددها المقاهي : « ذلك الدلال جاء يريد أتعابه »

إذا سمعوك رن كأنه الجرس الجديد يرن في السَحر

صدى من غمغمات الريف حول مواقد السَمَر :

« إذا ما هزت الأنسام مهد السنبل الغافي

وسال أنين مجداف

كأن الزورق الأسيانَ منه يسيلُ في حُلُم ،

عصرتُ يديَّ من أَلَمِ »

فأين زوارق العشاق من سيارة تعدو

ببنت هوى؟ وأين موائدُ الخمار من سهل يمد موائد القَمَر؟

على أمواتك المتناثرين بكلِّ مُنحَدَرِ

سلامٌ جال فيه الدمعُ والآهاتُ والوجدُ ،

على المبتدّلات لحوُدِهِم والغادياتِ قبورُهم طُرقا

وطيبُ رقادهم أرقَا

يحنّ إلى النشور ويحسب العَجَلاتِ في الدرب

ويرقب مَوْعدَ الربّ

1961/7/21

***

إمام باب الله

منطرحًا أمام بابك الكبيرْ

أصرخ ، في الظلام ، أستجيرْ :

يا راعيَ النمال في الرمالْ

وسامعَ الحصاة في قرارة الغدير

أصيح كالرعود في مغاور الجبال

كآهة الهجير

أتسمع النداء؟ يا بوركتَ ، تسمعُ

وهل تجيب إن سمعت ؟ صائدُ الرجال

وساحِقُ النساء أنتَ ، يا مفجِّعُ

يا مهلك العباد بالرجوم والزلازلِ

يا موحشَ المنازل

منطرحًا أمام بابك الكبير

أحسّ بانكسارة الظنون في الضمير

أثور ؟ أغضبُ ؟

وهل يثور في حماكَ مذنبُ

***

لا أبتغي من الحياة غير ما لديّ :

الهريُ بالغلال يزحم الظلام في مداه ،

وحقلي الحصيد نامٍ في ضحاه

نفضتُ من ترابه يديّ

ليأت في الغداة

سوايَ زارِعون أو سواي حاصدون !

لتنثر القبور والسنابل السنون!

أريد أن أعيشَ في سلام :

كشمعة تذوب في الظلام

بدمعةٍ أموت وابتسام

تعبتُ من توقْد الهجير

أصارع العباب فيه والضمير ،

ومن لياليّ مع النخيل ، والسراج ، والظنون

أتابع القوافي

في ظلمة البحار والفيافي

وفي متاهة الشكوك والجنون

تعبت من صراعي الكبير

أشقّ قلبي أطعم الفقير ،

أضيء كوخه بشمعة العيون ،

أكسوه بالبيارق القديمة

تنث من رائحة الهزيمة

تعبت من ربيعيَ الأخير

أراه في اللقاح والأقاح والورود ،

أراه في كل ربيع يعبر الحدود

تعبتُ من تصنع الحياة

أعيش بالأمس ، وأدعو أمسي الغدا

كأنني ممثل من عالم الردى

تصطاده الأقدار من دجاه

وتوقد الشموع في مسرحه الكبير ،

يضحك للفجر وملء قلبه الهجير

تعبت كالطفل إذا أتعبه بكاه !

***

أود لوِ أنام في حماك

دثاريَ الآثام والخطايا

ومهديَ اختلاجة البغايا

تأنف أن تمسّني يداك

أود لو أراك .. من يراك ؟

أسعى إلى سدّتك الكبيرة

في موكب الخطاة والمعذبين ،

صارخةٍ أصواتُنا الكسيرة

خناجرًا تمزّق الهواء بالأنين :

« وجوهنا اليباب

كأنها ما يرسم الأطفالُ في التراب ،

لم تعرف الجمال والوسامه

تقضّت الطفولة . انطفا سنا الشباب

وذاب كالغمامه ،

ونحن نحمل الوجوه ذاتها ،

لا تلفت العيون إذ تلوح للعيون

ولا تشفّ عن نفوسنا ، وليس تعكس التفاتَها

إليك يا مفجّر الجمال ، تائهون

نحن ، نهيمُ في حدائق الوجوه . آهْ

من عالم يرى زنابق الماء على المياه

ولا يرى المحار في القرار

واللؤلؤ الفريد في المحار !

منطرحًا أصيح ، أنهش الحجار :

« أريد أن أموت يا إله ! »

1961/8/26

***

الغيمة الغريبة

المومس الأجيرة الحقيرة

أكثر من حبيبتي سخاءًا

أتيتُها مساءًا

معانقًا .. أعانق الهواءا

هبّ من القطب على الظهيرة ،

مقبّلاً عيونها الخواءا ،

كأنني كيشوت[209] في الأصيل

يركض خلف ظله الطويل

ويطعن السنابل الكسيره

يظنها الأعداء

ضممتُ منها جثةً بيضاءا

تكفنت من داخل ، وقبرها

في جوفها تناءى

حملت منها صخرة صمّاءا

(209) دون كيشوت دي لامانشا : قصة تسخر من أفكار الفروسية . ألفها سرفانتس . بطلها دون كيشوت ، يمتطي حصانه «روسينانتي» محاولاً أن ينجز أعمالاً قرأها في قصص الفروسية من أجل «دولسينا» ، ويساعده تابعه «سانشوبانزا» تعبر الرواية عن التناقضات المأساوية بين الحقيقة المرة وبين الآمال التي تعمر قلب مثالي خدعه التضليل .

تشدني إلى الثرى ،

أرفعها لتلثم الجوزاءا

الحب أن تبذل ، أن تنال ما تريدُ

كالنبع إذ يدفق ، لا كالبئرِ ،

كالنار تطوي نحوك السماءَا

لا شرر الزناد .

أستزيدُ

فألتقي دمعي ، كغيمة تعيد نفسها للبحر

أتعلم السحابة المرعدة المبرقة المجلجلة

بأن ماءها سيستحيل غيمة إليها مقبله ،

تبذله في الفجر

وتلتقي به قبيل العصر ؟

أريد أن أضمّ ، أن أقبِّلَ

الدم الذي ينبض في الشفاة

كأنما القلب الذي يقبِّلُ

الجسد الموات لا يحس شهقة الإله

تغور كالمدية حين تقتل

فتبعث الحياة في القتيل

أريد أن أحرق كالحريق من أخيلِ :

في القلب واليدين والكعبين

ويأكل النار لظى في عيني

لو كان ما تحسه الحبيبه

الألم ، الدوار .. لا الخواءا

ما كنت مثل غيمة غريبه

ترعد حتى تشعل الهواءا

رعدًا

وتأبى الأرض أن تجيبه !

البصرة 22/ 12/ 1961

دار جدي

مطفأةٌ هي النوافذ الكثار

وباب جدّي موصَدٌ وبيته انتظار

وأطرق الباب ، فمن يجيب ، يفتحُ ؟

تجيبني الطفولة ، الشباب منذ صار ،

تجيبني الجِرار جف ماؤها ، فليس تنضح :

« بويب » ، غير أنها تذر ذر الغبار

مطفأة هي الشموس فيه والنجوم

الحُقُب الثلاثِ منذ أن خفقتُ للحياة

في بيت جدي ، ازدحمن فيه ـ كالغيوم

تُختصر البحار في خدودهن والمياه

فنحن لا نلم بالردى من القبور

فأوجه العجائز

أفصح في الحديث عن مناجل العصور

من القبور فيه والجنائز

وحين تقفز البيوت من بُناتها

وساكينها ، من أغانيها ومن شكاتها

نحس كيف يسحق الزمان إذ يدور

***

أأشتهيك يا حجارة الجدار ، يا بلاط ، يا حديد ، يا طلاء؟

أأشتهي التقاء كن مثلما انتهى إلي فيه؟

أم الصِّبا ، صباي والطفولة اللعوب والهناء؟

وهل بكيت أن تضعضع البناء

وأقفر الفِناء أم بكيت ساكنيه؟

أم أنني رأيت في خرابك الفناء

محدّقًا إليّ منك ، من دمي

مكشرًّا من الحجار؟ آه أيَ برعم

يُربُّ فيك؟ برعم الردى !! غدًا أموات

ولن يظل من قواي ما يظل من خرائب البيوت :

لا أنشق الضياء ، لا أعضعض الهواء ،

لا أعصر النهار أو يمصّني المساء

***

كأنّ مقلتي ، بل كأنني انبعثت (أورفيوس) (210)

تمصّه الخرائب الهوى إلى الجحيم

فيلتقي بمقلتيه ، يلتقي بها ، بيورديس(211)

« آه يا عروس

يا توأم الشباب ، يا زنبقة النعيم ! »

طريقه ابتناه بالحنين والعناء :

براعم الخلود فتّحت له مغالقَ الفناء

وبالغناء ، يا صباي يا عظام ، يا رميم،

كسوتك الرواء والضياء

***

(210) في الأساطير الإغريقية ، أحد نبلاء «ترافيا» وابن ربة الشعر «كاليوبا» ، كان ذا موهبة في إنشاد الشعر ، تزوج الحورية «يوريدكي» التي توفيت من لدغة ثعبان ، نزل إلى العالم السفلي ، وسحر ساكنيه بموسيقاه ، فسمحوا له أن يأخذ زوجته إلى عالم الأحياء بشرط ألا ينظر إلى الخلف حتى يصل إلى الأرض . ولم يستطع . ففقد زوجته للمرة الثانية . حقد على النساء كافة ، فقتلته نساء ترافيا .

(211) بيورديس ، أو «يوريدكي» زوجة أورفيوس .

طفولتي ، صباي ، أين .. أين كلُّ ذاك؟

أين حياة لا يحدّ من طريقها الطويل سور

كشر عن بوّابة كأعين الشباك

تفضي إلى القبور ؟

والكون بالحياة ينبض : المياه والصخور

وذرة الغبار والنمال والحديد

وكل لحن ، كل موسمٍ ، جديد :

الحرث والبذار والزهور

وكل ضاحك فمن فؤاده ، وكل ناطق فمن فؤاده

وكا نائح فمن فؤاده . والأرض لا تدور

والشمس ، إذ تغيب ، تستريح كالصغير في رقاده

والمرء لا يموت إن لم يفترسه في الظلام ذيبْ

أو يختطفه مارد ، والمرء لا يشيب

(فهكذا الشيوخ منذ يولدون

الشعر الأبيض والعصيّ والذقون)

***

وفي ليالي الصيف حين ينعس القَمَرْ

وتذبل النجوم في أوائل السّحَرْ

أفيق أجمع الندى من الشجر

في قدح ، ليقتل السعال والهُزال

وفي المساء كنت أستحمّ بالنجوم ،

عيناي تلقطانهن نجمةً فنجمةً ، وراكب الهلال

سفينةً .. كأنَ سندباد في ارتحال :

شراعيَ الغيوم

ومرفأي المحال ،

وأبصر الله على هيئة نخلةٍ ، كتاج نخلة يبيضُّ في الظلام

أحسّه يقول : « يا بنيَّ ، يا غلام ،

وهبتُك الحياة والحنان ، والنجوم

وهبتها لمقلتيك ، والمطر

للقدمين الغضّتين . فاشرب الحياة

وعبّها ، يحبك الإله »

***

أهكذا السنون تذهبُ

أهكذا الحياة تنضب؟

أحس أنني أذوب ، أتعبُ ،

أموت كالشجرْ

***

حنين في روما

يتثاءب جسمك في خلدي

فتُجنّ عروقْ ،

عريان تزلّقَ في أيدِ

تُنهيه الرعشة ، فهي شروق

في ليل الشهوة . كل دمي

يتحرق ، يلهث ، ينفجر ،

ويقبّل تغرك ألفُ فم

في جسمي تُنبِتُها سَقَرُ

وأحنّ ، أتوق

***

وأحس عبيرَك في نَفَسي

ينهدّ ، يدندن كالجرسِ

***

ووليمةُ جسمكِ يا واها

ما أشهاها !!

***

يا فجر الصيف إذا بردا

يا دفء شتائي ، يا قبلاً أتمناها

أحيا منها ، وأموت بها وأضم الأمس

أمسّ غدا

***

وتعود اللحظةُ لي أبدًا

وما أنأى بيتكِ ، ما أنأى عينكِ بحار ،

***

وجبالُ دم : زَمنٌ جمدا

ليعود مدى . وأجنٌّ ، أثار

***

فأحسَ عبيرك في نَفَسي

ينهد ، يدندن كالجرس

***

ما أسعدها ، ما أشقاها ؟!

أرضي ، آسيةُ العريانة

أنا في روما أبكيها وأعيش بذاركها

ألأنك فيها أهواها ؟

***

من جوع صغارك يا وطني ، أشبعتَ الغرب وغربانه

صحراء من الدم تعوي ، ترجف مقروره

ومرابط خيل مهجوره

ومنازل تلهث أوَّهها

ومقابر ينشج موتاها

وأحسَ عبيرك في نَفَسي

ينهَدَ ، يدندنُ كالجرسِ

لو شئتُ لطيفك أوربا

وطنًا ، لحملتُ معي زادي

وعبرتُ مرافئها ، وطويتُ شوارعها دربًا دربا

أسقيه الشمس وأطعمه قُبلاً وبراعم أورادِ

لكنك أثبتُ في الشرق ..

سأعود فأقطع سلّمنا وثبا

لأضمَّك يا أبدَ الشوق

يا نور المرفأ يهدي القلب إذا تاها

يا قصة عنتر إذ تروى حول التنُّور فأحياها

سأحسَ عبيرك في نفسي

ينثال ويقرع كالجرَسِ

روما 19/ 10/ 1961

***

الأم والطفلة الضائعة

قفي ، لا تغربي ، يا شمس ، ما يأتي مع الليل

سوى الموتى . فمن ذا يُرجع الغائب للأهلِ

إذا ما سدّت الظلماء

دروبًا أثمرت بالبيت بعد تطاول المحل ؟

وأن الليل ترجف أكبد الأطفال من أشباحه السوداء

من الشحب اللوامح فيه ، مما لاذ بالظلِّ

من الهمسات والأصداء

شعاعك مثل خيط اللابرنث ، يشدّه الحب

إلى قلب ابنتي من باب داري ، من جراحاتي

وآهاتي

مضى أزلٌ من الأعوام : آلاف من الأقمار ، والقلب

يعد خوافق الأنسام ، يحسب أنجم الليل ،

يعد حقائب الأطفال ، يبكي كلما عادوا

من الكتّاب والحقل

ويا مصباح قلبي ، يا عزائي في الملمات

مني روحي ، ابنتي : عودي إليَّ فها هو الزادُ

وهذا الماء . جوعي؟ هاك من لحمي

طعامًا . آه !! عطشى أنتَ يا أمي ؟

فعبّي من دمي ماء وعودي .. كلهم عادوا

كأنك برسفون تخطّفتها قبضة الوحش

وكانت أمها الولهى أقل ضنى وأوهاما

من الأم التي لم تدر أين مضيت !

في نعش ؟

على جبل ؟ بكيت ؟ ضحكت؟ هبّ الوحش أم ناما ؟

وحين تمت نار الليل ، حين يعسعس الوسن

على الأجفان ، حين يفتش القصّاص في النار

ليلمح من سفينة سندباد ذوائبَ الصاري

ويخفت صوته لوهَنُ ،

يجن دمي إليك ، يحن ، يعصرني أسىً ضارٍ

مضت عشر من السنوات ، عشرة أدهر سود

مضى أزلٌ من السنوات ، منذ وقفتُ في الباب

أنادي ، لا يردُ عليّ إلا الريحُ في الغاب

تمزق صيحتي وتعيدها .. والدرب مسدود

بها تتنفس الظلماءُ من سمُر وأعناب

وأنتِ كما يذوب النور في دوامة الليل ،

كأنك قطرة الطلِّ

تشرِّبها التراب .. أكاد من فَرَقٍ وأوصابِ

أسائل كلِ ما في الليل من شبحٍ ومن ظل ،

أسائل كل ما طفل :

« أأبصرت ابنتي؟ أرأيتها؟ أسمعتَ ممشاها؟ »

وحين أسير في الزحمة

أصغِّر كل وجه في خيالي : كان جفناها

كغمغمة الشروق على الجداول تشرب الظلمة ،

وكان جبينها .. وأراك في أبد من الناسِ

موزّعة فآه لو أراكِ وأنت ملتمه!

وأنتِ الآن في سَحَر الشباب ، عصيره القاسي

يغلغل في عروقك ، ينهش النهدين والثغرا

وينشر حولك العطرا ،

فيحلم قلبك المسكين بين النور والعتمة

بشيء لو تجسد كان فيه الموت والنشوة !

وأذكر أن هذا العالم المنكود تملأ كأسه الشقوة

وفيه الجوع والآلام ، فيه الفقر والداء

أأنت فقيرة تتضرع الأجيال في عينيك ، فهي فمُ

يُريد الزاد ، يبحث عنه والطرقات ظلماء

أحدِّق في وجوه السائلات أحالها السقمُ

ولوّنها الطوى ، فأراك فيها ، أبصر الأيدي

تُمَدّ ، أحسّ أن يدي .. يدي معهن تعرض زرقة البرد

على الأبصار وهي كأنهن أدارها صنمُ

تجمَّدَ في مدى عينيه أدعيةٌ وسال دم

فأصرخ « في سبيل الله » تخنق صوتي الدمعة

بخيط الملح والماء

وأنت على فمي لوعه

وفي قلبي ، وضوء شع ثم خبا بلا رجعه

وخلّفني أفتش عنه بين دجى وأصداءِ

البصرة 6/ 10/ 1961

***

النبؤة الزائفة

وكانت تجمّعُ في خاطري

خيوطٌ ضبابيَّةٌ قاتمة

نهاياتُها في المدى عائمة

وأعراقها السود في ناظري

ودارتْ خيوطٌ ولُفتْ سواها

فعانقهنَ أفْقًا

ووسوسْنَ غيمًا على الريح مُلقى

تجمّعَ من كل صوب ، ورعدًا وبرقًا :

لقد أغضب الآثمون الإلها

وحقّ العقاب !

يا أفراس الله استبقي

يا خيلاً من نارٍ وسحَاب

من وقع سنابك الرعدُ

والبرق الأزرق في الأُفق

وصهيلك صور لظىً وعذاب ،

الوعد !! لقد أزف الوعدُ

فيا قبضَةَ الله ، يا عاصفاتُ

ويا قاصفات ، يا صاعقة

ألا زلزلي ما بناه الطغاةُ

بنيرانك الماحقة !

وتلتمّ في خاطري

خيوطُ السحاب

وتُلقي على الأفُقِ الدائرِ

وراء القباب :

وأحسستُ أن الغيوم انتظارْ

وأنّ انتظارًا يشدّ الترابْ

وأصدى .. بماذا ؟

بصوت انفجارٍ

على الشطِّ وادٍ وزم الشرار

ورقعتُ بالنظرة الشامته

ثقوبَ الكوى الصامته :

سيندكَ سورٌ ، ستنصب نار

وكان انتظار

وجمّعتِ الأرضُ أطباقها :

سندرك سورٌ ، ستنصبَ نار ،

وعصّرت السّحْبُ أعراقها

فبلّ الثرى عاصف ممطر !

جيكور 3/ 11/ 1961

***

مدينة السراب

عبرتُ أوربا إلى آسيه

وما انطوى النهار

كأنما الجبال والبحار

ربى وأطرافٌ من الساقيه

يطرفها الصغار

بين شروق الشمس والغروبْ

تعانق الشمال والجنوب

ونامت المروج في القفار

وأنتِ يا ضجيعتي ، كأنك الكواكبُ البعيدة

كأنّ بيننا من الكرى جدار

تضمّك اليدان ، تعصران جثة بليدة ،

كأنني معانق دمى على حجار

في منزل لصوصه الرياح والهجير والغيوم ،

مساؤه السكون والنجوم

وصبحه انتظار ،

ترامت السنون بيننا : دمًا ونار ،

أمدّها جسور

فتستحيل سور ،

وأنت في القرار من بحارك العميقة

أغوص لا أمسّها ، تصكّني الصخور ،

تقطع العروق في يدي ، استغيث : « آه يا وفيقة

يا أقرب الورى إليَّ أنت يا رفيقه

للدود والظلام »

عشر سنين سرتها إليك ، يا ضجيعةً تنام

معي وراء سورها ، تنام في سرير ذاتها ،

وما انتهى السِّفار

إليك يا مدينة السراب ، يا ردى حياتها

عبرت أوربا إلى آسيه

وما انطوى النهار ،

وأنت يا ضجيعتي ، مدينة نائيه

مسدودة أبوابها وخلفها وقفت في انتظار

البصرة 2/ 11/ 1961

***

نبوءة ورؤيا

« تنبأ عراف هندي بأن الحياة على الأرض ستنتهي يوم 2 شباط سنة 1962 »

بنوءتُك المريرةُ عذّبتني ، مزقت روحي ؛

نبوءتك الرهيبةُ ، أيها العراف تبكيني ؛

رأيتَ مسالك الأفلاك تُهرع بالملايينِ

قرأتَ خواطرَ الريحِ

ووسوسة الظلام كأنّ حقلاً بات ينتحب :

« ستنطفئ الحياة » ، ورحتَ ترسم موعدَ القدرِ

إذا حدجتنيَ الشهُبُ

هتفتُ بها : « غدًا سنموت . فانهمري على البَشَر :

لأهونُ أن أموت لديك وحدي دون حشرجةٍ ولا أنّهْ

من القدر المرّوع يجرف الأحياء بالآلافْ »

ولكني أصيخ إلى النهار فأسمع العراف

يهدّد : « سوف يهلك من عليها ، سوف تلتهبْ

وتسرب في دمي جِنّه

وحين رقدتُ أمسِ رأيتُ في ظَلموتِ أحلامي

رؤى تتلاحق الأنفاس منها ثم تنقطع

أفقتُ وما تزال تضيء في خَلَدي وتندلع

كما يتفجَر البركان في ظلمات ليل دون أنسام ،

بلا قمر وإن يك في المحاق أكاد أُقتلع

أكاد أمزق الدم في عروقي بارتعادة روحي الحيرى

أكاد أعانق القبرا

أرى أفقًا وليلاً يطبقان عليّ من شُرفه

ولي ولزوجتي ، في الصمت ، عند حدودها وقفه

نحدِّق في السماء ونمنع الطفلين من نظر

إلى ما في دجاها الراعب المأخوذ من سقر ،

تطفّأت الكواكب وهي تسقط فيه كالشرر

تطفّأ تحت ذيل الريح وهي تسُفّه سفّا ،

كأنَ عصًا تسوق مواكب الأفلاك في صحراء من ظُلَمِ ،

ويلهث تحتنا الآجرَ ، يزحف تحتنا زحفا

تضعضع فهو يُمسك نفسه ويئنْ من ألمٍ

ليهوي حين يغفل ، حين يعجز ثم ينهار :

دجىً نُثرت بها نارُ

بنيّ إليك صدري ، فيه فادفن وجهك الطفلا

بنيّ صهٍ أقصّ عليكَ .. أيّة قصّة عندي؟

تفجْرت الفقاعة وانتهى أبدٌ إلى حدِّ :

علام أتيتَ للدنيا ؟

ليدركَ عُمْرُكَ الليلا

لتحيا أربع السنوات ثم لتبصر الساعة

تقوم ولست تُدرك ما تراه؟ تريد أن تحيا

وتجهل أن موتك فيه بعثُك ، أن للدنيا

نهاية سلّمٍ يفضي إلى أبدٍ من الملكوت

قلبُك ؟ آه .. من راعه ؟

بكاؤك وارتعابك فيهما لله أحراج

وباسمهما أسائله الحساب : أتصرع الأطفال

لتشهد لوعة الآباء ؟ تسعد قلبك الآمال

تخيب !!

يكاد يهوي من صراخي عنده التاجُ

ويُهدم عَرْشُهُ ويخرّ ، تُطفأ حوله الآباد والآزال

ويقطر لابن آدم ألمًا وينفطر

بغداد 26/ 11/ 1961

***

ذهبت

ذهبتِ فاستحال بعدكِ النهارْ

كأنه الغروبْ

كأنما سحبت من خيوطه النِّضار

وظلّل المدارجِ انكسارْ

ومثلها انكسرت ، غام في خيالي الجنوبْ

ينوء بالخريفْ

تعرَّت الكروم والجداول انطفأنَ ، والحفيفْ

يموت في ذري النخيل ، والدروب ،

بصمتها ، انتظار

كحّل عينيك سوادٌ نار

تشبّ من قلبكِ ، من براعم النهود ،

يهتف بي إذا نظرت : أنتِ في استعار

يا أيّها البركان من ورود

أواه لو أشدّ عينيك إلى النهار ،

إلى غدٍ فوق دمي يحومْ

أي سماء أشعلتها رعشة النجومُ

وأثقل الظلام فيها من ندى المطرْ

نظرت من قرارها إليّ ، كالغيوم

تكنُّ في اربدادها الزَهَرْ !

يا نظرة تخطفني ريحها السَموم

إلى الضفاف الخضر من نَهَرْ

غرقتُ فيه ، أشعليني ! أطفئي اللهيبْ

يا نظرةً يشدّ قلبي بالسما وتر

يعزف مرُّها عليه غنوةَ القمر

1962/1/20

يا نهر

يا نهر عادت إليك من أبد اللحود ومن خواء الهالكين

راعيك في الزمن البعيد ، يسرّح البصر الحزين

في ضفتيك ويسأل الأشجار عندك عن هواه

أوراقها سقطت وعادت ثم أذبلها الخريف

وتبدلت عشرين مره

هيهات يسمع ، إذ توسوس في الدجى ، أصداء آه

بالأمس أطلقها لديك ترن في جرس الحفيف

كم قبلةٍ عادت دوائر في مياهك مستسرَّه ،

دنياه كانت أمس فيك ، فهل تعود إلى الحياة ؟

ليود من شغفٍ بمائك لو غدا

ظلاً يداعب فيه جنّياتِهِ

متعلقًا بشراع كل سفينةٍ

ليجاذب الملاح أغنيّاتِهِ

وتلوذ أنوار النجوم بصدره

وتراقصُ الأمواجِ من ضحكاته

ما أخيب الموتى إذا رجعوا إلى الدنيا القديمة

وتلصصوا يتطلعون كما تطلع من كوى دارٍ شريدُ

ورأى ثمار الجمر سار عصيرها دفئًا وجال عبيرها المهدودُ

ما أخيب الموتى تكاد موتهم الهزيمة

شيئًا أمرَّ من الحياة

ما أخيبَ الموتى ! تغير كل شيء ، كل باقِ

مما أطلّ على الحياة لأنهم كانوا كواه ،

أم مات ما عرفوه إذا ماتوا ، فليس سوى رؤاه ؟

فتكبدوا ألمَ الفراقِ ،

ألم التغريب مرتين . فيَا ضفاف النهر ، يا أمواجه ومحاره

ماذا تبقى فيكِ من أمس الهوى ؟

الدوح أسلم للبلى ورقاتَه

وهي التي سمعت لديك حواره

وهي التي أودعتُ فيها ، في الضحى ،

قبلاتنا وطويت فيها ناره ،

إني ذويتُ مع الظلام كما ذوى

يا ليت لي شفة فتلثم أو يدًا فتمسَّ ماءَكْ

إني لأكثر من غريب غربةً وأشد حيْره ؛

لم يبق فيك سوى الزمان ، وليس ما فيك قطره

من ماء أمس . كأن فجرَك عادَ قبل غدٍ مساءَكْ

وكأن ضفتك الحبيبة ضفّة الأبد البعيدِ

يا نهر إن وردتك « هالةُ » والربيع الطلق في نيسانه

ولي صباها فهي ترتجف الكهولة ، وهي تحلم بالورود

في حين أثقلها الجليدُ ، كأن نبعًا في اللحود

تمتص منه عروقها دمها ، فقل : لم ينس عهدك

وهو في أكفانِهِ

أبو الخصيب 2/ 2/ 1962

***

صياح البط البري

وذري سكونَ الصباح الطويلْ

هُتافٌ من الدِّيك لا يصدأُ

وهزّ الصدى سَعَفات النخيلْ

وأشرقَ شبّاكُنا المطفأُ

هتافٌ سمعناه منذ الصِّغَرْ

سمعناه حتى نموتْ

يمرّ على عَتبَاتِ البيوت

فيرسمُ أبوابَهَا والحُجَرْ

ولا يهدأ

إلى أنْ تسيرَ الحقولْ

إلينا فنقطفَ منها الثمرْ

***

وعند الضحى وانسكاب السماء

على الطِّين والعُشْبةِ اليابسة ،

يشقّ إلينا غصونَ الهواء

صياحٌ ، بكاءٌ ، غناءٌ ، نداء

يُبشِّر شطآننا اليائسة

بأنَّ المَطَرْ

على مَهْمهِ الرِّيح مدَّ القلوعْ ،

هو البطّ .. فَلْتَهنأي يا شموع

يموت به تعرفين الحياةَ

به تعرِّفين ابتسامَ الدموعْ :

نذورًا تذوبين ، للأوْلياء

***

صياحٌ .. كأنَ الصِّياحْ

ينشِّرُ ، مما انطوى من رياح ،

سهولاً وراءَ السهول

أزاهيرُها في الدجى من نباح

وعند النهار خُزامي ـ أقاحْ

وختميّةٌ ما لها من ذيول ..

ينشِّرُ في شاطئٍ مُشمسٍ

من القَصَب الكث غابًا له عذَبات تطولْ

صياحٌ كأجراس ماء .. كأجراس حقْلٍ من النرجسِ

يُدنْدِن والشمسُ تُصَّغى ، يقولْ

بأنّ المطرْ

سيهطلُ قبل انطواءِ الجناح

وقبل انتهاء السّفَرْ ..

1962/3/18

***

المعبد الغريق (212)

خيولُ الريح تصهلُ ، والمرافئُ يَلْمسُ الغَرْبُ

صواريَها بشمس من دمٍ ، ونوافذُ الحانَة

تراقصُ من وراء خِصاصها سُرُجٌ ، وجمع نَفْسَه الشّرْبُ

بخْيطٍ من خيوط الخوْف مشدودًا إلى قنّينةٍ ، ويمدّ آذانه

إلى المتلاطم الهدّار عند نوافذ الحانة

***

وحدّث ـ وهو يهمس جاحظَ العَيْنَيْن ، مرتعدا ،

يعبّ الخَمْرَ ـ شيخٌ عن دجىً ضاف وأدغال

تلامحَ وَسْطَها قَمَرُ البحيْرةِ يلثم العَمّدا ..

يمسّ البابَ من جنبات ذاكَ المَعْبَدْ الخالي

طواهُ الماءُ في غَلَس البحيرة بَيْن أحراش مبعثرةٍ وأدغالِ

***

(212) هو معبد بوذي غرق في بحيرة شيني التي يصب فيها نهر «الباهنج» بالملايو ، إثر زلزال بركاني . تحرس كنوز المعبد تماسيح ، ووحش له عين حمراء واحدة .

هنالك قَبْلَ أَلْفٍ ، حينَ مجّ لظاه من سَقَرِ

فمٌ يتفتّح البرْ كان عنه فتنفضُ الحُمّى

قرارةَ كلٌ ما في الواد من حَجَر على حَجَرِ ،

تفجَّر باللظى رحِمُ البَحيرة ينثر السماك والدَمَ ، مُرْغيًا سُما

وقرَّ عليه كلْكلْ معبدٍ عصفتْ به الحمى

***

تطفَّأ في المباخر جَمْرُها وتوهَّجَ الذَهَبُ

ولاح الدُرَّ والياقوت أثمارًا من النورِ ،

نجومًا في سماء الماء تزحفُ دونها السُّحبُ

تمرّغَ فوْقَها التمساح ثم طفا على السّورِ

ليحرس كنزَه الأبديِّ حتى عن يد الظلماء والنور

***

وأرسى الأخْطُبوطْ فنارَ مَوْت يرصد البابا ،

سجا في عينهِ الصّوْراء صُبْحٌ كان في الأزَلِ ..

تهزَأ بالزمان ، يمرّ ليْل بعد ليلِ وهو ما غابا

ففيمَ غرورُ هذا الهالكِ الإنسان ، هذا الحاضر المشدود بالأجّلِ ؟

أعمّرَ أَلْفَ عامٍ؟ ليته شهد الخلائق وهي تعبر شُرْفة الأزلِ؟

***

ألا يا لَيْتَه شَهِدَ السلاحِفَ : تسحقُ الدُنيا

قياصرَها ، ويمنع دِرْعُها ما صوّبَ الزَمنُ

إليها من سهام الموت!

لكن الذي يحيا

بقلْب يعبر الآبادَ ، يكسر حدّه الوَهَنُ

فيصمتُ ، عُمْرُه أزَلٌ يمسْ حدوده أَبَدٌ من الأكوان في دنيا

***

هنالك ألْفُ كنزٍ من كنوزِ العالمِ الغرْقى

ستُشبعُ أَلْفَ طِفلٍ جائعٍ وتُقيلَ آلافًا من الداءِ

وتُنقذ ألف شعّبٍ من يد الجلاد ، لو تَرْقى

إلى فَلَكِ الضمير !

أكلَّ هذا المال في دنيا الأرقْاء

ولا يتحررون؟ وكيف وهو يُصفِّدُ الأعناقَ ،

يربطها إلى الداءِ ؟

***

كأنَّ الماءَ في ثَبَجِ البحيرة يمنعُ الزّمنا

فلا يتقحّمُ الأغوارَ ، لا يخطو إلى الغُرَفِ

كأنّ على رتاج الباب طلّسْمًا ، فلا وَسَنا

ولكنْ يقظة أبد ، ولا موت يحد حدود ذاك الحاضر الترف

كأن تهجَّدَ الكُهان نبْعٌ في ضمير الماء يدفق منه للغُرَفِ

***

إذنْ ما عاد من سَفَرٍ إلى أهليه عوليسُ ..

إذنْ فشراعه الخفّاقُ يزرع فائرّ الأمواجِ

بها حَسَب الشهورِ وعدّ حتى هدّهُ البؤسُ

فيا عوليس[213] .. شاب فتاك ، مُبْسم زَوْجكَ الوهّاج

غدا حَطبًا .. ففيم تعود ، تفري نحو أهلَك أضلعَ الأمواجْ

هلُمّ فماء شيني في انتظارك يحبس الأنفاسْ

فما جرحتْه نَقْرةُ طائرٍ أو عطرته أناملُ النّسمِ

هلُم فإنَّ وحْشًا فيه يحلم فيكَ دونَ الناس

ويخشى أن تفجِّرَ عَيْنَه الحمراءَ بالظلمِ

وأنَّ كنوزَهُ العذراء تسأل عن شراعكَ خافقَ النَسَمِ

***

---

(213) هو أحد أبطال الأوذيسة وسبق التعريف به .

أما فجعتْك في طروادةَ الآهاتُ من جَرْحى

ومحتضرين؟

يا لدمٍ أريقَ فلطّخ الجدْرانْ

وردّ ترابَها الظمآن طينًا ، ردّه جُرْحًا

كبيرًا واحدًا ، جرْحًا تفتح في حشا الإنسان

ليصرخَ بالسماء

فيا لصوتٍ رددته نوافذُ الحجُرات والجدران :

***

« لأجْلِ فُجورِ أُنثى واتّقاد مُتوَّجٍ بالثارْ

تخضبُ من دمِ المُهَجات حتى سُلمُ الأفنِ ؛

وحل بلا أوانَ يوْمنا ، وتساوت الأعمار

كزرع منه ساوى منجلٌ ..

وهناك في الشّفَقِ

تنوحُ نساءنا المترّملات ، يُولوِل الأطفال عند مدارج الأفق

هلّم فقد شهدتُ ، كما شهدتَ ، دمًا وأشلاء

تفجَّر في بلادي قُمْقُمٌ ملأتْه بالنارِ

دهورُ الجوع والحرمان

أيَّ خليقةٍ قاءا ؟

رأيْنا أنَّ أفئدةَ التّتار ، وأذْؤبَ الغارِ

أرقّ من الرِّعاع القالعينَ نواظرَ الأطفال والشاوينَ بالنار

***

شفاهَ الحُلْمةِ العذراء

يا نَهْرًا من الحِقْدِ

تدفّقَ بالخناجر والعِصيِّ ، بِأعْين غَضبى :

نجومًا في سماء شدّها قابيلُ بالزِّنْدِ

فليْتك حين هزّ الموْصِلَ الأعصارُ (لا دَرْبًا

ولا بيتًا ، ولا قبْرًا نجا فيها) شهدتَ الأعْيُنَ الغَضبى

ولَيْتَك في قطارٍ مرَّ حين تنفَّس السّحَرُ

فقصّ ، على سرير السكَةِ الممدود ، أمراسًا

تعلّقَ في نهايتينّ جِسْمٌ يحصدُ النَّظَرُ

عليه الجُرْحَ بعد الجُرْح بعد الجرح أكْداسًا

ليهوىَ جسم « حفصة » [214] لابسًا فوق النجيع دمًا وأمراسا

***

---

(214) إحدى شهيدات الموصل (العراق) .

وفيمَ نخافُ في ثَبَجِ البحيْرة أو حفافيها

كواسج [215] ضاريات أو تماسيح التظتْ لَهَبا

نواجذُها الحديدة؟ فيم تخشى كل ما فيها ؟

فإنّ عقارب الرقّاع [216] يُضمر سمّها العَطَبا

وتزرع في الجسوم أزاهرَ الدم والجراحَ بلا دم لَهَبا

***

هلُمَ نشقّ في الباهَنْج [217] حقلَ الماء بالمجذافْ

وننثر أَنْجُمَ الظلماء ، نُسقطُها إلى القاع

وحصى ما ميّزتْه العيْنُ عن فَيروزه الرفَّافَ

ولؤلؤه المنقّطِ بالظلام

سنُرعب الراعي

فيُهرع بالخراف إلى الحظيرة خَوْفَ أن يغرقْنَ في القاعِ

***

(215) سمك القرش : كلاب البحر .

(216) حسن الرقاع : أحد زعماء الشيوعيين في العراق . استعمل العقارب في تعذيب سجنائه .

(217) نهر يصب في بحيرة شيني بالملايو .

هلُمّ فَلَيْلُ آسيةَ البعيد مداهٍ ، يدعونا

بصوتٍ من نُعاس ، من ردىً ، من سجْع كُهَانِ

هلُمّ .. فما يزال الدهرُ بين أيدينا

لنطْو دُجاه قبل طلوع شمس دونَ ألوان

تبدِّدَ عالمَ الأحلام ، تُخْفِتُ ـ إذْ يرنَّ التِّبْرُ فيها ـ سَجعَ كُهَانِ !

***

يجول التِّبْرُ فيها مثل وَحْشٍ يأكلُ الموْتى

ويشرب من دم الأحياء ، يسرق زادَ أطفالِ

ليتّقدَ اللظى في عَينْه ، ليُعيره صَوْتًا

يحطِّمُ صوتَ كلَّ الأنبياء هناك

يا لرنين أغلالِ

ويا لصدىً من الساعات ، بالأكفان مسَّ رؤوسَ أطفالِ

***

وفلَّ عناقَ كلَّ العاشقين ، ودسَّ في القُبْلة

مُدي من حَشْرجات الموت ، ردّ أصابعَ الأيْدي

أشاجعَ غابَ عنها لحمها ، وستائرُ الكُلّه

يحوِّلُها صفائح تحتها جُثثٌ بلا جِلْدِ

هلُمَّ فبَعْدُ ما لمح المجوسُ الكوكبَ الوَهّاج تُبْسَطُ نحوه الأيدي

***

ولا ملأت حِرَاءَ [218] وصُبْحَه الآياتُ والسّوَرُ

هلُمَّ فما يزال زيوس يصبغ قمَّة الجَبَلِ

بخمرتِهِ ، ويُرسل ألف نسْر نزّ من أحداقِها الشَّرَرُ

لتخطف من يُدير الخمر [219] يحمل أكؤوس الصهباء والعَسَل

هلُمَّ نزور آلهةَ البحيرة ،

ثم نرفعُها لتسكن قمَّةَ الجبل !

البصرة 17/ 2/ 1962

* نشرت في مجلة «شعر» العدد (22) ، ربيع 1962 ـ بيروت ص45.

***

(218) يقع في الشمال الشرقي لمكة كان رسول الله ﷺ ينقطع فيه للعبادة طوال شهر رمضان قبل إعلان الدعوة . ونزل به الوحي على الرسول ﷺ .

(219) غانيميد. أرسل إليه زيوس (كبير الآلهة) نسرًا فاختطفه وأصبح ساقيًا للآلهة في الأساطير اليونانية .

أفياء جيكور

نافورة من ظلالٍ ، من أزاهيرِ

ومن عصافير ..

جيكورُ ، جيكورُ ، يا حَفْلاً من النور

يا جدولاً من فراشات نُطاردها

في الليل ، في عالم الأحلام والقَمَرِ

ينشرْنَ أجنحة أندى من المطرِ

في أول الصيف

يا بابَ الأساطيرِ

يا بابَ ميلادنا الموصول بالرحِمِ

من أين جئناك ، من أيّ المقادير ؟

من أيّما ظُلَمَ ؟

وأيّ أزمنةٍ في الليل سرناها

حتى أتيناك أقبلنا من العَدَمِ ؟

أم من حياة نسيناها ؟

جيكورُ مسّي جبيني فهو ملتهبُ

مسيِّه بالسّعَفِ

والسنبلْ الترف

مدِّي عليَّ الظلاَلَ السمْرَ ، تنسحبُ

ليلاً ، فتخفي هجيري في حناياها

ظلٌ من النخْل ، أفياءٌ من الشَّجَرِ

أندى من السِّحَرِ

في شاطئ نام فيه الماء والسَّحبُ ..

ظلٌ كأهداب طِفلٍ هدّه اللعِبُ ،

نافورة ماؤها ضوء من القَمَرِ

أودّ لو كان في عينيّ ينسربُ

حتى أحسّ ارتعاش الحُلم ينبع من روحي وينسكبُ

نافورة من ظلالٍ ، من أزاهيرِ

ومن عصافير ..

جيْكورُ .. ماذا ؟ أنمشي نحن في الزَّمَنِ

أم أنه الماشي

ونحن فيه وقوفٌ ؟

أين أوله

وأين آخرهُ ؟

هل مرّ أطوَله

أم مرَّ أقصره الممتدّ في الشَجَنِ

أم نحن سيان ، نمشي بين أحراشِ

كانت حياةَ سوانا في الدياجيرِ ؟

هل أن جيكور كانت قبل جيكور

في خاطر الله .. في نبْعٍ من النور ؟

جيكور مدُّي غِشاءَ الظِّلِّ والزهَرِ ،

سدي به باب أفكاري لأنساها

وأثقلي من غصون النوْم بالثمَرِ

بالخوْخ والتين والأعناب عاريةً من قِشرها الخِصرِ

ردي إليَّ الذي ضيّعت من عُمُري

أيَّام لَـهْوي .. وركضي خَلفَ أفراسِ

تعدو من القَصَص الريفي والسَّمَرِ ؛

ردِّي أبا زَيْدَ ، لم يصحب من الناسِ

خلا على السفَرِ

إلاّ وما عاد

ردِّي السندباد وبقد ألقته في جُزُرِ

يرتادها الرخ ريحٌ ذات أمراسِ

جيكورُ لُمي عظامي ، وانفضي كفَني

من طينهِ ، واغسلي بالجدْوَل الجاري

قلبي الذي كان شبَّاكًا على النارِ

لوْلاك يا وطني ،

لولاك يا جنتي الخضراء ، يا داري

لم تَلقَ أوتاري

ريحًا فتنقل آهاتي وأشعاري

لولاك ما كان وَجْهُ الله من قدري

أفياءُ جيكورَ نبْع سال في بالي

أبلّ منها صدى روحي

في ظلِّها أشتهي اللقيا ، وأحلم بالأسفار والرّيحِ

والبحر تقدح أحداق الكواسج في صخابه العالي

كأنها كِسَرٌ من أنجم سقطتْ

كأنها سُرُجُ الموْتى تقلبُها أيدي العرائس من حالٍ إلى حالِ

أفياءُ جيكور أهواها

كأنها انسرحتْ من قبرها البالي ،

من قبر أمي التي صارت أضالعها التعبي وعيناها

من أرض جيكور .. ترعاني وأرعاها

جيكور 17/ 3/ 1962

***

الشاعر الرجيم

« إلى شارل بودلير »

حملت للنزال سيفك الصديء

يهتز في يدٍ تكَادُ تُحرق السماء

من دمها المتقد المضيء ،

تريدُ أن تمزّق الهواء .

وتجمعُ النساء

في امرأةَ شفاهُها دمٌ على جليدْ

وجسمها المخاتل البليد

أفعى إذا مشت ، وسادة على الفراش .. لا تُريدْ

أن تفتح الكوى ليدخل الضيَّاء

كيْ لا تُحسّ أنها خُواء

ويرفع الشَّرْقُ أمام عينك الستورْ ،

توشك أن تعانقَ الجَمال عند سُدَّة الأله ،

تكاد أن تراه

يهفُّ وسْطَ غيْمةٍ من عَبَقٍ ونور

تراه في حُلمه نَهْدٍ توقد النجوم

بحمرةٍ لها .. أريتَه يقوم

من قبره ، تحمله سحابةُ الدّخانْ

ينام تحت ظلّها الفقير والشريد

فهو أميرٌ حوله الكؤوسُ والقيان ،

وبيْته العتيد

جزيرٌ من جُزُور المرْجان

كأنّ بحرًا غاسلاً لسبوسٍ [220] بالأجاج

تشربه روحك من صدى إلى القرار

كأن «سافو»[221] أورثتك من العروق نار ،

وأنت لا تضمّ غير حُلْمِك الأبيدْ

كمن يضمّ طيْفَه المطلَّ من زجاجْ :

حُرْقةُ نرسيس[222] ، وتنتلوس [223] والثمارْ!

---

(220) جزيرة كانت «سافو» الشاعرة الإغريقية تتخذ لها هيكلاً فيها .

(221) عاشت في القرن (ق م) . يعتبرها أفلاطون أعظم شاعرة يونانية . استخدمت عددًا كبيرًا من الأوزان الشعرية ، سُمِيَ أحدها باسمها (الوزن السافوني) . فُقد أغلب شعرها . تمتاز لغتها بالصفاء ، وعذوبة الألفاظ ، ووضوح الأسلوب ، وبساطة التعبير ، وجمال لوحاتها في وصف الطبيعة .

(222) هو «ناركيسوس» في الأساطير اليونانية فتى جميل ، رفض أن يستجيب للحب ، حتى حب الحورية «إيكو» فوقع في حب صورته المنعكسة على سطح الماء ، وبعد أن أغرق نفسه حولته الآلهة إلى زهرة النرجس .

(223) وتنتلوس جائع أبدًا يقترب من فمه غصن مثقل بالثمار ، حتى إذا كاد يأكل أبعدت الريح الغصن عن فمه .

كأنَّ أفريقية الفاترة الكسولْ

(أنهارها العراض والطبول

وغابُها الثقيلُ بالظلال والمطرْ ،

وقيْظُها النديّ .. والقَمَر)

تكورتْ في امرأة خليعةِ العذار

رضعتَ منها السِّمّ واللهيبْ ،

قطرْتَ فيها سُمّك الغريب ..

كأنها سحابةُ الدخان والخَدَرْ

أقمْتَ منها ، بين عالم تَشَدّه نوابضُ النّضار

وبين عالم من الخيال والفِكَرْ ،

من نشوةَ جدار

تقبع خلف ظلّه فلا ينالُكَ البَشَر

دخلتُ ، من كتابك الأثيم ،

حديقةَ الدم التي توَجَ بالزّهَرْ ،

شربتُ من حروفه سلافَةَ الجحيم

كأنها أثداء ذئبةٍ على القفار

حليبُها سُعار

وفيْئُها نعيم

غرقتُ فيه ، صكّني العُبابْ

يقذفني من شاطئ لشاطئ قديم ،

حملتُ من قراره محارة العذاب

حملتُها إليْكْ

فمُدّ ليَ يديْك

وزحزحِ الصخورَ والتراب

البصرة 24/ 3/ 1962

***

لأني غريب

لأنّي غريبْ

لأنَّ العراقَ الحبيب

بعيد ، وأنّي هنا في اشتياقْ

إليْه ، إليْها .. أنادي : عراق

فَيرجع لي من ندائي نحيب

تفجّر عنه الصدى

أحسّ بأني عبرتُ المدى

إلى عالم من ردى لا يجيب

ندائي ؛

وإمّا هززْتُ الغصونْ

فما يتساقطُ غَيْرُ الردى :

حجارْ

حجارٌ وما من ثمار ،

وحتَّى العيون

حجار ، وحتى الهواء الرطيب

حجارٌ يندِّيه بعضُ الدم

حجارٌ ندائي ، وصَخْرٌ فَمي

ورجْلاي ريحٌ تجوب القفار

بيروت 15/ 4/ 1962

***

ابن الشهيد

وتراجع الطوفان ، لملم كل أذيال المياه

وتكشّفت قمم التلال ، سفوحها ، وقرى السهول ،

أكواخها وبيوتها خِرب تناثر في فلاه

عركت نيوب الماء كل سقوفها ومشي الذبول

فيما يحيط بهن من شجر .. فآه

آهٍ على بلدي ، عراقي : أثمر الدم في الحقول

حسكا ، وخلّف جرحه التتري ندبًا في ثراه

يا للقبور كأن عاليها غدًا سفلاً وغار إلى الظلام

مثل البذور تنام في ظلم الثمار ولا تفيق

يتنفس الأحياء فيها كل وسوسة الرغام

حتى يموتوا في دجاها مثلما اختنق الغريق

جثث هنا ، ودم هناك

وفي بيوت النمل مد من الجفون

سقف يقرمده النجيع ، وفي الزوايا

صفر العظام من الحنايا

ماذا تخلف في العراق سوى الكآبة والجنون؟

أرأيت أرملة الشهيد ؟

الزوج مد عليه من ترب لحافًا ثم نام

متمددًا بأشد ما تجد العظام

من فسحة : سكنت يداه على الأضالع والعيون

تغفو إلى أبد الإله ، إلى القيامة : في سلام

رمت الرداء العسكري ونشّرته على الوصيد ..

لثمته ، فانتفض القماش يرد برد الموت ،

برد المظلمات من القبور

يا فكرها عجبًا .. ثقبت بنارك الأبد البعيد ،

يا فكر شاعرة يفتش عن قواف للقصيد

ماذا وجدت وراء أمسي وعبر يومك من دهور

« الثأر » يصرخ كل عرق ، كل باب

في الدار . يا لفم تفتّح كالجحيم .. من الصخور ،

من كل ردن في الرداء ، من النوافذ والستور ،

من عيني ابنك ، يا شهيد ، تسائلان ، بلا جواب ،

عنك الأسرة والدروب ، وتسألان عن المصير ،

مذ ألبسته الأم ثوبك في معاركك ، الأثير

ويداه في الردنين ضائعتان ، والصدر الصغير

في صدرك الأبوي عاصفة تغلف بالسحاب

ورنا إلى المرآة

أبصر فيه شخصك في الثياب

« ابني كان أبوك نبعًا من لهيب ، من حديد ،

سورًا من الدم والرعود ،

ورماه بالأجل العميل فخرَّ - واهًا - كالشهاب ،

لكن لمحًا منه شع وفض أختام الحدود

وأضاء وجه الفوضوي ينز بالدم والصديد

وكأن في أفق العروبة منه خيطًا من رغاب

وتنفس الغد في اليتيم ومد في عينيه شمسه

فرأى القبور يهب موتاهن فوجًا بعد فوج

أكفانها هرئت ..

ولكن الذي فيها يضم إليه أمسه

ويصيح « يا للثار .. يا للثار .. »

يصدى كل فج

وترنّ أقبية المساجد والمآذن بالنداء .

وينام طفلك وهو يحلم بالمقابر والدماء

البصرة 9/ 3/ 1963

***

فرار عام 1953

في ليلةٍ كانت شرايينها

فحمًا ، وكانت أرضُها من لحود

يأكل من أقدامنا طينُها ،

تسعى إلى الماء ،

إلى شراعٍ مزقته الرعود

فوق سفين دون أضواءٍ ،

في الضفة الأخرى .. يكاد العراق

يومئ ؟ يا أهلاً بأبنائي

لكنَّنا ، واحسرتا ، لن نعود

أواهُ لو سيكارةٌ في فمي

لو غُنْوَةٌ .. لو ضمَّةٌ ، لو عناق

لسَعّفةٍ خضراءَ أو بُرعم

في أرضيَ السكرى برؤيا غدِ

إنّا مع الصبح على موعِدِ

رغم الدجى .. يا عراق !

ريفٌ وراء الشطِّ بين النخيلْ

يغفو على حُلمٍ طويل طويل ،

تثاءبتْ فيه ظلالٌ تسيل

كالماء بين الماء والعُشب

يا ليتَ لي فيه

قبرًا على إحدى روابيهِ ،

يا ليتني ما زلت في لعْبي

في ريف جيكور الذي لا يميل

عنه الربيعُ الأبيضُ الأخضرُ :

السّهْل يندي والرّبي تُزهرُ

ويطفئ الأحلام في مقلتي

ـ كأنها منفضةٌ للرمادْ ـ

هَمسٌ كشَوكٍ مسّ من جبهتي

يُنذر بالسارين فوقَ الجياد

(سنابك الخيْل مساميرُ نارْ

تدقّ تابوت الدجى والنهار :

ناعورةٌ تحرس كرْم الحدود

أثقلَ طينْ الخوف ما للفرار

من قدم تدمي .. ومد السّدود

أمن بلادي هارب ؟ أي عار !!

وارتعشَ الماءُ وسار السّفينْ

وهبَّتْ الريحُ من الغَرْبِ

تحمل لي دَرْبي ..

تحمل من قبرها ذرّ طينْ ،

تحمل جيْكورَ إلى قلبي

يا ريحُ يا ريحُ

توهَّجتْ فيكِ مصابيحُ

من ليل جيكور ، أضاءت ظُلمةَ السفينْ

لأبصرَ الأعينَ كالشَّهْبِ

تلتمّ حَوْلي ، لأراها تلين !

وأنجُمُ الشطِّ زهورٌ كبار

أوشكت أن أُبصرَ سيقانها

تمتدّ في الماء ، تمسّ القرار ،

لَـمْلَمَ فجرُ حورٍ تحار

فيها تباريحُ الهوى والحياءْ ..

كأنَّها زنبقُ نارٍ وماء

البصرة 21/ 3/ 1962

***

جيكور شابت

ما نفضْتُ الندى عن ذرى العُشْب فيها ،

ما لثمتُ الضباب الذي يحتويها ،

جئتُها والضّحى يزرع الشمس في كل حقل وسطْحِ

مثلَ أعواد قَمْحِ

فرّ قلبي إليها كطَير إلى عُشّه في الغروب

هل تُراهُ استعاد الذي مرَّ من عُمْرِهِ ، كلَ جُرْحِ وابتسام ؟

أبعد انطفاء اللهيب

يستطيع الرماد اتّقادًا ؟ ومن أين؟ من أيِّ جَمْرة ؟

يا صباي الذي كان للكون عطرًا وزهْوًا وتيها ..

كان يومي كعام ، تعدُّ المسرّه

فيه نبْضًا لقلبي تفجّر منها على كلِّ زهره

كانت الأرض تلقي صباها لأول مرّه ..

كان قابيلُها بذرةً مُسْتسرّه ..

كان للأرض قلبٌ ، أُحسُّ به في الدروب ،

في البساتين ، في كل نهْرٍ يُروّي بنيها

آه جيكور ، جيكور ..

ما للضحى كالأصيل

يسحب النُّور مثلَ الجناح الكليل ؟

ما لأكواخكِ المقفراتِ الكَئيبه

يحبس الظلُّ فيها نحيبَه ؟

أين أيْنَ الصبايا يوسْوسْنَ بين النخيل

عن هوى كالتماع النجوم الغريبه

أو يجرّرْنَ أذيالهن التي لوَّنتهْنَّ أقمارَ صَيْف

أو شموسٌ خريفيَّةٌ ، عند شطٍّ ظليلِ

والشِّفاهُ ابتسامات حبٍّ وخَوْف ؟؟؟

عجائزُ أو في القبور ..

عجائزُ يغزلْنَ حول الصِّلاء

ويروينَ ، عَبْرَ الكرى والفتور ،

أقاصيصَ عن جنّةٍ في بيوتٍ خُواءْ ،

لأحفادهنَّ اليتامى .

وجيكور شابتْ وولى صباها

وأمسى هواها رمادًا ، إذا ما

تأوُّهْنُ هَزّته ريحٌ ..

أثارته حتى ارتمى في صداها

هباءً وذرًا تضيقُ الصدور

به عن مداها

أين جيكور ؟

جيكور ديوانُ شعري ،

موعدٌ بين ألواح نعشي وقبري

كرْكرات المياه التي كسَّر الشمسَ منها ارتجافُ ،

والأنينُ الذي منه كنا نخافُ

صاعدًا مثل مدّ تتر القبور

عنه ، والشمسُ تمتصّ من كل نهر ،

ودرابك في الأرضِ تنقرهن البذور

وهي تنشقُ في كل فجُرِ.

ذكرياتٌ .. كما يترك الصوت من ميِّتٍ

في خيال رنينه

مثل نايٍ تشظَّى وأبقى أنينه

إيهِ جيكور ، عندي سؤالٌ ، أما تسمعينَه؟

هل تُرى أنتِ في ذكرياتي دفينه

أم تُرى أنتِ قبر لها ؟ فابعثيها

وابعثيني

وهيهات! ما للصِّبى من رجوعٍ

إن ماضيَّ قبري وإني قَبرُ ماضيَّ

موتٌ يمدّ الحياةَ الحزينةَ ؟

أم حياةٌ تمدّ الرَّدى بالدموع ؟

***

ما نفضتُ الندى عن ذرى العشب فيها

جيكور 2/ 4/ 1962

احتراق

وحتى أصهرُ جسمَكِ الحجريّ في ناري

وأنزع من يديكِ الثلج ، تبقى بينَ عينينا

صحاري من ثلوج تُنهك الساري ،

كأنك تنظرين إليَّ من سُدُمٍ وأقمارِ ،

كأنَّا ، منذ كنَّا ، في انتظارٍ ما تلاقينْا

ولكنّ انتظار الحبّ لُقيا .. أين لقيانا ؟

تمزقَ جسمُك العاري ..

تمزقَ ، تحتَ سقْفِ الليل ، نَهْدُكِ بين أظفاري ..

تمزقَ كل شيءٍ من لهيبي ، غيرَ أستارِ

تحجِّبُ فيك ما أهواه

كأنِّي أشرب الدمَ منك ملْحًا ، ظلّ عطشانًا

مَنْ استسْقاه . أين هواك ؟ أين فؤادك العاري ؟

أسدّ عليك بابَ الليل ثمَ أُعانقُ البابا

فألثمُ فيه ظلِّي ، ذكرياتي ، بعض أسراري ..

وأبحثُ عنك في ناري

فلا ألقاك ، لا ألقى رمادك في اللَّظى الواري

سأقذف كل نفسي في لظاها ، كلَّ ما غابا

وما حضرا

أريدُك فاقتليني كي أُحِسّكِ .

واقتلعي الحجرا

بفيض دمٍ ، بنارٍ منك .. واحترقي بلا نارِ ؟

بيروت 26/ 10/ 1961

سهر

سهرتُ فكل شيءٍ ساهرٌ : قدماي والمصباحْ

وأوراقي

أنا الماضي الذي سدّوا عليه البابَ ، فالألواح

غدي والحاضر الباقي

أنا الغد في ضمير الليل ، مدّ الليل ألفّ جناح

عليه ، فطار ، لما طار ، بالظلماء والشّهْب

أصخْتُ السّمعَ والظلماءُ حولي بوقُ سياره

يبثَ إلى البغيِّ رسالة الحبِّ

ويومئ للسكارى : أن تعالوا ، ألفُ خمَّلوه

تكشر ، تفرج الساقين ، تقطع نَومةَ الدرب

بوَهوَهةِ النيون

أصخبتُ والظلماء صفارة

وخطوة حارس ..

فذكرت نهر القرية المكسالْ

يسيل لكي يعيش ، لكي يموت ، يمصَّه الجزْر

فيعرى جرفه الطيني حتى يُقبلَّ الفجرُ

فيحمل في سناه المدّ ، يحمل زورقًا يختال

بصياد يُعد شباكه ويرود في الماء

مساربِ كلِّ ناعسةٍ من الأسماكِ خضراءِ

ذكريات مقابر الأطفال

تلوذ بكلُ سفحٍ ، نام فيها دون أثداء

ولا قُمُطٍ ، صغارٌ من حصاد الجوع والداء

لقد رضعوا من الثدي الذي لم تُبله الأجيالْ

وناموا في حمى الأمِّ التي لا يستوي الأطفال

ولا الأشياءُ إلا في حماها ، في حمى تَرَبٍ وظلماءِ

سهرت الليل في بيروت ، لا بين المواخيرِ

(كهوف العالم المتحضِّر المغسول بالنور)

هنا يتو كأون على العظام ليصعدوا أفقًا من النشوة ،

لينحدروا إلى فجوه

تثاءب ظلُّها وأصيلها بين الدياجير

وبين منابع الأضواءْ ،

تثاءب ظلّها وأصيلُها بين العقارب والسنانير

وبين المُسرج الظلماء

والممتدِّ حتى الله في القدْس وفي سيناء

سهرت يرنّ صور الموت في أذنيَّ كالزلزالْ :

« تهدم حائط الأجيال

وكاد يغور إذ لمسته كفيّ ، ألفُ نوحٍ زالْ

وألفُ زليخةٍ صيَّرتُ كحلَ عيونها ظُلْمة

أنا الباقي بقاء الله أكتب باسمه الآجال

وما لسواه عند مطارق الآجال من حُرمه »

هنا في كلِّ موتٍ ألفُ موتٍ : كان في الضمّه

وفي القبلات ، في الأقداح ،

تدور الإسطوانةُ وهو فيها لمعةُ الضَّوْءِ

يوَسوِسُ في تهدّج صوتِها فيُخادع الأرواح ،

ويلمس جبهةَ الملاَّح في النّوءِ

سهرتُ لأنني أدري

بأني لن أقبِّل ذات يوم وجنةَ الفجْرِ

سيُقبْل مطلقًا في كل عشٍّ نغمةً وجناح

وسوف أكون في قبري

بيروت 15/ 4/ 1962

***

الوصية

من مرضي ،

من السرير الأبيضِ

من جاري أنهار على فراشه وحشرجا

يمصّ من زجاجة أنفاسَه المصفَّره ،

من حُلُمي الذي يمدّ لي طريق المقبره

والقمرَ الريضَ والدجى ..

أكتبها وصيَّةً لزوجتي المنتظره

وطفليَ الصارخ في رقاده : « أبي ، أبي » ،

تلم في حروفها من عُمْريَ المعذَّبِ

لو أنَّ عوليسَ وقد عاد إلى دياره

صاحتْ به الآلهةُ الحاقدةُ المدمِّره

أن ينشرَ الشراع ، أن يضلَّ في بحاره

دون يقين أن يعود في غدٍ لداره ،

ما خضَّه النذيرُ والهواجسُ

كما تخضَّ نفسيَ الهواجسُ المبعثرة ،

اليوم ما على الضمير من حياء حارسُ :

أخافُ من ضبابةٍ صفراءِ

تنبع من دمائي

تلفني فما أرى على المدى سواها

أكاد من ذلك لا أراها ،

يقصُّ جسميَ الذليل مِبْضَعُ

كأنه يقصَّ طينةً بدون ماءِ

ولا أُحسّ غير هبَّةٍ من النسيم ترفعُ

من طرَف الستائر الضَّبابِ

ليقطرَ الظلامُ ، لستُ أسمعَ

سوى رعودٍ رنَّ في اليباب

منها صديٌّ وذاب في الهواءِ ..

أخاف من ضبابةٍ صفراءِ !

أخاف أن أزْلقَ من غيبوبة التخديرِ

إلى بحار ما لها من مرسى

وما استطاع سِندباد حين أمسى

فيهنَّ أن يعودَ للعودِ وللشراب والزهور ،

صباحها ظلامْ

وليْلُها من صخرة سوداء

من ظلّ غيْبوبتي المسجور

إلى دجى الحِمامْ

ليس سوى انتقالة الهواء ،

من رئةٍ تغفو ، إلى الفضاء

أخاف أن أُحس بالمبضع حين يجرحُ

فأستغيث صامتَ النِّداءِ

أصيح لا يردّ لي عوائي

سوى دم من الوريد ينْضَحُ

وكيف لو أفقتُ من رقادي المخدَّرِ

على صدى الصور ، على القيامة الصغيره :

يحمل كلَّ ميِّتٍ ضميرَه

يشعُّ خلف الكفن المدثرِ ،

يسوق عزرائيل من جموعنا الصَّفر إلى جزيرة

قاحلة يقهقه الجليدُ فيها ،

يصفر الهواء في عظامنا ويبكي

ماذا لو أنَّ الموْتَ ليس بعده من صَحْوَة ،

فهو ظلامٌ عَدَمٌ ، ما فيه من حسٍّ ولا شعور !

أكل ذاك الأنْسِ ، تلك الشقْوه

والطمع الحافرِ في الضمير

والأمل الخالق من توثُّبِ الصغيرِ

ألفَ أبي زيدٍ تفور الرغْوَه

من خيله الحمراء كالهجير ..

أكلّها لهذه النهايه ؟

تُرى الحِمامُ للحياة غايه ؟

***

إقبالُ يا زوجتي الحبيبة

لا تعذليني ما المنايا بيدي

ولستُ ، لو نجوْتُ ، بالمخلّدِ

كوني لغيلان رضيً وطِيبه

كوني له أبًا وأمًا وارحمي نحيبه

وعلَّميه أن يُذيلَ القلب لليتيم والفقير

وعلميه ..

ظُلْمةُ النعاس

أهدابُها تمس من عيوني الغريبه

في البلد الغريب ، في سريري

فترفع اللهيب عن ضميري ..

لا تحزني إن مت أي باس

أن يُحْطَمَ الناي ويبقى لحنه حتى غدي

لا تبعدي

لا تبعدي

لا ...

بيروت 19/ 4/ 1962

***



بدر شاكر السياب

(٩)

مَنْزِلُ الأقنَان

رحل النهار

رحل النهار

ها إنه انطفأت ذبالتهُ على أفقٍ توهَّج دون نار

جلستِ تنتظرين عودة سندباد من السِّفار

والبحرُ يصرخ من روائك بالعواصف والرعود

هو لن يعود

أو ما علمتِ بأنه أسرتهْ آلهةُ البحار

في قلعةٍ سوداء في جزرٍ من الدمِ والمحار

هو لن يعود ،

رحل النهار

فلترحلي ، هو لن يعود

الأفقُ غابات من السحب الثقيلة والرعود ،

الموتُ من أثمارهنّ وبعض أرمدة النهار

الموتُ من أمطارهنّ وبعض أرمدة النهار

الخوف من ألوانهنّ وبعض أرمدة النهار

رحل النهار

رحل النهار

وكأنّ معصمكِ اليسار

وكأنّ ساعدك اليسار ، وراء ساعته ، فنار

في شاطئ للموت يحلم بالسفين على انتظار

رحل النهار

هيهات أن يقف الزمان ، تمر حتى باللحودِ

خطى الزمان وبالحجار

رحل النهار ولن يعود

الأفق غابات من السحب الثقيلة والرعود

الموتُ من أثمارهنّ وبعض أرمدة النهار

الموتُ من أمطارهنّ وبعض أرمدة النهار

الخوف من ألوانهنّ وبعض أرمدة النهار

رحل النهار

رحل النهار

خصلات شعرك لم يَصُنْها سندباد من الدمار ،

شربتْ أجاج الماء حتى شاب أشقرها وغار

ورسائل الحب الكثار

مبتلة بالماء منطمس بها ألق الوعود

وجلستِ تنتظرين هائمة الخواطر في دوار :

« سيعود . لا . غرق السفين من المحيط إلى القرار

سيعود . لا . حجزته صارخة العواصف في إسار

يا سندباد ، أما تعود ؟

كاد الشباب يزول ، تنطفئ الزنابقُ في الخدود

فمتى تعود؟

أوّاه ، مدَّ يديك بين القلب عالمه الجديد

بهما ويَحْطم عالم الدم والأظافر والسعار ،

يبني ولم لهنية دنياه

آه متى تعود ؟

أترى ستعرف ما سيعرف ما سيعرف ، كلّما انطفأ النهار ،

سمتُ الأصابع من بروق الغيب في ظلم الوجود ؟

دعني لآخذ قبضَتَيْك ، كماء ثلج في انهمار

من حيثما وجهّت طرفي .. ماء ثلج في انهمار

في راحتيّ يسيل ، في قلبي يصبّ إلى القرار

يا طالما بهما حلمتُ كزهرتين على غدير

تتفتّحان على متاهة عزلتي

رحل النهار

والبحر متَسع وخاوٍ . لا غناء سوى الهدير

وما يبين سوى شراعٍ رنّحته العاصفات ، وما يطير

إلا فؤادك فوق سطح الماء يخفق في انتظار

رحل النهار

فلترحلي ، رحل النهار

بيروت 27/ 6/ 1962

***

هدير البصر والأشواق

هدير البحر يفتل من دمائي ، من شراييني

حبال سفينةٍ بيضاء ينعس فوقها القمر

ويُرعش ظلها السحر

ومن شبّاكيَ المفتوح تهمس بي وتأتيني

سماء الصيف خلف طيفه في صحوها المطر

ونحن نسير ، والدنيا تسير وتقرع الأبواب

فتوقظ من رؤاه القلب : ذاك عدوك الزمن

تدور رحاه .. كم ستظلّ تخفق؟ ها هم الأصحاب

تراب منه تمتلئ الدروب وتشرب الدمن !

يودُّ القلبُ لو حطَمته ، لو حطمتْ خفقاتِهِ شفتيكِ

والكتفين والصدرا ،

ولو ذرتك من زفراتي الحرّى

رياح الوجد والحرمان . والهفي على عينيكِ

ليتهما تمران

بدمع أو بإشفاق على صحراء حرماني

لينبت في مداها الزهر . ليتهما تمرّان ،

بما نسج التأمل من غيوم فيهما حيرى

بما نسج التفرد من نجومٍ فيهما سكرى ،

على عمري الذي عرّاه من زهراته الداءُ

يود القلب لو حطمته لو حطمتْ خفقاته شفتيك

والكتفين والصدرا

ولو عرّاكِ ، لو ذرّاكِ ، لو أكلتكِ أشواقي

ولو أصبحَتِ خفقًا أو دماءً فيه أو سرًا

فإن أحببتك الحب الذي أقسى من الموت

وأعنف من لظى البركان والحب الذي يأتي

إليّ كأنَّ نفخ الصور فيه ، فكل ذر الميتين دمٌ وأحياء

فذاك لأنك النور الذي عرّى دجى الأعمى

وأنت صباي عاد إليَّ ، أختًا عاد أو أمًا

وأنت حبيبتي ، أفديك ، أفدي خفق جفنيك

وما نفضا من السحب

وأفدي خفق نهديكِ

على قلبي !

بيروت 1/ 7/ 1962

***

نداء الموت

يمدّون أعناقهم من ألوف القبور يصيحون بي : أن تعال ،

نداء يشق العروق ، يهزّ المشاش ، يبعثر قلبي رمادا

« أصيل هنا مُشْعَل في الظلال

تعال اشتعل فيه حتى الزوال »

جدودي وآبائي الأولون سراب على حد جفني تهادى

وبي جذورة من حريق الحياة تريد المحال

وغيلان يدعو « أبي سرْ ، فإني على الدرب ماشٍ أريد الصباح »

وتدعو من القبر أمّي « بنيّ احتضنِّي فبرد الردى في عروقي

فَدَفِّئ عظامي بما قد كسوتُ ذراعيك والصدر ، واحمِ الجراح

جراحي بقلبك أو مقلتيك ولا تحرفنّ الخطى عن طريقي

ولا شيء إلا إلى الموت يدعو ويصرخ ، فيما يزول ،

خريف ، شتاء ، أصيل ، أفولْ

وباقٍ هو الليلُ بعد انطفاء البروق

وباقٍ هو الموت ، أبقى وأخلد من كل ما في الحياه

فيا قبرها أفتح ذراعيك ..

إني لآتٍ بلا ضجّةٍ ، دون آه !

بيروت 3/ 5/ 1962

***

ربيع الجزائر

سلامًا بلاد اللظى والخراب

ومأوى اليتامى وأرض القبور ،

أتى الغيث وانحل عقد السحاب

فروى ثرى جائعًا للبذور

وذاب الجناح الحديد

على حمرة الفجر تغسل في كل ركن بقايا شهيد

وتبحث عن ظامئاتٍ الجذور

وما عاد صبحك نارًا تقعقع غضبي وتزرع ليلاً

وأشلاء قتلى

وتنفث قابيل في كل نارٍ يسفّ الصديد

وأصبحتِ في هدأة تسمعين نافورةً من هتاف

لديكِ يبشّر أن الدجى قد تولى

وأصبحت تستقبلين الصباح المطلا

بتكبيرةٍ من ألوف المآذن كانت تخاف

فتأوي إلى عاريات الجبالِ

تبرقع أصداءها بالرمالِ

***

بماذا ستستقبلين الربيع ؟

ببقيا من الأعظم الباليه

لها شعلة رشت الداليه ،

تعير العناقيد لون النجيع

وفي جانبي كل درب حزين

عيون تحدّق ، تحت الثرى

تحدّق في عورة العاجزين

لو تستطيع الكلام

لصبّت على الظالمين

حميمًا من اللعنات ، من العار ، من كل غيظ دفين

ربيعك يمضغ قَيْحَ السلام

***

بيوتك تبقى طوال المساء

مفتّحةً فيك أبوابها

لعل المجاهد بعد انطفاء اللهيب وبعد النوى والعناء

يعود إلى الدار يدفن تحت الغطاء

جراحًا ، يفرّ إليه الصغار ترفرف أثوابها

يصيحون « بابا » فيُفطر قلب المساء

ـ « وماذا حملتَ لنا من هدّية ؟ »

ـ « غدًا ضاحكًا أطلعتْه الدماء »

وكم دارةٍ في أقاصي الدروب القصيّة

مفتّحة الباب ، تقرعه الريح في آخر الليل قرعًا

فتخرج أم الصغار

ومصباحها في يدٍ أرعش الوجد منها ،

يرود الدجى ، ما أنار

سوى الدرب قفر المدى ، وهي تصغي وترهف سمعًا

وما تحمل الريح إلا نباح الكلاب البعيد ،

فتُخفت مصباحها من جديد

« ولمّا استرحنا بكيْنا الرفاق ! »

هماس لأنبييس [224] عبر القرون

وها أنتِ تدمع فيك العيون

وتبكين قتلاك

نامت وغىً فاستفاق

بكِ الحزنُ : عاد اليتامى يتامى ،

ردىً عاد ما ظُنّ يومًا فراق

سلامًا بلاد الثكالى ، بلاد الأيامى

سلامًا

سلامًا ..

بيروت 7/ 6/ 1962

***

(224) بطل « الإنياده » لفرجيل [70-19ق م] ، أعظم شعراء الرومان .

خذيني

خذيني أطرْ في أعالي السماء

صدى غنوةٍ ، كركرات ، سحابه !

خذيني فإن صخور الكآبة

تشدّ بروحي إلى قاع بحرٍ بعيد القرارِ

خذيني أكن في دجاك الضياء

ولا تتركيني لليلِ القفارِ

إذا شئتِ ألا تكوني لناري

وقودًا ، فكوني حريقًا

إذا شئتِ أن تخلُصي من إساري ،

فلا تتركيني طليقًا

خذيني إلى صدرك المثقل

بهمِّ السنين

خذيني فإني حزين

ولا تتركيني على الدرب وحدي أسير إلى المجهلَ

وكانت دروبي خيوط اشتياق

ووجدٍ وحبٍّ

إلى منزلٍ في العراق

تضيء نوافذه ليل قلبي ،

إلى زوجةٍ كان فيها هنائي

وكانت سمائي

كواكبها ترسم الدرب ، دربي

وهبّت عليها رياح سموم

تبعثر خيطان تلك الدروب البعيدة ،

فعادت جذىً كل تلك النحوم

صُلبتُ عليها ، وعادت مسامير نعشِ

وعادت دروبي دربًا إذا جئت أمشي

رماني إليك ، كوزنٍ يقود القصيده

فو لهف قلبي عليكِ !

ودرب رماني إليكِ !

أما تعلمين بأني تشهَّيتُك البارحة

أشم رداءكِ حتى كأني

سجين يعود إلى داره يتنشَّق جدرانها :

هنا صدرها ، قلبها كان يخفق - كان التمني

يدغدغه ، يُشعل الشوق فيه إلى غيمةٍ رائحه

لأرض الحبيب : ستنضح أركانها

بذوب نداها

تشهَّيتك البارحه

فقبَّلت ردن الرداء : هنا ساعداها ،

هنا إبطها ، يا لكهف الخيالْ

ومرفأ ثغري إذالا جرفتْه رياح ابتهال

ودحرجه مدُّ شوقٍ ملحٍّ ، وقد حار فيه السؤال :

« تحبينني أنتِ ؟ هل تخجلين ؟

أم استنزفت شوقك الكبرياء

فلم يبق إلا ابتسام الرثاء ؟

أترثين لي أم ترى تشفقين

على قلبك انهدّ تحت الصليب المعلَّق في صخرة الكبرياء ؟ »

نباح الكلاب المبعثر في وشوشات النخيل

ينبِّه في قلبي الذكريات العتاق

ويربط دقات قلبي بأرض العراق

لأسمع « بابا » فيطفأ حبي وتبرد نار الغليل

وأعدو على الدرب سدّت خطاي عليه

نوافذ بيتي تجمَّد فيها الضياء

تغربتُ عنه وعدتُ إليهِ

بيروت 3/ 7/ 1962

***

حامل الخرز الملون

ماذا حملت لها سوى الخرز الملون والضباب ؟

ما خضتَ في ظلمات بحر أو فتحت كوى الصخور

والريح ما خطفت قلوعك ، والسحاب

ما بل ثوبك ، ما حملتَ لها سوى الدم والعذاب

في سجنها هي ، خلف سور

في سجنها هي ، وهو من ألمٍ وفقر واغتراب

عشر من السنوات مرّت وهي تجلس في ارتقاب :

أطفالها المتوثبون مع الصباح

صمتوا وكفُّوا عن مراح ،

زجرتهمُ لتُحسّ وقع خطاك . برعمت الزهور

وأتى الربيع وما أتيت ، وجاء صيفٌ ثم راح

ماذا يعيقك في سواحل نائيات؟ في قصور

قفر يعيش الغول فيها ، كلما رمت الرياح

بحطام صاريةٍ تحفز؟ ما يعيقك عن رجوع ؟

لم تبق للغد من دموع

في مقلتيها ، لا ولم يبق ابتسامٌ للِّقاء !

ستعود ، حين تعود ، بالخرز الملوَّن والهباء ،

ستضم منها طيف أمس ، فلا يُجيبك في الضلوع

منها سوى دمك المفجَّع والخواء !

بيروت 9/ 5/ 1962

***

سفر أيوب

-1-

لك الحمد مهما استطال البلاءْ

ومهما ستبدَّ الألمْ ،

لك الحمد ، أن الرزايا عطاء

وأن المصيبات بعضُ الكَرَمْ

ألم تُعطني أنت هذا الظلامْ

وأعطيتني أنت هذا السَّحَرْ ؟

فهل تشكر الأرض قَطْرَ المطر

وتغضبُ إن لم يَجُدْها الغمام ؟

شهورٌ طوالٌ وهذي الجراحْ

تمزِّق جنبيَّ مثلَ المُدى

ولا يهدأ الداءُ عند الصباح

ولا يمسح اللَّيْلُ أوجاعه بالردى

ولكنَّ أَيُّوبَ إن صاح صاح :

« لك الحمدُ ، أن الرزايا ندى ،

وإن الجراح هدايا الحبيبْ

أضَمُّ إلى الصَّدرْ باقاتِها ،

هداياك في خافقي لا تغيب

هداياك مقبولةٌ . هاتها !

أشدّ جراحي وأهتف بالعائدينْ :

« ألا فانظروا واحسدوني ، فهذي هدايا حبيبي

وإن مسَّت النارُ حُرَّ الجبين

توهَّمْتُها قُبلةً منكَ مجبولةً من لهيبِ

جميلٌ هو السُّهدُ أرعى سماكَ

بعينيَّ حتى تغيبَ النجومْ

ويلمسَ شبَّاكَ داري سناكْ

جميل هو الليل : أصداء بوم

وأبواقُ سيارةٍ من بعيد

وآهاتُ مرضى ، وأم تُعيد

أساطيرَ آبائها للوليد

وغاباتُ ليل السُّهاد ، الغيوم

تحجِّبُ وَجْهَ السماء

وتجلوه تحت القمر

وإن صاح أيُّوبُ كان النداءْ :

« لك الحمد يا راميًا بالقَدَرْ

ويا كاتبًا ، بَعْدَ ذاكَ ، الشِّفاه ! »

لندن 26/ 12/ 1962

سفر أيوب (2)

من خَلَلِ الثلج الذي تنثّه السماءْ

من خَلَلَ الضباب والمطَرْ

ألمح عينيكْ تشعَّان بلا انتهاء

شعاعَ كوكب يغيب ساعةَ السَّحَرْ

وتقطران الدمعَ في سكونْ

كأنَّ أهدابهما غصون

تنطف بالندى مع الصباح في شتاء

من خلل الدّخانِ والمداخن الضخام

تمجّ من مغارِ قابيلَ على الدروب والشَّجَرْ

ذرا من النجيع والضّرام

أسمع غيْلانَ يناديكِ من الظلام

من نوْمهِ اليتيم في خرائب الضجرْ

سمعتِ كيف دق بابَنا القَدَر ؟

فارتعَشَتْ على ارتجاف قرْعِهِ ضلوعْ ؟

ورقْرقتْ دموع

فاختلس المسافرُ الوداعَ وانحدر ؟

***

وقبلةٍ بين فمي وخافقي تُحار

كأنها التائه في القفار

كأنها الطائرُ إذْ خرَّب عشَّه الرياح والمطرْ ،

لم يحوها خدّ لَغْيلانَ ولا جبينْ

ووجْه غيلانَ الذي غابَ عن المطار !!

وأنتِ إِذْ وقفتِ في المدى تُلوِّحين !!

إقبالُ .. إنَّ في دمي لوجهك انتظار ،

وفي يدي دمٌ ، إليكِ شدّةُ الحنينْ

ليتكِ تُقبْلين

من خَلَلِ الثلج الذي تنثّه السماء ،

من خَلَلَ الضباب والمطر !

لندن 27/ 12/

سفر أيوب (3)

بعيدًا عنك ، في جيكور ، عن بيتي وأطفالي

تشدُّ مخالبُ الصَّوانِ والأسْفلتِ والضَّجَرِ

على قلبي ، تُمزِّق ما تبقَّى فيه من وترِ

يدّندنُ : « يا سكون الليل ، يا أنشودةَ المطَر » ،

تشدُّ مخالبُ المالِ

على بطني الذي ما مَرَّ فيه الزادُ من دَهَرٍ

عيون الجوع والوحده

نجومي في دجىً صارعتُ بين وحوشه بَرْدَه ،

وإن البرد أفظعُ ، لا .. كأنَّ الجوعَ أفظع ، لا .. فإِنَّ الداءْ

يَشلُّ خطاي ، يربطُها إلى دوامةِ القَدَر

ولولا الداء صارعتُ الطَوى والبرد والظَلَماء

بعيدًا عنكِ أشعر أنني قد ضعت في الزحمه

وبين نواجذ الفولاذ تمضغ أضلعي لُقْمه

يمرُّ بي الورى متراكضين كأنْ على سَفَرِ ،

فهل أستوقف الخطواتِ ؟ أصرخُ : « أيها الإنسان

أخي ، يا أنتَ ، يا قابيلُ .. خُذْ بيدي على الغُمَّه !

أعنِّي ، خفِّف الآلام عني واطرد الأحزان ؟ »

وأين سواكِ من أدعوه بين مقابر الحَجَر ؟

***

ولولا الداء ما فارقتُ داري ، يا سنا داري

وأحلى ما لقيتُ على خريف العُمْر من ثَمَر

هنا لا طيرَ في الأغصان تشدو غيرَ أطيارِ

من الفولاذ تهدر أو تُحمحِمُ دونما خوفٍ من المطرِ

ولا أزهارَ إلا خَلْفَ واجهةٍ زجاجيَّه

يُراح إلى المقابر والسجون بهنَّ والمستشفيات

ألا .. ألا يا بائعَ الزَهَرِ

أعندك زهرةٌ حيَّه ؟

أعندك زهرةٌ مما يربَّ القلبُ من حُبٍّ وأهواءٍ ؟

أعندكَ وردةٌ حمراء سقَّتها شموسٌ استوائيّه ؟

***

أأصرخُ في شوارع لندنَ الصَّماءِ : « هاتوا لي أحبائي ؟»

ولو أني صرختُ فمن يُجيب صرَاخَ منتحِرِ

تمرّ عليه طولَ الليلِ آلافٌ من القُطُرِ ؟

لندن 28/ 12/ 1962

سفر أيوب (4)

يا ربَّ أيُّوبَ قد أعيا به الداءُ

في غربةٍ دونما مالٍ ولا سَكَنِ ،

يدعوك في الدُّجَنِ

يدعوك في ظَلَموتَ الموت : أعباءُ

نادَ الفؤاد بها ، فارحمه إن هتفا

يا منجيًا فُلْكَ نوحٍ مزِّق السُّدَفا

عني . أعدني إلى داري ، إلى وطني !

***

أطفالُ أيّوب من يرعاهم الآنا ؟

ضاعوا ضياع اليتامى في دجى شاتِ

يا رب أرجع على أيُّوب ما كانا :

جيكور والشمسَ والأطفال راكضةً بين النّخَيْلات

وزوجَه تتمرَّى وهي تبتسمُ

أو ترقبُ البابَ ، تعدو كلَّما قُرِعا :

لعلّه رجعا

مشّاءة دون عُكَّازٍ به القَدَمُ !

***

في لندنَ الليلُ مَوْتٌ نزْعُهُ السَّهَرُ

والبرْدُ والضَّجرُ

وغُرْبةٌ في سواد القلب سوداءُ

يارب يا ليتَ أنِّي لي إلى وطني

عوْدٌ لتلثمني بالشمس أجواءُ

منها تنفستُ روحي : طينها بَدني

وماؤها الدمُ في الأعراق ينحدر

يا ليْتَني بَيْن مَن في تُربها قُبروا

***

لأنّه منك ، حُلوٌ عنديَ المَرَضُ ،

حاشا ، فلستُ على ما شئتَ أعترضُ

والمال ؟ رزقٌ سيأتي منه موْفور ،

هيهات أن يذكر الموتى وقد نهضوا

من رقدةِ الموت كم مصّ الدماءَ بها دودٌ ومدّ بساطَ الثلج ديْجورُ !

إني سأشفى ، سأنسى كلَّ ما جَرَحا

قلبي ، وعرّى عظامي فهي راعشةٌ والليل مقرور

وسوف أمشي إلى جيكور ذات ضُحى !

لندن 29/ 12/ 1962

سفر أيوب (5)

نازلاً نازلاً من صحاري السماءْ ،

من عصور جليديّةٍ ، من قبور

نام فيها الهواء

أيُّها الثلج ، يا حشرجات الدهور

وانتحاب المساكين في كل كهفٍ يغور

في جبالٍ السنينْ ،

كن لهيبًا على أوجه العابرين ،

قنِّع الخوفَ فيها بلون الرجاء

***

أيها الثلج رحماكَ ، إني غريب

في بلاد من البرد والجوع سكرى ،

إن لي منزلاً في العراق الحبيب

صبيتي فيه تعلك صخرا

آه لولاك يا داءُ ما عفتُ داري ،

ما تركت الزهور التي فتَّحتْ في جداري

والعصافيرَ في ركن بيتي لهنّ اختصامُ

مرّ يومٌ ، فشهرٌ ، فشهر ، فعامُ

***

والزمان ارتماءٌ بدون انتهاءْ

تزفر الأرض عنه وتبكي السماء

ربِّ ، هل لي إلى منزلي من رجوع؟

كم أمدّ الذراع وأهدم سقفَ الضلوع

لا أمسّ المدى أو أصيبُ الزمانا ،

فهو شيء على الروح يسعى : هباءٌ وظلْمه

ليتَ عصرَ النبوّات لم يطوِ حُلمه ..

وشّتِ المعجزاتُ الحواشي فكانت وكنا

***

ليتني العازرُ انْفِضّ عنه الحِمامْ ،

يسلك الدربَ عند الغروبْ ،

يتمهَّلُ لا يقرع الباب : من ذا يؤوب

من سراديبَ للموت عبر الظلام ؟

لن تصدِّق أنّي .. ستهوي يداها

عن رتاجٍ ، وتصفرُّ لي وجنتاها

ثم تركض مذعورةً ، تشدّ بخيْط الدروب

نحو قبري ، وتطويه حتى تمسَّ الضريحَ الحُطام

***

إيه إقبال ، لا تيْأسي من رجوعي

هاتفًا قبل أن أقرع الباب : عادا

عازرٌ من بلاد الدجى والدموع ،

سورُها كان ملْحًا ، نجيعًا ، رمادًا

قبليني على جبهةٍ صكّها الموْتُ صكًّا أليمًا ،

حدّقي في عيونٍ شهدن الردى والمعادا

عدتُ . لن أبرح الدار حتى لو أنّ النجوما

دحْرجت سُلمًا من ضياء وقالت :

تخطّ السديما

لندن 31/ 12/ 1962

سفر أيوب (6)

خيالُ الجسَدِ العاري

يُطلّ عليّ محمولاً على موْجٍ من النارِ

من المدفأة الحمراءِ ، ذاك الرّحِمِ الضَاري

***

لكلّ تقلّبِ من موْجها خفْقٌ من القلب

تدحرجِ : عُرِّي النهدان ، بانَ الجيدُ والساقُ ،

تدحرجِ لي على الجنبِ ،

تدحرج ثم صكّ أضالعي ، وتُثار أعراقُ

ويطفر للجبين دمٌ ، ويعروني

دُوارٌ منه تصطكُّ النواجذُ : خَوْفَ بحّارِ

يُطلّ فيُبصر التَيار يزفر مثل تنين

ويصرخ آدمُ المدفونُ فيَّ : رضيتُ بالعار ،

بطرْدي من جنان الخُلْدِ اركض إِثْرَ حوَّاءَا

أريدك ، يا سرابًا في خيالي ليسَ يسقيني ،

أريدكَ ، ثم تُطوى موْجةٌ وتطير أشلاءا

فقاعاتٌ من النيران ، من شوْقٍ وتذكارِ

***

وجاء الجسدُ العاري ،

خيالاً جاء محمولاً على موْجٍ من النارِ

من المدفأةِ الحمراء ، ذاك الرَّحِمِ الضاري

***

يميل عليّ كيف أشاءُ ، أعصره كما أهوى ،

ولا يقوى

على رفضي ، على تهديم عَرْشٍ من لظىً وارِ

أتوِّج فوقه الآمال راعشةً القوى شهوى

بحار بيننا : ليْلان من مُدُن وأمطارِ ،

وإنّك منكِ أقربُ ، أنتِ بعضُ دمي ،

خيالي أنتِ ، أمنيّات عمري .. كل أمنيّه

بعاطفتي تُحرَّكُ لا عواطفك الأنانيَّه

علام مددت بحْرًا بيننا ، دنيا جليديَّه

أعانقُ في دجَاها جسمَكِ العاري

يطلُّ عليَّ محمولاً على مَوْجٍ من النارِ

من المدفأة الحمراءِ ، من وهمي وأفكاري

لندن 31/ 12/ 1962

سفر أيوب (7)

البرْدُ وهَسْهَسَةُ النارِ

ورماد المدفأة الرّمْلُ

تطويه قوافل أفكاري

أنا وحدي يأكلني الليْلُ

***

ويخبّ المركب إلى داري :

برقٌ يتلامح في الآفاق ، يعرِّيها

ويُذريها

كرماد المبخرة الثكلى

في مقبرة تهب الليلا

ألوان الموت وآهات الموتى فيها

***

يا ليل ، لكم طال الدّربُ

تعب الركبُ ،

وعراقي شطٌّ ، وسمّاري

ناموا . وبقيتُ ولا زادٌ

عندي ، وظمئتُ ولا ماءُ ، ظمئ القلبُ :

لا سقيا غير شظيّات البرق الواري

يا أغصانَ الليل انهمري ثمرًا إذ يؤكل يزدادُ

السلّةُ منه سأملأها حتّى إن عدتُ إلى داري

فرحَ الأطفالُ به ، هتفوا : « بابا .. »

يا برق ، أما تخبو

فيغيبَ الدربُ ، ولا يبدو

كم منه على السري بَعْدُ !

***

البرد وهسهسةُ النارِ

ورماد المدفأة الرّمْلُ

تطويه قوافل أفكاري

أنا وحدي يأكلني الليْلُ !

لندن 1/ 2/ 1963

سفر أيوب (8)

ذكرتُك يا لميعةُ والدجى ثلجٌ وأمطارُ ،

ولندنُ مات فيها الليل ، مات تنفسُ النورِ

رأيتُ شبيهةً لك شعرها ظُلَمٌ وأنهارُ ،

وعيناها كينبوعين في غابٍ من الحورِ

مريضًا كنت تثقل كاهلي والظهر أحجارُ ،

أحِنُّ لريفِ جيكورِ

وأحلم بالعراق : وراءَ باب سدّت الظلماءْ

بابًا منه والبحر المزمجرُ قام كالسورِ

على دربي

وفي قلبي

وساوسُ مظلمات غابت الأشياء

وراء حجابهنّ وجفَّ فيها منبع النورِ

ذكرتُ الطلعةَ السمراءْ ،

ذكرتُ يديْك ترتجفان من فرقٍ ومن برد

تنزُّ به صحاري للفراق تسوطُها الأنواء

ذكرتُ شحوب وجهكِ حين زمَّرَ بوقُ سيَّاره

ليؤذَنَ بالوداع . ذكرتُ لذْع الدمع في خدّي

ورعشةَ خافقي وأنينَ روحي يملأ الحاره

بأصداء المقابر . والدجى ثلجٌ وأمطار

لندن 2/ 1/ 1963

سفر أيوب (٩)

بالعضل المفتول والسواعد المجدوله

هِرَقْلُ صارع الردى في غاره المحجّبِ

بظلمةٍ من طحلب

وقام تموزُ بجرح فاغرٍ مخضّبٍ

يصك (مَوْتَ) صكّةً ، محجّبًا ذيوله

وخطْوَهُ الجليدَ بالشقيق والزنابقِ

وانخطف الموتُ عليّ كانخطاف الباشقِ

على العصافير ، أحال ظهري

عمود ملْحٍ أو عمود جمرٍ ،

أحرّك الأطراف لا تطيعني ، مشلوله ،

مات الدم الفوّار فيها ، أُطفئَ الشبابُ ،

وامتدّ نحو القبْر دَرْبٌ ، بابُ

من خشب الصليب : فالمسيحُ

ماتَ ، وفي الطوفان ضلّ نوح

وأغضيتْ نواظري الذليله ..

لعلّها تعتاد من دجاها

على دُجىً غطاؤها الضريح

***

أيّ سلاح ؟ آه ، أيّ ساعِد ؟

أيّةُ أزهارٍ تمدُّ فاها

لتأكل الموت ؟ وأيّ ناصرٍ مساعدِ ؟

سللتُ من قصائدي

سيْفًا كأن البرْقَ حدّادُ رمى أصوله

وصبّ مقبضًا له وشفره

بالشعر ، بالمبرق ، بالمُجلْجلِ المدوّي

رميتُ وجه يهوي نحوي

كأنه الستار في روايةٍ هزيله ،

رميت وجهَ الموت ألف مرّه

إذا أطلّ وجهه البغيضُ

كأنه السيرين [225]، يسعى جسميَ المريضُ

نحو ذراعيْه بلا تردُّد

فأنتضي من سيفيَ المجَرّد ،

ويقطر الشِّعْرُ ولا يغيضُ ،

---

(225) السيرين : في الأوذيسة ، حوريات بحر تتمتع بصوت ساحر ، تغني فتجذب إليها من يسمعها . وهن بنات النهر أخيلؤوس ، وربة الفنون . وذكر منهن ثلاث : بارثينوبا ، وليوكازيا ، وليجيا .

لأنني مريضُ ،

أودع الحياةَ أو أشُدّ بالحياةِ

بخيْطه الموروث عن أمواتِ

لم يدفع الشِّعْرُ مناياهم وقد جاءت إليهم غيله !

1963/1/2

سفر أيوب (10)

يا غيمةً في أوّل الصباحْ

تعربد الرياح

من حولها ، تنتفُ من خيوطها ، تطير

بها إلى سماوة تجوع للحرير ،

سنطوي الجناح ،

ستَنتِفُ الرياح ريشَهُ مع الغروب ،

يا غيْمةً ما أمطرتْ ، تذوب

***

فأبرقي وأرعدي وأرسلي المطرْ

ومزِّقي ذوائب الشجرْ

وأغرقي السهوبْ

وأحرقي الثمرْ

سترجحنَ بعدك السنابل الثقالُ بالحبوب ،

وتقطف الورود والأقاح

صبية يؤجّ في وجنتها الجنوب ،

وأنتِ ذرة من الدماء والجراحْ

***

وأنتَ يا شاعرَ واديك ، أما تؤوب

من سَفَر يطول في البطاحْ ،

تُراقص النَّهَرْ

وتلثم المَطَرْ ؟

أما سمعتَ هاتف الرواحْ ؟ :

« خامٌ وزنبيلٌ من التراب

وآخر العُمْر ردى » . ويطلع القَمَرْ

فأبرق ، ارعد ، أرسل المطرْ

قصائدَ احتوى مداها دارةَ العُمُرْ ،

يا غيمةً في أول الصباح ،

يا شاعرًا يهمّ بالرواح ،

وودّعِ القمرْ !

لندن 2/ 1/ 1963

***

منزل الأقنان

في جيكور

خرائبُ فانزع الأبواب عنها تغْدُ أطلالا ،

خوالٍ قد تصكُّ الريحُ نافذةً فتُشْرعها إلى الصّبْحِ

تُطلُّ عليكَ منها عينُ بومٍ دائبِ النَّوْحِ

وسلَّمُها المحطم ، مثل برجٍ داثرٍ ، مالا

يئنَ إذا أتتهْ الريح تصعده إلى السَّطْحِ ،

سقينٌ تعركَ الأمواجُ ألواحه

***

وتملأ رُحْبةَ الباحه

ذوائبُ سدرة غبراءَ تزحمها العصافيرُ

تعدّ خطى الزَّمان بسقسقات ، والمناقير

كأفواه من الديدان تأكل جثَّةَ الصمتِ

وتملأ عالم الموّت

بهَسْهسةِ الرثاء ، فَتَفزع الأشباح تحسب أنه النورُ

سيُشرق ، فهي تُمسك بالظلال وتهجر الساحه

إلى الغرف الدجيّةِ وهي توقظ ربّةِ البيْتِ :

« لقد طلع الصباح » . وحين يبكي طفلها الشبَحُ

تهدهدُه وتنشد : « يا خيول الموت في ألواحه

تعالي واحمليني ، هذه الصحراء لا فرحُ

يرفَ بها ولا أمنٌ ولا حبّ ولا راحه »

ألا يا منزلَ الأقنان ، كم من ساعدٍ مفتولْ

رأيتَ ومن خطىً يهتزّ منها صخرك الهاري !

وكم أُغنيّةٍ خضراء طارت في الضحى المغسولِ

بالشمس الخريفيّه ،

تحدِّث عن هوىً عاري

كماء الجدول الرقراق ! كم شوقٍ وأمنيّه !!

وكم ألم طوْيتَ وكم سُقيتَ بمدمعٍ جاري !؟

وكم مهد تهزهز فيك : كم موْت وميلاد

ونارٍ أوقدتْ في ليلة القرّ الشتائيه !!

يدنْدنُ حولها القصّاص : « يُحكي أنّ جنيَه .. »

فيرتجف الشيوخ ويصمت الأطفال في دَهَشٍ وإخلاد

كأنّ زئير آلاف الأسود يرنّ في واد

وقد ضلوا حيارى فيه ، ثم ترنّ أغنيّه :

« أتى قمرُ الزمان .. » ودندن القصّاص « جنيّه »

وبؤسْهم المرير : الجوع والأحزان والسّقَمُ

وطفلٌ مات لما جفّ درٌ - ماتت المعزى

وجاعت أمّه فالثديُ لا لبنٌ ولا لَحَمُ

سمعتُ صراخها والليل ينظر نجمُه غمْزا ،

ووَلْوَلة الأب المفجوع يخنق صوته الألَمُ

***

ولو خُيِّرتُ أبدلتُ الذي ألقى بها ذاقوا ،

ممضَ ما أعاني : شُلَّ ظهرٌ وانحنتْ ساقُ

على العكّاز أسعى حين أسعى ، عاثر الخطوات مرتجفًا

غريبٌ غير نار الليل ما واساه من أحَدِ

بلا مال ، بلا أمل ، يقطِّعُ قلبَه أسفا

ألستُ الراكضَ العدّاء في الأمس الذي سلفا ؟

أأمكث في ديار الثلج ثم أموت من كَمَدِ

ومن جوعٍ ومن داء وأرزاء؟

أأمكث أم أعود إلى بلادي ؟ آه يا بلدي

وما أمل العليل لدَيْك شحّ المال ثم رَمَتْهُ بالداءِ

سهامٌ في يد الأقدار ترمي كل من عطفا

على المرضى وشدّ ضلوع الجائعين بصدره الواهي

وكفْكَفَ أدمع الباكين يغسلُها بها وكفا

من العبرات في عينيْه ـ إلا رحمةُ الله ؟؟

***

أَلا يا منزل الأقنان ، سقَتْك الحيا سُحُبُ

تروّي قبري الظمآن ،

تلثمه وتنتحبُ !

لندن 3/ 1/ 1963

***

وصية من محتضر

يا صمتُ ، يا صمتَ المقابر في شوارعها الحزينه ،

أعوي ، أصيح ، أصيح في لَهَفٍ فأسمع في السكينه

ما تنثر الظلماء من ثلجٍ وقارِ

تُصدي عليه خطىً وحيداتٌ ، وتبتلع المدينه

أصداءهنّ ، كأن وحشًا من حديدٍ ، من حجارِ ،

سفّ الحياة فلا حياة من المساء إلى النهارِ

اين العراق ؟ وأين شمس ضُحاه تحملها سفينه

في ماء دجلةَ أو بُوَيْبَ ؟ وأين أصداء الغناء

خفقتْ كأجنحة الحمام على السنابل والنخيلِ

من كلِّ بيتٍ في العراء ؟

من كل رابيةٍ تدثرُها أزاهيرُ السهول ؟

إنْ متّ يا وطني فقبرٌ في مقابرك الكئيبه

أقصى مناي . وإنْ سلمتُ فإن كوخًا في الحقولِ

هو ما أريد من الحياة . فدى صحاراك الرحيبه

أرباضُ لندن والدروب ، ولا أصابتْك المصيبه !

***

أنا قد أموت غدًا ، فإنّ الداء يقرض ، غَيْرَ وانِ ،

حبلاً يشدّ إلى الحياة حطام جسمٍ مثل دارِ

نخرتْ جوانبَها الرياحُ وسقْفَها سيلُ القَطارِ ،

يا إخوتي المتناثرين من الجنوب إلى الشمالِ

بين المعابر والسهول وبين عالية الجبالِ ،

أبناء شعبي في قراه وفي مدائنه الحبيبه ...

لا تكفروا نعَمَ العراق .

خير البلاد سكنتموها بين خضراء وماء ،

الشمس ، نور الله ، تغمرها بصْيفٍ أو شتاء ،

لا تبتغوا عنها سواها

هي جنّة فحذار من أفعى تدبّ على ثراها

أنا ميتٌ ، لا يكذب الموتى . وأكفر بالمعاني

إن كان غير القلب منبعها

فيا ألقَ النهارِ

أغمر بعسجدك العراق ، فإنّ من طينِ العراقِ

جسدي ومن ماء العراق ..

1963/1/2

***

الشاهدة (226)

« يا قارئًا كتابي

ابكِ على شبابي »

شاهدة بين القبور تبكي

تستوقف العابرَ . يا صحابي

غضوا الخطى ولتصمتوا : إن القرون تحكي

في جملةٍ خُطت على التّرابِ

من نام في القبر ودودَ القبرِ ؟

يُسأل لا ينطق بالجواب ؟!

سيّان عنده ائتلاقُ الفجر

وظلمة الليل ، بلا ثياب

بلا طعام ، لا هوى ، لا حقدُ .

أفقر أهل الفقر

فيه وأغني الأغنياء . تعدو

في قبره والجرذان ، وهو غاف

نام من الديدان في لحاف ؟!

***

(226) يقصد شاهد القبر وهو لوحة رخامية يكتب عليها اسم الميت وتاريخ وفاته أو كلمة أوصى بها أن تكتب .

لي نومةٌ مع التراب في غدِ

صباحُها أولُ ليل الأبدِ ،

يمر بي الشيوخ والشبّانُ

يثرثرون : يدها فوق يدي

وعينها .. « ويُنفث الدخانُ !

ربّ فتى مُورِّد

يقرأ من شِعري عَلى الصحابِ ،

يقرأ في كتابي

قصيدةً خضراء عن جيكور

غافيةً تحت غصونِ النورِ

تحلم بالسحابِ .

مرّ على قبري فقال : قَبْرُ !

وأين من هذا الرميم الشِّعرُ

يدفق بالعواصفِ

كهبّةِ العواصف القواصف ؟ »

مَرّ على قبري فكاد الصّخرُ

يصرخ : « تحتي نام هذا الشاعرُ

صاحبُ هذه القوافي ، يسمعُ

ما قلتموه فالعيونُ تدمعُ

في عالم لا يرجعُ المسافرُ

منه ولا للنوم فيه آخرُ .

رفقًا به ، دعوه في رقدته

تؤنسه الديونُ في وحدته

كان له قلبٌ وكان أمسُ ،

حتى إذا استنزف من مدِته

توسد الترابا .

لا تقرؤوه الكتابا »

ثمَّ تغيبُ الشمسُ !

درم - 6/ 1/ 1963

أسمعه يبكي

أسمعُهُ يبكي ، يناديني

في ليليَ المستوحد القارس ،

يدعو : « أبي كيف تخلّيني

وحدي بلا حارس ؟ »

غيلان ، لم أهجرْكَ عن قصْدِ ..

الداء ، يا غيلان ، أقصاني .

إني لا أبكي ، مثلما أنت تبكي ، في الدجى وحدي

ويستثير الليلُ أحزاني .

فكلّما مرُ نهارٌ وجاء

ليلٌ من البرْد ،

ألفيْتُني أحسب ما ظلّ في جَيْبي من النقد :

أيشتري هذا القليل الشفاء ؟

سأطرق البابَ على الموت في دهليزي مستشفى

في البرد والظلماء والصمتِ ،

سأطرق البابَ على الموتِ

في بُرهةٍ طال انتظاري بها في معَبر من دماء ،

وأرسلُ الطِرفا

فلا أرى إلاّ الدجى والخُواء .

يا ويلتي إنْ يُفتح البابُ

فأبصرُ الأمواتَ من فُرْجتِهْ

يدعونني : « مالك ترتابُ »

بالموت في هجعته

ما يعْدل الدنيا وما فيها :

دفء ، نُعاسٌ ، خَدَرٌ وارتخاء ! »

أوشكُ أن أعبر في برْزخٍ من جامدات الدماء

تمتدُّ نحوي كفُّها ، كفَ أمي بين أهليها :

« لا مالَ في الموت ، ولا فيه داء ! »

ثم تسدّ البابَ كفُّ الطبيب

تجرح في جسمي ،

وهاتفًا باسمي

أسمع صوْتًا ناعسًا ، قد أجيبْ

فيُهزمُ الموتُ على صوتي ،

وربما استسلمتُ للموت !

درم 9/ 1/ 1963

***

دَرَمْ [227]

دَرَمْ ..

بنفسيَ مما عزاني بَرَمْ

فمدي ذراعيكِ ولتحضنيني

إلى هوة من ظلام العدم ،

فما قيمة العمر أقضيه أمشي

بعكاّزة في دروب الهَرَم ؟

أهذا شبابي ؟ وأين الشباب ؟

ألا حُبّ ، لا زهوَ ، لا عنفوان ؟

أهذا مشيبي ؟ حصدتُ السراب

إذا كان معنى المشيب الهوان ؟

أعقبي المشيب الأسى والندم ؟

أما من شبابي الذي مرّ ذكرى ؟

---

(227) درم (دمشر) مقاطعة شمال إنجلترا على بحر الشمال ، امتدادات لسلسلة بناين ، حيث منابع ديرونت ، وتبز ، وويـر ، ومرتفعات غنية بالمعادن في غربها ، وأودية خصبة غنية بالأشجار تشتهر بالماشية في شرقها . وعند مصب نهر التاين تقع منطقة صناعية غنية بالفحم تقوم بها صناعات بناء السفن ، والحديد ، والزجاج والخزف والكيمائيات . عاصمتها : «درم» تشتهر بقلعة تعود إلى القرن 14 تشغلها الآن الجامعة ، وكاتدرائيتها التي تمثل جمال العمارة النورماندية .

أما منه مالٌ وبُقيا شمم ؟

أكان الذي منه خلّفتُ شِعرا

وبيتًا وراء الرياح انهدم ؟

درم..

تمنَّيْتُ لو متُّ بين الثلوج

على جدولٍ جمّدتْه النّسَمْ ،

فروحي تجوب المروجِ

وتأوى إلى رمّةٍ في الظّلَم .

ومن أين للروح هذا البقاء ؟

فناء ، فناء

سوى قصّةٍ قد تثير السّأم

يُردِّدها سامرٌ في الشتاء :

« لقد خطّ شِعْرًا له من هباء ،

وكانت له زوجةٌ وابنُ عم

وطفلان .. لا ، لا ، نسيتُ .. ابنتانْ

وطفلٌ . « ويخبو لديه الضّرَم .

فيغفو على المسند السامرث

وتُفتح بوّابةٌ من دخانْ

عليها الدجى حائرُ

يُبعثر أنجمةُ من خلال الضباب .

أهذا هو الشاعر ؟

حديثٌ يُنيم الصحاب

إذا مات ، أو عاش فهو الألم

دَرَمْ

بنفسي مما عزاني بَرَمْ !

بيروت 5/ 1/ 1963

***

قصيدة من درم

مِن دَرَمٍ أكتُبُها قصيده

كالنجم في آفاقِهِ البعيده

لا يبعث الدفْءَ ولا يُنيرُ ،

يلمحه الصغيرُ

فيبسط الكفَّ له ، يُشير

يقْطر في أحلامه السعيده

يُعْلق بالضباب

كنُغْفِة السرابِ

تضلِّل القوافلَ الشريده

***

اليأْسُ يوحيها أو الملالُ

كأنّها في الظلمةِ الظّلالُ

تعمِّقُ الظلْمةَ حين تُنشَرُ .

أظلَّ ما يُقالُ

في نفس شاعرٍ يموتُ عُمرهُ ، يُبعثَرُ

ويُقبَرُ ؟

يمشي على عكّازة ويعثرُ ،

أيامه إلى رداه سَفَرُ ،

وعيْشُهُ انسلالُ

عَبْرَ جدار الموت ما يزالُ ؟

شاء الرَّدى ، حَاول أن يُريده ،

لكنّ وحشًا ضاريًا يُزمجرُ

في كهكفه ، وحيّةً من بابلَ التليده -

يطير نحو الموت منه شرَر ،

نفحٌّ في وجه الردى وتصفرُ ،

فيكتب القصيده

يريد أن يجدِّد البقاء ، أن يُعيده ،

أن يهديَ القوافلَ الشريده

فلا تتيهَ في صحارى العَدَمِ

بقبره في دَرَمِ .

***

من درمٍ أكتبها قصده

كالنجم ضلّ في سديم العَدمِ

درم 5/ 1/ 1963

***

قالوا لأيوب

قالوا لأيوبَ : « جفاك الإلهْ ! »

فقال : « لا يجفو

من شدّ بالإيمان ، لا قَبضَتاه

تُرخي ولا أجفانُه تغفو » .

قالوا له : « والداء من ذا رماه

في جسمك الواهي ومن ثَبّتَه ؟ »

قال : « هو التكفيرُ عمّا جناه

قابيلُ والشاري سُدىً جنّته .

سيُهزَم الداء : غدًا أغفو

ثمّ تفيقُ العينُ منِ غَفوَه

فأسحبُ الساقَ إلى خَلْوه

أسأل فيها الله أن يعفو .

عكّازتي في الماء أرميها

وأطرق الباب على أهلي .

إنْ فتحوا البابَ فيا وَيْلي

من صرخةٍ ، من فرحةٍ مسّيت حوافيها

دوامةَ الحُزْنِ .. وأأيّوبُ ذاكُ ؟

أم أن أمنّيه

يقذفُها قلبي ، فألقيها

ماثلةً في ناظري حيّه ؟

غيلان ، يا غيلان ، عانقْ أباك ! »

يا ربَّ لا شكوى ولا من عتاب ،

ألستَ أنت الصانع الجِسْما ؟

فمن يلوم الزراع ، فشاء الخراب

لزهرة والماءَ للثانية ؟

هيهات تشكو نفسيَ الراضية .

إني لأدري أنّ يومَ الشفاء

يلمحُ في الغيْبِ ،

سينزع الأحزانَ من قلبي

ويترع الداءَ ، فأرمي الدواء ،

أرِمي العصا ، أعدو إلى دارنا وأقطف الأزهار في دَرْبي

ألّم منها باقةً ناضرة

أرفعُها للزوجةِ الصابره

وبيْنها ما ظلّ من قلبي !

درم 6/ 1/ 1963

***

الليلة الأخيرة

وفي الصباح يا مدينةَ الضبابْ

والشمس أمنيّةٌ مصدور تُدير رأسَها الثقيلْ

من خَلَل السحاب ،

سيحمل المسافرُ العليلْ

ما ترك الداءُ له من جسمهِ المذاب

ويهجرُ الدخانَ والحديدْ

ويهجر الأسفَلْتَ والحَجَرْ

لعله يلمح في درامَ من نَهَرْ ،

يلمح وجه الله فيها ، وجهه الجديد

في عالم النقود والخمور والسّهَرْ

***

رُبّ صباحٍ ، بعد شهر .. بعد ما الطبيب

يراه - من يعلم ماذا خبّأ القَدَر ؟ -

سيحمل الحقيبةَ المليئه

بألفِ ألفِ رائعٍ عجيبْ ،

بالحَلي والحجر ،

باللَّعب الخبيئه

يفجأ غيلان بها - يا طول ما انتظر !

يا طولَ ما بكي ونام تملأ الدموع

برنّةِ الأجراس أو بصيحةِ الذئاب

عوالم الحُلم له ، وتنشر القلوع

يجوب فيها سندباد عالم الخطَرْ

هناك فارس النحاس يرقبُ العُباب

ويشرع السهْمَ ليرمي كل من عَبَرْ !

***

إنْ يكتب الله ليّ العوْدَ إلى العراق

فَسوف ألثم الثرى ، أعانق الشجر ،

أصيحُ بالبَشَرْ :

« يا أرجَ الجنّةِ ، يا إخوة ، يا رفاقْ ،

الحَسنُ البصْري جابَ أرض واقِ واق

ولندنَ الحديدِ والصّخَرْ ،

فما رأى أحسنَ عيْشًا منه في العراق »

ما أطولَ الليلَ وأقسى مديةَ السّهَرْ

صديئة تحزّ عينيَّ إلى السّحَرْ !

***

وزوجتي لا تطفئ السراجَ : « قد يعودْ

في ظُلمة الليل من السّفَرْ »

وتُشعل النيران في مَوْقِدنا : « برودْ

هو المساء ، وهو يهوى الدفءَ والسَّمَرْ »

***

وتنطفئ مدفأتي ، فأضرمُ اللهيبْ

وأذكر العراق : ليْت القمر الحبيب

من أفق العراق يرتمي عليّ : آه يا قمر

أما لثمتَ وَجْه غيْلانَ ؟ أنا الغريب

يكفيه ، لو لثمتَ غيْلان ؟ أن انتشر

منك ضياءٌ عَبْرَ شبّاك الأبِ الكئيب

ومسّ منه الثّغْرَ والشّعَرْ :

أحسُّ منه أنّ غيلان (شذى وطيب

من كفِّه الليّنةِ انتشر)

عابثَ شَعْري ، صاح : « آه جاء

أبي ، وعاد من مدينة الحَجَرْ ! »

وشدّ بالرداء

ما أطول الليلَ وأقسى مديةَ السّهَرْ

ومديةَ النوم بلا قمر !

لندن 4/ 1/ 1963

***

القصيدة والعنقاء

جنازتي في الغرفةِ الجديده

تهتفُ بي أن أكتب القصيده ،

فأكتبُ

ما في دمي وأشطبُ

حتى تلينَ الفكرةُ العنيده

وغرفتي الجديده

واسعةٌ ، أوسعُ لي من قَبْري

إذا اعتراني تَعَبُ

من يقظةٍ فالنوم منها أعذبُ ،

ينبع حتى من عيون الصّخْرِ ،

حتى من المدفأة الوحيده

تقوم في الزاويةَ البعيده

***

وترفع الجنازةُ اليابسةُ المهدَّمه

من رأسها ، ترنو إلى الجدرانِ

والسقْف والمرآةِ والقناني

ما للزوايا مظلمه

كأنهنّ الأرضُ للإنسانِ

تريد أن تحطِّمه

بالمال والخمور والغواني

والكذْب في القلب وفي اللسان ،

تُريدُ أن تُعيده

للغابة البليده ؟

وصفحةُ المرآة ما لها تُطلّ خاويه

ما أثمرتْ بغانيه ،

بالشفةِ المرجان

تُنيرها ، كالشّفَقِ ، العينان

وبالنهود العاريه ؟

كهذه المرآة

ستُصبح الأرضُ بلا حياةِ

وفي الليالي الداجيه ،

في ذلك السكون ليس فيهِ

إلا الرياحُ العاويه ،

سيفزع الله من الأمواتِ

ويسحبُ الموتَ ويغفو فيه

مثل دثارٍ في الليالي الشاتيه

***

وهكذا الشاعرُ حينَ يكتب القصيده

فلا يراها بالخلود تنبضُ ،

سيهدمُ الذي بنى ، يقوِّضُ

أحجارها ثم يمل الصمتَ والسكونا

وحين تأتي فكرة جديده ،

يسحبُها مثل دثار يحجب العيونا

فلا ترى . إن شاء أن يكونا

فليهدم الماضيَ ، فالأشياء ليس تنهضُ

إلا على رمادها المحترقِ

منتشرًا في الأفُقِ ..

وتولد القصيده

درم 10/ 1/ 1963

***

هرم المغني

بالأمس كنتُ إذا كتبتُ قصيدةً فرح الدمُ

فأغمغمُ

وأهيم ما بين الجداول والأزاهر والنخيلْ

أشدو بها ، أترنَّمُ :

زادٌ لروحي منذ سَقْسقِةِ الصباح إلى الأصيل

زادٌ .. ولكنْ عنه قد صدفت ، تجوع ولا تريدْ

ما يُنعش الآمالَ فيها ،

هي حشرجاتُ الروح أكتبها قصائد لا أفيد

منها سوى الهُزءُ المرير على ملامحِ قارئيها

هَرَم المغنّي ، هدّ منه الداءُ فارتبكَ الغناءْ

بالأمس كان إذا ترنّم يُمسك اللّيْلُ الطروبْ

بنجومه المترنِّحَات فلا تخرّ على الدروب ،

واليوم يهتف ألفَ آه لا يهزُّ مع المساء

سَعَفَ النخيل ولا يُرجِّحُ زورقَ العرس المحلَّى

بعيون آرامٍ ودفِلِى

ودرابكَ ارتعدت حناجرُها فأرعدت الهواء

هرم المغني فاسمعوه ، برغم ذلك ، تسعدوه ،

ولتُوهموه بأنّ من ابدٍ شباب من لحونْ

وهوى ترقرقُ مقلتاه له وينفح منه فوه

هو مائتٌ ، أفتبخلونَ

عليه حتى بالُحطام من الأزاهر والغصون ؟

أصغوا إليه لتسمعوه

يرثي الشباب ولا كلامَ سوى نشيجٍ : « بالعيون

سلِّمْ عليَ إذا مررت » ،

أتي وسلَّمَ .. صَدِّقوه !

هرم المغنِّي فارحموه

درم 5/ –/ 1963

***

قصيدة إلى العراق الثائرة

عملاءُ « قاسمَ » يُطلقون النارَ ، آه ، عل الربيعْ

سيذوب ما جمعوه من مالٍ حرامٍ كالجليدْ

ليعود ماء منه تَطْفحُ كلُّ ساقيةٍ ، يُعيد

ألقَ الحياة إلى الغصون اليابسات فتستعيد

ما لصّ منها في الشتاء القاسميّ .. فلا يضيع

يا للعراقْ !

يا للعراق! أكاد ألمحُ ، عَبْرَ زاخرة البحارْ ،

في كلِّ مُنْعَطَفٍ ، ودربٍ ، أو طريقَ ، أو زقاق

عَبْرَ الموانئ والدروب ،

فيه الوجوه الضاحكات تقولُ : « قد هربَ التّتارْ

والله عاد إلى الجوامع بعد أن طلع النهار ،

طلع النهار فلا غروب !

يا حفصةُ [228] ابتسمي فثغرك زهرة بين السهوب ،

أخذتْ من العملاء ثأركِ كفٌّ شعبي حين ثار

فهوى إلى سَقَر عدوّ الشَعْبِ ، فانطلقتْ قلوب

كانت تخاف فلا تحنّ إلى أخٍ عَبْرَ الحدودْ ،

كانت على مَهَل تذوب ،

كانت إذا مَال الغروب

رفعتْ إلى الله الدعاء : « ألا أغِثْنا من ثمود ،

من ذلك المجنون يعشق كل أحمرَ ، فالدماء

تجري وألْسِنةُ اللهيب تُمدُّ ، يُعجبه الدمار

أحرقه بالنيران تهبط ، كالجحيم ، من السماء ،

(228) إحدى شهيدات مدينة الموصل أثناء حكم عبد الكريم قاسم [1914-1963] الذي انحرف بالثورة التي قام بها عام 58 . أعدم رميًا بالرصاص في أعقاب ثورة فبراير 1963 .

وأصرعْه صرعًا بالرصاص ! فإنّه شبحُ الوباء »

هرع الطبيبُ إليّ ـ آه ، لعلَّه عرف الدواء

للداء في جسدي فَجاء؟ ـ

هرع الطبيب إليّ وهو يقول : « ماذا في العراق؟ »

الجيْشُ ثارَ ومات « قاسم » ـ أيّ بُشرى بالشّفاء !

ولكدتُ من فَرَحي أقوم ، أسيرُ ، أعدو دون داء

مرحى له .. أي انطلاق !؟

مرحى لجيْش الأمّةِ العربيةِ انتزع الوثاق !

يا إخوتي بالله ، بالدم ، بالعروبة ، بالرجاء ،

هُبّوا فقد صُرِعَ الطغاةُ وبدّد اللّيْلَ الضياء!

فلتحرسوها ثورةً عربيّةً صُعِق « الرِّفاق »

منها وخرّ الظالمون ،

لأن « تموز » استفاقْ

من بعدِ ما سرق العميل سناه ، فانبعثَ العراقْ

لندن ـ مستشفى سان ماري 8/ 2/ 1963

***


بدر شاكر السياب
(١٥)
شنَاشِيل
ابنَة الجَلبي
و إقبال

شناشيل ابنة الجلبي(ضثث)

وأذكرُ من شتاء القريةِ النضَّاح فيه النورُ

من خَلَلِ السّحاب كأنّه النَّغَمُ

تسرَّبَ من ثقوب المعزف ـ ارتعشتْ له الظلَمُ

وقد غنَّى ـ صباحًا قبْلَ .. فيم أعدُّ؟ طفلاً كنت

أبتسمُ

لليْلي أو نهاري أثقلتْ أغصانَه النشوى عيونُ الحوْر

وكنا ـ جدّنا الهدَّار يضحك أو يغنِّي في ظلال الجوسق القَصَبِ

وفلاّحيه ينتظرون : « غيْثَك يا إلهُ » وإخوتي في

غابة اللَّعِبِ

يصيدون الأرانبَ والفَراش ، و(أحمدَ) الناطَور ـ

نحدِّق في ظلال الجوْسق السمراء في النَّهْرِ

ونرفع للسحاب عيوننا : سيسيل بالقطْرِ

---

(229) **الشناشيل** : شرفة مغلقة ، مزينة بكثير من الخشب المزخرف والزجاج الملون ، كان شائعًا في البصرة وبغداد قبل مائة سنة . **والجلبي** : لقب هو عند المصريين « شلبي » وعند الأوربيين « ماركيز » .

وأرعدت السماءُ فرنَّ قاعُ النهر وارتعشتْ ذُرى السَّعَفِ

وأشعلهنَّ ومَضُ البرْق أزرقَ ثمّ اخضر ثم تنطفئ

وفتحت السماءُ لغيْثِها المدرار بابًا بعد بابٍ

عاد منه النهر يضحك وهو ممتلئ

تكلِّلُه الفقائعُ ، عاد أخضرَ ، عاد أسمرَ ، غصّ

بالأنغامِ واللَّهَفِ

وتحت النخْل حيثُ تظلُّ تمطِرُ كل ما سعْفَه

تراقصتِ الفقائعُ وهي تُفجَرُ - إنّه الرُّطَبُ

تساقطَ في يد العذراء [230] وهي تهزُّ في لهفه

بجذع النخلة الفرعاء (تاجُ وليدك الأنوارُ لا الذَّهَبُ،

سيصلب منه حُبُّ الآخرين ، سيُبرئُ الأعمى

ويبعث من قرار القبْر ميْتًا هدَّه التعَبُ

من السفرَ الطويل إلى ظلام الموْت ، يكسو عظمَه اللحما

ويُوقد قلبَه الثلجي فهو بحبِّه يشبُ!)

***

(230) إشارة إلى قصة مريم عندما أشرفت على الوضع فأوحى لها : ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم].

وأبرقتِ السماءُ .. فلاح ، حيث تعرَّجَ النهرُ ،

وطاف معلَّقًا من دون أسٍّ يلثمُ الماء

شناشيلُ ابنةِ الجلبيِّ نوَّر حوله الزَّهَرُ

(عقود ندىً من اللبْلاب تسطع منه بيضاء!)

وآسيةُ[231] الجميلة كحَّل الأحداقَ منها الوجد والسَّهَرُ

***

يا مطرًا يا حلبي

عبِّرْ بنات الجلبي

يا مطرًا يا شاشا

عبِّر بنات الباشا[232]

يا مطرًا من ذهبِ

***

(231) آسية : امرأة فرعون .

(232) أغنية شعبية في قرى البصرة عندما تمطر السماء : « مطر، مطر، حلبي . عبر بنات الجلبي » إلخ.

تقطّعتِ الدروب ؛ مقص هذا الهاطلِ المدرارِ

قطَّعها ووراها ،

وطوّقتِ المعابرُ من جذوع النخل في الأمطارْ

كغرقى من سفينةِ سندباد ، كقصّةٍ خضراء أرجأها وخلاها

إلى الغدِ (أحمدُ) الناطورُ وهو يديرُ في الغرفهْ

كؤوس الشاي ، يلمس بندقيّتَه ويسعل ثم يعبر طرْفُه الشُّرْفه

ويخترق الظلامَ

وصاح « يا جدِّي » أخي الثرثارْ :

« أنمكث في ظلام الجوْسق المبتلِّ ننتظرً ؟

متى يتوقفُ المطرُ ؟ »

***

وأرعدت السماءُ ، فطار منها ثُمَّةَ انفجرا

شناشيلُ ابنة الجلبيِّ ..

ثمّ تلوحُ في الأفُقِ

ذُري قوس السّحاب . وحيث كان يُسارق النَّظرا

شناشيلُ الجميلةِ لا تصيبُ العيْنُ إلا حمرةَ الشَّفَقِ

***

ثلاثون انقضتّ ، وكبْرتُ : كم حبٍّ وكم وجْدِ

توهَّجِ في فؤادي !

غيرَ أني كلّما صَفَقتْ يدا الرَّعْدِ

مددتُ الطَّرف أرقبُ : ربما ائتلقَ الشناشيلُ

فأبصرتُ ابنةَ الجلبي مقبلةً إلى وعدي!

ولم أرها . هواءٌ كلُّ أشواقي ، أباطيل

ونبْتٌ دونها ثمرٌ ولا وَرْدِ !

لندن 24/ 2/ 1963

إرم ذات العماد [233]

(عند المسلمين أن « شداد بن عاد » بنى جنة لينافس بها جنة الله ، هي « إرم » وحين أهلك الله قوم عاد ، اختفت « إرم » وظلت تطوف ، وهي مستورة ، في الأرض لا يراها إنسان إلا مرة في كل أربعين عامًا . وسعيد من انفتح له بابها) .

من خَلَلِ الدُّخان من سيكاره،

من خللَ الدخانْ

من قَدَحِ الشاي وقد نشَّر ، وهو يلتوي ، إزارَه

ليحجبَ الزمان والمكانْ ،

حدثنا جدُّ أبي فقال : « يا صغارْ ،

مقامرًا كنتُ مع الزمانْ ،

نقودي الأسماك ، لا الفضةُ والنضارْ ،

والورق الشِّباك والوِهار [234]،

وكنتُ ذات ليْله

(233) إرم : «أتى ذكره في القرآن مرة واحدة في سورة الفجر »، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ . قال المفسرون : إنها مدينة في الصحراء العربية ، اندثرت تحت الرمال ، وقالوا إنّها مدينة دمشق ، وقالوا إنّها الإسكندرية . وقالوا : إن «إرم» اسم قبيلة من بني عاد .

(234) الوهار : أداة لصيد السمك تصنع من أغصان الشجر .

كأنما السماء فيها صَدَأٌ وقار ،

أصيدُ في الرُّميْله

في خوْرها العميق ، أسمعُ المحارْ

موسْوسًا كأنما يبوح للحصى وللقِفار

بموطن اللؤلؤة الفريده ،

فأرهفُ السَّمعَ لَعلِّي أسمع الحوارْ

وكان من ندى الخريف في الدجى بُروده

تدبُّ منها رعشةٌ في جسدي فأسحبُ الدِّثارْ

وانفرجَ الغيمُ فلاحتْ نجمةٌ وحيده

ذكرت منها نجمتي البعيده

تنام فوق سطْحها وتسمعُ الجِرارْ

تنضحُ (يا وقْعَ حوافرٍ على الدروبْ

في عالمَ النُّعاس ؛ ذاك عنْترٌ يجوب

دجى الصَّحارى . إن حيَّ عبْلةَ المزارْ)

فسرتُ والسَّماءُ وجهتي ، ولا دليلْ ،

أرقب نجمها الوحيد ، والشُّعاعْ

يخفتُ أو يؤُجُّ مانعًا ومانحًا ، وكالشِّراع

ترفع أو تحطّه الرِّياحُ في الصِّراع

أسرتُ ألف خطوة؟ أسرتُ ألفَ ميلْ؟

لم أدرِ إلا أنني أمالني السحر

إلى جدار قلعةٍ بيْضاءَ من حَجَرْ ،

كأنما الأقمارُ منذ ألفِ ألف عامْ

كانت له الطلاءْ ،

كأنما النجومُ في المساءْ

سلْنَ عليْه ثمَّ فاض حوله الظَّلامْ

وسرتُ حول سورها الطويلْ

أعدُّ بالخطى مداه (مثل سندُبادْ

يسيرُ حول بيْضة الرُّخِ ولا يكاد

يعود حيث ابتدأَ

حتى تغيب الشمس ، غشى نورَها سوادْ ،

حتى إذا ما رفع الطرْفَ رأى .. وما رأى؟)

حتى بلغتُ في الجدار موضْعَ العمادْ

تقوم فيه ، كالدُّجى ، بوَّابة رهيبه

غلّفها الحديدُ ، مدَّ حَوْلَهَا نحيبه

أراه بالعيون لا تَحسُّه المسامعُ

وقفتُ عندها أدقُّ

يا صدىً أراجعُ

أنت من المقابر الغريبه؟

أحسُّ في الصدى

برودةَ الرَّدى ،

أشمُّ فيه عَفَنَ الزّمان والعوالِمِ العجيبه

من إِرم وعادْ

وحينَ كلَّ ساعدي

وملّني الوقوفُ في الظلامْ

(كناسكٍ ، كعابدِ

يرفضَه الإلهُ في معبده ، يظل لا ينام

ولا يريد الماء والطعامْ ،

يصيحُ : « كن على الهوى مساعدي

يا رافعَ السماء ، يا موزِّعَ الغمام »)

جلستُ عند بابها كسائل ذليلْ

جلستُ أسمع الصدى ، كأنَّه العويلْ ،

يلهثُ خلْفَ حائطٍ من حَجَر ثقيلْ

كأنَّ بين دَقَةٍ ودقة يمرُّ ألف عامْ

وما أجاب العَدمُ الخواءْ

وحين أوشك الصباحُ يهمس الضياءْ

نعستُ ، نمتُ .. واستفقتُ : مر ألفُ جيلْ !!

الشمسُ والفلاه

والغيْمُ والسماءْ

وكل ما أراه

هناك حيث كان سورُها ، المياه

تشعُّ في الخليجْ

وقال جدُّنا ولجَّ في النشيج :

« ولن أراها بعدُ ، إنّ عمريَ انقضى

وليس يُرجع الزمان ما مضى

سوف أراها فيكمُ ، فأنتم الأريج

بعد ذبول زهرتي فإن رأى إرم

واحدُكم فليطرقِ البابَ ولا ينمْ

إرَمْ

في خاطري من ذكرها ألَمْ ،

حُلمُ صباي ضاعَ .. آهِ ضاع حين تمّ

وعمري انقضى »

لندن 21/ 2/ 1963

***

في الليل

الغُرْفةُ موصَدة البابِ

والصمتُ عميقْ

وستائر شبّاكي مرخاةٌ ..

رُبَّ طريق

يتنصَّتُ لي ، يترصَّدُ بي خلفَ الشبّاك ، وأثوابي

كمفزِّعِ بُستان ، سودُ

أعطاها البابُ المرصودُ

نَفَسًا ، ذر بها حسًّا ، فتكادُ تفيقْ

من ذاك الموت ، وتهمس بي ، والصَّمْتُ عميق :

« لم يبقَ صديق

ليزورك في الليل الكابي

والغرفةُ موصدة الباب »

ولبْست ثيابيَ في الوهْمِ

وسريتُ : ستلقاني أُمِّي

في تلك المقبرة الثكلى ،

ستقول : « أتقتحمُ اللَّيْلا

من دون رفيق ؟

جوعانُ؟ أتأكل من زادي :

خرّوب المقبرة الصادي ؟

والماءُ ستنهله نهْلا

من صدر الأرض: ألا ترمي

أثوابك؟ والبسْ من كَفَني ،

لم يبْلَ على مرِّ الزَّمَن ؛

عزريلُ الحائكُ ، إذْ يبلَى ،

يرفوه . تعال ونَمْ عندي :

أعددْتُ فراشًا في لَـحْدي

لكَ يا أغلى من أشواقي

للشمس ، لأمواهِ النَّهْرِ

كسلى تجري ،

لهُتاف الدِّيكِ إذا دوّى في الأفاق

في يوم الحشْر »

سآخذُ دربي في الوَهْمِ

وأسير فتلقاني أمِّي

لندن 27/ 2/ 1963

***

في انتظار رسالة

وذكرتُها ، فبكيتُ من ألمي :

كالماء يصعدُ من قرار الأرض ، نزَّ إلى العيون دمي

وتحرّقت قطراتُه المتلاحقات لتستحيلَ إلى دموعْ

يخنقني فأصكُّ أسناني ، لتنقذفَ الضلوع

موْجًا تحطَّم فوقهنَّ وذابَ في العَدَمِ

دخانٌ من القلب يصعدْ

ضبابٌ من الروح يصعدْ

دخانٌ .. ضباب

وأنتِ انخطافٌ وراء البحار ، وأنت انتحابْ

ونوْحٌ من القلب كالمدِّ يصعد

ودمعٌ تجمَّدْ

وغصّت به الآهُ في الحنْجُره

ذكرتُك يا كلَّ روحي ويا دفْءَ قلبي إذْ الليل يبرد

ويا روضةً تحت ضوء النجوم بقدّاحها مُزْهره

وذكرتُ كلّتنا يهف بها ويسبحُ في مداها

قَمَرٌ تحيرَ كالفراشةِ ، والنجومُ على النجوم

دندنَّ كالأجراس فيها ، كالزنابق إذْ تعوم

على المياه .. وفضَّضَ القَمَرُ المياها

وكأنّ جسمك زورقُ الحبِّ المحمَّلُ بالطيوبْ

والدِّفْء ، والمجدافُ هَمْسٌ في المياه يرن آها

فآهًا والنُّعاس يسيل منكِ على الجنوب

فينامُ فيه النَّخْلُ تلتمعُ السطوحُ بنوْمهنَّ إلى الصباحْ

أواه ، ما أحلاكِّ نام النور فيكِ ونمتِ فيهِ ،

والليْلُ ماءٌ ، والنُّباح

مثل الحصى ينداح فيه ، وأنتِ أوَّلُ وارديهِ

هو الصّيْفُ يلثمُ شطَّ العراقْ

بغيماتهِ ذاب فيها القَمَرْ ،

وتوشِكُ تسبح بيضُ النجوم لولا برودة ماء النَّهَرْ

وهفَّ شراعٌ لأضلاعه في الهواء اصطفاقْ ،

وغنَّى مغنٍّ وراء النَّخيل

يغمغمُ : « يا ليلُ ، طال السَّهَرْ

وطال الفراق ! »

كأنَّ جميعَ قلوب العراق

تُنادي ، تريد انهمارَ المَطَرْ

وصعدتُ نحوك والنُّعاس رياحٌ فاترات تحملُ الوَرَقا

لتمسَّ شعرك والنهودَ به ، تموتْ

حينًا وتلهثُ في النوافذ من بيوت

ألقاك في غُرُفاتها ، وأشدُّ جسمكِ فارَ واحترقا

إنِّي أُريدكِ ، أشتهيكِ أمسُّ ثغركِ في رساله

طال انتظاري وهي لا تأتي ، وتحترقُ الزوارقُ والتخوت

في ضفّة العشّار تنفضُ ، وهي لاهثةٌ ظِلاله

علَّ الرِّياحَ حملنَ منكِ لها رساله

لم تبخلين عليَّ بالورقات ، بالحبر القليل وسحبة القلم الصَّموت؟

إني أذوب هوىً ، أموتْ

وأحنُّ منك إلى رساله

لندن 9/ 3/ 1963

الباب تقرعه الرياح

البابُ ما قرعتْه غيرُ الرِّيحِ في اللَّيْل العميقْ ،

البابُ ما قرعته كفُّكِ

أين كفك والطَّريقْ

ناء؟ بحار بيننا ، مُدُنٌ ، صحاريَ من ظَلامْ

الرِّيحُ تحمل لي صدى القُبُلات منها كالحريق

من نخلةٍ يعدو إلى أُخرى ويزهو في الغمامْ

***

البابُ ما قرعتْه غير الرِّيح ..

آه لعلّ روحًا في الرِّياح

هامت تمرّ عَلى المرافئ أو محطات القطار

لتُسائل الغرباء عني ، عن غريب أمسِ راح

يمشي على قدمين ، وهو اليوم يزحفُ في انكسارِ

هي روحُ أمي هزها الحب العميق ،

حب الأمومة فهي تبكي :

« آه يا ولدي البعيدَ عن الديارِ !

ويلاه! كيف تعود وحدكَ ، لا دليلَ ولا رفيقْ؟ »

أُماه .. ليتك لم تغيبي خلف سورٍ من حجارِ

لا باب فيه لكي أدق ولا نوافذَ في الجدارِ!

كيف انطلقتِ على طريق لا يعود السّائرونْ

من ظلمةٍ صفراء فيه كأنها غَسَقُ البحارِ؟

كيف انطلقْتِ بلا وداع فالصِّغار يولولون ،

يتراكضون على الطريق ويفزعون فيرجعون

ويُسائلون الليل عنكِ وهم لعودك في انتظارِ ؟

الباب تقرعه الرياح لعلَّ روحاً منَكِ زار

هذا الغريب !! هو ابنكِ السهران يُحرقه الحنين

أماه ليتك ترجعينْ

شبحاً . وكيف أخافُ منه وما امحّتْ رغم السنينْ

قسماتُ وجهك من خيالي ؟

أينَ أنتِ ؟ أ تسمعينْ

صَرخاتِ قلبي وهو يذبحه الحنينُ إلي العراقِ ؟

الباب تقرعه الرياحُ تهبّ من أبدِ الفراقِ .

لندن 13/ 3/ 1963

***

من ليالي السهاد

1 - ليلة في لندن

كما ينسلُّ نورٌ خائفٌ من فُرْجةِ البابِ

إلى الظلماء في غُرْفه

سمعتُ هُتافه المجروحَ يَعبر نحويَ الشُّرْفه

ليرفعَ من سماوة لندنَ اللَّيْلَ المُطِلَّ بلوْنهِ الكابي

على الطُّرُقات ترقدُ في دثار الثلج ملتفه

وأمس سمعتُ في إيرانَ صوت الدِّيكِ في الفجْرِ ،

ومن أُفُق المنائر في الكويتِ وزُرقةِ البحْرِ

أهابَ ، فَرشَّ جفني بالنُّعاس (رنينُ أكوابِ

بماء البصرة الرّقراق تُملأ ثم تسقيني) ،

نداءٌ راح ينثره المؤذِّنُ .. أُطفئَ الفانوسُ ، رفّ ضياؤه رفّه

وبعثره الظلام

وليلي الأوّاهُ في بيروت يُحييني

لأبصرَ فيه وجْهَ الموت ، راح يُذيبُه نبْعٌ من اللَّهْفه

تدفّقَ من فؤاد البُلبُل المسكوب بين غصون لَبْلابِ

ليالٍ من عذابٍ ، من سقامٍ ، لستُ أنساها :

غريبًا كنتُ حتى حين أحلمُ ، لستُ في جيكور

ولا بغداد ، أمشي في صحاري قلبي المسعور

يُريد الماءَ فيها : « ماءُ .. أين الماء؟ » وهي تُربه أفواها

على آفاقها الرَّبداء ظمأى تشربِ الدَّيجور

فلا تروى .. أأقضي العمر في صحراءَ ، في ليلٍ من العَطَشِ؟

أفتِّشُ عن عيون الماء ، عن إشراقة الغَبَشِ؟

كأعمى نال منه السُّكرُ صاح ، ورفرفت كفّاه بين مساند الماخور

ليبحث عن رفيقٍ : « أين جاري؟ أين داري؟ أين - أوّاها -

أميرتي التي كانت تناولني كؤوس النُّورْ؟

فيُبصرُ قلبي الدنيا ويلقاها؟

كأنّ الصُّبْحَ أشرقَ في العراق ، وتعبر الرُّؤيا

بحارًا بي وتطوي ألف دربٍ في الدجى تاها :

تراجعَ عَالمٌ وأطلَّ ثانٍ : عَالمٌ يحيا

على الأقمار تُولَدُ ثم تكملُ ثم تندثرُ ،

وما لبس الجديدَ بغير يوم العيد ، يدّخرُ

ويجمع ثم ينفق ثم يضحك وهو يفتخر

بأن الله يرزق حين يرزق .. هكذا الدنيا

شتاءٌ ثمّ صيْفٌ . ليس في جيْكورَ محتكِرُ

ولا فيها مصارفُ أو جرائدُ : « ليْلٌ كوريّا

يُرى شَفَقًا من النيران »

فالنيران فيها حين تستعر

تضيء لحي الشيوخ يحدِّثونَ ، وأعيُنَ النِّسوه

تحدق في الطعام وترقب الأطفال في نشوه

أعدْني يا إله الشَّرق والصحراء والنخْلِ

إلى أيامي الحلوه ،

إلى داري ، إلى غيلانَ ألثمُه ، إلى أهلي !

لندن 3/ 2/ 1963

***

2- ليلة في باريس

وذهبتِ فانْسحب الضياء،

أحسستُ باللَّيْل الشتائيِّ الحزين ، وبالبكاءْ

ينثالُ كالشلاّل من أفقٍ تحطِّمه الغيومْ

أحسستُ وخْزَ اللَّيْل في باريسَ ، واختنقَ الهواء

بالقَهْقهات من البغايا .. آه! ترتعش النجوم

منها كبَلور الثريَّات الملطَّخ بالدماء

في حانةٍ لُمدى السكارى في جوانبها انتضاء

لم يبقَ منك سوى عبيرْ

يبكي وغيْرُ صدى الوداع : « إلى اللّقاء! »

وتركت لي شَفَقًا من الزَّهرات جمّعها إناء

كالأنجم الزرقاء والحمراء في أُفقٍ به حلم الصغيرْ ،

أرجعن لي عُمُرَ الطفولة : يا محارًا في غدير

تتقارعُ الأقداحُ فيه ، ترن أجراسٌ كثارْ :

خوْخٌ وأعناب ورمَّانٌ .. وتمتلئ الجرار

عند الغروب ؛ هو الخريف ونحن نسْمر حول نار

وكمستفيقٍ في العراء

من حُلمه : هو شَهْرَيار وتلمس الكفُّ الخُواء

ذهبَ التُّرابِ .. ورنَّ في الليل النُّباحُ أو العواء ،

عانقتُ كفَّكِ باليدينِ : « إلى اللِّقاء » - « إلى اللقاء ! »

وذهبت فانسحبَ الضياء

لو صحَّ وعْدُك يا صديقه ،

لو صحَّ وعدَ: . آه لانبعثتْ وفيقه

من قبرها ، ولعاد عمري في السنين إلى الوراء

تأتين أنتِ إلى العراقِ؟

أمدُّ من قلبي طريقه

فامشي عليه . كأنما هبطتْ عليه من السماء

عشتار فانفجر الربيعُ لها وبرعمتِ الغُصون :

توتٌ ودفلي والنخيل بطلعه عبقَ الهواء ،

وهو الأصيل وتلك دجلةُ

والنواتيُّ الخفاف يردِّدن :

« يا ليْتني نِجْمُ الصباحْ

آه لأسقطَ يا حبيب ، إذْ تنام ، على الغطاء ،

أعتل البرد : ارتجفتُ فلفَني برد الهواء!

وهو الأصيل وأنت في جيكور تجتذب الرياحْ

منك العباءة ، فاخلعيها ..

ليس يدَّثر الضياء !

يتماوج البَلَمُ [235] النحيلُ بنا ، فَتَنَتَشرُ النجومْ

من رقّة المجدافِ كالأسماك تغطس أو تعوم ،

ويحار بين الضفّتين بنا كأنا منه في أبَد الزمانْ :

زمن ولا ماض يعود له ، ولا غدٌ كي يسيرَ

إليه . تنطفئُ النجومُ ونحن نحن العاشقان

وذهبتِ فانسحب الضياء ،

لم يبق منك سوى عبير

يبكي وغير صدى الوداع : « إلى اللقاء ! »

وتركتِ لي شفقًا من الزهرات جمَّعها إناء ..

باريس 18/ 3/ 1963

(235) البلم : زورق البصرة ذو الشكل الشبيه بجندول (البندقية) .

3 - ليلة في العراق

وألهبَ كل ألواح الزجاج الزُّرق في الظلماءْ

فنوَّر غرفتي ، إيماضُ برقٍ ثم رش مدارجَ الأفقِ

نُثارٌ من حُطام الرعْد فارتعشتْ له الأصداء

وحفَّ ، على الدجى ، غابٌ من الأمطار والأزهار والورقِ ،

وكنتُ أصيح من أرقي

ومن مرضي : أريد الماء

وتخنق صوتي الظمآن وهوَهة الدجى والماء

ويعول من بعيدٍ بوقُ سيّاره

يجيء إلى عبرَ الماء في الحاره ،

يجيءُ إلى من أعماق بحرٍ شمسه الخضراء

تنثُّ على شراع السندباد أزاهرَ الشَّفَقِ

وكنتُ أصيحُ من أرقي

ومن مرضي : « أريد الماء ! »

كأني وسط هذا الكون حيث يسوطني العطشُ

نواةٌ حولها ارتجفَ العصيرُ الحلوُ في ثمره

ويُحرقها صداها

وانتظرتْ : سيغسل الغبَشُ

صداي ، يُحيلني شجَره

تمصُّ الماءَ ، يقرع في مداها النُّسغُ !

***

وألقى البرْقُ ، أرقصَ ، ظلَّ نافذتي على الغرفه

فذكّرني بماضٍ من حياتي كلُّه ألمُ :

طفولتي الشقيَّةِ ، والصبي ، وشبابي المفجوع تضطرمُ

مشاعري البريئة فيه : كيف يجوع آلافٌ من الأطفال ملتفّه

بآلاف الخُروق تعربد الريح الشتائيّه

بها وأظلُّ أحلمُ بالهوى ، والشطّ والقَمَر ؟

وتزحم كل درب من دروبي هذه الخُوَذ الحديديه

وتتبعني عيون الموت من زُمَر البنادق نِزَّ بالشرِرِ

كواها .. في دروب الجوع ألهث زائغَ النظر

وإذا يتمرّد الإنسانُ في علي العبوديه

أثور على الشيوعيَّه

ولكنَّ البنادقَ ما تزال عيونُها الغضبى

تطاردني لأني غيرَ ربِّي وحده ، لم أتَّخذ ربا

***

وحين تنفست عند انحسار اللَّيل عُشتار (236)

تنفِّض جُرح تمُّوزَ المدمَّى ، تغسل الترابا

عن الجنبات منه ، وحين هدَّ البغْيَ ثوّارُ ،

أرحتُ جبينيَ المحمومُ

على شبَّاك داري أرقب الدَّربا

تدفَّق بالحبال وبالعصيِّ يشدُّها العار

لتسحبَ أو تمزِّقَ جسْم طفلٍ ثغره المحروم

من القبلات والغنوات والزّادِ

ينادي دون صوت :

« آه يا أمّي ! عرفتُ الجوع والآلام والرُّعْبا

---

(236) «عشتار» أو عشتروت : آلهة سورية كانت تعتبر الآلهة الأم ، وآلهة الإخصاب والأمومة كما كانت آلهة للحرب ، عرفتها مصر في عصر الدولة الحديثة كآلهة للحرب ، ومثلت وهي تمتطي حصانًا ، وتمسك بيدها أسلحة القتال .

ولم أعرف من الدنيا سوى أيّام أعياد

فتحت العين فيها من رقادي لم أجد ثوْبا

جديدًا أو نقودًا لامعاتٍ تملأ الجيْبا

لأن أبي فقيرًا كان »

يا لك ثورةً تتأكّلُ القلبا

فأصرخ : « أيها الجبناء كفّوا ! »

ثم تزحم دربي الخوذ الحديديه

وتخنق من فم التنور في داري

فألهث في دروب الجوع أطحن من حصاها ثم أعجنه

وأقذفه إلى النارِ

لأطعم منه زُغبًا يطلبون الزاد في قر العشيات الشتائيه

***

ويمضي بالأسى عامان ، ثمَّ يهدُّني الداءُ ..

تلاقفني الأسرّة بين مستشفى ومستشفى

ويعلكني الحديد

ومن دمي ملأ الأطباء

قناني وزعوني في القناني : تصبغ الصَّيفا

دمائي والشتاء

وذات صُبْح قيل إن الشرَّ قد دُحرا

ودكَ معاقل الطاغوت في بغداد أبطالُ

فقلتُ : سأوقدُ القمرا

سراجًا عند بابي : إنّه ظَفري ، أما قالوا

بأن الشرَّ قد دحرا ؟

وعدتُ إلى بلادي . يا لنقالات إِسعافِ

حملن جنازتي!! متمدِّدًا فيها أئنُّ رأيتُ (غيْلانا)

يحدِّق ، بانتظاري ، في السَّماء وغيمها السَّافي

وما هو غير أسبوعين ممتلئين أحزانا

ويفجأني النَّذير بأنَّ أعوامًا من الحرمان وإلفاقه

ترصدُ بي هنا ، في غابة الخُوذِ الحديديه

***

غريقٌ في عباب الموج تنحبُ عنده الغاقه [237]

تئنُّ الريح في سَعَف النخيل ، عليه .. ترثيه

قصائده الحزينة بين أوراقٍ من الدفلى أو الصفصاف تبكيه!

البصرة 8/ 4/ 1963

***

(237) الغاقه : النورس ، طائر بحري من فصيلة خطاف البحر ، يوجد قرب الشواطئ ، والمياه الداخلية أقدامه مكففة ، ومنقاره معقوف الطرف .

خلا البيت

خلا البيْتُ ، لا خفقةٌ من نعالْ

ولا كركراتٌ على السُّلَّمِ ،

وأنَّتْ على الباب ريحُ الشمال

وماتت على كرمه المظلم :

تلاشت خُطى موكب الدّافنينْ

ومن مسجد القريةِ المعْتم

تلوَّى ، كما رفَّ فوق السفين

شراعٌ حزين ،

أذانٌ (هو الله باق ، وزال

عن الأرض إلاّه) : الله أكبرْ؛

وفي قبره اهتزَّ ، كالبرعم

إذا الصُّبْح نوَّر ،

دفينٌ .. وأصغى : أنين الرمال

وتهويدةُ النَّخل ينعِّس واللَّيلُ أقمر

وفي بيْته الآن - خلَّ العويلْ

ونوح اليتامى وندْبَ النِّساءْ -

لقد فتَّح الآن زهرُ الشتاء

ليملأ تنوره بالشذى والضياء ،

أنار وجوهًا وأخفى وجوهًا ، فسال الأصيل

ينث سنابله الدافئه ،

وسمراء تُصغي إلى الشاي فوق الصِّلاء

يوسوس عن خيمةٍ في العراء

وعن عيشةٍ هانئة

خلا البيت وانسلّ لونُ المغيب

إلى المخدع المقفر ؛

هنا كان يطوي خيوط الدروب

صغيران تطفئُ شمس الغروب

بشعريهما نار فانوسها الأحمر ،

إذا ما ارتختْ تحت ظلِّ الهجيرْ

جفونٌ يرنِّقُ فيها النعاسْ

أفاءا إلى قصَّةٍ عن أمير

تخطّفه الجنُّ حتى أتى منزلاً من نُحاس

تلامحَ شبَّاكه عن أميره

تُدلِّي إليه الضفيره

ليرقى إليها

خلا البيْت إلا أنينْ يابقا

يصعِّدها شاطئٌ من حنين

البصرة 26/ 7/ 1964

***

جيكور وأشجار المدينة

أشجارُها دائمةُ الخُضره

كأنَّها أعمدةٌ من رخامْ

لا عُري يعروها ولا صفره ،

وليْلُها لا ينام

يُطلع من أحداقه فجره

لكنَّ في جيكور

للصَّيف ألوانًا كما للشتاءْ ،

وتغرب الشمسُ كأنَّ السماء

حقلٌ يمصُّ الماء ،

أزهاره السكرى غناء الطيور

ناحلةٌ كالصدى

أنغامه البلور ،

كأن فيها مدى

يجرْحنَ قلبي فيستنزفن منه النور

وتغرب الشمسُ وهذا المساء

أمطر في جيكور ..

أمطر ظلاً ، نثّ صمتًا ـ مساء

غافٍ على جيكور

واللِّيْل في جيكور

تهمس فيه النجوم

أنغامها ، تولد فيه الزهور

وتخفقُ الأجنحه

في أعين الأطفال ، في عالم للنَّوم ـ مرَّت غيوم

بالدرب مبيضًّا بنور القمر ،

تكاد أن تمسحه ،

تسرق منه الزَّهرْ ..

البصرة 22/ 4/ 1963

**

ها .. ها .. هو

تنامين أنت الآن واللَّيلُ مُقمرُ

غانيه أنسام وراعيه مِزهرٍ ،

وفي عالم الأحلام ، من كل دَوْحةٍ

تلقّاك مَعْبَر

وبابٌ غفا بين الشجيرات أخضرُ

لقد أثمر الصمتُ (الذي كان يُثمر

مع الصُّبح بالبوقات أو نوح بائعٍ) ،

بتينٍ من الذكرى وكرْمٍ يقطرُ

على كلِّ شارع

فيحسو ويسكر

برفقٍ فلا يهذي ولا يتنمَّرُ

***

رأيتُ الذي لو صدق الحُلم نَفْسَهُ

لمدَّ لك الفما

وطوّق خصرًا منك واحتاز معصما ؟

لقد كنتِ شمسَهُ

وشاء احتراقًا فيك ، فالقلب يُصهر

فيبدو ، على خدَّيكِ والثَّغْرِ ، أحمر

وفي لَهَفٍ يحسو ويحسو فيسكرُ

***

لقد سئم الشِّعرَ الذي كان يكتبُ

كما ملَّ أعماقَ السماء المذنَّبُ

فأدمى وأدمعا :

حروب وطوفان ، بيوتٌ تُدمَّرُ

وما كان فيها من حياة تصدَّعا

لقد سئم الشِّعرَ الذي ليس يذكرُ

فأغلقَ للأوزان بابًا وراءه

ولاح له بابٌ من الآسِ أخضر

أراد دخولاً منه في عالمَ الكرى

ليصطاد حلمًا عينيك يخطر

وهيهات يقدر !

***

من النفس ، من ظلمائها ، راح ينبع

وينثال نهرٌ سال فانحلَّ مئزر

من النُّورِ عن وضّاءَ تخبو وتظهر

وفي الضفّة الأخرى تحسّين صوته

(فما كان يُسمَعُ)

كما يشعر الأعمى إذ النور يظهر ،

يناديك: « ها .. هو .. هوه »

ماءٌ ويقطر

من السَّعفة النَّشوى

بما شربتْ من غيمةٍ نثها نجوى

وأصداء أقدامٍ إلى الله تعبرُ

***

وناديتِ : « ها .. هو .. هوه » لم ينشرِ الصدى

جناحيّه أو يبكِ الهواء المُثرثرُ

ونادى وردّدا : « ها .. هو .. هوه! »

وفتَّحْتِ جفنًا وهو ما زال ينظر ،

ينادي ويجأر

لندن 29/ 2/ 1963

***

أحبيني ..!

وما من عادتي نكرانُ ماضيّ الذي كانا ،

ولكنْ . كلُّ من أحببْتُ قلبك ما أحبّوني

ولا عطفوا عليَّ ، عشقتُ سبعًا كنّ أحيانًا

ترف شعورهن عليَّ ، تحملني إلى الصينِ

سفائنُ من عطور نهودهنّ ، أغوص في بحْرٍ من الأوهام والوجدَ

فالتقط المحار أظنُّ فيه الدُرَّ ، ثم تظلُّني وحدي

جدائل نخلةٍ فرعاءْ

فأبحث بين أكوام المحار ، لعلَّ لؤلؤة ستبزغ منه كالنَّجمه ،

وإذ تدمي يداي وتُنزع الأظفار عنها ، لا ينز هناك غيرُ الماء

وغير الطين من صَدَف المحار ، فتقطر البسمه

على ثغري دموعًا من قرار القلب تنبثقُ ،

لأن جميع من أحببتُ قبلك ما أحبُّوني .

وأجلسهنَّ في شُرَف الخيال .. وتكشف الحُرق

ظلالاً عن ملامحهنَّ : آه فتلك باعتي بمأفونِ

لأجل المال ، ثم صحَا فطلّقها وخلاّها .

وتلك .. لأنها في العمر أكبرُ أم لأنَّ الحُسنَ أغراها

بأني غير كفْء ، خلّفتني كلما شرب الندى ورَقُ

وفتَّح برعمٌ مثلتُها وشمتُ ريْاها ؟

وأمس رأيتُها في موقف للباص تنتظرُ

فباعدتُ الخطى ونأيتُ عنها ؛ لا أريد القربَ منها ،

هذه الشمطاء

لها الويلات ؟ ثم عرفتُها : أحسبْتِ أن الحسْنَ ينتصرُ

على زمن تحطّم سور بابلَ منه ، والعنقاء

رماد منه لا يُذكيه بعث فهو يستعر ؟

وتلك كأنَّ في غمَّازتيْها يفتْح السّحَرُ

عيونَ الفُلِّ واللِّبلاب ، عافتْني إلى قصر وسيّاره ،

إلى زوج تغيَّر منه حالٌ ، فهو في الحاره

فقير يقرأ الصحفَ القديمة عند باب الدار في استحياء ،

يحدِّثها عن المس الذي ولَّى فيأكل قلبَها الضَّجَرُ .

وتلك وزوجها عبْدًا مظاهرَ لَيْلُها سَهَرُ

وخمرٌ أو قمار ثم يوصدث صُبُحَها الإغفاء

عن النَّهر المكركر للشراع يرفّ تحت الشمس والأنداء .

وتلك ؟ وتلك شاعرتي التي كانت لي الدنيا وما فيها ،

شربتُ الشِّعر من أحداقها ونعستُ في أفياء

تنشِّرُها قصائدُها عليَّ : فكل ماضيها

وكل شبابها كان انتظارا لي على شطٍّ يهوِّم فوقه القَّمَرُ

وتنعس في حِماه الطيرُ رشِ نُعاسَها المطرُ

فنبهها فطارت تملأ الآفاق بالأصداء ناعسةً

تؤج النور مرتعشًا قوادمُهَا ، وتخفقُ في خوافيها

ظلالُ الليل . أين أصيلُنا الصيفيُّ في جيكور ؟

وسار بنا يوسوس زورقٌ في مائة البلَّور؟

وأقرأ وهي تُصغي والربى والنَّخل والأعناب تحلم في دواليها ؟

تفرَّقت الدروب بنا نسير لغير ما رجعَه ،

وغيَّبها ظلام السجن تؤنسُ ليَلها شمعه

فتذكرني وتبكي غير أني لستُ أبكيها

كفرت بأمَّة الصحراء

ووحي الأنبياء على ثراها في مغاور مكْةِ أو عند واديها .

وآخرهنَّ ؟؟

آه .. زوجتي قدَرى . أكان الداء

ليقعدني كأني ميِّتٌ سكران لولاها ؟

وهأنا ... كلُّ من أحببتُ قبلك ما أحبُوني .

وأنتِ ؟ لعلّه الإشفاق!!

لستُ لأعذرَ الله

إذا ما كان عطفٌ منه لا الحب ، الذي خلاّه يسقيني

كؤوسًا من نعيم .

آه هاتي الحبَّ ، روِّيني

به ، نامي على صَدري ، أنيميني

على نهديك ، أوّاها

من الحُرَق التي رضعتْ فؤادي ثمةَ افترستْ شراييني .

أحبّيني

لأني كلُّ من أحببتُ قبلك لم يحبّوني .

باريس 19/ 3/ 1963

***

يقولون تحيا ...

لآحببْتُ لو أن في القلب بُقيا

ـ وقد لفّه اللَّيْلُ ـ للمشرق ،

يقولون « ما زلت تحيا » .. أيحيَا

كسيح إذا قام أعيا

به الداءُ فانهار ، ، لم تخفقِ

على الدربْ منه الخطى ؟ يَا أساه

ويا بؤس عينيْه ممَّا يراه ؟

يقولون : « تحيا » فيبكي الفؤادْ

فلو لم يكن خافقًا لاستراح ؛

كطير رمى يجرُّ الجناح

وقد مَد عبر الربى والوهاد ،

بعينيه : في دوحةٍ خلف تلك الظّلالْ

سجا عشُّه ، فيه زُغبٌ جياعْ

إذا حجّب الغيمُ ضوءَ الهلال

يقولون : « هذا جناح أبينا وقد عاد بعد الصراع

بزهره ،

بقطره

من الطل « .. حتى يُطلَّ الصباح .

كطير رميٍّ يجرُّ الجناح ،

أقضِّيُ نهاري بغير الأحاديث ، غير المنى ،

وإن عسْعَسَ الليْلُ نادى صدى في الرياح :

« أبي .. يا أبي ، طاف بي وانثنى ،

« أبي .. يا أبي »

« أبي .. يا أبي » في صفير القطارُ

« أبي .. ي أبي » في صياح الصِّغار

(خفاف الخُطَى يعبرون الدروبْ

بلا غايةٍ ، يقطفون الثِّمار

ولا يُعمون ابنةً جائعه .

ولي منزل في سهول الجنوب

إذا كنتُ أسعى ، من السابعه

إلى أوْبة الطير عند الغروب ،

فكي أُطعمَ الجائعينْ

وراء نوافذه شاخصين

إلى الدرب : « أين الأبُ المُطعمُ »)

« أبي .. يا أبي » والدُّجى مظلمُ

وجيكور خلف الدجى والدروب وخلف البحار .

لندن 23/ 2/ 1963

***

وغدًا سألقاها

وغدًا سألقاها ،

شأشدُّها شدًا فتهمس بي

« رحماك » ثم تقول عيناها :

« مزّق نهودي ضمَّ ـ أواها ـ

ردفي .. واطو برعشة اللهب

ظهري ، كأن جزيرةَ العربِ

تسري عليه بطيب ريّاها » .

ويموج تحت يدي ويرتجفُ

بين التمنُّع والرضا ردفُ ،

وتشب عند مفارق الشَّعَر

نارُ تدْغدغها : هو السَّعَفُ

من قريتي رعشتْ لدى النَّهْر

خوصاته ؛ وتلين لا تدري

أيّان تنقذف .

ويهيم ثغري وهو منخطفُ ،

أعمي تلمَّس دربه ، يقفُ

ويجسُّ : نهداها

يتراعشان ، جوانب الظَّهْر

تصطكُّ ، سوف تبلُّ بالقطرِ ؛

سأذوب فيها حين ألقاها !

لندن 27/ 2/ 1963

***

ليلة وداع

(إلى زوجتي الوفيّة)

أوْصدي الباب ، فدنيا لستِ فيها

ليس تستأهل من عينّي نظره .

سوف تمضين وأبقي .. أي حسره ؟

أتمنَّى لك ألاّ تعرفيها ؟

آه لو تدرين ما معنى ثواني في سرير من دمِ

ميِّتَ الساقين محموم الجبينْ

تأكل الظلماءَ عيناي ويحسوها فمي

تائها في واحةٍ جدارٍ من سنين

وأنين

مستطار اللبَّ بين الأنجم .

***

فِي غدٍ تمضين صفراء اليدِ

لا هويً أو مغنمٌ ، نحو العراقِ

وتحسِّين بأسلاك الفراقِ

شائكات حول سهلٍ أجرد

مدّها ذاك المدى ، ذاك الخليج

والصحارى والروابِي والحدود

أيُّ ريشٍ من دموع أو نشيج

سوف يُعطينا جناحين نرود

بهما أفق الدجى أو قبّة الصبح البهيج

للتلاقي ؟

كلُّ ما يربط فيما بيننا محْضُ حنينٍ واشتياقِ

ربما خالطه بعضُ النفاق !

آه لو كنتِ ، كما كنتُ ، صريحه

لنَفضنا من قرار القلب ما يحشو جروحه

ربما أبصرت بعض الحقد ، بعض السأم

خصلةً من شعر أخرى أو بقايا نَغَمِ

زرعتْها في حياتي شاعره

لست أهواها كما أهواك يا أغلى دمٍ ساقي دمي .

إنها ذكرى ولكنّك غيرَي ثائره

من حياة عشتها قبل لقانا

وهوى قَبل هوانا .

أوصدي الباب . غدًا تطويك عني طائرة

غير حبَّ سوف يبقى في دمانا

الكويت 21/ 4/ 1964

***

أغنية بنات الجن

شعورنا بلّلها المطَرْ

وأشعلَ القمرْ

فيها فوانيسَ ، فيا قوافلَ الغَجَرْ

بشعرنا اهتدى ،

سيري إلى السَّحَرْ ،

سيري إلى الغدِ ؟

نحن بنات الجنْ لا ننامْ ،

نهيم في الظلام

على ذري التلال أو نركضُ في المقابرِ ،

نعشق كلَّ عابر ،

نسمعه كلَّ عابر ،

نسمعه أغانيَ الشباب والغرامْ .

إن نزلتْ صبيَّةٌ فيها من البشرْ

وأوجشتْها وحدةُ القبور أو دجنّة الحُفر

سرتْ أغانينا إليها تعبر الترابُ

تقول : « إنْ عريتِ فالثياب

تنسجها عناكبُ الشَّجَرْ

وكلُّ خيْطٍ من خيوطها يرنّ كالوتر .

نامي أن يؤذن القَدَر

ويُحشر الموْتى إلى الحساب .

حبيبك الوفيُّ مسَّ ثغرَه ابتسام ،

فقد رأى سواك

بل رآك في قوامها النديِّ كالزّهرْ

وهُدبها ومقلتيْها . أشعل الهيام

في عينْه السَّهَرْ ،

رآكِ فيها فاشتهاكِ . ليته انتظر ؟ »

***

نلوح للطِّفْل فراشات من الشُّعاعْ

تخفقُ في ذوائب الشَّجَرْ ،

ويلمحُ العاشقُ في عيوننا الوداع

إذْ يصفر القطار أو يصفِّقُ الشراع .

ونحن للشاعر إن شعر

نلوح في الدُّخان والعِقارْ ،

نُنشد : « فُلْكُ سندبادَ ضلَّ في البَحَرْ

حتى أتى جزيرةً يهمس في شطآنها المحار ،

يهمس عن مليكه يحبها القمر

فلا يغيب عن سماء دارها النضار » .

فيهتف الشاعر : « خُذْنني إلى حماها

لأنني أهواها

لأنني القمر ! »

وجُنّ وانتحر .

***

شعورنا بلّلها المطرْ ،

ويرشف القمر

منها إلى أن يُقبل السَّحَرْ .

نركض في المقابرِ

نُضلُّ كلَّ شاعر

وكل من عبر ؟

لندن 26/ 2/ 1963

***

جيكور أمّي [238]

تلك أمّي ، وإنْ أجئْها كسيحا

لاثمًا أزهارها والماء فيها ، والترابا

ونافضًا ، بمقلتي ، أعشاشها والغابا:

تلك أطيار الغد الزرقاء والغبراء يعبران السطوحا

أو ينشّرْن في بويْبَ [239] الجناحيْن : كزهْرٍ يفتّح الأفوافا

هاهنا ، عند الضحى ، كان اللقاءْ

وكانت الشمس على شفاهها تكسّر الأطيافا

وتسفح الضياء

كيف أمشي ، أجوب تلك الدروب الخضرّ فيها وأطرق الأبوابا؟

أطلب الماء فتأتيني من الفخّار جرّه

تنضح الظلَّ للبرود الحُلوَ .. قطره

بعد قطره

تمتد بالجرة لي يدان تنشران حول رأسي الأطيابا :

---

(238) إذا كان 3 (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) = 3 فاعلاتن ، 3 مستفعلن ، 3 فاعلاتن مثلاً فإن الفرضية التي تقوم هذه القصيدة موسيقيًا عليها صحيحة . أرجو أن تتاح الفرصة لتجربة هذه الفرضية على جهاز الأصوات الذي سبق للدكتور محمد مندور أن قام ببعض التجارب عليه في باريس غير أني لم ألتزم بذلك إلا في الأجزاء الأولى من القصيدة . [الشاعر] .

(239) نهر في جيكور .

(هالتي) تلك ، أم (رفيقة) أم (إقبال) ،

لم يبق لي سوى أسماء

من هوىً مرَّ كرعدٍ في سمائي

دون ماء

كيف أمشي! خطاي مزّقها الداء . كأني عمود ملْحٍ يسير ..

أهي عامورة الغويّة أم سادوم ؟

هيهات .. إنّها جيكورُ :

جنّةٌ كان الصبي فيها وضاعت حين ضاعا

آه لو أن السنين السود قمحٌ أو صخورُ

فوق ظهري حملتهُنَّ ، لألقيتُ بحملي فنفضتْ جيكورُ

عن شُجيراتها ترابًا يغشِّيها وعانقتُ معزفي ملتاعا ،

يُجهش الحبّ ، به ، لحنًا فلحنا

ولقاء فوداعا

آه لو أن السنين الخُضر عادت ، يوم كُنّا

لم نزل بعدُ فتيَّينِ لقبّلتُ ثُلاثًا أو رُباعًا

وجنتيْ (هالةَ) والشَّعر الذي نشَّر أمواج الظلامِ

في سيول من العطور التي تحمل نفسي إلى بحارٍ عميقه

ولقبّلتُ ، برعم الموت ، ثغرًا من وفيقه

ولأوصلتُك يا (إقبال) في ليلة رعدٍ ورياح وقتامِ ،

حاملاً فانوسي الخفاق تمتدُّ الظلالْ

منه أو تقصر ، إذْ يرعش في ذاك السكونْ ،

ذلك الصمتِ سوى قعقعة الرعد ،

سوى خفْق الخطى بين التِّلال

وحفيف الريح في ثوبكِ ، أو وُهوهة الليل مشى بين الغصون،

ولعانقتُك عند الباب ، ما أقسى الوداعْ !!

آه لكنَّ الصبِّي ولَّى وضاع ؛

الصّبِّي والزمان لن يرجعا بعْدُ ،

فقرّي يا ذكريات ونامي

لندن 5/ 2/ 1963

يا غربة الروح

يا غربة الروح في دنيا من الحَجَر

والثلج والقار والفولاذ والضجرِ ،

يا غربة الروح .. لا شمسٌ فأئتلقُ

فيها ولا أُفُقٌ

يطير فيه خيالي ساعةَ السَّحَر

نار تضيء الخواء البرد ، تحترقُ

فيها المسافات ، تُدنيني ، بلا سَفَرِ ،

من نخل جيكور أجني داني الثَّمَرِ

نار بلا سَمَر

إلا أحاديثَ من ماضيَّ تندفقُ

كأنهنّ حفيفٌ منه أخيلةٌ

في السّمْع باقيةٌ تبكي بلا شَجَرِ

يا غربةَ الروح في دنيا من الحجر !

***

مسدودة كلُّ آفاقي بأبنيةٍ

سودٍ ، وكانت سمائي يلهث البَصَرُ

في شطِّها مثل طير هدَّه السَّفَرُ :

النهر والشَّفَقُ

يميل فيه شراعٌ يرجف الألَقُ

في خَفقِهِ ، وهو يحْنو ، كلما ارتعشا ،

دنيا فوانيسَ في الشطَّين تحترقُ ،

فراشةً بعد أخرى تنشر الغَبَشا

فوق الجناحين .. حتى يلهث النَّظَرُ

الحبُّ كان انخطافَ الروح ناجاها

روحٌ سواها ، له من لمسةٍ بيدِ

ذخيرةً من كنوزٍ دونها عَدَدِ

الحب ليس انسحاقًا في رحىَ الجَسَدِ

ولا عشاءً وخمرًا من حُميَّاها

تلتفُّ ساقٌ بساقٍ وهي خادرةٌ

تحت الموائد تُخفي نشوةَ البَشَرِ

عن نشوة الله من همسٍ ومن سَمَرٍ

في خيمةِ القَمَرِ

يا غربة الروح لا روحٌ فتهواها

***

لولا الخيالات من ماضيَّ تنسربُ

كأنها النوم مغسولاً به التَّعَبُ

لم يترك الضجرُ

مني ابتسامًا لزوج سوف ألقاها

إن عدتُ من غربة المنفى : هو السَّحَرُ

والحلم كالطلِّ ميتلاً به الزَّهَرُ

يمس جفنين من نورٍ وينسكبُ

في الروح أفراحها حينًا وأشجاها

تسللتْ طرقتي للباب تقتربُ

من وعيها وهو يغفو ثم تنسحبُ ،

ونشَّر الحُلُم أستارًا فأخفاها

ورفَّ جفناها

حتى كأنَّ يدي

إذا تطرق الباب مسَّتْ منهما : « واها !

من دق بابي ؟ أهذا أنت يا كبدي؟ »

وذاب في قبلتي ما خلَّف السَّهَرُ

في عينها من نعاس ، فهي تزدهر

كوردةٍ فُتحت للفجر عيناها

لندن 26/ 2/ 1963

***

أم كلثوم والذكرى

وأشربُ صوتَها .. فيغوص من روحي إلى القاعِ

ويُشعل بين أضلاعي

غناءً من لسان النار ، يهتف « سوف أنساها

وأنسى نكبتي بجفائها وتذوب أوجاعي »

وأشرب صوتها .. فكأنَّ ماء بُويبَ يسقيني

وأسمع من وراء كرومه ورباه « ها .. ها .. هو »

تردها الصبايا السُّمْرُ من حين إلى حين

وأشربُ صوتها فكأنْ زورق زفّةٍ وأنينَ مزمارِ

تجاوبه الدرابكُ ، يعبران الروح في شَفَق من النار

يلوح عليه ظل وفيقةَ الفرعاء أسودَ يزفر الآها

سحائب من عطور ، من لحون دون أوتارِ

وأشرب صوتها .. فيظل يرسم في خيالي صفَّ أشجارِ

أغازل تحتها عذراءَ ؛ أواها

على أياميَ الخضراء بعثرها وواراها

زواجٌ ليت لحن العُرس كان غناء حفّارِ

وقرعًا للمعاولِ وهي تحفر قبري المركوم منه القاع بالطين

وأذكرها ، وكيفَ (وجسْمُها أبقى على جسمي

عبيرًا منه ، دفئًا غلّف الأضلاع) أنساها؟

أأنساها؟ أأنسى ضحكةً رعشت على لحمي

وأعصابي وكفًا مسّحتْ وجهي برياها ؟؟

قساة كلُّ من لاقيتُ : لا زوجٌ ولدُ

ولا خِلٌ ولا أب أو أخ فيزيل من همّي ..

ولكن ما تبقى بعدُ من عُمري ؟ - وما الأبَدْ ..

بعمري - أشهُرٌ ويريحني موتٌ فأنساها

لندن 9/ 3/ 1963

***

كيف لم أحببك؟

كيف ضيَّعتك في زحمة أيامي الطويله؟

لم أحلَّ الثوبَ عن نهديكِ في ليلة صيف مُقْمَره؟!

- يا عبير التّوت من طوُقيهما .. مرّغتُ وجهي في خميله

من شذى العذراء في نهديك -

ضيَّعْتك ، آهٍ يا جميله !

إنه ذنبي الذي لن أغفره!

كيف لم أحببكِ ! يا لهفة ما بعد الأوان

في فؤادٍ لم تكوني فيه إلا جذوةً في مجمره!

شعرك الأشقر شعّ اليوم شمسًا في جنابي

يتراءى تحتها ساقاك ، يا للزئبقِ

رفَّ من ساقيْكَ ؟!

آه كيف ضيَّعتك يا سرحة خوخٍ مُزهره؟

آهً لو عندي بساط الريح !!

لو عندي الحصان الطائرُ !!

آه لو رجلاي كالأمس تُطيقان المسير !!

لطويت الأرضَ بحثًا عنكِ

لكنَّ الجسورا

قطعتها بيننا الأقدار مات الشاعرُ

فِي واسندّت كوى الأحلام

آهٍ يا جميله !

البصرة 8/ 11/ 1963

***

أسير القراصنة

أجنحةٌ في وحدةٍ تخفق

أجنحةٌ أربعة تخفق

وأنتَ لا حبٌ ولا دارُ ،

يُسلمك المشرقُ

إلى مغيب ماتت النارُ

في ظلَّه .. والدرب دوّار

أبوابه صامتةٌ تُغلقُ !

جيكور في عينيك أنوارُ

خافتةٌ تهمسُ

« مات الصبي ! »

لم تبقَ آثارُ

من فجره ، وانفرط المجلسُ

فالتل لا ساق ولا سامرٌ باقٍ وسمارُ :

وأراهمُ في سفْحة الموحش المهجور حفّار !

وتحسدُ الشحاذ إن لاحا

يمشي على عكازه البالي

مشلولة رجلاك مشدودة عيناك بالآل

وألف درب دونك انداحا

يدعوك أن تقطعه في الدجى

وتقطف الأثمار عن جانبيْه

وأنت لا تملك غير الشجّى

ودمعة تجري اشتياقًا إليه

عامان من نزع بلا موتِ

وأنت ما كنت سوى صوتِ ،

صوت يدوي في قلاع الرياحْ

يا ليتك المشاء في صمْتِ

لا عازف القيثار باسم الجراح ؟

وأنت في سفينة القرصان

عبدٌ أسيرٌ دون أصفادِ

تقبع في خوفٍ وإخلادَ

تُصغي إلى صوت الوغىَ والطعّانْ :

سال الدم ،

اندقت رقاب ومال

ربّانها العملاقْ

وقام ثان بعده ثم زالْ

فامتدتْ الأعناقْ

لأي قرصان سيأتي سواه

وأي قرصان ستعلو يداه

حينًا على الأيدي!؟

(وليأت من بعدي ..

من بعدي الطوفان)

تسمعها تأتيك من بُعْدِ

يحملها الأعصار عبر الزمان !

البصرة 29/ 10/ 1963

***

نسيم من القبر

نسيم الليْل كالآهات من جيكور يأتيني

فيبكيني

بما نفثتْه أمي فيه من وجدٍ وأشواقِ

تنفس قبرها المهجور عنها ، قبرها الباقي

على الأيّام يهمس بي : « تراب في شراييني

ودودٌ حيث كان دمي ، وأعراقي

هباءٌ من خيوط العنكبوت ؛ وأدمعُ الموتى

إذا ادّكروا خطايا في ظلام الموت .. ترويني

مضى أبدٌ وما لمحتك عيني! »

ـ ليت لي صوتًا

كنفخ الصور يسمع وقعَه الموتى هو المَرَضُ

تفكك منه جسمي وانحنت ساقي

فما أمشي ، ولم أهجرك ، إني أعشق الموتا

لأنك منه بعض ؛ أنت ماضيَّ الذي يمضُ

إذا ما اربدَّت الآفاق في يومي فيهديني !

***

أما رنّ الصدى في قبرك المنهار ، من دهليز مستشفى ،

صداي أصيح من غيبوبة التخدير ، أنتفضُ

على ومض المشارط حين سفَّت من دمي سفا

ومن لحمي؟ أما رنّ الصدى في قبرك المنهارْ؟

وكم ناديتُ في أيام سُهدي أو لياليه :

أيا أمي ، تعالي ، فالمسي ساقي واشفيني

يئن الثلج والغربان تنعب من طوىً فيهِ ،

وبين سريري المبتلِّ حتى القاع بالأمطارْ

وقبرك ، تهدرُ الأنهارْ

وتصطخب البحار إلى القرار يخضُّها الإعصار

***

أما حَملت إليك الريحُ عَبْرَ سكينةِ اللّيلِ

بكاء حفيدتيْكِ من الطوى وحفيدك الجوعانْ؟

لقد جعنا وفي صمتٍ حملنا الجوع والحرمان ،

ويهتك سرنا الأطفال ينتحبون من ويل

أفي الوطن الذي آواك جوع؟ أيُّما أحزان

تؤرق أعين الأموات؟

لا ظُلم ولا جورُ

عيونهما زجاجٌ للنوافذ يخنقُ الألوانْ

هناك لكل ميت منزلٌ بالصمت مستورُ ،

ولكنا هنا عصفت بنا الأقدارُ من ظلٍّ

إلى ظل ومن شمسٍ إلى شمس يغيب النورْ

على شرفات بيتٍ ضاحكات ثم يُشرق وهي أطلالْ

ويخفق حيث كركر أمسِ أطفالُ

صريرٌ للجنادب هامسات : « إنه المقدورْ

تصدَّعْ برج بابل منه وانهدمت صخور السور! »

أما حملت إليك الريح عبر سكينة الليل

بكاء حفيدتيك من الطوى يعلو من السَّهل؟

البصرة 18/ 4/ 1963

في المستشفى

كمستوحدٍ أعزل في الشتاءْ

وقد أوغل الليل في نصفه،

أفاق فأوقظ عين الضياء

وقد خاف من حقنه ،

أفاق على ضربة في الجدار -

هو الموت جاء!

وأصغى : أذاك انهيار الحجارْ

أم الموت يحسو كؤوس الهواء؟

لصوصٌ يشقون دربًا إليه

مضوا ينقبون الجدار

وظلَّ يعدُّ انهيار الترابْ

ووقعَ الفؤوس على مسمعيهْ

يكاد يحس التماع الحِراب

وحزاتها فيه .. يا للعذابْ !!

وما عنده غير محض انتظار :

هو الموت عَبر الجدار!

***

كذاك انكفأتُ أعضُّ الوساد

وأسلمتُ للمشرط القارسِ

قفاي المدمي بلا حارس

- بغير اختياري ، طبيبي أراد! -

لقد قصّ .. مدَّ المجسَّ الطويل ..

لقد جره الآن . أواه .. عادْ

ولا شيء غير انتظار ثقيل

ألا فاخرقوا ، يا لصوص ، الجدارْ

فهيهات ، هيهات ، مالي فرار !

لندن 5/ 2/ 1963

***

سلوى

ظلامُ الليل أوتارُ

يدندن صوتك الوسنان فيها وهي ترجف ،

يرجع همسها السَعفُ

وترتعش النجوم على صداه : يرن قيثاره

بأعماق السماء . ظلام هذا الليل أوتار!

***

وكم عبر الخليج إليَّ والأنهار والترعا ،

يدغدغ بيض أشرعة يهيم وراءها القمر

وينشج بينها المطر ؛

وأوغل في شعاب البرق ، يرجف كلما لمعا

ليحمل من قرارة قلبك الآلام والفَزَعا

***

أشمُّ عبيرك الليليّ في نبارتك الكسْلى

يناديني ويدعوني

إلى نهدين يرتعشان تحت يدي وقد حلاّ

عُرى الأزرار من ذاك القميص ، ويملأ الليلا

مشاعلَ في زوارق ، في عرائشَ ، في بساتين

***

شذى الليمون يصرع كلّ ظلٍّ في دواليها

أراك على السرير وأنت بين الليل والفجر :

يكاد النجم في الشباك والمصباحُ في الخِدْرِ

يمسُّها النعاس ، وأنت زنبقةٌ حواشيها

ينبِّهها هُتاف الدِّيكِ يعبر ضفّةَ النهرِ

ويهمس بي صدى : « سلوى

تغنِّي » . كلُّ سلوى في خيالي تكشف الأضواء عنها وهي تبتسمْ :

صديقةُ كلِّ فحْلٍ من سدومٍ ، في يدٍ قَلَمُ

يسطِّرُ في الجريدة أنها تهوى ولا تهوى ،

هي امرأتانِ في امرأةٍ .. ويسرب في دمي ضَرَمُ

***

وجارتنا الصبيّةُ في حرير النوم تنسربُ ،

يشف الثوبُ عن نهدين طوْدِّيين كم رجفا

من الأحلام تحت يدٍ تُعصِّر بردُها لَهَبُ .

لها من فورة العذراء عطرٌ يرتخى ، يثبُ ،

يمازج نفخَ ما نفْحَ الحشيشُ يسيلُ مرتجفا .

***

وألمحُ في سماء الصيف عَبرَ تماوجِ الشجَرِ

سماوةَ لندن المنهلَّ فيها الثلج كالمطَر ،

ونافذةً تعلَّقَ في الظلام زجاجُها الألِقُ ،

ومدفأةً وراء الليل تحترق ،

وأسمع من يحدِّث عن هوى سلوى ويرقبُ طلعةَ السَّحرِ :

***

« وأشعلتِ الظهيرةُ نارها في الشارع الممتدِّ بين حدائق

النارنج والعِنَبِ

وأصدْت في رحاب المنزل الخالي

خُطى سلوى ، وأُرخِيتْ الستائر يا لشلاّلِ

من الألوان والخَدَر البَرود .

ومسَّها لَهبي

فأرْعشَ كلَّ عرْق في صِباها ، كلَّ ما عَصَبِ

***

ويزرع ألفَ غابٍ للنخيل غناؤك المكسالْ

ترقرقتِ الجداولُ بينهنَّ وأزهرَ اللَّيمونْ ..

وأنسامُ الربيع تمرُّ تنثّرُ زَهَرَهُ في مائها السلْسال

كما حَمَل الوجوه إليَّ ماءُ غنائكِ المكسال

ويحملني النُّعاس إلى جزائر في مديً محزونْ !

البصرة 9/ 9/ 1963

***

متي نلتقي ؟

ألا يأكلُ الرعبُ منا الضلوعْ

إذا ما نظرنا إلى ظلّ تينه ،

فلاحتْ لنا ، من ظلام ، قلوع

تهدهدهُا غمْغماتٌ حزينة ؟

ألا يأكل الرعبُ منا الضلوع ؟

ألا تتحجَّرُ منا العيونْ

إذا لاح في الليل ظل البيوتْ

هزيلاً كما ينسجُ العنكبوت

ألا تتحجَّر منا العيون

ويلمع فيها بريقُ الجنون ؟

وبالمس كنّا يُذيبُ العناقْ

دمًا في دمٍ ،

كنوز ونارٍ ، سنًا واحتراقْ

يجولان في منزلٍ كان مُظْلمِ

ولكن ما بيْننا كان بَحْرُ

تغنِّيك أمواجهُ العاتيه :

« سنرعاكِ من قلعةٍ شدَّ منها حديد وصخْرُ

فما الحبَ هدْمٌ لجدرانك العاليه » .

ولكن ما بيْننا كانَ بَحْرُ

وصحراء تنشجُ فيها النجومْ

ولا نلتقي في دجىً أو صباح ،

تموت على رملها عاصفاتُ الرياحُ

وتأكل عيْنَ الدليل التخوم

وصحراءُ تنشج فيها النجومْ

وطارتْ بي الريحُ عبْرَ البحار

إلى الليل والثلج والمجهلِ ،

فصرنا إلى واقع لا نحار

بألغازه فاسألي :

ـ وطارت بي الريحُ غبر البحارْ ـ

« أما من لقاء لنا في الزمان ؟ »

بلى .. حينمًا تفهمين اللقاءْ

فيأوى إلى اللوحة المُغرقان

يشدانها ، يرفعان الدعاء :

« ألا نجِّنا يا إله السماء »

ألا يأكل الرعب من الضلوع

إذا ما نظرنا إلى طلٌ تينه

فلاحت لنا ، من ظلام ، قلوع

تهدهداها غمغمات حزينه ؟

ألا يأكل الرعبُ منا الضلوع ؟

لندن 10/ 3/ 1963

***

أظل من بشر

يا رب لو وجدت على عبدك بالرقادْ

لعله ينسى

من عمره الأمسا

لعله يحلمَ أنه يسير دونما عصا ولا عماد

ويذرع الدروب في السحرْ

حتى تلوحَ غابةُ النخيلْ

تنوء بالثمرُ

بالخوخ ؛ والرمان ، والأعناب فيها يعصر الأصيل

رحيقة المشمش أو تألقْ القمر

يدخلها فيختفي تحت ذوائب الشجر

ويقطف الجنى .

علق في رمْانةٍ عصاه وانثنى

يأكل أو يجمِّع الزهرْ :

حتى إذا ما انطلقا

وراح يطوي الطُّرقا

أحسّ أو ذكِرْ

بأنه بلا عصًا سار وما شَعرْ !

يا رب لو جدت على عبدك بالرقاد

لأنه يُذكرُهُ السَّهَر

بأنه أقلُّ من بَشر !

لندن 25/ 2/ 1963

***

القن والمجرّة [240]

ولولا زوجتي ومزاجُها الفوارُ لم تنهدَّ أعصابي

ولم ترتدَّ مثل الخيط رجلي دونما قوّه ،

ولم يرتجَّ ظهري فهو يسحبني إلى هُوّه ،

ولا فارقتُ أحبابي ،

ولا خلَّفتُ أوذْسيوس يضرب في دجى الغابِ

وتقذفه البحار إلى سواها دونما مرسى .

هناك تركتُه وطويتُ عنه كتابيَ المهجور ،

سأكمل سفرتي معه ، ستحملني إلى جيكور

سفينتُه ، ولن أنسى

بأنَّ وراء رغو البحر قلبًا هَّده القَلَقُ

وعينًا كلما زرع الغروبُ حدائقَ الدَّيجور

بأنجمها الصبايا شدَّ من حملاقها الشَّفَقُ

---

(240) أصرت زوجة الشاعر على رجوع الشاعر إلى العراق ، فساءت صحته واعتبر أنها مسئولة عن ذلك فكتب هذه القصيدة تعبيرًا عن غضبه منها وكان موضع القصيدة في ديوان « شناشيل ابنة الحلبي » ولكنه طلب عدم نشرها ووضع مكانها قصيدة « ليلة الوداع » المهداة إلى زوجته الوفية .

على الأفق البعيد لعل خفقًا من شراع أو سنا مصباع

على اللُّجَجِ الضواري لاحْ .

فآه لوْ كبنلوبَ الحزينةِ زوجتي تترقبُ الأنسامْ

لعلَّ جناح طيّاره

كمحرث من الفولاذ شقّق بينها الأثلامْ

ليزرع ، ثَمَّ ، أزهاره .

***

ألا تبًّا لحبَّ هذه الآلامُ من عُقباهْ !

كأنَّ شفاهنا ، حين التقتْ ، رسمت من القُبَل

سريرًا نمتُ فيه أنثُّ منه الآه بعد الآهْ ،

وعكازًا عليه مشيْتُ ثم هويْتُ في ثقَلِ .

كأنَّ حجارة السور الذي ما بيننا قاما .

لها من هذه القبلات طينٌ شدَّها شدّا .

أدهرًا كان أم سبعًا من النكبات أعواما ؟

ولكنْ ما عليها من جُناحٍ ؛ كنتُ معتدّا

بذهني أو شبابي :

سوف أصهرها ، أغيِّرها كطين في يد الفنّانْ

وقد غيّرتُ . لكنّ الذي غيّرت ماذا كانْ ؟

فؤادًا ضيِّقًا كاللحْد .. كيف أوسِّع اللحدَا ؟

ونفسًا حدُّها بين السرير وبين قائمة الحساب كأنها قنٌ من الأقنان

مداه يمد بين البيْت والحقلِ

حبالاً قيدت قدميه وهو يردَد الألحانْ

ولم يكُ يفهم الكلمات (ليس لقطرة الطلِّ

مكان إذ يجوع البطن يا لتلهف الظمآن !!

أترويه المجرة وهي بحر ـ هكذا زعموا ـ على الشطآن

منه تناثرت كسَرُ الكواكب فهي كالرمل

هنالك ، والمحار ؟ أكل هذا يشبع الجوعان ؟)

***

ولكني أحنُّ .. فهل أعود غدًا إلى أهلي ؟

نعم سأعود ،

أرجع لا إليها بل إلى غيلان ؟ لندن 2/ 3/ 1963

عكاز في الجحيم

وبقيت أدور

حول الطاحونة من ألمي

ثورًا معصوبًا ، كالصخرة ، هيهات تثور

والناس تسير إلى القممِ

لكني أعجز عن سير - ويلاه - على قدمي

وسريري سجني ، تابوتي ، منفاي إلى الألمِ

وإلى العدمِ !!

وأقول سيأتيني يوم من بعد شهور

أو بعد سنين من السقمِ

أو بعد دهورْ !!

فأسير ... أسير على قدمي

عكاز في يدي اليمنى

عكاز ... ؟ بل عكازانِ

تحت الإبطين يعينان

جسمًا من أوجاع .. يفنى

طَلالاً يغشاه مسيل دمِ

وأسير .. أسير على قَدمي !! ..

لو كان الدرب إلى القبرِ

الظلمة والدود الفرّاس بألف فمِ

يمتد أمامي في أقصى أركان الدنيا .. في نحرِ

أو واد اظلم أو جبل عالٍ

لسعيت إليه على رأسي أو هدبي أو ظهري

وشققت إلى سقر دربي ودحورت الأبواب السودا

وصرخت بوجه موكّلها

لم تترك بابك مسدودًا ؟؟ ..

ولتدعُ شياطين النار

تقتص من الجسد الهاري

تقتص من الجرح العاري

ولتأت صقورك تفترس العينين وتنتهشُ القلبا

فهنا لاَ يشمتُ بي جاري

أو تهتف عاهرة مرّت من نصف الليل على داري :

« بيت المشلول هنا ، أمسى لا يملك أكلاً أو شربا

وسيرمون غدًا بنيته وزوجته دربا

وفتاه الطفل إذا لم يدفع مترًا كم إيجارِ »

انثرني ، ويكَ ، أباديدا

وافتح بابك لا تتركه أمام شقائي مسدودًا

ولتطعم جسميَ للنارِ !!

***

لوي مكنيس(241)

أتى نعُيه اليوم ، جاب الديارْ

وجاب المحيطات حتى أتاني ،

فلم تجر بالأدمع المقلتان

فقد غلغلتْ من دمي في القرار .

وأبي مات لم أبكِ حزنًا عليه

وإن جنّ قلبي

من الهمَ وانهد شوقًا إليه) .

نعته إلينا مجلّه ،

نعاه مقالٌ حزينْ

نعته لنا آدميًا مؤله

سمواته الشِّعر يصرخ بالغافلين ؛

وأحسستُ بالشوق (كالمدمنينْ

إلى جرعة من طلٍّ ظامئين)

(241) لويس ماكنيس [1907–1963] شاعر إنجليزي من مؤيدي الثورة على الأوضاع الاجتماعية أمثال سبندر وأودن . ظهر ذلك في مجموعاته الشعرية ، ثم كتب شعرًا عن عدم جدوى الحياة الحديثة وتفاهتها . ترجم عن الأدب الإغريقي «أجاممنون» 1936 ، وعن الألمانية «فاوست» 1951 .

إلى شعره ..

لأحرق قربانَ وجدٍ وحبِّ ،

فؤادي في جمره

ولكنّ ديوانه

دفينًا غدا بين أكداس كُتبِ

تلصّ العناكبُ ألوانه

ويقرأه الصمتُ للآخرين .

ومن لي بإخراج كنز دفينْ

تهاوى عليه الحجار ؟

كسيحٌ أنا اليوم كالميتين

أُنادي فتعوى ذئاب الصدى في القفار :

« كسيحْ

كسيحٌ وما من مسيحْ » [242]

***

---

(242) من قصيدة لـ«توفيق صايغ » .

وتقرع ـ للصدى في خيالي ـ :

نواقيس من شعره في الضبابْ

أمن بعد عشرين مثل الحرابْ

يمزّقن جنبيّ . مثل النِّضالِ

أرجي ادّكارًا لأبياتهِ ؟

وهل يتذكر طفلٌ ملامح أمواته

وقد بعثرتها صروف الليالي ؟

« وبين المحبين ، زوجين عادا ،

يُدحرجُ شايُ الصباحْ

صحارى يضيع الصدى في دجاها الفساحْ ،

وعند المساء تقوم الجريده

جدارًا يدقانه بالأكفّ الوحيده

فتضحك ، إذ يضربان ، الرياح ! » (243)

وما بين زوجي وبيني خواءْ ،

فليت الصحارى وليت الجدارْ

توحَّد ما بين زوجي وبيني ببرد الشتاءْ

(243) الأصل لـ«لويس ماكنيس» .

وصمت الحجار !

ويا ليتني مت . إن السعيدْ

من اطّرحَ العبْ عن ظهرِهِ

وسار إلى قبره

ليولد في موته من جديد !

البصرة 9/ 1/ 1964

***

حميد

« حميد » أخي في البلاء الكبير

ـ فقد كان مثلي كسيحا

يدب بكرسيه مستريحا

تساءلت عنه فقالوا « يسير

على قدميه فقد عاد روحا

لقد مات »

يا ويلنا للمصير !!

ينام ورجلاه مطويتان

شهودًا على الداء في قبره

إذا ما رأى الله رأي العيان

وقد سار زحفًا على صدره

فأي انسحاقٍ وأي انكسار

يشعان من عينه الضارعه !!

سيبكي له الله من رحمة واعتذار .

***

وفي الساعة السابعه

إذا ذرت الريح ورد الغروب .

سأجلس في الشرفة الخاليه

ومن تحتَ الدرب يخفقُ نأى ، يذوب :

ألوف من الأرجل الماشيه

إلى أي مبغى وراء الدروبْ

وخمارة في الدجى نائيه !!

إلى اللغو والقهقهات الكذوب

وألمح فيها وراء الظلال

حميدًا وكرسيه في الخيال

فتخنقني اللوعة الباكيه

فاواه لو توقدين الشموع

لدى مسجد القرية المترب

تمد من النور خيطًا تعلق فيه الدموع ،

ولو تضرعين ، مع المغرب ،

إلى الله : « يا رب رفقًا بطفلي الصغير

وابق أباه

وجنّبه ، يا رب ، هذا المصير ! »

ولكنني متُّ .. واحسرتاه !

***

المعول الحجري

رنين المعول الحجري في المرتجّ من نبضي

يدمر في خيالي صورة الأرضِ

ويهدم برج بابل[244] ، يقلع الأبواب ، يخلع كلّض آجره

ويحرق من جنائنها المعلقة الذي فيها

فلا ماءٌ ولا ظلٌ ولا زهره

وينبذني طريدًا عند كهف ليس تحمي بابه صخره

ولا تدمي سواد الليل نار فيه يحييني وأحييها .

فهيا يا كواسر يا أسود ويا نمور ومزقي الإنسان

إذا أخذته رجفة ما يبث الليل من رعب

فضجي بالثير وزلزلي قبره

دماغي وارث الأجيال ، عابر لجة الأكوان

سيأكل منه دار شلّ من قدمي وشديدًا على قلبي

(244) بابل : مدينة ذات حضارة مزدهرة قديمة في وادي الفرات الأوسط أطلق عليها العرب «أرض بابل» . قيل أنّ «آدم» أقام بها بعد نزوله من الجنة إلى الأرض . وقيل أنّ «نوح» سكنها بعد انحسار الطوفان . وقيل أنّ «إبراهيم» ـ عليه السلام ـ هاجر إليها في صباه . حاول أهلها من نسل «نوح» بناء برج يصل إلى السماء ، فعاقبهم الله ببلبلة ألسنتهم ، وتعسَّر تفاهمهم مع أنهم كانوا يتكلمون لغة واحدة . ويرى البعض أنّ هذا أصل تعدد اللغات في العالم .

كلامٌ ذاك أصدق من نبؤة أيِّ عرّافِ

تريه مسالك الشهُبْ

حمى الأسرار ، تطلعه على المتربص الخافي

إذا نطق الطبيبُ فأسكتور العرّاف والفوّالْ

رنين المعول الحجر يزحف نحو أطرافي

سأعجز بعد عن كتابة بيت شعر في خيالي جالْ

فدونك يا خيال مدىً وآفاقٌ وألف سماءْ

وفجَّر من نجومك ، من ملايين الشموس من الأضواءْ

وأشعلْ في دمي زلزالْ

لأكتب قبل موتي أو جنوني أو ضمور يدي من الإعياءْ

خوالج كل نفسي ، ذكرياتي ، كل أحلامي

وأوهامي

وأسفح نفسي الثكلى على الورَقِ

سيقرأها شقي بعد أعوام وأعوام

ليعلم أن أشقى منه عاش بهذه الدنيا

وآلى رغم وحش الداء والآلام والأرقِ

ورغم الفقر أن يحيا

ويا مرضى ، قناع الموت أنت ، وهل ترى لو أسفر الموتُ

أخاف ؟ ألا دع التكشيرة الصفراء والثقبين ،

حيث امتصت العينين

جحافل من جيوش الدود يجثم حولها الصمتُ ،

تلوح لناظري . ودع الدماء تسحُ من أنفي من الثقبين

فأين أبي وامي .. أين جدي . أين آبائي

لقد كتبوا أساميهم على الماءِ

ولست براغب حتى بخط اسمي على الماء

وداعًا يا صحابي ، يا أحبائي

إذا ما شئتمو أن تذكروني فاذكروني ذات قمراءِ

وإلا فهو محض اسم تبدد بين أسماءِ

وداعًا يا أحبائي ..

في غابة الظلام

عينيَ تُحرقان غابة الظلامْ

بجمرتيهما اللتين منهما سقرْ ،

ويفتح السّهرْ

مغالق الغيوب لي .. فلا أنام .

وأسبر الأرض إلى قرارها السحيق

ألمّ في قبورها العظام

فطالعتني ـ كالسراج في لظى الحريق ـ

تكشيرة رهيبةٌ رهيبة

تُليحها جمجمتي الكئيبه

سخرية الإله بالأنام

***

عينايَ من سريري الوحيدْ

تحدِّقان في المدى البعيد ؛

الليل وحشٌ تطعنانه ، مع النجومْ ،

بخنجريهما وخنجر السَّحَر ،

الليل خنزير الردى ، العنيد

يشقُّ خنجراهما إهابَه الغشوم

لألمح العراق مرّغ القمرْ

على ترابه البليل ضوءه لحزينْ .

***

ومُقلتا غيلانَ تومضان بالحنينْ ،

يرقب من فراشه ذوائب الشجرْ ،

أمضّه السهاد ، عذّبتْه زحمة الفِكَرْ

(أين من الطفولة السهاد والفكرْ ؟)

عيناه في الظلام تسربان كالسفين .

بأيّ حقل تحلمان ؟ أيما نَهَرْ ؟

بعودة الب الكسيح من قرارة الضريحْ ؟

(أميِّتٌ فيهتفَ المسيحْ

من بعد أن يزحزح الحَجَرْ :

« هلم يا عازر » ؟)

عيناه لظىّ وريحْ

تُحرق في أضالعي مضارب الغَجَرْ !

***

أليس يكفي أيُّها الآلهْ

أنَّ الغِناء غايةُ الحياه

فتصبغَ الحياةَ بالقِتامْ ؟

تحيلني ، بلا ردىً ، حُطام :

سفينة كسيرةً تطفو على المياه ؟

هات الردى ، أريد أن أنام

بين قبور أهليَ المبعثره

وراء ليل المقبره

رصاصة الرحمة يا إله !

الكويت 9/ 7/ 1964

***

رسالة

رسـالةٌ منـكِ كـاد القلـبُ يلثمهـا ... لـولا الضـلوع التـي تثنيـه أن يثبـا

رسـالةٌ لم يهـبَّ الـورد مشـتعلاً ... فيهـا ؛ ولم يعبـق النـارنج ملتهبـا

لكنهـا تحمـل الطيِّـب الـذي سـكرت ... روحـي بـه ليـل بتنـا نرقـب الشّـهبا

في غابـةٍ منـد خـان التَّبـغ أزرعهـا ... وغابـةٍ مـن عبـير منـك قـد سربـا

جاءت رسالتكِ الخضراء كالسَّعَفِ

بلَّ الحيا منه والأنسام والمَطَرْ

جاءت لمرتجفِ

على السرير ، وراء الليل يُحتَضَرُ

لولا هواك وبُقيا فيه من أسفِ

أنْ لم يروِّ هواه منك فهو على الطِّين ينتظرُ

سفينةُ يتشهّى ظلَّها النَّهَرُ

فيها الشفاء هو دربان والقَدَرُ

فيها المغني

لكان ممّا عراه الداء ينتحرُ !

جاءتْ تحدّثني عنّي

عن شهقة الصيف في جيكور يُحتضَرُ

عن صوت أغربة تبكي ، وأصداء

تذرْ ذر الظلمةَ الصفراءَ في السَّعَفِ

وعن بنات لآوى خلف منعطفِ

تعوى فتهتفَ أُم ! « أين أبنائي ؟؟! »

وتنفض الدرب عيناها وتهتف !

« يا محمود .. علوان ! »

لا ردّ ولا خَبَرْ !

***

ويا حديثك عن « آلاء »[245] يلذعُها

بعدي فتسأل عن باب « أما طابا » [246]

أكاد أسمعها

رغم الخليج المدّوي تحت رغوتهِ

اكاد ألثم خدّيها وأجمعُها

في ساعدي ..

كأني أقرع الباب

فتفتحين ..

وتُخفي ظلّنا السُّتُرُ !!

الكويت 3/ 8/ 1964

***

---

(245) «آلاء» هي ابنة الشاعر .

(246) « أما طاب » أي : «أما أبلّ من مرضه» وقد أوردها الشاعر كما تلفظها طفلته وهي كلمة عامية .

ليلة انتظار

يدُ القمر النديّةُ بالشذى مرّتْ على جُرحي ،

يدُ القمر النديةُ مثلَ أعشاب الربيع لها إلى الصّبحِ

خفوقٌ فوق وجهي ، كفُّ طفلتيَ الصغيرة ، كفُّ آلاء !

وهمسٌ حول جُرحي : كفُّ طفلتي الكبيرة ، كَفُّ غيدَاءِ

تُدغدغني ونحنُ على السرير معًا ، على السَّطحِ

هناك !! وآه من ذاك المدى النائي ،

لأقربُ منه مجمرةُ الثريّا وهي تلتَهبُ

بعيدٌ بُعْدَ يوم فيه أمشي دون عكازٍ على قدمي

يئست من الشفاء ، يئست منه وهّدَّني التعبُ

وحلّ الليلُ ما أطويه من سَهَر إلى سهرٍ ومن ظلمٍ إلى ظلم

ولكنّ اليد النديانةَ الكسلى ترش سنابلَ القمح

على درب من الهمسات في حُلُم

بلا نومٍ يرَّفّ على جفوني ثم يحشوهنّ بالملحِ

***

غدًا تأتين يا إقبال ، يا بعثي من العدمِ

ويا موتي ولا موت

ويا مرسى سفينتيَ التي عادتْ ولا لوحٌ على لوحِ

ويا قلبي الذي إن متُّ أتركه على الدنيا ليبكيني

ويجأرُ بالرثاء على ضريحي وهو لا دمعٌ ولا صوتُ

أحبّيني ! إذا أدرجتُ في كفني .. أحبّيني

ستبقى - حين يبلى كلّ وجهي ، كل أضلاعي

وتأكل قلبيَ الديدان ، تشربه إلى القاعِ

قصائدُ .. كنت أكتبها لأجلك في دواويني

أحبيها تحبيني !!

الكويت - المستشفى الأميري 5/ 8/ 1964

***

نفس وقبر

نفسي من الآمال خاويةٌ   جرداء لا ماءٌ ولا عُشُب

ما أرتجيه هو المحال وما   لا أرتجيه هو الذي يجبُ

قدرٌ رمى فأصاب صادحة   في الجوّ خرّت وهي تنتحبُ

من ذا يُعيدُ إلى قوادمها   أفق الصباح تضيئه السُّحبُ

صُلِبَ المسيحُ فأيُّ معجزة   تاتي ؟ وأيُّ دعاء ملهوفِ

ستزيح أبوابُ السماء له   أغلاقها ؟! حبْلٌ من الليفِ

هيهات يُرقى للسماء به   ليهزّ عرش الله تخريفي

« مولاي مشلولٌ ! » فتحدجني   عَينُ الملاك : « وأي ملهوف

لا يشتكي لله محنته؟   ارجع لبيتك دون إبطاء »

فبأي آمالِ أعيش إذن   وادبُّ حَيًّا بين أحياء

لولا مخافة أن يعاقبني   عدْلُ السماء لعنتُ آبائي

ولعنتُ ما نسلوا وما ولدوا   من بائسين ومن أذلاّء

الدودة العمياءُ يلسعها   برد يقلّصها ويطْويها

أواه لو ترضى تبادلني   عيْشي بعيش كاد يُفنيها

ولو استجاب الله صرخة ذي   بلوى لصحتُ : « وخيرُ ما فيها

موتٌ يجيء كأنه سِنةَ   ويمس آلامي فينهيها »

كم ليلة قمراء يطفئها   ليل النجوم ودورةُ الشَّهر

محسومةٌ ، ويلاه ، من عُمري   وهْي التي ضاعت على عمري

وثلاثةٌ خضراء ، أربعةٌ   نثرت أزهارها وما أدري

يا ليتها بغدٍ تعوِّضني   فتمرُّ باكية على قبري

الكويت ـ المستشفى الأميري 10/ 11/ 1964

إقبال الليل

وما وجْدُ ثكالى مثلَ وجدي إذا الدجى تهــاويْنَ كالأمطار بالهّم والسهْدِ

أحــن إلى دارٍ بعيــدٍ مزارُهــا وزُغْب جياع يصرخون على بُعْدِ

وأَشفقُ من صبح سيأتي ، وارتجي مجيئًا له يجلو من اليأس والوجدِ

الليل طار وما تهون حين يُقبلُ بالقصيرِ

الليل طال : نُباح آلاف الكلاب من الغَيومِ

ينهل ترفعه الرياح ، يرنّث في اللَّيْل الضريرِ

وهتافُ حرّاسٍ سهارى يجلسون على الغيومِ

الليل والعُشَّاق ينتظرون فيه على سنا النجم الأخيرِ

يا ليل ضخّمكَ العراقْ

بعبير تُرْبتهِ وهدأة مائه بين النخيل

إني أُحسُّك في الكُويْت وأنت تُثقل بالأغاني والهديلِ

أغصانك الكسلى و « يا ليل » طويل

ناحت مطوقةٌ بباب الطلاق في قلبي نذكّر بالفراقْ

في أيَّ نجْمٍ مطفأ الأنوار يخفق في المجرّه

ألقت بي الأقدار كالحجر الثقيل

فوق السرير كأنه التابوت لولا أنَّهُ ودمٌ

يراقْ

في غرفةٍ كالقبر في أحشاء مستشفى حوامل

بالأسرَّة .

يا ليل أين هو العراقْ ؟

أين الأحبّةُ ؟ أين أطفالي ؟ وزوجي والرفاق ؟

يا أم غيلان الحبيبة صوِّبي في الليل نظره

نحو الخليج . تصوَّرني أقطع الظلماء وحدي

لولاك ما رمتُ الحياة ولا حننتُ إلى الديار

حبَّبتِ لي سُدَف الحياة . مسحتها بسنا النهار

لم توصدين الباب دوني ؟ بالجوّاب القفارْ

وصل المدينة حين أطبقت الدجى ومضى النّهار

والبابُ أُغلق فهو يسعى في الظلام بدون قصدِ

وخــوّض في الظلــماء ســمعي تشــدّه بجيكــور آهــات تحــدَّرْنَ في المــدِّ
بكــاء وفلاحــون جــوعى صــغارهم تصــبِّرهم عــذراءُ تحنّــو عــلى مهــدِ
يغّنــي أســاها خــافقُ الــنجْم بالأســى وتــوري هواهــا نســمة الليــل بــالورِد

أين الهوى ممّا ألاقي والأسى مما ألاقي ؟

يا ليتني طفل يجوع ، يئنّ في ليل العراقِ !

أنا ميّت ما زال يحتضر الحياه

ويخاف من غده المهدّد بالمجاعة والفراق

إقبال مدّى لي يدْيك من الدجى ومن الفَلاه ،

جسِّى جراحي وامسحيها بالمحبّة والحنانْ

بكِ ما أفكر لا بنفسي : مات حبُّك في ضحاه

وطوى الزمان بساط عرسك والصبى في العنفوان (247)

***

(247) يُقال أن هذه القصيدة هي آخر ما كتب الشاعر .

ليلي

قَــرَبْ بعينيــك منّــي دونَ اغضــاءِ
وخـــلّي أتمـــلّى طيـــفَ أهـــوائي

أبصرـتَها ؟ كـادت الـدنيا تفجّـر فيّ
عينيــك دنيــا شــموس ذات الاء

أبصرـتَ لـيلى فلبنـان الشـموخ عـلى
عينيـك يضـحك أزهـارًا لأضـواءَ

إني ســالثمها في بؤبؤيــك كمــن
يقبِّــل القمَــر الفضيّــ في المــاءَ

لـيلى ! هـواي الـذي راح الزمـان بـه
وكــاد يفلــت مــن كفــى بالــداء

حنانهــا كحنــان الأم دثّــرني
فأذهـب الـداءَ عـن قلبـي وأعضـائي

أختـي التـي عرضـها عـرضي وعفتهـا
تــاجٌ أتيــه بــه بــين الأخــلاء

عرفُتهــا فعرفــتُ الله عــن كَثــبٍ
كــأن في مقلتيهــا درب إسرائــي

ليلى هواي مناي شعري

روحي الأعزّ عليّ من روحي وآمالي وعُمري

حملت ضفيرتُها هواي كأنها أمواجُ نهرِ

حملته نحو مدى السماءْ

نحو المجرة والنجوم ونحو جيكور الجميلة

فأنا فتى أتصيّد الأحلام يا لك من فراشات خضيلة

أتصيَّد الأشعارَ فيها والقوافي والغناءْ

أو تذكرينا لقاءنا في غرفة للداء فيها

ظل كظلِّ الليل يخنق ساكنيها

لكننا بالشعر حوَّلناه زرعًا من ضياءْ

بالحب أزهر واللقاءْ

ما كان أحلى حبنا العربي حبي كثير وجنون قيسِ

التبغ صحرائي أهيم على رفارفها الحزينة

وهناك نبني خيمتين من التأسي

« لـيلى منـاد دعـا لـيلى فخـفَّ لـه — نشـوان في جَنبـات القلـب عربيـد

كسـا النـداء اسـمها سـحرًا وحببـه — حتـى كـأن اسـمها البشـري أو العيـد

هـل المنـادون أهلوهـا وإخواتهـا — أم المنـادون عشـاق معاميـد

إن يشرـكوني في لـيلي فـلا رجعـت — جبـال نجـد لهـم صـوتًا ولا البيـد »

ليلى تعالي نقطع الصحراء في قمراء حُلْوة

متماسكين يدًا إلى يد من نحب

وترن في الأبعاد غنوة

للرمل همس تحت أرجلنا بها ، للرمل قلبٌ

يهتز منها أو ينام وللنخيل يا أنين .

وتهر عن بعدٍ كلابٌ يا لغِيم من نباحْ

هيهات يعشقه سوى غبش الصباح

فأنا وأنتِ نسير حتى تتعبين

« ماء أريد أليس في الصحراء غير صدى وطين ؟ »

وتكركر الصحراء عن ماء وراء فمِ الصخورِ

فأظل بالكفين أسقيك المياه فترتوين

أسقي صداك فترتوين

أو تذكرين لقاءنا في كل فجر

وفراقنا في كل أمسية إذا ما ذاب قرصُ

الشمس في البحر العتى

تأتين لي وعبير زنبقة يشق لك الطريق فأي عطر !

وتودعين فتهبط الظلماء في قلبي ويطفئ نوره القمر الوضي

فكأن روحي ودعتني واستقلت عبر بحر

وأظل طول الليل أحلم بالزنابق والعبير

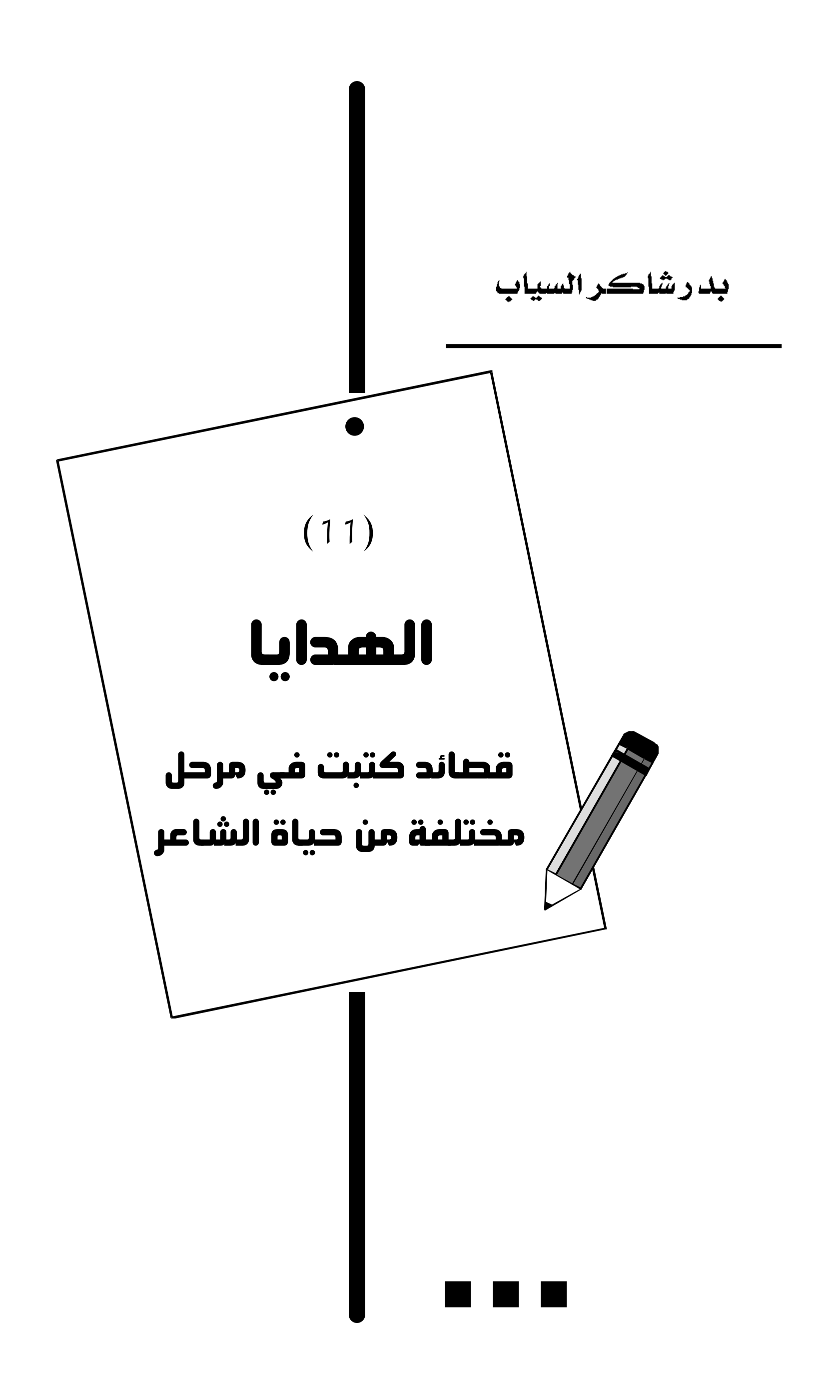
وحفيف ثوبك ، والهدير

يعول فيغرق ألف زنبقة وثوب من حرير

(الكويت)

***

بدر شاكر السياب



(١١)

الهدايا

قصائد كتبت في مرحل
مختلفة من حياة الشاعر

وحي النيروز

القصيدة الأولى[248]

طيفٌ تحدّى به البارود والنار ... ما حاك طاغٍ وما استبناه جبّار

ذكرى من الثورة الحمراء وشّحها ... بالنور والقانئ المسفوك ، آذار

مرّت على القمة البيضاء صاهرة ... عنها الجليد ، فملء السفح أنهار

في كل نهر ترى ظلاًّ تحف به ... أشباح (كاوا) ويزهو حوله الفار [249]

يا شعب (كاوا) سل الحداد كيف هوى ... صرح على الساعد المفتول ينهار؟

وكيف أهوت على الطاغي يد نفضت ... عنها الغبار وكيف انقضّ ثوار؟

والجاعل (الكير) يوم الهول مشعلة ... تنصب منه على الآفاق أنوار

***

قف عند (شيرين) واهتف ربما نطقت ... وحدّثتك بما تشتاق أحجار [250]

وربما ارتجت الأصداء ، وانفجرت ... قيثارة في يد الراعي ومزمار

والفارس الثائر المغوار هل بقيت ... من خيله الصافنات البلق آثار

***

تكاد تسمع في الآفاق صيحته ... كأنها في سماء الحق إعصار

مرّت على الظلم فاهتزّت دعائمه ... وجلجلت فهي للباغين إنذار

وساء مستعمرًا أن يستفيق على ... أصدائها ، جائع في الحقل منهار

وأن يهب إلى الأغلال يحطمها ... شعب ، وتنشق عن عينيه أستار

***

---

(248) نشرت في طبعة «العودة» باسم «نفس وقبر» .

(249) كاوا الحداد بطل الشعب الكردي في عيد النيروز التحريري .

(250) شيرين : جبل في أربيل . (الجريدة) .

كم أيتم البغي من طفل ، وسار على بيت هوى ، جحفل للبغي جرارِ
واستؤسر الجائع العريان واغتصبت عذراؤه واستبيح الحقل والدار
وشردت في صحاري الثلج أفئدةٌ من فوقها أعظم تدمى وأطمار
وكشّر السجن عن بابيه ، وارتفعت حمر المشانق يغذوهن جزّار

***

شيرين ، يا جبل الأحرار ، ما غفلت عن حقها الضائع المسلوب أحرار
كاوا كيعرب .. مظلوم يمد يدًا إلى أخيه ، فما أن يهدر الثار
والمستغلان في سهل وفي جبل يدميهما بالسياط الحمر غدّار
سالت دماؤهما في السوط فامتزجت فلن يفرقها بالدس أشرار
وأغمد الظلم في الصدرين مخلبه فجمعت بالدم الجرحين أظفار
ووحّد الجوع عزم الجائعين على أن يوقدوها .. وألا تخمد النار
وكدّس العري أجساد العراة على درب إلى النور قد أفضى بمن ساروا
وقرّب القيد من شعبين شدّهما ووجهت من خطى الشعبين أفكار
يا فرحة العيد ما في العيد من مرح حتى تحرر من محتلها الدار

***

قاتل أخته

القصيدة الثانية

لـــيلى .. كفـــاك! إلى يـــدي نظـــرًا ماذا تـــرين ســـوى الـــدم القـــاني

هـــذه دمـــاؤك فوقهـــا صرخـــت مـــا كـــان ذنبـــي أيهـــا الجـــاني؟!

عـــودي فقـــد شـــحب الـــدجى ومشـــى نعـــش الكواكـــب فـــوق أجفـــاني!

شـــدي عظامـــك والبســـي كفنًـــا قـــد كـــان أجـــدر بي وبـــالزاني

***

الـــدود جـــاع وضـــج مـــن ألم والقـــبر أوصـــد بابـــه الضـــجر

عـــودي إليـــه واشـــبعيه دمًـــا حتـــى يـــرنح جســـمك النخـــر!

حتـــى يكـــون عـــداد مـــا نهشـــت منـــك السرـــوب وعبـــت الزمـــر

وخـــز يســـيل لـــه الضـــمير ومـــا يجـــري ورائـــي حـــين أنتحـــر

***

أختـــاه أنطقهـــا ومـــلء فمـــي آه يقطـــع حرهـــا كلمـــي ..

أختـــاه ، صـــوتك مـــا يفـــارقني يـــدعو إلى ظلـــم الـــتراب دمـــي!

حيـــث التفـــت رأيـــت ثـــم يـــدًا صـــفراء تجـــذبني إلى العـــدم

إني أكـــاد أحســـها لمســـت بـــالثلج خـــدي ، والنجيـــع فمـــي!

***

أغـــواك بالومضـــات مـــن ذهـــب طـــام ، فـــأغرق حســـك الـــذهب

وتنبـــه الحرمـــان فيـــك ، عـــلى قصرـــ يحـــوم حولـــه لقـــب

لمـــا رأيـــت أخـــاكِ بيـــع دمـــا بـــالفلس مـــن رئتيـــه يغتصـــبُ

هـــان العفـــاف عليـــك وانحطمـــت قـــيم تعهـــد صـــوغها الكـــذب !

***

إن الـــــتراب غــــدًا ســـــيجمعنا　　في حجـــره المتجمـــد النـــائي !!

فـــــاطوي عتابـــــك إن موعــــده　　يمشيـــ عـــلى رمـــم وأشـــلاء!

بـــين العظـــام هنـــاك في جـــدث　　راج .. يهـــز أســـاك أصـــغائي

شــــدي عـــليَّ بقبضـــة ســـحقت　　أوصـــالها شـــهوات عـــذراء!

***

آثـــار كفـــك بالـــدم انطبعـــت　　في كـــل ناحيـــة ، عـــلى كفنـــي

أبـــلى ، وتلبـــث غـــير باليـــة　　حتـــى تجـــف منـــابع الـــزمن

حتـــى أعـــود ثـــرى تنقلـــه　　بـــين القفـــار عاصـــف الـــدجن

حتـــى تـــذوب عـــلى مـــدارجها　　بـــيض النجـــوم صريعـــة الحـــزن

***

ربـــاه .. نهلـــك وهـــو متكـــئ　　بـــين الكـــؤوس يـــداعب الأمـــلا؟

يجنـــي .. فيقتلهـــا .. ويقتلنـــي　　ظلـــمًا – ويجهـــل أنـــه قـــتلا؟

هيهـــات يجهـــل ، لســـت أحســـبُه　　لكـــن طرفـــك عنـــه قـــد غفـــلا !

أيـــن العدالـــة ، كيـــف تصرـــخ بي　　«جـــان» وتشـــبع كفـــه قـــبلاً!؟

***

أمضيـــ وألـــف دم ســـيتبعني　　مـــا دام أثمـــن شيء الـــذهب

العاطفـــات غـــدت تبـــاع بـــه　　والغيـــد ، والحيـــوات ، والرتـــب

والعقـــل صـــانع كـــل معجـــزة　　والســـاعد المفتـــول والعصـــب

والفـــن مـــن وتـــر وقافيـــة　　ودمـــي تصـــاغ وربـــة تثـــب!

***

إني لأضـــحك ســـاخرًا حنقًـــا　　آنـــا – وأحطـــم أضـــلعي آنـــا !

مـــاذا أرى؟؟ أدمـــي مســـخرة　　للـــمال يحشـــدهن قطعانـــا؟

خـــتم الغبـــاء عـــلى نواظرهـــا　　فتبلـــدت حـــدقًا أجفانـــا !!

تبكـــي وتضـــحك وهـــي ســـائرة　　تحـــت الســـياط ، دمًـــا وإذعانـــا

***

إني أكـــاد .. أكـــاد أســـمعها   تعلـــو عـــلى مهـــل أغانيهـــا
كالـــدود زاحفـــة مقاطعهـــا   كـــالقبر .. بـــاردة قوافيهـــا
كـــالخنجر المســـموم مرتعشًـــا   في كـــف منتحـــر – معانيهـــا
كالطفـــل يرضـــع ثـــدي زانيـــة   شـــهوى وعاشـــقها يواليهـــا !!

***

أودعـــت يـــا أبتـــاه في عنقـــي   أنثـــى ، وقلـــت : ســـأرقد الآنـــا!
أورثتنـــي .. قـــبلاً مجنحـــة   والـــذل يوثقهـــا .. وحرمانـــا
أودعتنـــي جســـدًا تكبلـــه   اســـماله ، فيثـــور طغيانـــا !
أنثـــى تريـــد هـــوى تعانقـــه   عطـــرًا وأرديـــة وعقيانـــا

***

أنثـــى يـــؤجج في جوانحهـــا   طيـــف الـــلآلي والحـــلي ، نهبـــا
يتلقَّـــف المـــرآة مـــن يـــدها   حلـــم يكلـــل جيـــدها ذهبـــا
فـــترى وراء دموعهـــا ، أفقًـــا   جاشـــت بـــه قبلاتهـــا شـــهبا
حســـنًا ترفـــل بـــالحرير عـــلى   عـــرش مـــن المهجـــات قـــد نصـــبا

***

حلـــم يمـــد يـــدًا إلى يـــدها   ســـكرى .. ويجـــذبها فتنجـــذب
جـــذلان يهمـــس : يـــا فتـــاة غـــد   آتٍ .. أعنـــة حيلـــه ذهـــب
طـــارت إليـــك بـــه – عـــلى عجـــل –   في الجـــو مركبـــة لهـــا صـــخب
ســـاعاته غـــزل يقطـــره   ثغـــران مرتقـــب ومرتقـــب

***

لا تحســـبيني مـــا هممـــت بـــه   طعنًـــا تســـدِّده يـــد الحنـــق
طعنًـــا يعـــد عـــلى جوانحـــه   حمـــر الليـــالي تضـــاء بالشـــبق
في كـــل ومضـــة خنجـــر تـــرة   مـــن ومضـــة ذهبيّـــة الألـــق
أعمـــت نـــواظر غـــادة .. فكبـــا   جســـمه بهـــا .. وهـــوى إلى نفـــق !

***

يــا حنجــرًا رســم الجنــون عــلى مرآتـــــه رممًـــــا وأشـــــباحا

رقصــت عــلى لجــج النجيــع يــدًا ســــوداء تمـــلأ منـــه أقـــداحا

وتحـــــيط بي مقــــلاً مؤججــــة بالحقـــــد ، أحملهـــــن مصــــباحا

كيــف انحطمــت عــلى يــدي .. فــلا جـــرح أمـــات ولا دم ســـاحا ؟!

***

أقبلـــت وهـــو عـــلى أرائكـــه ســـكران بالضـــحكات والخمـــر ..

حتـــى إذا رفـــع انتقـــام أبي يمنـــاي فاتحـــة فـــم القـــبر

صـــاح الشـــقي : أأنـــت تقتلنـــي ؟! يـــا ليـــت أختـــك في الثـــرى تـــدري

العـــار تاجـــك .. ســـله أي يـــدٍ قـــد كلّلتـــه بقـــانئ الـــدر ؟!!

***

الهدية[251]

يقـــــول المحبـــــون : إنّ الهـــــدابا
طعــــام الهـــوى .. ذاك مـــا أســـمعُ

وإني لأهـــــواك ، حتـــــى لأقســـــو
بحبّـــي ، وتـــدمي بـــه الأضـــلع

وأهـــواك حتـــى اللقـــاء اشـــتياق
وحتـــى يضـــيق المـــدى الأوســـع

***

فـــماذا ســـأهديك يـــوم اللقـــاء ؟
ومـــاذا ســـأهديك يـــوم النـــوى؟

أيرضـــيك مـــا يشـــتريه انحـــداري
إلى حيـــث يـــأبى عـــليَّ الهـــوى؟

فـــما المـــال إلا دمـــاء تبـــاع
كعـــرض البغايـــا .. لـــدرء الطـــوى

***

سأصـحو مـع الفجـر قبـل الطيـور
ولمســـــةُ كفيـــــك في خـــــاطري

ألمُّ النـــدى مـــن حقـــول الربيـــع
وأشـــــدو مـــــع القـــــبر الطـــــائر

وأجمـــع مـــن زهرهـــا باقـــة
لعينيـــك .. يـــا زهـــرة الشـــاعر

***

وهيهـــات ، هيهـــات إن الريـــاح
يـــــذرين أزهـــــاري الذابلــــــه

ويبقـــين في مقلتيـــك انكســـارًا
كمـــن يتبـــع الأنجـــم الآفلـــه

ســــأهديك أغنيــــة كنســــيم
المدينـــــة يســـــتقبل القافلـــــه

***

ومـــاذا أَغنِّيـــك ، والحشرـــجات
وعصـــف اللظـــى كـــل مـــا أســـمع

كـــأنّ البرايـــا دم في عروقـــي
تصـــدى لـــه الخنجـــر المشرـــع

فيـــا قبضـــة مـــن رمـــاد الحريـــق
عـــلى ســـلّم دكّـــه المـــدفع ..

***

ســـأهديك مـــن ســـاعدي الحيـــاه
ومـــن قلبـــي الضـــحكة الصـــافيهْ

ســـأهديك مـــا في عبـــوس الســـحاب
مـــن النـــور للدوحـــة العاريـــهْ

ســـأهديك أن لا تكـــوني رمـــادًا
عـــلى مـــدرج الزعـــزع العاتيـــه

***

[251] جريدة « الجهاد » البغدادية العدد 106، 31 آب 1952.

سـأهيد دنيا يـرين السـلام عليهـا «كحشـد» مـن الأنجـم
تنـامين فيهـا وتسـتيقظين بـلا ريبـة في الغـد المـبهم
ولا خـوف مـن أن يعـزّ الرغيـف وأن تسـتباحي .. وأن تهرمـي!

***

يوم ارتوى الثأر [252]

بشراك هذا سحاب الذلة انقشعا   وانفكَّ عن ساعديك القيد وانقطعا
إزلزلَ الشر ما خلَّفت زاوية   يندس فيها ولا أبقيت منتجعا
يا أمة ما انهوى عن صدرها صنم   إلا وأوصى لدانٍ منه فافترعا
من كل جازي يد بالزاد تطعمه   غلا، ومن آكل الشدي الذي رضعا
هاك اسمعي الصوْر والموتى إذا انبعثوا   فاليومَ كلٌّ سيُجزي بالذي صنعا
الله أكبر، ما أمهلت طاغيةً   إلا لكي يحصد النار التي زرعا
جيل من الأعين الغضبى وقافلة   من غيظ جيلين في ميعادك اجتمعا
وانحط منها على الباغي وزمرته   ظل تخطى إليه السور والقلعا
كالسيل من حِمم والنار من ظُلمٍ   والموت لو كان يحوي ذلك الفزعا
ما رعب (قابيل) إذ يعدو فتتبعه   عينا أخيه المسجى حيثما نزعا
شق الثرى عنه من لحظيهما شبح   أزجى عليه الدم المطلول فاتسعا
يومًا بأوفى من الرعب الذي فجأت   نكباؤه الصرصر الطاغوت فامتقعا
يوم اشتفى كل قلب كان فاجعه   وزلزل القصر حتى مال وانصدعا
وامتد من حيث ولى باع محتجز   واسودّ من حوله الفولاذ والتمعا
في موقف تنفس الشحاذ ذلتها   فيه الأمير الذي من جوعها شبعا
وزمرة من لصوص كل ما جمعت   ما ردّ عنها قضاء الشعب أو دفعا
أنزلت بالثورة البيضاء عاليها   سفلاً وعاجلت منها الرأس فاقتطعا

(252) ألقيت هذه القصيدة في الذكرى الثالثة للثورة . ويرجع تاريخها إلى عام 1958 . وكان ذلك بدعوة من مدير مصلحة الموانئ العراقية في البصرة .

لم يرتــوِ الثــأر مــن جــلاد أمتــه حتــى وإن جندلتــه النــار وانصرــعا

فــاقتص مــن جيفــة الجــلاد مجتزيًــا منهــا عــداد الضــحايا مــن دم دفعــا

هــذا الــذي كــل ثكــلى فهــو مثكلهــا والمســتحل الضــحايا ليتــه ارتعــدا

والســارق النــور مــن عينــيَّ أطفــأه والجاعــل النــوم في مهــد ابننــي وجعــا

بــالأمس كنّــا ســبايا دون ســدّته فــاليوم نعطيــه مــا أعطــى ومــا منعــا

مــا قطّعتــه الجمــوع الثــائرات ولا أدمتــه إلا بــما أدمــى ومــا قطعــا

لم يكــذب الجــيش إلا ظــن شرذمــة خالتــه في كــل مــا تبغــي لــه تبعــا

والجــيش مــا كــان إلا ســور أمتــه والرافــع الجــور عنهــا كلــما وقعــا

إن تعــلُ يعــلُ وإن تمســس بنائبــة مَســتّه أدهــى وإن ناديــت بــه ســمعا

والجــيش مــا كــان إلا سرّ قائــده هــذا الــذي حــرّر الأعنــاق إذا طلعــا

عبــد الكــريم الــذي أجــرى بثورتــه مــاء ونــورًا كغــيم ممطــر لمعــا

أسرى وبغــداد تحــت الليــل غافيــة في ســجنها وســهيلٌ بعــدُ مــا طلعــا

فــما تــنفس أو كــاد الصــباح بهــا إلا وقــد حطــم الأوثــان واقتلعــا

في ثــورة عــاد منهــا الشــعب منتصرًــا والحــق مزدهــرًا والبغــي منصرــعا

حتى ازدهى كــل شــبر في العــراق ففي مينائــه اليــوم نــور الفجــر قــد ســطعا

***

ليلة القدر

يــا ليلــة تفضــل الأعــوام والحقبــا ... هيجت للقلب ذكرى فاغتدا لهبا [253]

وكيــف لا يغتــدي نــارًا تطــيح بــه ... قلــبٌ يــرى هــرم الإســلام منقلبــا

يــــرى شــــعائر ديــــن الله هاربــــة ... يســـفها النـــوء تمضي ـ حيـثما ذهبــا

أيــن العنــان الــذي تلويــه عاصــفة ... مــا فــاتحين يــرون المــوت مطّلبــا

للرغـو حـول شـدوق الخيـل وسوسة ... والنقــع يــذري لثامًــا قَنَــع الســحبا

مــن كــل محتســبٍ بــالله متّكــلٍ ... عليـه يفـري ضـلوع البغـي إن ضربـا

كــأنّ أســيافهم في كــل معمعــةٍ ... جسرٌ ـ إلى جنـة الفـردوس قـد نصـبا

يــا ليلــة القــدر ، يــا ظــلاً نلــوذ بــه ... إن مسَّــنا جــاحم الرمضــاء ملتهبــا

ذكـراك في كـل عـام صيحة عـبرت ... مـن عـالم الغيـب تـدعو الفتيـة العربا

أقــوْمُ أحمــدَ مضرــوبٌ عــلى يــدهم ... بالــذل مــن هــول ذاك الفــتح[254] وا

تفرَّقــوا شــيعًا في كــلّ حــاضرة ... قــوم يقيمــون مــن أغلالهــم نصــبا

لــولا بقايــا مــن الثــوّار صــامدةً ... في ظل وهـران تسقي خصـمها العطبا

المــوت ولَى فــرارًا مــن جحافلهــا ... والرعــب ممــا تصــك الظــالم ارتعبــا

لكــنَّ وا ضــيعة الإســلام في بلــد ... بــالأمس أعــلى منــار الحــق ثــم خبــا

يــا ليلــة القــدر أعْــلى قــدر أمتنــا ... شــهم تعــالى عــلى الشــطّين وانتصــبا

عبـد الكـريم الـذي جـاد الكـريم بـه ... أقــال مــن عثــرة شــعبًا بــما وهبــا

مــا كــان يرغــب عــن أنــوار ثورتــه ... إلا الخفــافيش . ســاءت تلــك منقلبــا

هــوَوا إلى قــاع بئــرٍ لا قــرار لهــا ... مستمســكين بحبــل مــن دم خضــبا

حبــلٌ تشــدُّ يــد الشــيطان أوّلــه ... ويجــذب الفوضــويّ الخــائنُ الــذنَبا

كــم جيــد عــذراء دق الحبــل أتلعَــه ... وكــم ذراعٍ لطفــل قــصّ واجتــذبا

***

(253) ألقيت هذه القصيدة في احتفال في مكتبة بـ«الزبير» . ويحتمل أن يكون ذلك عام 1961 .

(254) كلمة «الفتح» هي من إضافة «مؤيد العبد الواحد» محقق القصيدة حتى يستقيم الوزن .

يـا لـيلى القـدر يـا نـورًا أضـاء لنـا ... قـاع السـماء فأبصرـنا مـدى عجبـا

تنـــزّل الـــروح رفّافًـــا بأجنحـــة ... بـيض عـلى الكـون أرخـاهنّ أو سـحبا

عطـــف الأمومـــة في عينيـــه متقـــد ... وإن يكـــن للتقـــاة المحســـنين أبـــا

وللملائـــــك تســـــبيح وزغـــــردة ... تكـــاد رنّاتهـــا أن تـــذهل الشـــهبا

ومـــن دمـــاء الضـــحايا في جوانبـــه ... نـــار تمـــد اللســـان المغلـــق الـــذرِبا

يشـــكو إلى الله مـــن ذرى عقاربـــه ... فأنبتـــت زهـــرًا مـــن ســـمّها أشِـــبا

ومــن هَــوَت تقطـع الأضـلاع مديتـه ... وسـاق ظلـمًا عـلى الجـلاَّد مـن هربـا

ذكـرى تعـود كـأن الغـدر يبعثهـا ... مـن كهـف أمـس الـذي ولّى بـها كسـبا

أمـس الـذي إن غفلنـا عـاد جاحمـه ... فـــاقتصّ ممـــن يحـــبّ الله والعربـــا

لا صـلح بـين الهـدى والبغـي ، لا سِـنةٌ ... تعمـي النـواظر عمـن سـامنا العطبـا

***

مولد المختار

دمـوع اليتـامى في دجـى الليـل تقطـرُ ... ونوح الثكالى عاصفٌ فيه يصفرُ [255]

وأغفـى عـلى الآهـات طفـل ميـتمٌ ... تقطـــرُ فيـــه الحقـــدَ أمٌ وتبـــذرُ

إذا جـنّ ليـل في الصـحاري ولألأت ... نجـومٌ وقـد يخضـل ليـلٌ ويقمـرُ

ففي كـل قلـبٍ مـن دجى الليـل سـدفةٌ ... وفي كـل عقـلٍ ظلمـة لـيس تسـفرُ

وقامت من الأنصـاب في البيت عصبةٌ ... كـدوحٍ مـن الصَّـوان بالشر يثمـرُ

وأجـرى عـلى النهـرين أقيـال فـارس ... دمًـا يعربيًـا واسـتباحوا ودمـروا

وفي الشـام يطغـى في حمـى الـروم تـابعٌ ... ويعـدو عـلى الأحـرار كسرى وقيصر

***

وأشرقتَ فاهتزتْ نـواويس في الـدجى ... وأوشـك مـوتى أن يهبّـوا وينشروا

نبـيّ الهـدى يـا نفحـة الله للـورى ... ويـا خـير مـا جـاد الزمـان المقـتر

إذا مـا افتخرنـا كنـت للفخـر أولاً ... وإن جاءنـا نصر فـذكراك تنصر

ولولاك مـا انـدكت عـروش ولا هـوى ... صـليبٌ عـلى كفيـه كنّـا نسـمّر

وكم سار في شرق من الغـرب جحفـلٌ ... بقرآنـك الهـادي وفي الغـرب عسـكروا

ويـا مولـد المختـار مـيلاد أمّـة ... وميعـاد بعـث أنـت فيهـا مُقـدّر

***

(255) ألقيت هذه القصيدة بمناسبة المولد النبوي ، وهي مسجلة على شريط بصوت السياب ، ومحفوظة في مكتبة جامع العلامة السيد عبد الحكيم الموسوي في المعقل .

ألا قبسةٌ مما تنفستَ في الدجى فنحيا وينهدّ الظلام المسوّر
ألا تفجر البركان في مقفراتنا فيستبسل الأحرار أيان يُفجر
تلبّد وجه الليل يخفيه غيمة من الوحل والقار المدمّى تزمجر
ومالت على الأفق الضرير منائر وخرت قبابٌ وانهوى ثم منبر
كأن لم يضئ بالنور ميلاد أحمد ولم تنطفئ للفرس نارٌ ومسعر
ولم يدحر الجيش الصليبيّ صامد ولا راعت الغازين « الله أكبر »

***

رمت رأسها أفعى من الفرس تغتدي بأشلاء ما أبقاه قيسٌ ومنذر
شعوبية رقطاء بالدين تارة وبالعدل أخرى تحتمي وهي منكر
ومال الدين إلا العرب إن ذل منهم عزيز تهاوى وهو دام معفّر
هي الراية الحمراء من عهد قرمط وهيهات يحظى بالذي شاء أحمر
إذا خبؤوها فهي للشرّ مكمن وإن نشروها فهي للعار مظهر
ولاحت من الكيد اليهودي غيمة على أفقنا المنكوب بالويل تنذر
تبدي لظاها فهو نور ورحمة وسحرٌ لمن بالمال يشري ويؤجر
تذكرت والميلاد حال بنوره شعاعًا من المعراج ذكراه مطهر
سما من مطاوي نومه يقصد السما نبيّ تلّقاه البُراق المطهر
أتى صخرة بيضاء يندى بياضها كما لاح في الظلماء نجم منوّر
فيا صخرة المعراج قد سدّ بالدجى وبالإثم منّا فيك شق ومعبر
فما عاد بين الله والناس منفذ كأن حل بالأرض العذاب المسعر

***

وعـــاث ببيـــت الله قـــدم مشرـــد كـــأن فلســـطين المـــدماة خيـــبر
كـــأن لم يَسرـ طـــه إليهـــا ولا دحـــا أبــو حســن مــن بابهــا فهــي تصــفر
ومــا زال في وهــران والأرض حولهــا علــوج أبــاحوا واســتباحوا ودمــروا
إذا جـــن ليـــل ســـاءلت كـــلّ أيـــم كواكبـــه عـــن بعلهـــا أيـــن يقـــبر
جهـــاد عـــلى اســـم الله يلظـــى أواره فيكـــوي جبـــين الظلـــم ممـــا يســـعر
نبـــي الهـــدى عـــذرًا إذا الشـــعر خـــانني ولكنـــه قلبـــي بـــما فيـــه يقطـــر
نبـــي الهـــدى كـــن لي لـــدى الله شـــافعًا فـــإني ككـــل النـــاس عـــان محـــير
تمرســـت بالآثـــام حتـــى تهـــدمت ضـــلوعي وحتـــى جنتـــي لـــيس تثمـــر
ولكـــن مـــن ينجـــده طـــه فقـــد نجـــا ومـــن يهـــده – والله – هيهـــات يخسرـ

***

ثورة 14 رمضان(256)

أألــف لســان جــاء عنــدك يشــكر — لإيفـاء مـا أسـديتَ؟ هيهـات يقـدر
بعثــتَ حيــاة مــن رداهــا ونفّضــت — أياديـك عنهـا كـل مـا كـان يـوقر
جــزاك الإلــه الخــير عــن أم صــبية — أعـدت لهـا البعـل الـذي كـاد يقـبر
فصــار اليتــامى مــن جــداك ذوي أب — فــداك الأب الفاديـــه درّ وجـــوهر
أسـير فيكسـو شـارق الشـمس جبهتي — فيعلـو دعـائي : ظللـت بـالله تنصرـ
ألست الـذي أحيا- وقـد ثـار – شعبه — فصــاح ابتهاجًــا منــه « الله أكــبر »
وقــام الكســيح المبــتلى مــن فراشــه — يســير عــلى ســاق يعــدو ويطفــر
تقحمــت أو كــان المنيــات والســنا — يــئن وآلاف الشــياطين تصــفر
فــما هــي إلا ضربــة الثــأر وانجــلى — ظــلام مــن البلــوى وبغــداد تنظــر
فمــن يــر بغــداد التــي أنــت نورهــا — يقـل عـاد هـارون وقـد مـات جعفـر
ثــأرت لشــواف وأمطــرت نــاظمًا — بـما قـد روى القـبر الـذي كـاد يطمـر
وســد مــن التهــريج أعــلاه قاســم — ومـا كـان كاسـمه فهـو يشـطر (257)
يحــنّ إلى النيــل الفــرات ودونــه — صحاري وقـد قـالوا لنـا تلـك كـوثر
ألوف الضحايا سهامًا الخسف والأذى — غلــوم ورقــاع وبخــش وقنــبر
ولــولاه مــا عــاد الشــيوعي حــاكمًا — كـما شـاء أو كـان الشـيوعي ينحـر
فكنــت الجــواب المرتجــى مــن دعائــه — وكنـت لنـا النـور الـذي فيـه نبصرـ
فيا جيش – لا نلت الأذى – دونك الذي — هبطنــا إلى الأعــماق إذ كــان يهــذر
يمــنّ بــمال الشــعب أعطــاه عــاجزًا — ومـن ظلمـة الـداء الـذي فيـه ينخـر
لقـد جـاع حتـى حطـم الجـوع جسـمه — وطـورد حتـى مـا عـلى المشيـ يقـدر
لــك الحمــد إذ أرويــت بالثــأر أرضــنا — فسرـنا عـلى الـدرب الـذي كـاد يطمـر

لندن/ سانت ماري 10/ 2/ 1963

***

(256) كتب السياب هذه القصيدة إثر قيام ثورة 14 رمضان وهو في مستشفى سانت ماري بلندن ، ثم كتب بعد أيام قصيدة من الشعر الحر عنوانها (قصيدة إلى العراق الثائر) نشرت في آخر مجموعة (منزل الأقنان) . وجعل تاريخها 8 فبراير 1963 .

(257) الوزن غير مستقيم في هذا الشطر .

حب وشاعر

سـألتني ذات يـوم عـابره ... عـن غرامـي وفتـاتي السـاحره
لم تكـن تعلـم أني شـاعر ... ملهـم أهـوى فتـون الطـاهره
وحبيـب لسـت أهـوى عاتبًـا ... إنـما أهـوى العيـون الآسره
وقوامًـا أهيفـا جلّفنـي ... سـاهمًا خلـف روحـي سـادره
ووفـاء لم أكـن أنكـره ... أتـرى ينكـر غصـن طـائره

سـألتني والربـى مزدانـة ... في شروق ، والأمـاني زاهـره
ليتهـا تـدرك أني هـا هنـا ... شـاعر لابـد لي مـن شـاعره
قلـت يـا أختـاه لا لا تسـألي ... أنـا ذاك الصـبَ أهـوى «نـادره»

البصرة 17/ 10/ 1963

***

خطاب والهة

أنـــــت تـــــدري أن في قلبـــــي جرحـــــي
ألـــــــف آهٍ تتنـــــــزّى دون بـــــــوحِ
أنـــت تـــدري صـــار مثـــل الليـــل صـــبحي
أنـــــت تـــــدري أيهـــا الجـــاني – فـــنحِّ
ودّع الآلام واقبـــــل بعـــــض نصـــــحي
يـــا عــــذابي خلَّنـــي وحـــدي أضـــحّي

دعْ أغـــــانيّ اللـــــواتي صـــــغتهن
في أســـار مـــبهم بـــين الدجنـــه
دع أمـــــانيَّ ، فـــــإني عفـــــتهن
يـــــا عـــــذابي دع رؤى عـــــاودتهن
ودع الآه فلـــــن تجـــــديك أنَّـــــه
ثـــم دعنـــي ، فأنـــا أشـــتات محنـــه

البصرة 1/ 11/ 1963

***


بدر شاكر السياب
(12)
قصائد لم تنشر
في دواوين الشاعر

عاده الشوق[258]

عادَه الشوقُ وفاضت عبراتُهْ   فشكا البعدَ وهل تجدي شكاتُهْ؟

قلبُ صبٍّ خطَّت الذكرى به   لك رمزًا ، رددته خفقاته

كلما حاولَ صبرًا لم يطقْ   أيطيقُ الصبر من غابت هناته؟

راعه أن مر بالحقل .. ضحى   فرأى البلبل ترى حسراته

أَسِرَتْ بالقلب آهات النوى   وقديمًا أسرته ذكرياته

فإذا بالقلب لا يكتمها ..   فتداعت من صداها جنباته

***

بفؤادي صاحبٌ رقَّتْ سماته   تبعث النوحَ إلينا زفراته

حركت نجوه في القلب لظىً   إن سقاه الدمع زادت شعلاته

واحبيباه بنفسي ما ترى   من عذاب شملتْنَا نكباته

صَبِّر النفس عسى أن نلتقي   فإذا خالد تحلو بسماته

وإذا بغدادُ لحنٌ للهوى   تملأ القلبَ نشيدًا «فتياته»

البصرة : 26 مارس 1942

***

(258) انظر : ماجد السامرائي - من رسائل السيّاب ص8 .

الخريف(259)

قـــاد الخريـــفُ مواكـــبَ الأيـــامِ فالـــدوحُ نـــايٌ في يـــد الأنســـامِ
تشـــدو بـــه ألحانهـــا فتهتـــزه بحـــديثِ خمـــرٍ عذبـــةٍ وغـــرام
أضفى على الورقاتِ صفرةَ عاشقٍ حُصِـــدَتْ منـــاه بمنجـــل الآلام
حتـــى إذا هتـــفَ النســيم بلحنـــه حَنَّـــتْ لإلـــفٍ في ربـــى الأوهـــام
فتخـــف أجنحـــةُ النســيم لحملهـــا صـــعدا فتهجـــر غصـــنها المتســـامي
فـــإذا تبـــدَّدَ وهمهـــا وتـــدافعتْ أشـــجانها في مهـــبط الأحـــلام
ســـقطتْ فكـــلَّ وريقـــةٍ قيثـــارةٌ مقطوعـــةُ الأوتـــار والأنغـــام
عـــبرت أغانيهـــا الغنـــاءَ وأصـــبحتْ تـــوحي إلى الفنـــانَ بالإلهـــام
ولعلهـــا رأتِ المـــروجَ أمامهـــا عريانـــةً مـــن ثـــوبِ عشـــب نـــام
قـد أغمضـتْ كـفُّ الغنـاءِ زهورَهـا وبكـــى الرعـــاةُ لوحـــدةِ الآكـــام
لا طـــيرَ يؤنسُـــها بهائـــجِ لحنـــه ويـــدفُّ عـــبر فضـــائها المترامـــي
فهـــوت تنبِّهُهـــا .. ولكـــن لا يعـــي الأمـــواتُ لحـــنَ الحـــبِّ والتهيـــام
قـــد أصـــبحتْ كفنًـــا لآخِـــرِ زهـــرةٍ وُلِـــدَتْ عـــلى فـــمِ صـــيفها البســـام
تلـــك الشـــواطئُ أيـــن هـــمْ روَّادُهـــا كيـــف انثنـــوا عنهـــا بقلـــبٍ دام؟
فلقـــدْ أَلِـــمُّ بهـــا وحيـــدًا شـــاردًا لأعيـــدَ ذكـــرى ســـالِف الأيـــام
مضـــنى أســـائلها أيرجـــعُ مـــا مضى ويجـــودُ مـــن أهـــواه بالإلمـــام؟
أَرِدُ البحـــيرةَ أقتفـــي بضـــفافها آثـــار حـــبٍّ يرتجيهـــا الظـــامي
رقَـــدتْ عـــلى أمواجهـــا أحلامُنَـــا وتعانقـــــت في أَلفـــــةٍ ووئـــــام
وغـــدا يُرجِّـــعُ ماؤهـــا أنغامَنَـــا للصـــخرِ حينًـــا والغـــدير الطـــامي
لفراشـــةِ الـــوادي تـــودِّعُ نـــورَه الـــذاوي فتبعـــثُ حـــيرَة الأنســـام
وعـــلى جـــذوع الـــدوحِ مـــن أيامنـــا أثـــرٌ يخلِّـــدُها مـــع الأعـــوام

***

(259) انظر : ماجد السامرائي ـ من رسائل السياب ص12.

قـــد مـــر مـــثلي بـــالبحيرةِ طـــائرٌ فَقَـــدِ الأليـــفَ وعـــاد بـــالآلام

حـــيرانَ تـــدعوه الغصـــون فينثنـــي عنهـــا ويضرـــب ســـادرًا بهيـــام

مـــا زالَ يَنشُـــدُ في الربـــوع أليفَـــه فتجيبـــه الـــذكرى مـــن الأيـــام

«ذهـب الحبيـبُ فأنـتَ وحـدك بعـده تـــأوي وجرحُـــكَ لـــيس بالملتـــام

فلعـــلَّ في الـــذكرى لقلبـــك ســـلوة ولعـــلَّ في الـــذكرى ارتـــواء الظـــامي»

والمـــوجُ يهمـــس في الضـــفافِ بلوعـــةٍ «قـــد جـــفَّ نبـــعُ الطـــلِّ في الأكـــمام

فأشـــعةُ الفجـــر العـــذارى بعـــده ظمـــأى لينبـــوعِ الجـــمالِ الســـامي»

والفجـــر أَبْـــدِلَ مـــن شـــجيِّ خريـــره بعويـــلِ عاصـــفة عـــلى الآكـــام

وجـــلا مـــن الأفـــق البعيـــد مســـارحًا للسُـــحْبِ تـــذرع جـــوَّه المترامـــي

والـــروضُ أبـــدل مـــن غنـــاء طيـــوره وصـــياحِ قـــبرةٍ وشـــدوِ حمـــام

بنعيـــب غربـــانٍ تَبَعْثَـــر موحشًـــا بـــين الربـــى فطغـــى عـــلى أنغـــامي

وتجاوَبـــتْ بـــين المـــروجِ مزاهـــرٌ ألحانُهـــا دمـــعُ الرعـــاة الهـــامي

كـــلٌ يـــودِّعُ ذكريـــاتِ ربيعـــه فالـــذكرياتُ ثمالـــةٌ في الجـــام

البصرة: 23 نوفمبر 1942

***

مريضة(تحث)

حبيبةُ القلب أضحَى السقُم رائدَهَا
فمِنْ وفاءِ لها لو كنتَ عائدَها

وإنَّ فرْضًا على من كان يعذلها
أن لم تعاودْه يومًا أن يعاودها

يا من يضنُّ عليها بالزيارة هل
ضنَّتْ عليكَ بقلبٍ كان واحدها ؟

إن كنتَ قد همتَ حقًا فَهْيَ عاشقةٌ
فهل تُعكِّرُ يا هذا مواردها ؟

أو كنتَ قد حدتَ عنها فهي باقية
على هواكَ فهل تنسى محامدها ؟

لا . لم أَحِدْ عن هواها فالفؤاد لها
والروح طوع يديها لن تعاندها

وهل أصدُّ وقلبي لا يطاوعني
وكيفَ كفري بمن قد كنت عابدها ؟

جفوتُ خوفَ رقيبٍ باتَ يرصدنا
فإن تغافلتُ باتَ القلبُ راصدها

مريضةٌ؟ لك ربي يا (هويلُ) ولي
وللقلوب التي ضلت مقاصدها

مريضة؟ لم ينلك الداءُ واحدةً
فالروح مثلك عاد الداء وافدها

مريضة؟ ويحَ قلبي كم يكيد له
علمي بذاك وداء كنت واردها

قريبة منكِ داري والزيارةُ لا
يا للحبيبةِ صعب أن أشاهدها

إذا انقطعتُ عن الدنيا فلي صلةٌ
بمن أحبُّ فكُن يا قلبُ عائدها

البصرة : عشار 9 مارس 1942

***

(260) انظر : ماجد السامرائي - من رسائل السيّاب ص19 ، إحسان عباس - بدر شاكر السيّاب دراسة في حياته وشعره ص42.

الشتاء[261]

يــــا رُبَّ أمســــيةٍ أظَــــلَّ ســــحابُها ... الــــدنيا وعــــاد شــــتيتُه يتــــواءمُ

فَرَقَــتْ إليــه مــن الريــاح مغــازل ... وغــدت شــائعُ قطــره تتســاجم

حتــى إذا ســطعتْ ذُكــاءُ بنورهــا ... واســــتقبلتْها للجــــمالِ عــــوالم

وســمت مــع الأنســام في معراجهــا ... قطــراتُ غيــثٍ للشــعاع بواســم

عاجتْ إلى القطـرات مـن دنيـا السنا ... غيــدٌ عــذارى كالظبــاء تبــاغم

ولجتْ هنـاكَ خـدورها واستسـلمتْ ... للنــومِ وَهْــيَ بمــن تحــب حــوالم

فــإذا نوافــذ كــل خِــدْرٍ أطلعــتْ ... حلــمًا تمــد لــه الجنــاح نســائم

فتلاءمــت أحلامهــن وكونــت ... قــوسَ الســحاب ولم تــزل تــتلاءم

وكــأنما قــوسُ الســحابِ وقــد بــدا ... أوتــارُ قيثــارٍ مضــت تتنــادم

فتقاربــتْ حتــى يعــاود عزفهــا ... مــرح الأنامــل بــالملاحن عــالم

هــذا الشــتاءُ فأوســعوه تحيــةً ... فــوراءه إنَّ الربيــعَ لقــادم

البصرة: 9 مارس 1943

***

(261) ماجد السامرائي ـ من رسائل السياب ص19 .

في الغروب

وقــــف المســـــاء بضــــوئه المثغـــورِ تعبًــا عــلى الشــط الكئيــب المقفــرِ
والشـــمس في الأفــق المـزوق بالســنا كــرة مــن اللهــب الضئيل الأصــفر
عقــدت عـــلى ثـــبج الميـــاه خيالهـــا فجــرى وســـال كجــدول متحــدر
بــل مثــل درب بــات يبســم للنــدى متألقًـــا في جـــنحِ ليـــلٍ مقمـــر
المـــوج حـــفَّ بـــه فكـــان أزاهـــرا براقـــــةَ الألــــوان ذات تغــــير
درب لعــــاطرة النســـائم والشــذى ترتــــاده ولطـــــرفيَ المتحـــــير
ولأنجـــم الليـــل الحســـان تجوبـــه وتخـــفُّ فيـــه لأفقهـــا المســـتعبر

***

يــا شــمسَ عمــري والمغيــبُ تقاربــتْ لحظاتُـــه منَّـــا قفـــي وتصـــبري
هــل تــألفينَ ومــوج شــعري لم يــزل متواصــــلَ الوثبــــات لم يتكــــدر
مــن قبــل أن تضــعي عــلى صــفحاته دربًــا مـــن الأنـــوار حلـــو المظهـــر؟
تمشيــ عليــه مــن العطــور جــداولٌ ومـــن الخيـــال عـــرائس لم تبصرـــ
وتُمـــرغُ النســـمات فيـــه جبينهـــا وتجوبـــه نظـــراتُ كــــلِّ محـــيَّر
وتمــر فيـــه مـــن النجـــوم كواعـــبٌ تســـمو لآفـــاق الخيـــال المســـكر
يـــا مـــوجَ شـــعري في غـــدٍ أو بعـــده سيضيـء شــطَّكَ دربُ نــورٍ فاصــبر

***

وســـحابةٍ مَلَـــكَ النســـيمُ زمامهـــا بيضـــاء تخطـــر في وشـــاح أحمـــر
نفخـــت ملائكـــة الـــدجى بشرـــاعها وطوتــه في أفــق الغــروب الأكــدر
وكأنهـــا حســـدتْ ذُكَـــاءَ فحجَّبَـــتْ بشرـــاعها ألـــقَ الجبـــين المســـفر
لم يـــا ســـحابةُ تســـترينَ ضـــياءَها أو ما كَفَتْ حجب الغروب لتستري؟
الشـــمس ذاهبـــة فـــلا تـــتعجلي والأفْـقُ بـين يـديك فـاسري واعـبري
هـــي في الـــوداع وجئتِهَـــا فحرمتهـــا مــا في الــوداع مــن العــزاء المثمــر
وبعثـــتِ لي ذكـــرى غســـلتُ دماءهـــا ونســـيتُها فـــوددتُ لـــو لم أذكُـــر

***

قسـَـمًا بمـــن أذكرتنـــي بوداعهـــا لقـــد ابتعثـــتِ صـــبابتي وتحسرـــي

هـــي ذي «لبابــةُ» والقلــوبُ تحفهـــا مـــن كـــلِّ منكسرــ الجنـــاح مســـعر

جلستْ وما جلسَ الفـؤادُ من الجوى وتبســـــمت فبكــــى ولم يتصــــبر

وهبـــتْ تحيتهـــا لآخـــر غــــيره فبكــــى .. وقـــال لعلهـــا لم تصـــبر

وقـد اكتفـى – لـو أنصـفته – بنظـرةٍ لكنهـــا حرمتْـــه طيــــبَ المنظـــر

فتحجبــتْ بســحابةٍ مـــن صـــحبها وتســـترتْ فصرــختُ «لا تتســـتري»

لـــو كـــان يســعفني البيـــانُ لصــغُتها مرثيَّـــــةً لفــــؤادي المتفطـــــر

بغداد : 5 يناير 1946

***

الشعر والحب والطبيعة[262]

زهــــر وأنســـــام .. ولا أتـــــرنم ... أتـــرى الطبيعــة كلهـــا لا تلهـــم؟
لا النهـر جـف ولا الأزاهـر صـوحت ... فعـــلام صـــمتُك؟ أيهـــذا الملْهَـــم؟
الزهــــر أيقظـــه تواثـــبُ نســـمةٍ ... وفراشـــة تحـت الكواكـــب تحلـــم؟
والنهــرُ قيــدت النســائمُ موجَـــه ... فهبوبـــــه لهبوبهـــــا مستســــــلم
وعـــلى جوانبـــه النضـــيرة غـــادةٌ ... ترميـــه بـــالحجر النثـــير وتـــرجم
فـــإذا تراقصـــت الـــدوائرُ فوقـــه ... مثـــل المباســـم خلتـــه يتبسَّـــم
وأرى خيـــالي إن بكيـــت أفـــاده ... شـــجنًا يـــردُّ مياهـــــه تتـــألم
وإذا ابتســـمتُ بـــدا خيـــالي باسـًما ... فـــإذا الميـــاه مـــن البشاشـــة تبســـم
وإذا الـــدجى ركبـــتْ متـــونَ مياهـــه ... غشـــيت ملاعبَـــه الفســاحَ الأنجـــم
ويـــزين صـــفحتَه النهـــارُ بضـــوئه ... فـــإذا النجـــومُ زنـــابقٌ تتضـرـــم
ألا يـــوهج مـــاءه ظِـــلَّ التـــي ... أهـــوى فخـــير منـــه كـــفٌ مظلـــم
أيسرـــني – وأنـــا معـــاقرُ وحـــدةٍ – ... إن الطيـــــورَ قرائنًـــــا تـــــترنم؟
وإذا النســائم مــا عبــثنَ بشَــعر مَــنْ ... ملكـــتْ هـــوايَ فليتهـــا لا تنســـم
أنَّـــى التفـــتُّ فللتحسرـــ مبعَـــثٌ ... ومتـــى نظـــرتُ فللمـــدامع مســـجم
أيهـــز قلبـــي جـــدولٌ وبحـــيرةٌ ... وأرى عـــلى قمـــم الربـــى مـــا يلهـــم
و(لبـــابُ) لم تطـأ السـهول ولا مشـتْ ... فـــوق التلـــول حييـــةً تتبســـــم؟
أتـــرى الطبيعـــة حركـــتْ مـــن شـــاعرٍ ... فمضىـ بـــدون هـــوى دعـــاه يهـــيم؟
وتـــرى البحـــيرةَ ماءهـــا وصـــخورَها ... لـــولا تـــذكُّرُ (أو نعـــير) [263] تتـــيم؟
وألـــذَّ مـــن شـــعر الطبيعـــةِ غنـــوةٌ ... الحـــــبُّ في جنباتهـــــا يـــــتكلم

أبو الخصيب : 26 يوليو 1944

***

(262) هذه القصيدة لها تاريخ آخر وهو 15 يوليو 1944 ـ من رسائل السيّاب ص30.

(263) هي حبيبة الشاعر الفرنسي «لامارتين».

قصة خصام[264]

أسكري أنْجُم المساء الطروب   وارقصي حولهن حتى تذوبي
واتبعي ظلّضهن في الجدول الساجي ، وأشباحهن بين الدروب
واسرقي من لفائف البرعم الغافي جناحيْن رُقِّشَا باللهب
رنقا حول هدبه ثم دفّا   في رؤاه فراشةً من طيوب
واصدحي في جوانحي يا أناشيدُ ،   ورفِّي على شفاه الغيوب

***

الخصام الثقيل ألقت عليه   ظِلَّهن ضمةُ التلاقي فزالا
واختلاج الشفاه تلقي سؤالاً   غير ما تشتهي وتخفي سؤالا
والعيون التي تظلل بالهدب اشتياقًا ، ولهفةً ، وابتهالا
والسكون الذي يلملم أصداءَ التحايا ، وينسج الآمال
والفراغ الذي يريد امتلاءً   والظنون التي تخاف الملالا

***

(264) نشرت هذه القصيدة في مجلة «البيان» العراقية التي كان يصدرها «علي الخاقاني» ، في عددها 69، 70 الذي صدر بتاريخ 15 أيلول (سبتمبر 1949) ، والأرجح عندي أن هذه القصيدة من حصاد عام 1948 لا عام 1949 ، وإن كان بدر قد نشرها في عام 1949 ، وذلك لأنها تصور «قصة خصام» للشاعر مع زميلته «المنتظرة» .. لميعة عباس عمارة ، وقد انطوت صفحات القصة كلها عام 1948 ، وفي عام 1949 كان بدر بعيدًا عن لميعة حيث كان يعمل مدرسًا للغة الإنجليزية بإحدى مدارس لواء الرمادي ، وكانت لميعة لم تتخرج بعد من دار المعلمين العالية . [عن ط. دار العودة ـ بيروت] .

كوكـــبٌ لاحَ ، وانتظـــار تلاشـــي في انتظــــار .. وضـــحكةٌ ســـوداءُ
وصدى تعرفُ الظهيرةُ معناه وكـــاسٌ يـــذوب فيهـــا المســـاء
و(انتهينـــا) تهـــز في كفـــي الكـــأس..وحزن كأنـــه اســـتهزاء
انتهينـــا ؟!أهكـــذا قالـــت الســـمراء؟ هيهـــات ! تكـــذب الســـمراء
انتهينـــا ؟!أهكـــذا قالـــت الســـمراء؟ هيهـــات لـــن يكـــون انتهـــاء

***

إنـــه الليـــل و « انتهينـــا » هتـــاف في رقـــادي مفجـــع الأنغـــام
والـــرؤى الســـود مائجـــات عـــلى جفـــن يبـــوح انطباقُـــه بالمـــدام
جـــذوة في الســـماء كالشـــمس ، حمـــراء ..وظـــلّ مقنـــع بـــالظلام
وشـــفاه عـــلى المـــدى شـــاحباتٌ و« انتهينـــا » صـــدي وراء الغـــمام
وجناحـــان يمســـحان الشـــفاه الصـــفر بالظـــل تـــارة والضرـــام

***

(ســـوف ألقـــاك) همســـةٌ مـــن هوانـــا رددتهـــا مـــع الضـــحى شـــفتان
الـــرنين اللجـــوج.. والهـــاتف المصـــغى إلينـــا .. وعصـــةٌ بالأمـــاني
وانطـــلاق إلى اللقـــاء المرجَّـــى أنكـــرتْ فيـــه غيظّهـــا قـــدمان
وظـــلال الخصـــام ضـــاعت لـــديها (ســـوف ألقـــاك) وانطـــوتْ فرحتـــان
لم تـــزل توثـــق الشـــقَّينْ حتَّـــى حطمتهـــا عـــلى التلاقـــي يـــدان !

نشرت في 15 سبتمبر 1949

***

أمّ سجين في نُقرة السلمان (265)

في قلعـــة جُبلـــتْ حجارتهـــا ... بـــدمِ القلـــوب وبـــاردِ العـــرَقِ
ظلـــماء يلهـــث في مغاورهـــا ... داحـــي الهـــواء لهـــاث مختنـــق
وتعفـــن الـــزمن الحبـــيس لـــدى ... جـــدرانها طبقًـــا عـــلى طبـــق
وتظلـــت الصـــحراء فـــاغرةً ... عنهـــا فـــم المتثائـــب القلـــق
حيـــث النهـــالا هجـــيرةٌ ودجـــى ... والليـــل غاشـــيةٌ مـــن الأرق
قلـــب أعـــزٌّ مـــن الحيـــاة عـــلى ... قلبـــي .. يلـــوك بقيَّـــة الرمـــق

***

مـــا كـــاد يخطـــر أمـــس في بـــالي ... أني سأشـــهدُ مـــوتَ آمـــالي
إني أمـــد يـــدي فيمنعنـــي ... عـــن أن أضـــمكَ حـــائطٌ عـــال
أأرى النجـــوم ولســـتَ تبصرـــها ... إلا خـــلال كُـــويً وأغـــلال
تحنـــو وتســـطع .. مـــثلما خفقـــتْ ... في ركضـــها أقـــدام أطفـــال
وشـــواطئُ النهـــار ضـــاحكةٌ ... لـــك والســـنابل والضـــحى العـــالي
واطـــلَّ أحلـــم ثـــم ينبئنـــي ... كيـــف انتهيـــتَ سريـــركَ الخـــالي

***

أفلِلسّـــجونِ ولدْتُـــه ؟! أجـــرَى ... عرقـــي وزلـــزل جســـمي الألم
وضـــحكتُ والحمـــى تـــرج دمـــي ... والـــدمع في عينـــيَّ يضطـــرم
لمـــا اســـتهل وأدركتـــه يـــدي ... ورأيـــت كيـــف تَجَسَّـــدَ الحلـــم
ليمـــوتَ ـ أينـــع مـــا يكـــون ـ طـــوىً ... بـــئسَ القضـــاءُ وبئســـتِ الـــنظمُ
تلـــك العظـــام أكنـــت أطعمهـــا ... لحمـــي ، وأبنيهـــا وأنهـــزم
ليـــدكّها ثِمـــلٌ ويركلهـــا ... بحذائِـــه المتجـــبِّرُ العـــرم

***

(265) انظر : غائب طعمة فرمان ـ الحكم الأسود في العراق ـ ص61، 62 .

إني أغتصبت من الردى ثمنًا   لدم الشهيد ودمعي الجاري
حسبوه بَخْسًا وهو لو علموا   وعد البذور بقطف أثمار
إني عرفت وقبلي اطلعتْ   مقل الثكالى من كوى الثار
أنْ ليسَ من ولدٍ لوالدةٍ   حتى يجندل كلّ جزار
حتى يحرِّرَ حيثما سمعت   أمّ تدثر طفلها العاري
باسم السلامِ فداعبتْ فمها   خلل الدموع طيوفُ آذار

1952

***

العودة (266)

إذا عـــدت مـــن وحـــدتي واغـــترابي
أصـــيلانَ يـــومٍ حـــزين الســـحاب
حـــديقتُنا فيـــه تنضـــحُ موتـــا
وصمتًا
وتنثـــر أوراقهـــا في اكتئـــاب
وأنـــت تلفـــين صـــمت الحديقـــة
عـــلى غمغـــات الأســـى في كتـــابي
تطلـــين منهـــا بعينـــيْ (وفيقـــه)
عـــلى عـــالمٍ خلـــف ســـور الحديقـــة
إذا عـــدت أعجـــز عـــن طـــرق بـــاب
وعـــن صـــيحةٍ ، مـــن بعيـــد ، مشـــوقه
تـــدحرجني عجـــلاتٌ تـــدور
كدوامـــة المـــاء / شُـــدِدْتُ بكـــرسي
ألـوذ عليـه بنفسي- وبالانكسـار الهـوى والحبـور !
فـــلا تهتفـــي : (آه .. واحسرـــتاه
تحطمـــت قبـــل انقضـــاء الشـــباب)
فـــإني لأدرى بـــأن الحيـــاة
قـــد اســـتدرجتني إلى الفاجعـــة

---

(266) انظر جريدة « الأنباء الجديدة » العراقية - عدد 23 - بتاريخ 23 كانون الثاني (يناير) 1965 .

إلى هـــوة ، كـــالردى ، مـــن عـــذاب
وإني أحـــاول نســيان مـــا بي
وأتبـــع أحلامـــيَ الخادعـــه

***

«حميـــد» أخـــي في الـــبلاء الكبـــير
فقـــد كـــان مـــثلي كســـيحا
يـــدب بكرســـيه مســـتريحا -
تســـاءلت عنـــه فقـــالوا : « يســـير
عـــلى قدميـــه فقـــد عـــاد روحـــا
لقـــد مـــات « .. يـــا ويلنـــا للمصـــير
ينـــام ورجـــلاه مطويتـــان
شـــهودًا عـــلى الـــداء في قـــبره
إذا مـــا رأى الله رأى العيـــان
وقـــد ســـار زحفًـــا عـــلى صـــدره
فـــأي انســـحاق وأيُ انكســـار
يشـــعان مـــن عينـــه الضـــارعة
ســـيبكي لـــه الله مـــن رحمـــة واعتـــذار
وفي الســـاعة الســـابعه
إذا ذرت الـــريح ورد الغـــروب
ســـأجلس في الشرـــفة الخاليـــه
ومـــن تحتـــيَ الـــدرب يخفـــق ، ينـــأى ، يـــذوب :
ألـــوف مـــن الأرجـــل الماشـــيه
إلى أي مبغـــى وراء الـــدروب
وخمـــارةٍ في الـــدجى نائيـــة !!

إلى اللغـــــو والقهقهـــــات الكـــــذوب!!
وألمـــــــح فـــــــيما وراء الظـــــــلال
حميدصـــــــا وكرســـــــيَّه في الخيـــــــال
فتخنقنـــــــي اللوعـــــــة الباكيـــــــه
فـــــأواه لـــــو توقـــــدين الشـــــموع
لـــــدى مســـــجد القريـــــة المـــــترب
تمـد مـن النـور خيطصـا تعلّـق فيـه الـدموع
ولـــــو تضرـــــعين ، مـــــع المغـــــربِ
إلى الله : « يـــا ربِّ رفقًـــا بطفـــلي الصـــغير
وأبق أباه
وجنْبـــهُ يـــا ربِّ هـــذا المصـــير! »
ولكننـــــي مـــــت .. واحسرـــــتاه !
***

هل كان حبًا

هــــل تســـمين الـــذي ألقـــى هيامـــا ؟
أم جنونـــــا بالأمـــــاني ، أم غـــــرام ؟
مـــا يكـــون الحـــب ؟! نوحـــا وابتســـاما ؟
أم خفـوق الأضـلع الحـرى ، إذا حـان التلاقـي
بـــين عينينـــا .. فأطرقـــت ، فـــرار باشـــتياقي
عـــن ســـماء لـــيس تســـقيني ، إذا مـــا
جئتهـــــا مستســـــقيا، إلا أوامـــــا؟

***

هـــــــل يكـــــــون الحـــــــب أني
بـــــــت عبـــــــدا للتمنـــــــي !؟
أم هـــو الحـــب اطـــراح الأمنيـــات
والتقـــاء الثغـــر بـــالثغر ، ونســـيان الحيـــاة ؟
واختفـــــاء العـــــين في العـــــين انتشـــاءا
كانثيـــال عـــاد يفنـــى في هـــدير
أو كظـــــــــل في غـــــــــدير
أمـــس .. بـــالأمس التقينـــا في ســـفار
هـــاج ذكـــرى كـــاد ينســـاها وينســـاني زمـــاني
كـــان يـــوم آمنـــتْ فيـــه الأمـــاني بالأمـــاني
كـــان يـــوم فـــك عـــن ســـاعاته غـــل المـــدار
ثـــم أمســـى تحـــت أقـــدام الليـــالي
مثـــــل جـــــرح في الرمـــــال
داســـــه الركـــــب وســـــارا..

***

يومـك المرمـوك .. لا يـوم تقضّى ـ قبـل عـام
فاســمعيني ، فالأمــاني كلهــا أن تســمعيني:
أذكرتنــي فرحــة اللقيــا بصــهبائي وجــامي
آن أن تحسيـــ عـــلى نخـــب العيـــون !
بــــــت أســــــقاها دهاقــــــا
أحســــــب الشرــــــب اعتناقــــــا
بيننــا هــل كــان حبــا مــا أعــاني ؟!

***

العيـون الحـور ، لـو أصـبحن ظـلا في شراب
جفــت الأقــداح في أيــدي صــحابي
دون أن يحظــــين حتــــى بالحبــــاب
هيئـي يـا كـأس مـن حافاتـك السكرى مكانـا
تتلاقــــى فيــــه يومــــا شــــفاتانا
في خفــــــوق والتهــــــاب
وابتعــاد شــاع في آفاقــه ظــل اقــتراب !
أهـــي حـــب كـــل هاتيـــك الأمـــاني ؟
أم رؤى سـكران مجنـون اللغـى طلـق المعـاني
غـارق الألحـاظ في غـور مـن الأقـداح .. نـاء
راسـم بالإصـبع الحمقـاء ، في عـرض الفضـاء
كـــل أســـماء الحبيبـــات الحســـان
كلـــما نـــادى .. أتـــاه الســـاقيان
بـــاللظى آنـــا .. وآنـــا بالأغـــاني؟

***

كـــم تمنـــى قلبـــي المكلـــوم لـــو لم تســـتجيبي
مـــــن بعيـــــد للهـــــوى أو مـــــن قريـــــب
آه لــو لم تعــرفي ، قبــل التلاقــي مــن حبيــب !
أي ثغـــــر مـــــس هاتيـــــك الشـــــفاها
ســـــاكبًا شـــــكواه آهـــــا ثـــــم آهـــــا ؟؟
غـــير أني جاهـــل معنـــى ســـؤالي عـــن هواهـــا
أهـــو شيء مـــن هواهـــا .. يـــا هواهـــا؟!
***
أحســـــــد الضـــــــوء الطروبـــــــا
موشـــــكًا ، ممـــــا يلاقـــــي ، أن يـــــذوبا
في ربـــــاط أوســـــع الشـــــعر التثامـــــا
الســـماء البكـــر مـــن ألوانـــه آنـــا وآنـــا
لا ينيـــــــل الطـــــــرف إلا أرجوانـــــــا
ليــت قلبــي لمعــة مــن ذلــك الضــوء الســجين.
أهـــو حـــب كـــل هـــذا ؟؟ خبرينـــي !

بغداد : 29 نوفمبر 1946

(وهي أول قصيدة يكتبها من الشعر الحر)

***

أقداح وأحلام

أنـــا مـــا أزال وفي يـــدي قَـــدَحي　　يـــا ليـــل ، أيـــن تفـــرّق الشَّرْـــبُ
مـــا زلـــت أشربهـــا وأشربهـــا　　حتـــى تـــرنّح أفقـــك الرّحْـــبُ
الشرـــق عُفّـــر بالضـــباب فـــما　　يبـــدو ، فـــأين ســـناك يـــا غـــرب ؟
مـــا للنجـــوم غـــرقْنَ - مـــن ســـأمٍ -　　في ضـــوئهن ، وكـــادت الشّـــهُب ؟
أنـــا مـــا أزال وفي يـــدي قـــدحي　　يـــا ليـــل ، أيـــن تفـــرق الشرـــب ؟

***

الحـــانُ بالشـــهوات مصـــطخبٌ　　حتـــى يكـــاد بهـــنَّ ينهـــارُ
وكـــأنَّ مصـــباحَيه مـــن ضَرَجٍ　　كفَّـــان مـــدّهما لي العـــارِ
كفَّـــان ؟! بـــل ثغـــران قـــد صُـــبغا　　بـــدمٍ تـــدفّق منـــه تيّـــار
كأســـان ملؤهمـــا طـــليً عُصرِـــت　　مـــن مهجتـــين رماهمـــا الحـــبُّ
أو مخلبـــان علـــيهما مِـــزَقٌ　　حمـــراء تـــزعم أنّهـــا قلـــبُ

***

الخمـــر جمعـــت الـــدهور ، ومـــا　　فـــيهن بـــين جوانـــب الألحـــان
يـــا ويحهـــا ! أســـكرتُ أم ســـكرتْ　　أم نحـــن في الســـكرات ســـيان؟
رمـــت العـــوالم والـــدهور عـــلى　　ثغـــري وفـــوق يـــدي وأجفـــاني
كفـــي تمـــد فـــما تنـــاولني　　كأسًـــا لعينـــي خمرهـــا نهـــب
وأصـــافح الـــدنيا .. فيـــا عجبـــا　　البعـــدُ لانَ .. وأعـــرض القـــرب !

***

يــا ليــلُ ، أيــن تطــوف بي قــدمي ؟ في أي مُنْعَطَــــفٍ مـــن الظُّلَـــمِ
تلـــك الطريـــقُ أكـــاد أعرفهـــا ، بـــالأمس عـــتّمَ طَيفُهـــا حُلُمـــي
هــي غِمــدُ خنجــرك الرهيــب ، وقــد جرّدْتَــه ومســـحتَ عنـــه دمـــي
تلـــك الطريـــق عـــلى جوانبهـــا تتمـــزّق الخطـــوات أو تكبـــو
تتشـــاءب الأجســـادُ جائعـــةٌ فيهـــا ، كـــما يتثـــاءب الـــذئب

***

حســـناءُ يُلهـــب عُريُهـــا ظمـــأي فأكـــاد أشرب ذلـــك العُريْـــا
وأكـــاد أحطمـــه ، فتحطمنـــي عينـــان جائعتـــان ، كالـــدنيا ؛
غرســـت يـــدُ الحمـــى عـــلى فمهـــا زَهَـــرًا بـــلا شـــجر ـ فـــلا سَـــقيا !
إنْ فتّحتـــــه بحرِّهـــــا شـــــفةٌ ظمـــأى يُعربـــد فوقهـــا نَـــدْبُ
وقـــصَ اللهيـــبُ عـــلى كمائمـــه ومشـــى الطّـــلاءُ يهـــزُّه الوَثـــبُ

***

عَـــينٌ يـــرَّنح هُـــدْبَها نَفَسي وفـــمٌ يقطـــع هَمسَـــه الـــداءُ
ويـــدُ عـــلى كتفـــي مُجلجلـــةٌ واخلجتـــاه ! أتلـــك حـــوّاءُ ؟!
لا كنـــتُ آدمهـــا ولا لفحـــتْ فـــردوسي الخمـــريّ صـــحراءُ !
صـــوت النُّعـــاس يـــرن في أُفُقـــي فتـــذوب ، ناعســـةً ، لـــه السُّـــحب
إن الفـــراش يقيـــك يـــا قـــدمي ســـوء العثـــار إذا دجـــى درب

***

أنـــا حـــائر .. متوجـــف .. قلـــق كالظـــل بـــين جوانـــب البحـــر
المـــد قربنـــي إلى شـــبحي والآن تبعـــدني يـــد الجـــزر
وأنـــا الضـــياء تخيفنـــي دجـــن وأخـــاف أن سأضـــيع في الفجـــر
يـــا نـــوم كـــلَّ عـــوالمي حجـــب ولـــو التقيتـــك ذابـــت الحجـــب
وانثـــال مـــن ســـهري عـــلى ســـهري ينبوعـــك المتثائـــب الرطـــب

***

أثملـــت بـــين جـــوانحي أمـــلا ... مـــا كنـــت أعلـــم أنـــه أمـــل
مثـــل الفراشـــة عـــاد يحبســـها ... دوح بـــذائب طلـــه خضـــل
لـــولا خفـــوق جناحهـــا غفلـــت ... بـــيض الأزاهـــر عنـــه والمقـــل
أنـــا مـــن ظلالـــك بـــين أوديـــة ... عـــذراء ، كـــل ســـهادها عشـــب
هـــام الضـــباب عـــلى جوانبهـــا ... طـــل الوشـــاح .. كنجمـــة تخبـــو

***

أنـــا كوكـــب ظمـــآن ترعشـــه ... نطـــوف مؤرجـــة مـــن الســـحر
أنـــا غـــير جســـمي – عـــالمي حلـــم ... بكـــر الظـــلال ، ولمحـــه عمـــري
قلبـــي تغـــرب عـــن أحبتـــه ... وانســـلَّ مـــن نغماتـــه وتـــري
فـــإذا لثمـــت فغـــير خادعـــة ... باتـــت لكـــل مخـــادع تصـــبو
وإذا شـــــدوت أرنَّ في أفـــــق ... عـــبر الســـماء ، غنـــائي العـــذب

***

هـــو يـــا فـــؤادي طيفهـــا مســـحتْ ... عنـــه الـــترابَ أنامـــلُ الغســـق
هـــو غـــير ذلـــك .. أمـــا تـــرى ألقـــا؟ ... هـــو مـــن دمائـــك أنـــت مـــن حرقـــي
هـــو غيرهـــا .. غـــدرت ، وبـــادلني ... حبـــي ، وضـــمد بالســـنا أفقـــي
ومـــن المهـــازل أن يـــرى أمـــدا ... بـــين الخيانـــة والهـــوى هـــدب !
أيـــن العـــوالم ؟! كيـــف غيّرهـــا ... نـــوم يـــرف وخـــاطر صـــب؟!

***

خفقـــت ذوائبُهـــا عـــلى شَـــفّتي ... وســـني ، فأســـكرَ عطرَهـــا نفَسيـــ
نهـــرٌ مـــن الأطيـــاب أرْشـــفني ... ريحًـــا تُريـــب مجـــامرَ الغَلَـــسِ
فكـــأن نايًـــا ضـــمَّخته يـــدا ... آذار ، غـــرّد ليلـــةَ العُـــرُس
فغفـــا ، ومـــا زالـــت ملاحنـــه ... مِـــلْءَ الفضـــاءِ ، يُعيـــدها الحُـــبُّ
أو أن سَوســـــنةً يُراقِصُـــــها ... رَجْـــعُ الغنـــاءَ ، بشَـــعرها تربـــو

***

يـــا قبلـــة أخـــذت عـــلى عجـــل أفـــدي بعمـــري ذلـــك العجـــلا
الشـــعر سَـــتَّرَ بـــالظلال فمـــي فهـــوى عـــلى الوجنـــات واشـــتعلا
فعــــلى جـــوانبهن منــــه ســــنا يـــدعوه مـــن جهـــل الهـــوى : خجـــلا
فضـــح احمـــرارك يـــا خـــدود فـــما مـــا زال يفضـــحني بـــما يحبـــو
هـــو طفلـــك اللاهـــي ينازعـــه أبـــدا إلى زهراتـــك اللعـــب

***

يـا جَسـمَ طيفـكِ ، أنـتِ ، يـا شَـبَحًا مـن ذكريـاتي ، يـا هـوىً خَـدَعا
لعنـــاتي الحنقـــاتُ مـــا برحـــتْ تعتـــاد خِـــدْركِ والظـــلام معـــا
خفقـــتْ بأجنحـــة الغُـــراب عـــلى عَينَيـــك تنشر حولِـــك الفَزَعـــا
الصُّـبحُ ، صُـبحك ، ضِـحك شـامتةٍ والليـــل ، ليلـــك ، مضـــجعٌ ينبـــو
وإذا هلكـــتِ غـــدًا ، فـــلا تجـــدي قَـــبرًا ، ومـــزّق صـــدرك الـــذئبُ ؟

***

والبـــومُ يمـــلأ عُشَّـــه نُتَفًـــا مـــن شَـــعرك المتعفِّـــر النَّخِـــرِ
ويعـــود ثغـــرك للـــذباب لقـــيّ ويـــداك مُثَقلتـــان بـــالحجرِ،
لا تـــدفعان أذاه عـــن شـــفةٍ بـــألمس أخـــرس لعوُهـــا وتـــري
وليُسـق مـن دمـك الخبيـث غـدًا دَوُحٌ تعشِّـــش فوقـــه الغُـــرْب
تـــأوى الصـــلال إلى جوانبـــه غرثـــى ، ويعـــوي تحتـــه الكلـــبُ !

***

ويعـــود ، مـــن خشـــباته ، نـــزق جـــان ، بمقـــبض خنجـــر دام
ويعـــد منـــه سريـــر زانيـــة تهـــوى فتثقلـــه بآثـــام
وتظـــل أعـــواد المشـــانق مـــن أعـــواده ، كُسِـــيتْ بأجســـام
حتـــى إذا عصـــف الـــذبول بـــه وهـــوى عليـــه المعـــول العضـــب
كـــان الوقـــود لقـــدر ســـاحرة بـــين المقـــابر شـــأنها القشـــب

***


بدر شاكر السياب
فهرس الكتاب

فهرس الكتاب